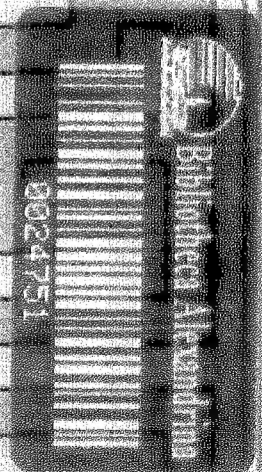
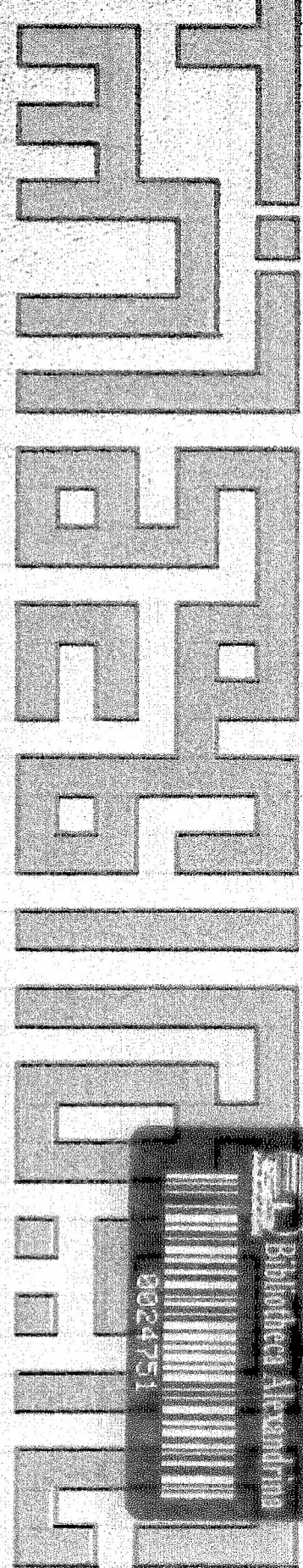




المجلد الخامس عشر
تراجم وسير

①

دار الكتاب العربي



[illegible][illegible]

المجلد الخامس عشر
تأليف السيد
١

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عبّاس محمود

العقائد

المجلد الخامس عشر

تراجم وسيرة

يحتوي على

ابن الرومي
ابو العلاء

دار الكتاب اللبناني دار الكتاب المصري
بيروت القاهرة

رقم الإيداع
١٩٩٠ / ٤٥٥٩
I.S.B.N. 977 - 238 - 098 - 6

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريسبول
ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكس: ١٩١١١٧٥١٤٣٣
ص.ب. ٨٣٣ / ١٢٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
TELEX OKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX: (9611) 351433

جميع
حقوق
الطبع
والنشر
محفوظة
للمؤلفين

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٣٣١ / ٣٩٢٣٣١ - فاكس: ١٢٠٢١٣٩٢٤٦٥٧
ص.ب. ١٥١ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقا كناسر
TELEX No: 23081 - 23381
ATT. MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202) 3924657

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

Second Edition

1991 A.D — H 1411

عَبَّاسُ مَخْنُومٍ
العَقْدُ السَّادِسُ

ابن الرومي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تمهيد

هذه ترجمة وليست بترجمة .

لأن الترجمة يَغْلِبُ أن تكون قصة حياة ، وأما هذه فأحرى بها أن تُسمى صورة حياة .
ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورة خير من أن تكون قصة . لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة
نادرة بين قصص الواقع او الخيال ، ولكننا إذا نظرنا في ديوانه وجدنا امرأة صادقة ووجدنا في
المرأة صورة ناطقة لا نظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء ، وتلك مزية تستحق من أجلها
أن يُكْتَبَ فيها كتاب .

إن مزايا الشعر كثيرة تتفرق بين الشعراء ويتفرق الاعجاب بها بين القراء . وقد يحرم
الشاعر إحداها أو أكثرها وهو بعدُ شاعر لا غبار عليه ، لأنه يحسن غمطاً من الشعر تصحُّ به
الشاعرية : كالجمال في الحسان يروقنا في كل وجه بلونٍ وسمّة وهو في جميع الوجوه رائق
جميل ، وكاللمحة الواحدة من ملامح الجمال تحلو في هذا الوجه وتحلو في ذاك ولا تشابه
بينهما في غير الخلاوة . ففي العيون ألف عين جميلة لا تشبه الواحدة أختها ولا تتفق اثنتان
منها في معاني النظرات ومحاسن الصفات وليس هناك إلا جمال واحد عند الكلام على جوهر
الجمال .

وكذلك الشعر . يعجبنا في كل شاعر بطراز مختلفٍ وهو شعر سائغ مستملح في كل
طراز . فالذي يعجبنا من المتنبي غير الذي يعجبنا من البحتري ، والذي يعجبنا من هذين
غير الذي يعجبنا من الشريف الرضي أو من أبي العلاء أو من أبي نواس أو من ابن
زيدون ، والذي يستحق به كل واحد منهم صفةً الشاعرية غير الذي يستحقها به البقية !
فقد تفرقت مزايا الشعر كما قلنا أيما تفرق ، وامتنع الاعجاب بهن جميعاً على الحصر
والتعريف .

غير أن المزية التي لا غنى عنها والتي لا يكون الشاعر شاعراً إلا بنصيب منها هي مزية واحدة ، أو هي مزية نستطيع أن نسميها باسم واحد : وتلك هي الطبيعة الفنية .
ونعتمد أن نقول أنها تسمى باسم واحد لأنها في الحقيقة أشياء شتى تدخل في عموم هذه التسمية .

فالتبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بينة للاحساس بجوانب الحياة المختلفة . وهنا ينتهي بنا الاجمال إلى كلمة كأنها كلمات ، أو كأنها معجم كامل من المصطلحات . أليست جوانب الحياة عيلاً لا حد له في العدد ولا في الصفة ؟ ثم أليست أنواع التيقظ لملك الجوانب أشتاتاً وأخلاقاً لا تجتمع في حصر حاصر ؟ بلى ! فمن المتيقظين لجوانب الحياة من هو عميق الشعور بها ومن هو متوفز الشعور أو مهتاجه أو مستفيضه أو محصوره أو مستقيمه أو منحرفة ، إلى غير ذلك من أنواع الشعور ودرجاته . فالذي تجمعهم كلمة اليقظة هنيهة لا تلبث أوصاف اليقظة أن تفرقه كل مفرق . فهل من سبيل إلى إسلاس المعنى وتقريب مقاده للتعريف والتوضيح ؟ نعم ! وسبيل ذلك غير عسير ، فنحن نقول موجزين أن الطبيعة الفنية هي تلك الطبيعة التي تجعل فن الشاعر جزءاً من حياته أيا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ومن الثروة أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ . وتما هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا يفصل فيه الانسان الحي من الانسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفي فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الانسان ، ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل . كما يلتقي الصديقان أحياناً طواعية واختياراً ، أو كما يلتقي الغريبان في الحين بعد الحين على كره واضطرار . فالانسان والشاعر في هذه الحالة شخصان يلتقيان في المواعيد ثم يذهب كل منهما لطبته إلى أن يتاح لهما اللقاء مرة أخرى بعد زمن طويل أو قصير ، وكان الشعر عند هؤلاء الشعراء روح من تلك الأرواح التي تلبس صاحبها وتفارقه ثم تلبسه كلما استحضرها له مستحضر من الحوادث والأهواء ، فهو إذا لبسته شاعر يأخذ عنها ما تحسه وينقل عنها ما تقول ، وهو إذا فارقه فرد من هذا الملأ الذي لا يوحى اليه ولا يكشف عنه الحجاب .

ابن الرومي واحد من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومي الشاعر فقد عرف ابن الرومي الانسان حق عرفانه ولم

ينقص منه إلا الفضول ، والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يعرف بعدُ وإن عرفت له مزايا ونالت حسناتُ له حقها من الاعجاب .

* * *

ليس من الصدق للتاريخ أن يقال إن ابن الرومي كان خاملاً في زمانه أو بعد زمانه بهذا المعنى الشائع من الخمول الذي يراد به سقوط المكانة الأدبية ونسيان الأثر بين المتأدبين ، فلعله إذا قيس إلى الشعراء الهجّائين خليقٌ أن يُعد سعيد الحظ موفور الجزاء . فقد ذهب شعر بشار إلا أقله وذهب شعر دعلب إلا أقله وبقي ديوان ابن الرومي كله فلم يذهب منه إلا أقله ! وهذه محابة من الشهرة لم يُرزقها في العربية شاعرٌ هجّاء ولم يُرزقها قبل عصر الطباعة إلا أفراد معدودون بين سائر الشعراء . ثم جاء عصر الطباعة فلم يكن الخمول هو الذي جنى على ابن الرومي وأخر طبع ديوانه بعد الدواوين التي في طبخته . لأنه ذُكر في كل كتاب متداول من كتب الأدب وحُفِظت له مختارات كثيرة في حيثما وردت مختارات الشعراء المبرزين ، والذين أهملوه - كصاحب الأغاني - إنما تعمّدوا ذلك حنقاً عليه لا إصغاراً لشأنه ، فتأخّر طبعه في العصر الحديث لأسباب غير الخمول والاهمال : تأخر لأن ديوانه أطول ديوان محفوظ في اللغة العربية من جهة ، ولأن نسخته - من جهة أخرى - لم تكن ميسورة في البلاد السورية حيث طبعت بعض الدواوين ، وربما كان الاقتذاع في الهجاء سبباً ثالثاً مضافاً إلى ذينك السببين .

فليس من الصدق للتاريخ إذن أن يقال إن ابن الرومي كان خاملاً بذلك المعنى الشائع من الخمول ، ولكنه مع هذا كان خاملاً وكان خموله أظلم خمول يصاب به الأدباء ، لأنه الخمول الذي يحفظ ذكر الأديب ولكنه يخفي أجمل فضائله وأكبر مزاياه ، وهذا هو الحيف الذي أصاب ابن الرومي ولا يزال يصيبه عندنا بين جمهرة الأدباء والمتأدبين .

قال ابن خلكان يصفه ويقدره : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية » .

وهذا وصف صادق كله ، ولكنه ليس بكل الوصف الذي ينبغي أن يوصف به ويتمم به تعريفه ، فهو تعريف ناقصٌ . والناقص فيه هو المهم وهو الأجلر بالتنويه . إذ هو هو المزية الكبرى في الشاعر ، وهو هو الطبيعة الفنية التي تجعل الفن جزءاً لا ينفصل من الحياة .

ما الغوص على المعاني النادرة ؟ وما النظم العجيب والتوليد الغريب ان لم يكن ذلك كله مصحوباً بالطبيعة الحية والاحساس البالغ والذخيرة النفسية التي تتطلب التعبير والافتتان فيه ؟ ان كثيراً من النظامين ليغوصون على المعاني النادرة ليستخرجوا لنا أصدافاً كاصداق ابن نباتة وصفي الدين أو لآلء رخيصة كآلء ابن المعتز وابن خفاجة واخوان هذا الطراز ، وان الغوص على المعاني النادرة لهو لعب فارغ كلعب الحواة والمشعوذين ان لم يكن صادق التعبير مطبوع التمثيل والتصوير . وعلى الأوراق المالية رسوم ونقوش وأرقام وحروف ، ولكنها برسومها ونقوشها وأرقامها وحروفها لا تساوي درهما ان لم يكن وراءها الذهب المودع في خزانة المصرف ! فالاحساس هو الذهب المودع في خزانة النفس وهو الثروة الشعرية التي يقاس بها سراة الكلام ، أما الرسوم والنقوش والأرقام والحروف فعلامة لا أكثر ولا أقل . وقد تغني عنها علامة أخرى برقم ساذج وتوقيع بسيط !

نعم ما النظم العجيب والتوليد الغريب واستغراق المعنى حتى يُستوفى إلى آخره ولا تبفى فيه بقيه ؟ ان هذا بقضه وقضيضه ان هو إلا أدوات التعبير وليس هو التعبير المطلوب في لبابه . فاذا لم يكن عند الشاعر ما يعبر عنه فكل معانيه وتوليداته ونوادره لغوا حاجة بنا اليه ، وإذا كان عنده ما يغبر عنه واستطاع التعبير بغير توليد ولا اغراب ولا استغراق فقد أدى رسالته وأبلغ في أدائها أكمل بلاغ . وهذه هي الرسالة المقصودة وهذا هو الشعر الجيد وهذه هي الطبيعة الفنية ، أما المعاني والتوليدات فهي وسائل إلى غاية لا قيمة لها إلا فيما تؤديه وتنتهي اليه ، ويستوي بعد ذلك من أدّى اليك سريرة نفسه بتوليد واغراب ومن أداها اليك بكلام لا اغراب فيه ولا توليد .

وابن الرومي شاعر كثير التوليد غواص على المعاني مستغرق لمعانيه ، ولكننا لو سئلنا ما الدليل على شاعريته لكان غبناً له أن نحصر هذا الدليل في التوليد والغوص والاستغراق . فقد نحذف منه توليداته ومعانيه ولا نحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة الفنية ، فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه والشاعر في جيده ورديته والشاعر فيما يحتفل به وفيما يلقيه على عواهنه ، وليس الشعر عنده لباساً يلبسه للزينة في مواسم الأيام ولا لباساً يلبسه للابتذال في عامة الأيام . كلا ! بل هو إهابه الموصل بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه . فللرديء منه مثل ما للجيد من الدلالة على نفسه والابانة عن صحته وسقمه . بل ربما كان بعض رديئه أدل عليه من بعض جيده وأدنى إلى التعريف به والنفاذ اليه ، لأن موضوع فنه هو موضوع حياته . والمرء يحيا في أحسن أوقاته ويحيا في أسوأ أوقاته ، ولقد تكون حياته في الأوقات السيئة أضعاف حياته في أحسن الأوقات .

هذا الجانب من شاعرية ابن الرومي هو الجانب الخامل المجهول ، وهو الجانب الذي وقفنا على التعريف به صفحات هذا الكتاب . وعندنا أننا ننصف كل شاعر - ولا ننصف ابن الرومي وحده - بتوضيح هذا الجانب من الشاعرية ، أو بتوضيح ما نسميه الطبيعة الفنية . لأنه هو المقياس الذي لا يتم لنا أن نقدر شاعراً بغيره ، والذي نجهل الشعر كله والشعراء كلهم اذا نحن أغضينا عنه والتفتنا الى سواه مما لا يستحق كبير التفات .

الفصل الأول

عصر ابن الرومي أو القرن الثالث للهجرة

« كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان ، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة ، كان عهد اليقين والايمان وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور وكان أوان الظلام ، كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا شيء قط ، وسبيلنا جميعاً الى سماء عليين وسبيلنا جميعاً الى قرار الجحيم . تلك أيام كايامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاقتها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات » .

هذا هو عصر الثورة الفرنسية ، وهكذا استهل وصفه الكاتب الانجليزي « شارلس دكنز » في بداية قصة المدينتين ، إلا أنك قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد وأنت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور في تواريخ الانتقال والاضطراب ومن تلك العصور القرن الثالث للهجرة في دولة الاسلام الشرقية ، وهو القرن الذي لا يوصف في جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلي الذي كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصراً واحداً متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه في الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وإن اجتمعت في نطاق واحد من الزمان .

إن كان لكل دولة أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد فالقرن الثالث للهجرة كان أوان

النماء للدولة العباسية جاء بُعيد التمهيد وقُبيل النضج والذبول . ففيه نما وأزهر كل ما بذره مؤسسو الدولة من جراثيم الخير والشر وعناصر الصلاح والفساد . وكانت الدولة في ابانها أشبه شيء بالمرج الأخضر الذي ينمو فيه الحب والفاكهة والشوك والعشب المسموم : خضرة زاهية ناضرة ولكنها وسيمة شائثة ومصلحة مهلكة ومرجوة مخشية ، ومختلط فيها الغذاء والسم اختلاطاً لا سبيل فيه إلى التنقية والتمييز . فهو العصر الذي بلغ كل شيء فيه أقصاه وأثمر كل عمل فيه نتاجه المحتوم . أثمر فيه الخطأ كما أثمر فيه التوفيق وظهر فيه ما قدموا صالحاً أو طالحاً على السواء . فبدأ التآمر وبدأ النقص في حين واحد ، واجتمع الخليط من حضارات العرب والفرس والروم إلى الخليط من عوامل القوة والضعف والبشارة والانذار ، فكان نسيجاً من ألوان الزمان لا تشبع منه عين الفنان ولا روية الحكيم .

وليس بنا أن نسهب في وصف هذا القرن واستقصاء تاريخه فانما يعنينا منه ما يحيط بفرد واحد هو الشاعر الذي نترجم لحياته . فحسبنا من تاريخ ذلك العصر ما نوضح به نواحي تلك الحياة ، والقليل الوجيز من ذلك التاريخ كافٍ لتوضيح ما نريده في هذا المقام .

حالة الحكومة والسياسة

ولد ابن الرومي في سنة إحدى وعشرين ومائتين وتوفي في سنة أربع وثمانين على قول بعض الرواة . فهو قد أدرك في حياته ثمانية خلفاء هم : الواثق والمتوكل والمتنصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد ابن الرومي ببضع سنوات . فاذا أردنا أن نحيط بالحالة التي كانت عليها الحكومة وسياسة الدولة يومذاك فلعلنا لا نستطيع أن نعرض لذلك ببيان هو أوجز من الالمام بالمصير الذي صار إليه بعض أولئك الخلفاء . فمنهم واحد قتل وهو المتوكل وثلاثة خلعوا وقتلوا بعد خلعهم وهم : المستعين والمعتز والمهتدي ، وقيل ان من الآخرين من مات مسموماً . والبقية الذين ماتوا على سرير الملك لم يخل عصر أحدهم من فتنة أو انتفاض أو غارة خارجية ، ولم يكن حظ ولاية العهود والأمراء والوزراء بخير من حظ الخلفاء ولا مصير أكثرهم بأسلم من هذا المصير . فقل بين هؤلاء من نجا من الخلع والسجن والتعذيب واستصفاء الأموال .

وكان الخلفاء عرضة للغضب والكيد من الجند والوزراء ونساء القصور ، أما الأمراء والوزراء فكانوا عرضة للغضب والكيد من جميع هؤلاء ويزيد عليهم الخلفاء كلما قدروا على البطش وأمنوا على أنفسهم دسائس المشاغبين والمنافسين .

ان أطراد البطش بالخلفاء والوزراء لا يدل على أمان أو انتظام في سير الأمور ، ولكن هذا كله لا يزال ضعيف الدلالة على ما كانت عليه حقيقة الحال في حكومة تلك الأيام . فقد يعوزنا ان نعلم كيف كان المقتولون يقتلون والمخلوعون يخلعون لنعلم كيف كان الفساد يجري في خلائق النفوس كما كان يجري في سياسة الدولة وأعمال الدواوين . فقصارى ما يدل عليه أطراد العدوان أن شريعة الحكم لا تُرعى وأن الحكام لا تتقى ، إلا أن الحكومة قد تهزل هيبتها وتبطل شريعتها ثم تبقى للناس بعد ذلك حرمان أخرى يتقونها وآداب أخرى يحرصون عليها : تبقى لهم حرمان المروءة وآداب العرف والدين . أما في ذلك العهد فقد بلغ التنكيل والتبشيع في بعض حوادث الفتك مبلغاً لا حرمة معه لشرع ولا لدين ولا لمروءة .

فمن أمثلة ما كان يصيب الخلفاء ما حدث للمعتز حين طالبه الجند الأتراك بأرزاقهم فلم يجدوا عنده ولا عند كتابه ووزرائه مالا : قال الطبري في أخبار سنة خمس وخمسين ومائتين : « فلم يرعه الاصباح القوم من أهل الكرخ والدور وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا المعروف بأبي نصر قد دخلوا في السلاح فجلسوا على باب

المنزل . . . ثم بعثوا اليه أن اخرج الينا فبعث اليهم أني أخذت الدواء أمس وقد أجفطني اثنتي عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف ، فان كان أمر لا بد منه فليدخل إلي بعضكم ، فدخل اليه جماعة من أهل الكرخ والدور من خلفاء القواد فجروا برجله الى باب الحجر . قال : وأحسبهم كانوا قد تناولوه بالضرب بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق في مواضع وأثار الدم على منكبيه فأقاموه في الشمس . . فجعلت أنظر اليه يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقيم فيه . . ورأيت بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده . . فذكر أنه لما خلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه ، ثم حصصوا سرداباً بالجص السخين ثم أدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فاصبح ميتاً ، وكانت وفاته لليلتين خلتا من شعبان في هذه السنة . فلما مات أشهد على موته بنو هاشم والقواد وأنه صحيح لا أثر فيه » . . . ومن أمثلة ما كان يصيب الوزراء ما حدث لمحمد بن عبد الملك الزيات في أيام المتوكل وذكره الطبري في أخبار سنة ثلاث وثلاثين ومائتين . قال بعد أن ذكر مصادرة الأموال ونهب الدور وضم الضياع : « لم يزل أياماً في حبسه مطلقاً ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع من الطعام وكان لا يذوق شيئاً ، وكان شديد الجزع في حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكير ، فمكث أياماً ثم سوهو ومنع من النوم : يساهر ويُنخس بمسلة . ثم ترك يوماً وليلة فنام وانتبه فاشتهد فأكهة وعنباً فأنتى به فأكل ثم أعيد إلى المساهرة ثم أتى بتور من خشب فيه مسامير حديد . . . وكان هو أول من عمل ذلك فعذب به ابن أسباط المصري حتى استخرج منه جميع ما عنده ثم ابتلي به فعذب به أياماً . وذكر عن الدنداني عن الموكل بعذابه أنه قال : كنت أخرج وأقفل الباب عليه فيمد يده إلى السماء جميعاً حتى يدق موضع كتفيه ثم يدخل التور فيجلس ، والتور فيه مسامير حديد وفي وسطه خشبة معترضة يجلس عليها المعذب إذا أراد أن يستريح فيجلس على الخشبة ساعة ثم يجيء الموكل به فإذا هو سمع صوت الباب يفتح قام قائماً كما كان ثم شدوا عليه . قال المعذب له : خاتلته يوماً وأريته أنسي أقفلت الباب ولم أقفله . إنما أغلقته بالقفل ثم مكثت قليلاً ثم دفعت الباب غفلة فإذا هو قاعد في التور على الخشبة ، فقلت أراك تعمل هذا العمل ؟ فكنت إذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه فكان لا يقدر على القعود واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجله فما مكث بعد ذلك أياماً حتى مات ، واختلف في الذي قتل به فقيل بطح فضرب على بطنه خمسين مفرعة ثم قلب فضرب على ظهره مثلها ، فمات وهو يضرب وهم لا يعلمون . فأصبح ميتاً قد التوت عنقه ومتمتحت لحيته ، وقيل مات بغير ضرب ، وذكر عن مبارك المغربي أنه قال :

ما أظنه أكل في طول حبسه إلا رغيفاً واحداً ، وكان يأكل العنبة والعنبتين قال : وكنت أسمعه قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه يا محمد يا بن عبد الملك ! لم تقنعك النعمة والدواب الفرة والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة ! ذق ما عملت بنفسك ، فكان يكرر ذلك على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله « والذي روي عن التمثيل بالمدنيين - ولا سيما في أيام المعتضد - أفظع من هذا وأعنف . « وكأنما كان التفضيع بهم فرجة يتفتنون في ابتداع أشكالها وأساليبها ليلهو بها النظارة ويذكروها فيما يذكرون من مشاهدة المجون والفكاهة ! أساس هذا الشر كله سببان غالبان هما القطيعة بين بني العباس والعرب ، ونظام الاقطاع الذي تمادى فيه بنو العباس حتى انتهى الى تصدع العالم الاسلامي وتشعبه في مدى قرنين اثنين بضع عشرة شعبة .

فبنو العباس كانوا قوماً موتورين طال عليهم الظلم واحتمل المكاره وكانوا ينقمون على العرب انهم خذلوا آل النبي في نضالهم مع بني أمية وباعوهم بيع السباح لما استمالهم الأمويون بالعطايا والبعود . فلبثوا زماناً يسامون الذل ويلعنون على المنابر ويشهدون قتل رجالهم وسبي نسائهم وهم آل النبي الذي لم يسأل قومه على الهداية أجراً إلا المودة فيهم ، وابتلوا بكل محنة في دولة الأمويين ولا من يغضب لهم أو يجنح إليهم . ولقد كان بنو العباس شركاء بني علي في الوتر وإن كان المصائب في معظمه مصاب هؤلاء ، لأنهم كانوا جميعاً من آل البيت ينالهم من الذل ما ينال كل متم إلى . ثم لما قامت لهم آخر الأمر دولة لم تقم على أيدي العرب وهم أولى الناس أن ينصروهم وتأخذهم الغيرة لهم ، وإنما قامت على أيدي الفرس الذين كانوا ينقمون مثلهم على الدولة العربية . فامتلاّت نفوسهم حفيظة على العرب وانقطع ما بينهم وبينهم من صلة المودة والطمأنينة وشعروا لهم في نفوسهم بما يشعر به المظلوم لمن ظلموه أو أعانوا عليه ظالميه ، والموتور إذا خاب ظنه في انصاف الناس وساء رأيه في أمانتهم واخلص طويتهم لم يعرف لهم حقاً ولم يرع لهم ذمة ولم يجز الأمر بينه وبينهم الا على المنفعة والرهبة دون الثقة والمودة ، ومن هنا كانت تلك السياسة النفعية الفاتكة التي اشتهر بها أساطين بني العباس ومضى عليها خلفاؤهم من بعدهم ، وجاء اتصالهم بأجلاف الأعاجم من قبائل الترك والديلم فنقلوا عنهم ضرورياً من المثالات التي تغودها هؤلاء الأعاجم في وحشية البداوة .

قل إن العباسيين إنما قربوا إليهم الفرس والأعاجم واتخذوا منهم الأعوان والقواد مكافأة

لهم على نصرهم إياهم وتأييدهم لهم على أعدائهم . . والحقيقة أن بني العباس كانوا يتوجسون من العرب قبل أن تقوم لهم دولة وتنظم لهم عقدة ، وكان إبراهيم بن محمد بن علي صاحب الدعوة قبل السفاح يكتب إلى أبي مسلم : « إن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمة فاقتله » فهو الحذر من العرب الذي أبعد هؤلاء وأخملهم في دولة بني العباس ، وليست مكافأة الفرس ومن إليهم ، ثم توالى الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة ، فلما كان الخلاف بين الأمين والمأمون ذهب العرب مع الأمين لأن أمه عربية وذهب الفرس مع المأمون لأن أمه فارسية ، وقتل الأمين وانتصر المأمون فحفظها للعرب وأمعن في إقصائهم وتقريب الأعاجم على تعدد أجناسهم ، ثم المعتصم - وكانت أمه تركية - فاعتمد على جنود الترك وكثر اختلاف الأجناس في جيش الدولة وولاة أمرها فضلاً عن اختلاف الأجناس بين نساء القصور وأمهات الأمراء ، وتفاقت أسباب الدسائس بين الملوك والأمراء والقادة والوزراء وحاشية القصور من رجال ونساء ، وبلغ من تفاقمها أن أشفق منها الجند والقواد الذين هم مساعير نيرانها فشغب الجند على قوادهم وتنازع القواد أمرهم فودوا جميعاً لو يملكهم خليفة قوي يخيفهم ويحسم أسباب النزاع بينهم كما قال بغا الكبير : « نجى بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وإن جثنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضاً فقتلنا أنفسنا » ثم اشتد أشفاقهم من تحاسدهم حتى طلبوا أن يتولى القيادة أمير من بيت الخلافة ولا يتولاها أحد منهم ، ولكن أسباب الشقاق كانت أكبر وأوسع من أن يحسمها مثل هذا التدبير العاجل الذي لا يطول الاستقرار عليه .

كان أمر الدولة إذن قائماً على سوء الظن والدسيسة ، وقد ألف المؤرخون أن يذكروا إخلاص الفرس لبني العباس حتى خيل إلى بعض قراء التاريخ أن بني العباس كانوا خليقين أن يطمثوا إلى جهة واحدة على الأقل من جهات الدولة ، وأن يسكنوا إلى شعب واحد من شعوبها الكثيرة ، وما كان الأمر كذلك إلا في الظاهر الذي لا ينخدع به رجال من المحنكين المتحذرين كرجال الدولة العباسية ، فما نظن أبا مسلم نصير الدولة الأكبر إلا كان طامعاً في الخلافة متربصاً بأوليائه الدائرة ، ولهذا طمع إلى مصاهرة بيت الملك وارتقى بنسبه إلى العباس وبدأ باسمه في مخاطبة الخليفة وأراد أن يؤم الناس في موسم الحج واستعد للملك استعداد الذي لا يخفى على أوليائه ، وما نظن البرامكة إلا كانوا يفعلون فعل أبي مسلم في شيء من التبصر وطول الأناة .

ولم لا يطمع هؤلاء وغيرهم وما كانت تعوز العظماء في أمة الفرس أسباب الدعوة والانتفاض ؟ فان كان الأمر أمر الطمع والقوة فهاهم الفرس أصحاب القوة التي وصل بها العباسيون إلى الخلافة ، وإن كان أمر الدين والغيرة على آل البيت فهاهم أبناء عليّ عندهم يدعون لهم إذا شاءوا ويجدون من الناس مستمعاً ومجيباً بعدما أصاب العلويين على أيدي بني العباس من قسوة وتنكيل وما أصاب العرب في دولتهم من إهمال وإطراح .

كان حكم بني العباس حكم الموتور المستريب ولا يكون إلا هكذا حكم الموتور المستريب . وأطبق نظام الاقطاع على هذه الآفة فتمت به البلية وتشعبت المقاصد حتى فشا سوء الظن ولم يبق موضع لثقة بين إنسان وإنسان من العاملين في الحكومة .

نظام الاقطاع

فنظام الاقطاع نظام معيب ولكنه يبقى مستور العيوب ما بقيت هيبة الدولة وسطوة القائمين عليها . فاذا ضعفت وضعفوا فهو الشر المستطير يشقى به الحاكم والمحكوم وينخر في اركان الملك فلا يدعه إلا وهو مفكك الأجزاء معتورٌ بأسباب الفناء .

فكان الولاة - والخلافة العباسية مرهوبة الجانب والأمور مستقرة في عنفوانها - يؤدون المال الذي عليهم ويتعهدون الأرض والمرافق بالاصلاح لتغزر عندهم موارد الجباية وتدوم لهم وللناس منابع الثروة ، فلما تقلقت الخلافة وارتاب الولاة في امرها وفي أمرهم اهملوا الاصلاح وتهافتوا على جمع المال وحبسوا أرزاق العمال واغفلوا مرافق الرعية ، فخربت الأرض وعمَّ السخط وفسدت طاعة الجند على ما بها من فساد الشقاق والدسياسة ، ولجأ الخلفاء إلى اغتيال الولاة والكتاب وكل من بأيديهم مال الجباية . فأعملوا فيهم القتل واستصفاء الأموال واستخراج الدفائن والمخبات ، واصبحت الكتابة والوزارة وما اليهما من وظائف الدولة كأنما هي رخصة بالظلم والغصب ريثما يحتاج الخلفاء الى ما جمعه الوزراء والكتاب فيحصلوا على المال من هذه الطريق ! وبلغ من شيوع الاختلاس أن الذين كانت بأيديهم خزائن الدولة شاركوا العمال واصحاب الوظائف في أرزاقهم فكانوا لا يؤدون رزق عامل او صاحب وظيفة الا إذا اقتطعوا منه أتاوة لانفسهم واستكتبوا، توقيعه باستيفاء رزقه ، غير مستثنين من ذلك أحدا حتى اخوة الخليفة واهل بيته . بل قد بلغ من شيوع الاختلاس أن اصبح سرأ مذاعاً لا يكتفى في حضرة الخليفة نفسه ولا يبالي الوزير أو الكاتب أن يجهر بين يديه بفعله : فلما عرّض الخليفة المهتدي لسليمان بن وهب بما كان يأخذه هذا من العمال « معجلاً ومؤجلاً » قال له سليمان : « يا أمير المؤمنين ! هذا قول لا يخلو من ان يكون حقاً أو باطلاً ، فان كان باطلاً فليس مثلك من يقوله ، وان كان حقاً وقد علمت أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمني من عمالي على بعض ما يصل اليهم من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال ؟ »

وراجت تجارة الارتشاء من العمال وعمال العمال حتى بلغت أقصى ما عساها أن تبلغه في اواخر أيام الدولة ، فقيل عن الخاقاني فيما رواه الفخري انه ولّى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً على الكوفة وقبض من كل واحد منهم رشوة ! فان كان قد بقي لحسن الظن بين ولاة الأمر بقية فهذه السرقات والرشاوى والمصادرات والنكبات قد اتت على هذه البقية ، فلم تدع بينهم الا علاقات الحذر والمساومة والتربص وفساد الطوية . ولا جرم تبييض الفتنة

وتفرّخ في بيثة كهذه بين جند يشغبون وعمال يدلّسون وعرب يحنقون وعلويين يتحفزون ورعية تمزقها براثن الرعاة وملوك لا يأمنون على الملك ولا على الحياة .

وقد حضر ابن الرومي في زمانه بعض هذه الفتن وسمع بما تقدمه وترك لنا في شعره مثلاً مما حدث في واحدة منها وهي فتنة الزنج التي اختلطت فيها الأسباب السياسية والدينية والاجتماعية ، فقال يصف ما حل بأهل البصرة على أيدي الثائرين :

كم أغصوا من شارب بشارب	كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجي	فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعاً	تربّ الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه	وهو يُعلّى بصارم صمصام
كم مفدى في اهله اسلموه	حين لم يحمه هنالك حام
كم رضيع هناك قد فطموه	بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر	فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوا	بارزاً وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم	طول يوم كأنه الف عام

ودرجت الأحوال على ذلك فلم يكن يهونها على الناس الا اتساع ارجاء البلاد الاسلامية وتفرق الفتن في تلك الأرجاء ، والا فترات من القوة يتاح فيها للدولة في الحين بعد الحين خليفة حازم الرأي نافذ العزيمة فتسكن غوارب الفتنة بعض السكون ويستقيم الولاة والعمال بعض الاستقامة ، وتعلو هيئته فيخشاه المغيرون على الدولة من داخلها وخارجها وتفيء الرعية إلى ظله زمناً حتى يحتم اجله فتعود الأمور الى ما كانت عليه .

الحالة الاجتماعية

تنتهي الفوضى السياسية - اذا تطاول بها الزمن - إلى الخراب والعسر ونضوب الأرزاق بين جميع الطبقات عالياً وهابطها على السواء . ولكن الفوضى لا تمنع الترف إذا هي جاءت في البداية أو ترددت في الفترة بعد الفترة ولم يطل بها زمن التخريب والافساد . فلا يندر أن يجتمع الترف والفوضى في طبقات من الدول المتداعية التي ورثت السلطان القديم والثروة الواسعة ومظاهر الحضارة وافانين المعيشة الفاخرة . بل كثيراً ما تكون الفوضى من أسباب الترف والمغريات به ، لتعويدها النفوس أن تخلد إلى الدعة واغتنام اللذة وان تحجم عن المساعي الجليلة والآمال الرفيعة . يأساً من كل غاية وشكاً في مصير كل نعمة ، وعلماً بأن الحياة لا تجري على وتيرة ولا تنتظم في سياق .

وكذلك كان القرن الثالث للهجرة قرن الفوضى والترف أقرن الخطر و« التسلية » بلغ فيه كلاهما مبلغه وسرت إلى العصر جرائر العصور الأولى فجنى ثمارها خللاً في السياسة وبذخاً في المعيشة وحياة كحياة الجند ليلة الحرب كلها قصف وكلها استسلام .

ورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم وأساليب اللهو في هذه الأمم وفي الأمم التي اتصلت بها من ترك وهند وصين ، وتجمعت الأموال المستحيرة في أيدي الأمراء وجباة الخراج وأصحاب التجارات الغادية الرائحة في البر والبحر بما تستدعيه ضرورات العيش ونوافل الشهوات ، فكثر المترفون المنعمون وشاعت فنون الخلاعة والمجون ، واصبح لكل ضرب من ضروب اللهو علم يعرفه علماءؤه ويقرب اهله إلى الخلفاء وذوي الرئاسة حتى الرقص وما اليه فضلاً عن الغناء والسماع . نقل المسعودي في مروج الذهب أن الخليفة المعتمد قال لبعض من حضر من ندمائه : « صف لي الرقص وانواعه والصفة المحموده من الرقاص واذكر لي شمائله » فقال المسئول : يا أمير المؤمنين ! أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من أهل خراسان وغيرهم . فجملته الايقاع في الرقص ثمانية اجناس : الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وثقيل الثاني وخفيفه وخفيف الثقيل الأول وثقيله ، والرقاص يحتاج إلى أشياء في طباعه وأشياء في خلقته وأشياء في عمله . فأما ما يحتاج اليه في طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الايقاع وأن يكون طالبه مرحاً إلى التدبير في رقصه والتصرف فيه ، وأما ما يحتاج إليه في خلقته فطول العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل والتأيل في الاعطاف ودقة الخصر وحسن أقسام الخلق . . . ومخراج النفس والاراحة والصبر على طول الغاية ولطافة الاقدام . . ولين المفاصل وسرعة الانفتال

في الدورات ولين الاعطاف ، واما ما يحتاج إليه في عمله فكثرة التصرف في ألوان الرقص واحكام كل جزء من حدوده وحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما ، واستواء ما تعمل يمين الرجل ويسراها حتى يكون في ذلك واحداً . ولوضع القدم ورفعها وجهان أحدهما ان يوافق بذلك الايقاع والآخر ان يتشبط به . فأكثر ما يكون هو فيه أمكن واحسن فليكن ما يوافق الايقاع فهو من الحب والحسن سواء ، وأما ما يتشبط به فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع مترافعاً وما يتشبط به متسافلاً .

وقس على ذلك سائر ضروب اللهو والترف . حتى انتهى القرن واقبل ما بعده وللقوم في آداب المجالس وآداب المائدة ما لم نسمع بمثله عن رومة وبيزنطة ، فكان من رؤ سائهم من لا يأكل لقمتين بملعة واحدة كما قيل عن الوزير المهلبى انه « كان من ظرفه في فعله ونظافته في مأكله انه إذا اراد اكل شيء بملعة كالأرز واللبن وامثاله وقف في جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعة زجاجاً مجروداً . وكان يستعمله كثيراً - فيأخذ منه ملعة يأكل بها من ذلك اللون لقمه ثم يدفعها إلى غلام آخر قام في الجانب الأيسر ثم يأخذ اخرى يفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لثلا يعيد الملعة إلى فيه دفعة ثانية . »

واقتدى الأوساط والفقراء بالعلية والأغنياء فكثرت بيوت القيان والخمر وأدمنت المعاقرة صبحاً وغبوقاً وشاع اقتناء الجوارى والعلمان واستبيحت اللذات على أنواعها مألوفها وغير مألوفها وطيبها وخبيثها ، فتكشفت الوجوه وقل الحياء وخف موقع الهجر والبذاء على الاسماع ، ولا سيما حين اصبح الحكام والولاة هم قدوة الناس في هذه الافانين وهم موضع النعمة التي تصبو إليها نفوس المحرومين ، وفي احدى قصائد ابن الرومي البائية وصف لعيش الكتاب والموسرين لا بأس بأن نلحقه بهذا الباب لدلالته على ذلك العصر وعلى موقع هذه اللذات من نفس الشاعر ، وذلك حيث يقول :

أتراني دون الأولى بلغوا الا	مال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا	بالمنى في النفوس والاحباب
خير ما فيهم ولا خير فيهم	انهم غير أئمي المغتاب
ويظلمون في المناعم واللذ	ات بين الكواعب الأتراب
لهم المسمعات ما يطرب السـ	امع والطائفات بالاكواب

.....
من جوار كأنهن جوار	يتسلسلن من مياه عذاب
لابسات من الشفوف لبوساً	كالهواء السريق أو كالسراب

ومن الجوهر المضيء سنه

لهف نفسي على مناكير للذ
تغسل الأرض بالدماء فتضحى
من كلاب نأى بها كل نأى
واثباتٍ على الظباء ضعاف
شرط خولوا عقائلَ بيضاً
من ظباء الانيس تلك اللواتي
فاذا ما تعجب الناس قالوا
أصبحوا ذاهلين عن شجن النا
في أمور وفي خمر وسمور^(١)
وتهاويل غير ذلك من الرق
في حبر منمنم وعبير
في ميادين يخترقن بسا
ليس ينفك طيرها في اصطحاب
من قرنين أصبحا في غناء
بين أفنانها فواكه تشفي
في ظلال من الحرور واكنيا
عندهم كل ما اشتهو من الأ
والطروقات والمراكب والولد
واليلنجوج^(٢) في المجامر والند
والغوالي وعنبر الهند والمسك
ولديهم وذائل الفضض البية
لم أكن دون مالكي هذه لأملا

شعلا يلتهم اي التهاب

سكر غضاب ذوي سيوف عضاب
ذات طهر تراها كالملا^(٣)
عن وفاء الكلاب غدر الذئاب
عن وثاب الأسود يوم الوثاب
لا باحسابهم بل الاكساب
تترك الطالبين في انصاب
هل يصيد الظباء غير الكلاب ؟
س وان كان حبلهم ذا اضطراب
وفي قاقم وفي سنجاب
م ومن سندس ومن زرياب^(٤)
وصحان فسيحة ورحاب
تين تمس الرؤوس بالاهذاب
تحت اظلال ايكها واصطخاب
وفريدين اصبحا في انتخاب
من تداوى بها من الأوصاب
ن من القرجمة الحجاب
لات والاشربات والاشواب^(٥)
ان مثل الشوادن الاسراب
تري نشره كمثل الضباب
على الهام واللحي كالخضاب
ض تباهي سبائك الاذهاب
ك لو أنصف الزمان المحابي

(١) طيب يشبه الزعفران

(٢) اساء أنواع من العراء

(٣) ماء الذهب

(٤) جمع شوب وهو ما يخلط بغيره

(٥) عود للتبخر به

ففي هذه القصيدة وصف واف لمناعم العيش في بيوت الطبقات الموسرة ومعظمها من « الموظفين » وفيها - مع هذا الوصف الوافي - تفسير واضح لتهالك الناس على العمالة والكتابة وسائر الوظائف التي يأتي رزقها من المرتبات والجبایات والرشي والاسلاب ، وفيها - مع هذا وذاك - تفسير لنقمة الطبقات المحرومة وللثورات التي كانت تهب من هنا وثم لرد الظلامات وانصاف الفقراء . واي شيء ادل على طلب الثورة والتلهف على قلب الأحوال والتأهب لتلبية الداعين إلى الشغب من قول شاعر وديع كابن الرومي :

لهف نفسي على مناكير للدن كمر غضاب ذوي سيوف غضاب
تغسل الأرض بالدماء فتضحى ذات طهر تراها كالملااب
من كلاب نأى بها كل نأى عن وفاء الكلاب غدر الذئاب

لا جرم يكون ذلك العصر عصر الحيرة والانتظار ، ولا جرم نتأهب فيه النفوس لدعوة الجماعات السرية وتتعلق الآمال بالمهدي المنتظر والمصلح الأكبر الذي يغسل الأرض بالدماء . . . ولا جرم يكون ذلك العصر هو عصر بابك الخرمي وداعية الزنج والقرامطة وغيرهم من الثوار واصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء المزروفين بالدعوة الى المساواة والتمرد على الحكام ، وكان ذلك على اكثره في بلاد الفرس حيث بقي الفلاحون كما كانوا في عهد الاكاسرة يسامون سوم الانعام ويُسْتزفون كما كان يستزفهم الامراء والملوك المؤلهون في غابر الزمان ، ثم كان ذلك على اكثره في المرافىء والثغور حيث تكثر الحركة ويزدحم العمال والصناع ويرتفع السعر ويشد التنافس بين الطبقات .

على أن هذه الاحداث كانت تمر بالدولة وهي باقية سليمة منها بعض السلامة ، لأنها - كما أسلفنا - كانت تتلقاها متفرقة في الأماكن والأوقات ، وكان شغب الشاغبين يوصم بالكفر والافساد في الأرض ويسمى القائم به تارة باسم الفاسق وتارة أخرى باسم المارق او الفاجر أو الخبيث ، فينسى اسمه الأول ولا يذكر الا بهذا الاسم المتحل ، وكانت هذه الثورات ببراء ليست لها وجهة مرسومة ولا خطة معلومة . فكانت تعوزها عناصر الدعوة المشروعة المستجابة التي تلتف بها الجماهير وتستبسل فيها ، فلا توشك الثورة أن تستفحل حتى تقتر وتضمحل وتثوب الأمور الى نصاب .

هذا والقصور سادرة في غيها قلما تحس هذه المشكلات الاجتماعية اثرا او تتحرك لعلاج أسبابها الدفينة الا في العهد بعد العهد والصحو بعد الصحو ، ولا تراها فيما عدا ذلك الا

غارقة في بذخها مفتنة في زينتها وهوها : المهندسون والمزخرفون والمطربون والطهاة والندماء يستبقون في تجويد اساليب المعيشة وجلب الوان المسرة ، ومجالس الطرب تدخل على المجتمع العالي بعرف جديد من الآداب والأذواق ، فلا يكون الأدب الا أديها ولا الذوق الا ذوقها ولا يحسب الوزير وزيراً ولا الرئيس رئيساً ان لم يكن مع ذلك نديماً يحسن المجالسة والمفاكهة ويصلح للمجلس قبل صلاحه لسياسة الدولة ، فأصبحت المنادمة باب السلوك الى الملوك وسلم الوصول الى الخطوة عندهم والدالة عليهم ، والنقض والابرار في شئون الدولة بالزلفى الى اهوائهم ، واحتاج الى علم هذه الصناعة كل ذي خطر في الدولة لما كان عسى أن يحتاج اليه من الترويح عن الخليفة وحسن المدخل عليه في ساعات صفوه وغضبه ونوبات اقباله واعراضه ، وكان أعلى ما يرجوه صاحب العلم والأدب والفضل والكياسة أن يصبح نديماً للملك او مريباً لابن ملك . وهما عملاق متشابهان في الآلة والكفاءة . ولم يكن من السهل أن يحذقهما الأديب لانها صناعة تجمع صناعات وفن يلم بشتى فنون واليك مثلاً مما كان يعرفه النديم الذي كان يرتقي به الحظ

الى مجالسة الأمراء والخلفاء . نقل ياقوت في معجم الأدباء عن أمالي جحظة النديم أن يزيد ابن محمد المهلي قال : « كنت أرى علي بن يحيى المنجم فأرى قبح صورته وصغر خلقته ودقة وجهه وصغر عينيه واسمع بمحله من الواثق والمتوكل فاعجب من ذلك واقول : بأي سبب يستظرفه الخليفة وبماذا حظي عنده والقرد املح من قباحته ؟ فلما جالست المتوكل رأيت علي بن يحيى قد دخل على المتوكل في غداة من الغدوات التي قد سهر في ليلتها بالشرب ، وهو مخمور يفور حرارة . يستثقل لكل أمر يخف دون ما يثقل ، فوقف بين يديه وقال : يا مولاي ؟ اما ترى اقبال هذا اليوم وحسنه واطباق الغيم على شمس خضرة هذا البستان ورونقه ، وهو يوم تعظمه الفرس وتشرب فيه لأنه هرمز روز (يوم هرمزد إله الخير) وتعظمه غلمانك وكرتك مثلي من الدهاقين ، ووافق ذلك يا سيدي أن القمر مع الزهرة فهو يوم شرب وسرور وتخل بالفرح ، فهش اليه وقال : ويلك يا علي ! ما أقدر أن افتح عيني خاراً ، فقال : ان دعا سيدي بالسواك فاستعمله وغسل بماء الورد وجهه وشرب شربة من رب الحصرم او من متنة مطيبة مبرداً ذلك بالثلج انحل كل ما يجد . فأمر باحضار كل ما أشار به فقال علي : يا سيدي وإلى أن تفعل ذاك تحضر عجلانيتان بين يديك مما يلائم الخيار ويفتق الشهوة ويعين على تخفيفه ، فقال احضروا عليا كل ما يريد . فأحضرت العجلانيتان بين يديه وفراريج قد صففت على اطباق

الخلاف ، وطبخ حماضية وحصرمية ومطبخة^(١) لها مريقة فلما فاحت روائح القدور هش لها المتوكل فقال له : يا علي أذقني . . فجعل يذيقه من كل قدر بجرف يُشرب فيها . فهش إلى الطعام وأمر باحضاره ، فالتفت علي الى صاحب الشراب فقال له : ينبغي أن يختار لأمر المؤمنين شراب ريماني ويزاد في مزاجه الى ان يدخل في الشرب فيهنثه الله اياه ان شاء الله . قال : فلما أكل المتوكل وأكلنا نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا إلى مجالسنا وغنى المغنون فجعل علي يقول : هذا الصوت لفلان والشعر لفلان ، وجعل يغني معهم وبعدهم غناء حسناً إلى ان قرب الزوال ، فقال المتوكل : أين نحن من وقت الصلاة ؟ فأخرج علي اصطرلاباً من فضة في خفة ، فقاس الشمس وأخبر عن الارتفاع وعن الطالع وعن الوقت ، فلم يزل يعظم في عيني حتى صار كالجبل وصارت مقابح وجهه محاسن . فقلت لأمر ما قدمت : فيك الف خصلة - طيب ومضحك وأديب وجليس وحذق طباخ وتصرف مغن وفكر منجم وفطنة شاعر . . . ما تركت شيئاً مما يحتاج اليه الملوك الا ملكته .

وعلي بن يحيى هذا هو الذي ذكر ياقوت قبيل ذلك انه « كان بكركر من نواحي القفص ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبدولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فقدم أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو اذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم ، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهاله امرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها النجوم وأغرق فيها حتى ألحد ، وكان ذلك آخرة عهده بالحج وبالدين والاسلام . »

كذلك كانت مجالس المجتمع العالية وآداب جلاسها وندمائها . والحديث الذي نقله ياقوت مظنة للزيادة والتأليف في بعض اجزائه ، ولكنه يدل في جملة على المناقب والخصال التي كانت تطلب من النديم في ذلك الرمان ، وترى من هذا الحديث كيف كانت سنة الفرس غالباً على مجلس الطرب وآدابها ومواعيدها وادواتها ، كما ترى ذلك من اوصاف المهرجانات والنوايرز واعياد الطبيعة ومنازه الرياضة والالعاب والصيد والطرود وسائر

(١) يراجع كتاب الاطعمة الموحود منه نسخة متوغرافية بالملكنة المصرية لمعرفة معظم هذه الاصناف وطريقة تحصيلها

المراسم والأزياء .

إذا تلخّصت الحالة السياسية في سوء الظن فقد تتلخّص الحالة الاجتماعية في اغتنام الفرصة ، وان هذا وذاك في الحالتين لكالشيء وظله أو كالصوت وصداه .

الحالة الفكرية

قال ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » يصف حالة عصره من العلم والأدب :

« إني رأيت أكثر زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشئ منهم فراغب عن التعلم والشادي تارك للازدياد والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس ، ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين . فالعلماء مغمورون وبكرة الجهل مقموعون ، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع اهله وصار العلم عاراً على صاحبه ، والفضل نقصاً وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع ببيع الخلق ، وآضت المروءة في زخارف النجد^(١) وتشيد البنيان ، ولذات النفوس في اصطفاق المظاهر ومعاطاة الندمان ، ونبتت الصنائع^(٢) وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر وسقطت همم النفوس . . فابعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب وينظر في شيء من القضاء ومن المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله بالتكذيب ، وهو لا يدري من نقله . قد رضي عوضاً من الله وساعنده بأن يقال فلان لطيف وفلان دقيق النظر : يذهب إلى أن لطف النظر قد اخرجته من جملة الناس . وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغشاء والغثرو وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى وهي به أليق لأنه جهل وظن أن قد علم فهاتان جهالتان ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون . ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الاسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك وعاده وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولا مثاله المسلمون وقل فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم . فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله : الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة - راعه ما سمع وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يحل منها

(١) الاثاث والمرائش

(٢) جمع صبيغة وهي البر

بباطل ! انما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه ، وراس الخط النقطة والنقطة لا تنقسم ، والكلام اربعة : أمر وخبر واستخبار ورغبة : ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ! والآن حد الزمانين ! مع هذيان كثير . . ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم ، او يسمع كلام رسول الله وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب . . فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت به حظاً من عنايتي وجزءاً من تألّفي ، فعلمت لمغفل التأديب كتباً خفياً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن وأعفيتها من التطويل والتثقيل . . وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الانسانية اي بالجسم ومن الكتابة إلا بالاسم ولم يتقدم من الاداة الا بالقلم والدواة ، ولكنها لمن شدا شيئاً من الاعراب فعرف الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئاً من التصارييف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك . ولا بد له مع كتبنا هذه من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسي والمدورات والعمودين ، ويمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر ، فان المخبر ليس كالمعاین . وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً بأجراء المياه وحفر فرص المشارب وردم المهاوي ومجاري الأيام في الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر في استهلاكه واقفاله ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه وحال ادوات الصناعات ودقائق الحساب كان ناقصاً في حال كتابته . ولا بد له مع ذلك من دراسة اخبار الناس وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً اذا كتب ويصل بها كلامه اذا حاور ، ومدار الامر على القطب وهو العقل وجودة القرينة ، فان القليل معها باذن الله كاف والكثير مع غيرها مقصر »

هكذا كان حكم ابن قتيبة على عصره .

وابن قتيبة أديب لغوي فقيه ولد في أوائل العقد الثاني من القرن الثالث ومات في سنة ست وسبعين ومائتين ، ونشأ وعاش في بلاد العراق . فهو معاصر ابن الرومي في زمنه وقرينه في وطنه وشاهد عيان لذلك العصر يحدث عنه بما اختبر ورأى من صفات أهله .

فهل أصاب ابن قتيبة أو أخطأ في حكمه ؟

لم يصب كل الصواب ولم يخطئ كل الخطأ ، وأياً كان حظه من الصواب أو الخطأ فقد مثل عصره أحسن تمثيل ينظر إليه صاحب الأدب واللغة والفقه ، وغاب عنه ما وراء ذلك من نظر لا يحيط به الذين يتحزبون لهذه العلوم على فروع العلم كافة .

فمن حسن تمثيله للعصر أنك تعرف من مقدمته كل ما كان يشغل به أبناء عصره أو لا يشتغلون به من المعارف القديمة والحديثة ، وأنت تعرف منه أن العصر لم يكن عصر العلوم القديمة وحدها ، لأن العلوم الحديثة المنقولة والموضوعة أصبحت شرطاً في الكاتب والأديب لا تتم بغيرها كتابته وأدبه . حتى رأى مثل ابن قتيبة أنه في حاجة إلى إظهار مساهمته في هذه المعرفة وهو يدعو إلى علم اللغة والكتابة ، لئلا يستجهل ويُعرض عنه .

والمعاصر من بعض الوجوه أصلح الناس للحكم على عصره ، ولكنه من وجوه أخرى أقل الناس صلاحاً لانصافه والاحاطة بجميع نواحيه ، فهناك أشياء يراها القريب ولا تدخل في رؤية البعيد ، وهناك أشياء يحيط بها البعيد ولا يلمح منها القريب إلا اليسير . كالناظر إلى القمر في المنظار يرى جزءاً منه كبيراً مفصلاً ولكنه لا يراه كله ولا يقع نظره على ما حوله . ومثل هذا ما حدث لابن قتيبة حين كبر وصغر وتناول المقياس ليقدر فأخطأ فيما قدر .

أخطأ ابن قتيبة في شرح حالة العلم والتفكير بين أبناء عصره لأسباب متعددة : منها أن العلم لم يكن منهجاً واحداً في ذلك العصر ولكنه كان مناهج كثيرة تشتمل على منهج أهل السنة المتشددين في إنكار البدع ، ومنهج الفرق الإسلامية التي تدخل فيها فرق الشيعة وفرق المعتزلة على اختلافها وتباعد المسافة بينها ، ومنهج العلوم الحديثة من يونانية وفارسية وهندية وغيرها من مستحدثات الترجمة والابتكار ، ومنهج المتأدبين المتطرفين الذين يقتبسون كل قبيح ويستطرفون كل طرفة . إلى غير ذلك من المناهج التي تتقارب وتتباعد على نحو مما نعهد في زماننا الذي نحن فيه .

وقد كان الخلاف والتعصب بين هذه المناهج على أشده في العراق لأنه كان مجمع العواصم وملتقى العرب والعجم ومثابة العلماء والأدباء من جميع الطوائف والمذاهب ، فرأي ابن قتيبة هو رأي المتشددين أنصار العلوم العربية لا يرون غيرها إلا فضولاً أو كالفصول ولا يحسبون المنطق والفلسفة والرياضة وما إليها إلا لغواً قصاراه أن يلغظ اللاغظ بالكمية والكيفية والخط والنقطة والجوهر والعرض مع « هذيان كثير » .

ولكنه مع ازدرائه هذه العلوم الحديثة لم يلبث أن فرّق من تهمة الجهل بها فذكر أطرافاً

من مصطلحاتها ودل بذلك على خطرها الذي لا يُزدرى ، ولكنها كما رأى القارىء أطراف مقتضبة كالتي نعاها على الاغرار المفتونين بظواهر تلك العلوم ، فلا يقوها القائل وله علم صحيح بما وراء تلك الأطراف .

ومن الأسباب التي باعدت بين الأديب اللغوي والاصابة التامة في تمثيل عصره أنه كان أديباً ولغوياً ، وكان سبيل العلم بالأدب واللغة أن يتحرى الطالب ما تقدمه وأن يرتقي في تحري القدم إلى أبعد عصوره . فلا ينظر إلى العصور التي خلفت بعد العرب الأسبقين إلا على أنها عصور نازلة منحدره تمنع في الجهل والاسفاف بمقدار امعانها في البعد من العربية الجاهلية ! فعنده أن السلف قد ذهبوا بالخير كله ولم يبق للمتأخرين إلا أن ينعوا زمانهم ويأسوا على ما فاتهم ! وكل زمان هو شر الأزمنة في أوانه وخير الأزمنة - أو من خيرها - متى لحق بالماضي العريق ! وما برح ذم الانسان عصره وانتقاصه إياه ديدن كل أديب فيما غبر وديدن بعض الأدباء في هذه الأيام . فابن قتيبة إنما جرى على هذه العادة التي لا تُستغرب في عهد البداوة العربية وفي عهد كل بداوة طبعت على تعظيم السلف والتفاخر بالأنساب والرجوع إلى القديم .

على أن الرجل لو تجرد من هذه العادة لبقى سبب آخر لعله كان يمنعه أن ينصف أبناء عصره أو يستجمع أخبارهم ويحسن المقابلة بينهم وبين من سبقهم ولحق بهم من أمثالهم فرجما كان بعض الجهابذة في أيامه متباعدين متفرقين في أقطار ذلك الملك الواسع لا يسمع بهم إلا لماماً ، وربما كان القريبون منه في طريق العمل فلم يستروا بعد على غاية القمة ولم يلبسوا بعد هالة الخلود والشهرة ، وذلك فضلاً عن الذين جاءوا بعده بقليل . فهو لا يعرفهم ولا يطالب بأن يعرفهم .

والحقيقة أن ذلك العصر كان من أزهى عصور العلم في بلاد الاسلام قاطبة ، لأنه كان أول عصر تلقى علوم الثقافة الاسلامية كلها كاملة مفروغاً من وضعها وترجمتها وتحضيرها غير مستثنى منها علوم السنة والعربية التي كان ابن قتيبة يتوفر عليها .

ففي القرن الثالث تمت المذاهب الأربعة في الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث كالبخاري ومسلم وأبي داود وابن ماجه والترمذي والنسائي ، ونزعت السياسة إلى تأييد أهل السنة أيام الخليفة المتوكل . ثم انتهى القرن بظهور أبي الحسن الأشعري الذي مال من مذهب المعتزلة إلى مذهب أهل السنة فقليل فيه « كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم » . ولم يخل علم من العلوم القديمة أو

الحديثة من أعلام نبغوا في القرن الثالث أو حضروا أوائله ، حتى العلوم العربية التي كان ابن قتيبة يتهم القوم باهمالها والجهل بفضائلها : وهي علوم الرواية والنحو واللغة والأدب . فمن رجالها المشهورين الذين حضروا ذلك القرن الفراء ، وابن السكيت ، وقطرب ، وابن الأعرابي ونفطويه والجاحظ وأبو عثمان المازني وثلعب والزجاج والمبرد وابن الأنباري وابن دريد والأخفش والسجستاني والصولي والرياشي وأبو سعيد البكري وقدامة بن جعفر وابن أبي الدنيا وابن العلاء السكري وكثيرون ممن يضارعون هؤلاء أو يقلون عنهم في الطبقة والشهرة . أما العلوم الأخرى فقد تأسس في ذلك القرن التاريخ والجغرافية وعاش فيه من المؤرخين والجغرافيين البلاذري واليعقوبي وأبو حنيفة الدينوري وأبو زيد البلخي والطبري وابن البطريق وابن خرداذبه وابن الفقيه وابن رسته وبزرك بن شهريار وآخرون ، وكان من فلاسفته الكندي والفارابي وابن سينا ، ومن أطبائه الرازي وابن سهل وابن ماسويه ، وراج علم النجوم حتى أوشك ألا يكون في ذلك الزمن إلا منجم !

ولم يقتصر الأمر على نبوغ هؤلاء الأعلام في مناهج العلم المختلفة بل تجاوزوه إلى طوائف الناس من خاصة وعامة . فتحدثوا بالعلوم واشتغلوا بمحاوراتها ومناظراتها وأقبلوا على اقتناء كتبها ، فكان العصر عصر ثقافة عامة كثرت فيه المشاركة في مسائل البحث والمطالعة وشاع ذلك بين الناس أوسع شيوع ، حتى كان الرجل منهم يجمع بين أشنات الثقافة في زمنه كما رأيت فيما نقلناه عن علي بن يحيى المنجم أو كما ترى من قول ابن الرومي في رجل يصفه بدعوى العلم في معرض الهجو والتهكم :

قولا	لطوط	أبي	علي	بصرينا	الشاعر	المنجم
المنذر	المضحك	المغني	الكاتب	الحاسب	المعلم	
الفيلسوف	العظيم	شأناً	العائف	القائف	المعزم	
الماهن	الكاهن	المعادي	في	نصر	إبليس	كل مسلم

وبلغت هذه التهمة العلمية حداً أضجر الطرفاء كما أضجر المتشددین ، فكان الفتى المهذب يومئذ إما طالب علم قديم أو طالب علم حديث أو مشاركاً في هذا وذاك أو ظريفاً منجراً من أكثر هؤلاء على حد وصف ابن المعتز :

قليل	هموم	القلب	إلا	للذة	ينعم	نفساً	أذنت	بالتنقل
فان	تطلبه	تقتنصه	بحانة	ولا	بيستان	وكرم	مظلل	

كمثل سراج لاح في الليل مشعل	يعب ويسقى أو يسقى مدامه
ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي	ولست تراه سائلاً عن خليفة
يناظر في تفضيل عثمان أو علي	ولا صائحاً كالعير في يوم لذة
ليعرف أخبار العلوم من أسفل	ولا حاسباً تقويم شمس وكوكب
يقلب في اضطرابه عين أحول	يقوم كحرباء الظهيرة مائلاً
وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل	ولكنه فيما عناه وسره

والظاهر أن علم النجوم والرياضات على الجملة كان أروج العلوم الحديثة وأكثرها طلاباً ، لطرافته وموافقته أحوال الزمن وتقلباته وشيوع الحضارة الفارسية التي كان أهلها يعبدون الكواكب وينوطون بها مقادير الخير والشر وطوابع السعود والنحوس ، ولم يكن الايمان بالسعد والنحس والجزر والقيافة غريباً عن العرب فقبلوا العلم الحديث غير متمسرين ، وأفرطوا فيه ذلك الافراط الذي لم يرض عنه ابن قتيبة ولم يرض عنه ابن المعتز ، وهما في هذا المقام طرفان !

وربما كان من تمام البيان عن آراء المعلمين يومئذ في فنون العلوم المختلفة أن نأتي هنا على رأي « النجوميين » في أنصار القديم كما أتينا على رأي أنصار القديم في النجوميين . فقد كان هؤلاء يهزأون بالمتشددين كما كان المتشددون يهزأون بهم ، وكانت لهم في التنادر بالقوم دعابات ونكات أظرفها ما وضع فيما نظن على لسان أحمد بن ثوبة الكاتب المعروف في زمنه وجمعت فيه نكات العصر على كارهي الهندسة والرياضة وما إليها . قال أبو حيان في كتاب الوزيرين^(١) : « . . . أن صديقاً لابن ثوبة الكاتب أبي العباس يكنى أبا عبدة قال له ذات يوم : انك بحمد الله ومته ذو أدب وفصاحة وبراعة ، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسي وعلم الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء وقرأت أقليدس وتدبرته ! . . . » .

ثم نقل أبو حيان عن ابن ثوبة أنه كتب الى صديق له سألته عما حدث بينه وبين معلمه الهندسة فأجابه بعد تطويل وحويلة واستعاذة بما يأتي :

« . . . فأخذ القلم ونكت نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصري وتوهمها طري في كأصغر من حبة الذر ، فزمزم عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله ثم أعلن عليها

(١) راجع معجم الادباء في ترجمة ابن ثوابه .

جاهراً بإفكته وأقبل علي وقال : أيها الرجل ! ان هذه النقطة شيء لا جزء له ، فقلت : أضللتني ورب الكعبة وما الشيء الذي لا جزء له ؟ فقال: كالبيسيط . . . فقلت أنا : وما الشيء البسيط ؟ فقال كالله والنفس ! فقلت له إنك من الملحدين . أتضرب لله الأمثال والله يقول فلا تضربوا لله الأمثال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون ؟ . . فلما سمع مقالتي كره استعاذتي فاستخفه الغضب فأقبل علي مستبسلاً وقال : اني أرى فصاحة لسانك سيباً لعجمة فهمك ، وتدرعك بقولك آفة من آفات عقلك . فلولا من حضر والله المجلس واصفاؤهم اليه مستصوبين أباطيله ومستحسنين أكاذيبه وما رأيت من استهوائه إياهم بخدعه وما تبينت من توازرهم لأمرت بسل لسان اللكع الأ لكن وأمرت باخراجه الى حر نار الله وسعيه . . . » .

ومضى ابن ثوبة يذكر كيف جاءوا له بمعلم مسلم بعد هذا المعلم النصراني وكيف استعظم هذا المعلم المسلم عليه أن يدرك النقطة وقال له :

« وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة ؟ فقلت استجهلني ورب الكعبة ! . . وأخذ يخط وقلبي مروع يجب وجباً وقال لي غير متعظم : ان هذا الخط طول بلا عرض ، فتذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له قاتلك الله ! أتدري ما تقول ؟ تعالى صراط ربي عن تخطيطك وتضليلك ! انه لصراط مستقيم وانه لأحد من السيف الباتز والحسام القاطع وأدق من الشعرة وأطول مما تمسحون وأبعد مما تذرعون : أتطمع أن ترزحزحني عن صراط ربي وحسبتي غراً غيباً لا أعلم ما في باطن ألفاظك ومكنون معانيك ؟ والله ما خططت الخط وأخبرت أنه طول بلا عرض الا ضلّة بالصراط المستقيم لتزلّ قدمي عنه وان تردّيني في جهنم ! أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة وما تدلّ عليه وترشد اليه . . . إني بريء من الهندسة وما تعلنون وتسرون . . . » .

فهذا مثل بارع من السخرية التي كانوا يقابلون بها سخرية القوم من المنطق والنجوم . والكتابُ على ما فيه من الصورة الهزلية يدل بين سطوره على حقائق كثيرة : منها استفادة تلك العلوم وجلالة خطرهما بين المتأدبين حتى أن رجلاً كابن ثوبة بلغ من المكانة والسن مبلغه يخف الى تعلمها ويحسب أن مروءته لا تكمل بين ذوي العلم بخير درسها ومنها أن اشياءها كانوا من الكثرة وأن أساتذتها كانوا من التجلة والهيبة بحيث كان يعز على ابن ثوبة أن يجد في مجلسه رجلاً واحداً يؤازره ويرضى له أن يبين المعلم الذي جابهه بالقول الخشن واستطال عليه بالتقريع في داره . وليس يخفى ان الهزل كالغضب كلاهما مصورٌ مُبالغ

موكل بالغلو في التكبير والتصغير ، فلا المتشددون كانوا كما مثلهم لنا أبو حيان في دعابته وهزله ولا المشغوفون بالحديث كانوا كما مثلهم لنا ابن قتيبة في نكرانه وغضبه ، بيد أننا إذا حسبنا كل حساب لمبالغة الهزل ومبالغة الغضب بقيت المسافة طويلة بين الفريقين والبرزخ الفاصل بينهما متعذر العبور على تقارب الجيرة في الزمان والمكان :

وسكان دار لاتزاور بينهم على قرب بعض في المحللة من بعض

وليس بصعب على الفارئ أن يتخيل هذه الحالة بحملتها لأنها أشبه شيء بما نحن فيه الآن من تباعد وتقارب واتصال في الثقافات وانفصال ، أولعل الفرق الوحيد بيننا وبينهم أن عصرهم كان عصر الموائى الذين يدخلون العصبية الشعبوية في هذا الخلاف ويجهدون في درس العلوم الحديثة لأنها تنافس العلوم العربية وتضيف إليها ما ليس منها ، وهم يودون ألا يحصروا الدين والعلم والسيادة جميعاً في العرب ، وألا يستأثر العرب دونهم بكل مآثرة وفضيلة . وقد يشعرون بهذا القصد أولاً يشعرون ، ولكنهم حريون أن تميل بهم ضمائرهم هذا الميل اذا وقع التنافس بين العرب والشعبوية والتمست المقايض من الجانبين

الشعر

قد تكثر دراسة الآداب والعلوم ولا شعر ، وقد يكثر الشعر ولا دراسة للآداب والعلوم .
أما القرن الثالث للهجرة فقد كان جامعاً لأشتات الثقافة بفروعها ، كثير الآداب والعلوم
كثير الشعر كثير المعنيين بالأشعار .

عاش في ذلك القرن - ولا سيما أوائله وأواسطه - نخبة من جلة الشعراء النابيين كآبي تمام
والبحتري والحسين بن الضحاك وعلي بن الجهم ودعبل الخزاعي وابن المعتز وابن
الرومي ، وعاش فيه مع هؤلاء مئآت من قالة الشعر المحسنين وغير المحسنين والمحترفين
وغير المحترفين ، وأوشك أن يكون كل متعلم متأدب شاعراً ينظم الأبيات والمقاطع في
بعض أغراضه . فالخلفاء كانوا ينظمون للغزل والغناء ، والأمراء والوزراء سواء منهم
الفرس والعرب - كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشيء الكثير ، والمنتمون إلى
الفرس والأعاجم كانوا أسبق إلى المنافسة في هذا المضمار لينفوا عنهم تهمة العجمة
ويدخلوا مع العرب في ميدان الفصاحة : ومن الأمراء الفرس الذين مدحهم ابن الرومي
من وضع كتاباً في الشكر صممه حرر - ~~وحنمة باقاديح يطري بها~~ -
صديقه العلاء بن صاعد على حروف المعجم ، ونعني به عبيد الله بن - د الله بن طاهر
عميد بيته العريق الذي تخرج منه كبار القواد والولاة .

لهذا كان ابن الرومي يقول وهو يشكو :

قد بلىنا في دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء
لأنه كان يشعر بالمنافسة ولا يشعر بالعطف من جانب هؤلاء الزملاء .

وندر في ذلك العصر من خلا شعره من آثار الحضارة التي أجملنا وصفها فيما تقدم . فمن
لم تظهر في شعره المعاني الفلسفية والآراء الطريفة التي سرت إلى المتأدبين من مذاكرة علم
الكلام والعلوم المترجمة ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى التي كشفها البحث في أشعار
المتقدمين وأدت إليها المعارضة بين أقوال الفحول واستطلاع أسرار البلاغة فيما أجادوه ،
ومن لم يظهر في شعره هذا وذاك ظهرت فيه تفخيئات الفرس وترصيعاتهم وجاءته العدوى
من أساليب الكتاب في النثر المنمق وأساليب التحية في المجالس وأساليب المعيشة في
القصور ، وربما عرضت الكلمة الفارسية في البيت العربي مما له المرادفات بالعشرات

كقول شاعرنا :

يا أيها الملك الذي في برده قمر وشير

يعتي الأسد .

وربما نظموا في أوزان الشعر الفارسية كالدوبيت والرباعية ، أو تفتنوا في التسميط والتوشيح والازدواج على نحو ما نواه من كلف بعض الشعراء المعاصرين باختراع الأوزان والأعاريض

وامتاز هذا العصر على العصر الذي تقدمه بما يصح أن نسميه علم الشعر تمييزاً له من العناية بنظم الشعر نفسه . فقد كان الشعراء المولّدون يأتون بالمحسنات البليغة عفواً أو محاكاة للأقدمين أو تصرفاً في الاختراع ، ولا يسمون هذه المحاسن بأسمائها أو يستخرجون منها علماً مرتباً على أقسام معزراً بشواهد ، وسبق في هذا المجال أمثال بشار ومسلم والعتابي وأبونواس ، وتلاهم أبو تمام وتلامذته في أوائل القرن الثالث . ثم تمكن حب التعريف والتقسيم والتخريج والتأويل من عقول الأدباء ، وكثف الجاحظ وقدامة بن جعفر وابن المعتز في هذه المعاني فاذا علم جديد مقيس على الشواهد معروف بالأسماء .

وما انتهى القرن الثالث حتى كانت لهم نظرة في الشعر كالنظرة التي رواها صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ يقول :

« مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وبانته في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالته ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يجترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الاحسان ، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتي القصيدة في تناسب صدورها واعجازها وانتظام نسيبها بمدحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا يفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم واعتمادهم البديع وأفانيه في أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعامل عن كذا إلى كذا وقضارى كل أحد منهم وصف ناقة بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطأها فادّرع عليها جلباب الليل ، وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به إلى غرض لم يتعمده ، إلا أن طبعه السليم وصراطه في الشعر المستقيم

نضى تياره وأوقد باليفاع ناره » إلى أن يقول بعد أبيات أوردها للنابغة الدبياني :

« وهذا هو كلام متناسب تقتضي أوائله وأواخره ولا يتميز منه شيء عن شيء . . . ولو توصل إلى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني وفتحوا أبواب البديع واجتنبوا ثمر الآداب وفتقوا زهر الكلام لكان معجزاً عجباً »

فهذه النظرة تريك أثر البديع في كتابتهم وفي نقدهم القصيد ، فأما الكتابة فهذا نمط منها تكثر فيه الاستعارة مع القصد إلى معنى يراد ويُفهم ، وأما النقد فمذهبهم في وحدة الأغراض واتصال الأجزاء لا يخالف مذهب المعاصرين إلا باستحسان التلفيق بين المديح والنسيب ، وعذرهم أن المديح كان قوام حياة الشاعر يومئذ فما كان الاستغناء عنه والاعتماد على النسيب وحده بالمستطاع .

وغني عن القول بعد هذا أن « التنبُّه » كان هو السمة الغالبة على الشعر كله في ذلك العصر الدائب على التفتيش والانتقاد ، فكان شاعرهم ينظم القصيدة وهو واع لنفسه عامداً لترتيب أبياته عارفاً بمواضع التجويد في لفظه ومعناه ، وتتابع الشعراء كبارهم وصغارهم على هذا فكان فيهم كلُّ ما في هذه الطريقة من المآخذ والفضائل ومن عناصر الضعف والقوة .

وتغيرت أغراض الشعر فهذا الذي يقول فيه ابن قتيبة إنه لا يعدو مدح قينة أو وصف كأس . . ! وإنما كان هذا الإمام الناقد الذي درس الشعر ووازن بين أصوله وفصوله مستنكراً مستصغراً يرى الشوهة ويغمض عن الحسنة . ولولا ذلك لرأى أن الشعر قد كان يعدو مدح القيان ووصف الكؤوس إلى أغراض كثيرة تشمل كل وصف وتدخل في كل معرض من معارض الحياة في ذلك الزمان ، ولم يقل فيها إلا ما كان وقفاً على أغراض البداوة وأيام الجاهلية الأولى . لأن هذه البداوة قلَّت فلم يكن لها نصيب من الشعر إلا القليل .

لكننا نخاله على حق فيما شكاه من شح الجوائز وكساد سوق أهل الأدب عامةً عند الملوك والأمراء ، فاشتغال هؤلاء الملوك والأمراء بالشعر ونظمه وحفظه وروايته شيء واجازتهم عليه الجوائز السنوية شيء آخر . إنما كانوا في عصر ثقافة يود فيه كل امرئ كامل المروءة أن

يعرف كلٌّ ما يُعرف من الآداب والفنون والملاهي ، فإذا تعلموا الشعر فكما يتعلم الرجل المثقف التوقيع على المعازف والشعوذة وطرائق التفكهة والاضحاك في مجالس السمر ، ولا يلزم من ذلك أن يكون لهذه الأشياء أو لأهلها المنقطعين لها خطر في نفسه .

ولا عجب أن يكثر الناظمون وحافظو الشعر في زمن كانت الوزارة فيه والكتابة - أو صناعة الأدب - فناً واحداً وشارة واحدة ، وكان معظم الوزراء والولاة من الأدباء الذين ظفروا بالخطوة عند الخلفاء ، ولكنّ أموراً كثيرة طرأت في أواخر ذلك العصر كان من جرائها تطفيف أرزاق الشعراء وابتلاؤهم بكثرة النظراء وقلة النصراء : ومنها توزُّع العناية بين العلوم الحديثة والشعر الذي كان مستأثراً بجُل عناية العرب في صدر الدولة الإسلامية ، ومنها غلبة المنادمة على الشعر وترجيح صفة النديم على صفة الشاعر إذا تعذر الجمع بين الصفتين ، ومنها قلة الاكتراث للمدح والذم حين استبحر العمران واستفاضت المناعم واللذات وشاعت الاباحة والمجون ، ومنها كثرة الشعر والشعراء فقد أصابه وأصابهم ما يصيب كل كثير من الرخص والبوار ، ومنها أن الدعوة السياسية خرجت كلها - أو أغلبها - من أيدي الشعراء إلى أيدي الدعاة الذين تفرغوا لهذه الصناعة وبلغوا بها أيام العباسيين والعلويين شأواً من البراعة والانتقان قلماً يفاق في عهد من العهود ، ومنها اضطراب أمور الحكم واختلال أحوال الرعية في أواسط القرن الثالث بين عصرين سعيدين فات السابق ولم يأت بعده أوان اللاحق : ونعني بهما عصر الهيبة والثروة والعطايا والملك الموطَّد المرجو المخوف ، وقد ذهب . وعصر الأمراء الذين تقسّموا المملكة واستقر كل منهم على جزء منها وتنافسوا بينهم في اجتلاب الشعراء والتشبه بالخلفاء ، ولم يأت بعد !

فكان الشعراء ضائعين من هنا وهناك ، وربما كان هذا سر خفوت الشعر وقلة الشعراء المجيدين في الربع الأخير من القرن الثالث ، والربع الأول من القرن الذي تلاه .

الدين والاخلاق

إذا عُرِفَتْ حالة السياسة وحالة الاجتماع وحالة التفكير فليس بالحالة الدينية ولا الخلقية خفاء .

لأن عقيدة المرء شديدة الصلة بتفكيره ومعيشته ومجرى الأحكام في زمانه ، وظاهرٌ بعد ما تقدم أن الدين في القرن الثالث لم يكن « دين الفطرة » الذي يؤمن به شعوب لم يعرف الترف والفساد ، ولم يشهد من ولاته إلا العدل والاستقامة ، ولم يتعود أن يناقش نفسه في عقيدته وعقيدة غيره . فنشوء المذاهب واختلاف الآراء ضرورة لا محيد عنها في أمثال تلك الأحوال .

كتب ميسرة بن حسان السمرى إلى أحمد بن سليمان بن أبي شيخ يسأله عن مذهبه ولم يكن أحد يقف على حقيقته :

دخلتنا الشكوك يا ابن أبي شـ
وإلى أيها تميل أبا جعفر
يخ بأي الأديان أنت تدين
كم ذا الهوى وذا التلويح ؟
فأجابه عنه ابن الرومي :

يا ابن حسان لا تشكَّن في د
فهو توحيد ذي الجلال وتصد
فاعدُ عني وانظر لنفسك دوني
يني ، ولا تقتسمك في الظنون
يق الذي بلغ الرسول الأمين
ليس يحزى سواي عما أدين

وسؤال ابن حسان له مغزاه فما كان له من محل لو أنهم كانوا يصدقون أن الرجل في زمانهم يبطن ما يظهر ويؤمن بالدين الذي يؤمن به الناس كافةً . فكأنما كان المفروض في طائفة من الناس أن يطووا سرائرهم على مذهب غير مذهب الاجماع وسر في الاعتقاد غير الذي يبدونه علانية من « توحيد ذي الجلال وتصديق الذي بلغ الرسول » . وليس يعجيب أن يكون الأمر كذلك والعهد عهد الملل والنحل والأحزاب والعصبيات والدعوات والبحث والتفسير . فما من نحلة كانت ولا شعبة من نحلة إلا كان لها أنصار ولأنصارها شأن ما في بعض الجهات . ولا سيما العراق ملتقى الأمم ومشتجر النزاع ومتوسط الرقعة الاسلامية ومثابة الحضارات القديمة والحديثة . وما كان أكثرها من نحل وأشدّه من لهج بالانتحال !! لكأنما كانت بلاد الدولة العباسية معرضاً للنحل ومستبَقاً للمشاقة بين المتحليين !! ففيه التشيع بدرجاته والاعتزال بطوائفه والسنة باختلاف أقوال المجتهدين

فيها والفلسفة بمذاهبها والعلوم الحديثة بشعابها ، وفيه ما بين هذا وذاك أشكال من التدين يجيء بها دخول الفرس والروم والديلم في الاسلام عمداً أو على غير عمد . فبعضهم كان يُسلم وهو في الباطن على دين آبائه ، وبعضهم كان يخلص في إسلامه ولكنه ينقل إلى دينه الجديد موروثات دينه القديم ، وذلك فضلاً عن النصارى واليهود وعباد الأوثان . وكلهم على اختلاف في المذاهب والعصبيات كهذا الاختلاف ، فغير مستغرب أن يُسأل المرء عن دخيلة رأيه وباطن اعتقاده في هذا المعرض الحاشد بالطوائف والأديان .

إلا أننا نخطيء أشد الخطأ إذا فهمنا من هذا أن الاباحة حلت محل الدين في تلك الفترة فتعفى أثره وبطل سلطانه . فان مداراة الآراء التي تخالف الاجماع لا تدل على ذلك بل لا تدل إلا على نقيض ذلك ، والمعهود في أمثال تلك الفترة أنها تقبل الغلو في التدين كما تقبل الشكوك وتعدد المذاهب ، كأن الاحساس بالخطر على العقيدة يحرك بواعث الغيرة عليها ويزعج النفوس إلى المنافحة عنها ، فاذا رأيت الاباحة والترخص في جانب لم تلبث أن ترى الغلو والتشدد في الجانب الآخر ، ولا يخفى أن هذا الجانب الآخر هو الأقوى والأكبر لانه جانب العادة الخالدة والعتد الأكثر .

وربما لاح للناس أنهم نبذوا الدين فما يشعرون إلا وهم يلبنون دعواته ويتعصبون لأهله ويظنون في أنفسهم أنهم غير متدينين ! ولقد كان مع الترخص في إباحة اللذات أناس غالون في النهي عنها يثورون على أصحابها في الحين بعد الحين ليقوموا المنكر باليد واللسان . ومن هؤلاء فئة ببغداد خرجت - بعيد مولد ابن الرومي - تهجم على البيوت فتريق الخمر وتضرب القيان وتكسر العيدان ، وكان يُنادى في بغداد قبيل وفاته - أي في سنة تسع وسبعين ومائتين - « ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاصراً ولا منجم ولا زاجر » وحلف الوراقون ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة .

بل كان ابن الرومي إذا ذكر الخمر في مديح أمير أسرع فاستدرك قائلاً إنها الشراب الحلال لا الشراب الحرام :

سؤر نار يحثها طابخان	لا المدام الحرام لكن حلا،
أن أداموه مثلها في الدنان	شارك الخمر في اسمها ليس إلّا
عم ولطف الدبيب في الجثمان	وحكاها في اللون والريح والط
هو خمر في الظن والحسبان	فهو لا خمر في الحقيقة لكن

ومثل هذا لا يقال إلا وللدین هیة وللفرائض رعاة .

وهناك الضمائر التي لا تقوى على الشك لأنها تستريح إلى التسليم والانكال ، فهي إما أن تهرب من الشكوك والأقاويل إلى إيمان بسيط لا حاجة فيه ، أو تهرب منها إلى اللهو والمؤانسة وما يعينها في الحاضر بين يديها لحظة يعد لحظة ، كما قال ابن المعتز :

ولكنه فيما عناء وسره وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل
وأصحاب هذه الضمائر هم - حين يحسبون - أقرب إلى المؤمنين منهم إلى المشككين

وما يقال في الدين يقال في الأخلاق . فلا ريب في أن السياسة القائمة على السلب والغيلة ، والأداب القائمة على اغتنام الفرص وانتهاب اللذات ، والعقائد القائمة على ما رأيت من الشك والتشعب - قلما تبقى للنفوس بقية صالحة من الأخلاق ومسكة عاصمة من الغواية . ولكننا حريون أن نذكر أن نفوس الدهماء مطبوعة على العزاء ، وأن أكبر العزاء لها في هذه الفترات أن تحسب الغواية والرديلة من مساوئ الغنى والجاه وتعتصم هي بالصبر والرجاء ، وفي بنية الأمة أبداً مثل ما في بنية الحي من العوامل المكافحة للفساد التي لا تني تصون الجسم زمناً ولا تبرح ثلهم وظائفه السداد وإن ضل العقل وأنحى على الجسم بما ينهكه ويرديه . فتظل هذه العوامل ناشطة في بنية الأمة ولو تراءى للنظر من مشاركة بعض الطبقات أنها وقعت في الاضمحلال . فلا يحسن بنا أن نبالغ في تضخيم شأن الفوضى التي ابتليت بها العقائد والأخلاق في تلك الفترة الشاذة المتناقضة ، فهي ولا ريب كبيرة وبيلة ولكنها ليست أكبر ولا أوبل مما قد يعتري أمة كثيرة وتؤايتها بعده أسباب السلامة .

ذلك عصر ابن الرومي بخيره وشره وزيادته ونقصه . لقائل أن يقول في أطواره ما شاء أن يقول ، وأن يختلف في أوصافه ما شاء أن يختلف ، ولكن وصفاً واحداً من تلك الأوصاف لا يجوز فيه أقل اختلاف : ذلك أنه كان في خيره وشره عصرًا حيًا يصنع التواريخ

وليس بالعصر الميت الذي يطويه التاريخ في ثناياه .
وقد وضعنا له حدوداً من أرقام السنين لضرورة الحصر والتقريب ، ولكننا لم نرد بتلك
الأرقام إلا أن تكون معالم في طريق الزمن يهتدى بها إلى البدايات والنهايات ، وليست هي
البداية والنهاية ولا هي محور الابتداء والانتهاء .

الفصل الثاني

أخبار ابن الرومي

العصر والرجل

في تاريخ كل أمة عصر أو عصور اشتهرت بكثرة الذين ظهوروا فيها من النوابغ والعبقريين في الشعر والأدب والعلم والفن والصناعة ، فيقول الذين يرجعون الفضل كله إلى العصر وحده إن أحوال العصر هي التي عليها المعول في تكوين المواهب والعبقریات .

وفي تاريخ كل أمة أيضاً نوابغ وعبقريون ظهوروا في مختلف العصور على تفاوت الأحوال بين عصر وعصر وبيئة وبيئة ، فيقول الذين يرجعون الفضل كله إلى ملكة الفرد واستعداده أن العصر لا يغني شيئاً في تكوين المواهب والعبقریات ، وأنه - إذا لم تسعف الموهبة والعبقرية - قليل الغناء .

ونحن يجب أن نحذر كل فكرة يراد بها أن تخدم فكرة أخرى ، فهي تفقد استقلالها كله أو بعضه كما يفقد استقلاله كل من يخدم سواه . إنما تحترم الفكرة إذا أريدت لنفسها ولم تُرد لتأييد فكرة هي مضافة إليها .

فيغلب على الذين يحصرون الفضل في العصر وحده أنهم يدعون إلى الاجتماعية والاشتراك في مرافق الأمة ، فيقللون من شأن الأفراد في الوصول إلى حظ من حظوظ العلم والمال بغير مساعدة المجتمع ومؤاتاة الحوادث .

ويغلب على الذين يحصرون الفضل في الفرد وحده أنهم ينازعون أصحاب ذلك الرأي وينظرون إلى تفنيده وتوهينه لابطال ما يدعو إليه .

فهم مخطئون وأصحابهم أولئك مخطئون . ولا يرجى الاخلاص وصدق التحري في فكرة مسخرة تساق في ذيل مذهب تعتمد عليه أو يعتمد هو عليها . فلا العصر هو كل شيء ولا الموهبة الفردية هي كل شيء ، والأمر الذي لا مراء فيه هو أن العصر لا يخلق الموهبة إذا هي لم توجد في صاحبها ، وأن بعض العصور من الجهة الأخرى أصلح لاظهار المذاهب والعقريات .

ثم أن العصر إذا لم يخلق الموهبة خلقاً فهو بلا ريب يوجهها ويهيء لها أسباب تمامها واستوائها ، بحيث يسهل علينا أن نفهم كيف أن عبقرية من العبقريات تهتدي على وجهتها في زمن ولا تهتدي إليها في زمن آخر ، وكيف أن رجلاً يكون صانعاً في هذا العصر أو ذاك وهو لو ولد في غيره لكان من الأدباء أو السواس .

ولا فائدة هنا من البحث في مصير ابن الرومي ماذا كان يلقي وماذا كان يصبح لو أنه ولد في غير القرن الثالث للهجرة . فقد ينبغ أولاً لا ينبغ ، إلا أن المحقق عندنا أنه في أي عصر ظهر لا يكون الا شاعراً أو صاحب عمل فني بسبيل من الشاعرية . فقد نتخيل أبا تمام - مثلاً - قاضياً والبحثري عاملاً والمتنبي وزيراً والمعري فقيهاً والشريف خليفة أو إماماً من أئمة الطريق ، وقد نتخيلهم جميعاً ظاهرين بارزين في غير هذه الأعمال التي يزاولها أبناء الدنيا ويفلحون فيها على درجات من الفلاح ، فهم يصلحون لها ولغيرها بعض الصلاح وإن كانوا مع هذا شعراء وذوي قدم في مناهج الشاعرية . أما ابن الرومي فهو لا يصلح إلا للشعر وما إليه ولا ينفعه العصر إن لم ينفعه في هذا المجال . فاذا تمهد له الشعر فقد استوى على نهجه ، وإذا لم يكن شاعراً فهو لا شيء .

والعصر الذي عاش فيه كان صالحاً لظهور ابن الرومي أيما صلاح : كان صالحاً لظهور ابن الرومي - الشاعر - لأنه كان عصرًا حيًا حافلاً بأشتات الحياة وألوان الاحساس مشغولاً بالشعر والعلم وكل ما تشتغل به قريحة أو سليقة ، وكان فيما عدا ذلك عصر الموالي أو عصرًا للموالي فيه نصيبٌ وافر من التعلم والتأدب والتربية التي تُعيد صاحبها للسبق في كل مضمار .

كان لهذا عصرًا صالحاً لظهور ابن الرومي الشاعر الذي لا متقدم له في غير الشاعرية . ولكن أترأه كان كذلك عصرًا صالحاً لظهور ابن الرومي - الرجل - الذي لم تبق منه الشاعرية بقيةً لمسعاة ولا لتصرف ؟

لا ! لم يكن ذلك العصر صالحاً لابن الرومي الرجل كما كان صالحاً لابن الرومي الشاعر . بل لم يكن ذلك العصر إلا عصر مضيعة له ولأمثاله الذين خلقوا في هذه الدنيا وكأنهم أطفال في حجر الفن ، لا يكفلون أنفسهم ان لم تلحظهم من الدنيا كفالة ساهرة .

فكانت قسمته تلك من غرائب القسم التي تتنازع الانسان بين النقيضين ، كأنه جسم مشدود للتعذيب بين قطبين متجاذبين .

فمن جهة هو في زمنه الذي لم يخلق لغيره ، ومن جهة هو في الزمن الوحيد الذي لم يخلق له ولم يتزود له بألة : ابن الرومي الشاعر في عصر الحياة والاحساس والدراسة والموالي فهو بخير . . . وابن الرومي الرجل في عصر الدهاء والخبث والصراع الجهنمي فهو بشر ما يكون عليه مثله . . . ولا سبيل إلى الافتراق بين الشخصين ، ولا سبيل كذلك إلى التوفيق بينهما على حال !

لو كان ابن الرومي شاعراً وشيئاً آخر لكان قميناً أن يرضى بعصره وأن يرضى به عصره : لو كان شاعراً ورجلاً يحسن الخوض في معترك العيش بين تلك الفتن والمغامرات لاتفق بعض الفشل على الأقل وارتجى بعض النجاح . لكنه كان شاعراً وحسب ولم يكن له زاد آخر غير السليقة الفنية ! فبجنى الشاعر على الرجل ولم يسعد الشاعر بما جناه . ومن هنا ذلك التفاوت بين نصيب شعره ونصيب شخصه ، وذلك الخطأ في تقدير مكانه وسمعته . فهو خامل وليس بخامل وهو نابه وليس له نصيب النباهة ! شعره نافق وقائل الشعر كاسد . . . وربما عابوا شعره في حياته وأكثروا من عيبه . ولكنك بيسير من النظر قد ترى انهم لم يقصدوا بالعب الشعر كما قصدوا القائل . . . وإن كان في الشعر ما يعاب !

فالذين تبادر اليهم أن ابن الرومي كان مجهول القدر في حياته وبعد مماته انما نظروا إلى إحدى صفحتيه ولم ينظروا إلى الصفحة الأخرى . انما كان خمول الرجل انه لم ينتفع بمعرفة الناس إياه لا أنه لم يُعرف ، وربما كان له خمول آخر وهو أنه لم يُعرف بأحسن مزاياه . أما انه قد عرف فذلك حق لا شك فيه .

وقد ازداد الناس معرفة به بعد موته كما اتفق كثيراً لمعظم الادباء والعلماء . فقال العميدي صاحب الابانة المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وهو يذكر المتنبي . « ولا أقيسه في امتداد النفس وعلم اللغة والاقتدار على ضروب الكلام وتصوير المعاني العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارة والاداب الواسعة بابن الرومي » . . . وقال ابن رشيق

صاحب العمدة المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة : « أكثر المولدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الخذاق أبو تمام وابن الرومي » . . . وقال ابن سعيد المغربي المتوفى سنة ثلاث وسبعين وستائة في كتابه عنوان المرقصات والمطربات : « ويقولون انه أحق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده » . . . وذكر وفاته ابن الأثير المتوفى سنة ثلاثين وستائة فقال ان « ديوانه معروف » . . . أي ان هذا الديوان كان متداولاً في أيدي الأدباء إلى أيامه . ونظر إلى معانيه كثير من فحول الشعراء والأدباء منهم المتنبي وبديع الزمان والمعري والشريف ، وشاعت مختاراته في كتب الأدب فلم يخل منها إلا قليل .

أما أخباره فقد عُنِيَ بكتابتها وروايتها اثنان من أدباء عصره ، وهما عبيد الله بن المسيّب وأبو عثمان الناجم . وثالث هو أحمد بن عمار قال ابن المسيّب انه لما مات ابن الرومي « عمل كتاباً في تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس » .

ويظهر أن أبا عثمان سعيد بن هاشم الخالدي من أدباء القرن الرابع توسع في ترجمته إما في كتابه حماسة المحدثين أو في كتاب مقصور عليه ، ولكن أخباره هذه ذهبت كلها ولم يبق منها أثر إلا متفرقات في الكتب لا تغني في ترجمة وافية ولا شبيهة بالوافية ، وهي على قلتها لا يسعنا إغفالها ولا يسعنا كذلك أن نعتمد عليها ونقبلها على علاتها .

فنحن ننقلها كما هي فيما يلي ثم نعقب عليها ونستخرج منها ما في الوسع أن نستخرجه من ترجمة للرجل تدل عليه وتستحضر للذهن صورةً لعبقريته ، ومثلنا في ذلك كمثّل المنقيين في المحفورات إذ يعثرون ببعض العظام المهشمة من جسم مدثور ، فهم يقيسون المفقود على الموجود ويضنون بما وجدوه على الضياع ولو لم يكن به قوام .

أخبار ابن الرومي

ولد ابن الرومي كما جاء في ابن خلكان : يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد في الموضع المعروف بالعقبة ودرب الختلية في دار بازاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور .

وبحثنا كثيراً في الكتب التي عثرنا على شيء من أخباره فيها فلم نجد ذكراً لأبويه وأهله ولا لأيام حداثة وتعليمه ، وانقطعت أخباره في هذه الفترة فلم تقع لنا الا النوادر التي رويت عنه وهو شاعر لا تعرف سنه إلا بالنظر الى تواريخ الوقائع التي وردت في شعره . فجاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي أثناء الكلام على أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار :

« . . . ووجدت في كتاب ألفه أبو الحسن علي بن عبيد الله بن المسيب الكاتب في أخبار ابن الرومي ، وكان ابن المسيب هذا صديقاً لابن الرومي وخليطاً له قال : كان أحمد بن محمد بن عبيد الله بن عمار - هكذا قال في نسبه بتقديم محمد على عبيد الله - صديقاً لابن الرومي كثير الملازمة له ، وكان ابن الرومي يعمل له الأشعار وينحله اياها يستعطف بها من يصحبه ، وكان ابن عمار محدوداً فقيراً وقاعة في الأحرار وكان أيام افتقاره شديد السخط لما تجري به الأقدار في آناء الليل والنهار . حتى عرف بذلك فقال له علي بن العباس بن الرومي يوماً : يا أبا العباس ! قد سميتك العزيز . قال له : وكيف وقعت لي هذا الاسم ؟ قال لأن العزيز خاصم ربه بأن أسأل من دماء بني اسرائيل على يدي يختنصر سبعين ألف دم ، فأوحى الله لئن لم تترك مجادلتني في قضائي لأخونك من ديوان النبوة ! وقال فيه :

وفي ابن عمار عَزِيرِيَّة يشارك الله بها في القدر
لَمْ كَانَ مَا كَانَ وَكَيْسَمَ لَمْ يَكُنْ ما لم يكن ، فهو وكيل البشر

إلخ إلخ . . .

وكتب ابن الرومي الى أحمد بن محمد بن بشر المرثدي قصيدة يمدحه بها ويهنئه بمولود ولد له ويحضه على بر ابن عمار والاقبال عليه يقول فيها :

ولي لديكم صاحب فاضل أحب أن يرعى وأن يصحبا

إلخ إلخ . . .

قال : « وصار محمد بن داود بن الجراح يوماً الى ابن الرومي مسلماً عليه فصادف عنده أبا العباس أحمد بن محمد بن عمار وكان من الضيق والاملاق في النهاية ، وكان علي بن العباس مغموماً به فقال محمد بن داود لابن الرومي ولأبي عثمان الناجم : لو صرتما الي وكثرتما بما عندي لأنس بعضنا ببعض . فأقبل ابن الرومي على محمد بن داود فقال : أنا في بقية علة وأبو عثمان مشغول بخدمة صاحبه - يعني اسماعيل بن بلبل - وهذا أبو العباس بن عمار له موضع من الرواية والأدب وهو على غاية الامتاع والايناس بمشاهدته ، وأنا أحب أن تعرف مثله ، وفي العاجل خذه معك لتقف على صدق القول فيه فأقبل محمد بن داود على أحمد بن عمار وقال له تفضل بالمصير اليّ في هذا اليوم وقبله قبولاً ضعيفاً ، فصار اليه ابن عمار في ذلك اليوم ورجع الى ابن الرومي فقال : اني أقمت عند الرجل وبنت وأريد أن تقصده وتشكره وتؤكد أمري معه ، ومحمد بن داود في هذا الوقت متعطل ملازم منزله . فصار اليه وأكد له الأمر معه وطال اختلافه اليه الى أن ولي عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد واستكتب محمد بن داود الجراح وأشخصه معه وقد خرج الى الجبل ورجع وقد زوجه بعض بناته وولاه ديوان المشرق ، فاستخرج لابن عمار أقساطاً أغناه بها وأجرى عليه أيضاً من ماله ، ولم يزل يختلف اليه أيام حياة محمد بن داود ، وكان السبب في أن نعشه الله بعد العثار وانتاشه من الاقتار ابن الرومي ، فما شكر ذلك له وجعل يتخلفه ويعيبه ، وبلغ ابن الرومي ذلك فهجاه باهاج كثيرة . . . قال ابن المسيب : ومن عجيب أمر عزيز هذا أنه كان ينتقص ابن الرومي في حياته ويزري على شعره ويتعرض لهجائه . فلما مات ابن الرومي عمل كتاباً في تفضيه ومختار شعره وجلس عليه على الناس » .

وجاء في الجزء الأول من العمدة لابن رشيق :

« وهجا ابن الرومي البحتري وابن الرومي من علمت فأهدى اليه تحت متاع وكيس دراهم وكتب اليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه ، وأنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط .

شاعر لا أهابه	نبحتني كلابه
ان من لا أعزه	لعزيز جوابه

وروى المرزباني في الموشح أن عبد الله بن يحيى العسكري أخبره عن أبي عثمان سعيد بن الحسن الناجم أن البحتري قال له :

« أشتهي أن أرى ابن الرومي » قال فوعده ليوم بعينه وسألت ابن الرومي أن يصير إلي فيه ، فأجابني إلى ذلك . فلما حصل ابن الرومي عندي وجهت إلى البحرني فصار إلي ، فقال له البحرني : قد أقرأني أبو عيسى بن صاعد قصيدة في أبيه وسألني عن الثواب عنها ، فقلت أعطوه لكل بيت ديناراً . ثم تحدثنا ، فقال البحرني : عزمت على أن أعمل قصيدة على وزن قصيدة ابن الرومي الطائية في الهجاء . فقال له ابن الرومي : إياك والهجاء يا أبا عبادة ، فليس من عملك وهو من عملي . فقال له : نتعاون . وعمل البحرني ثلاثة أبيات ، وعمل ابن الرومي ثمانية فلم يلحقه البحرني في الهجاء . وكان اجتماعهما عندي سبباً للمودة بينهما .

وروى المرزباني أيضاً في الموشح .

« أخبرني محمد بن يحيى قال كنت يوماً عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومي في أبي الصقر التي أولها : « أجنحت لك الوجد أغصان وكثبان » فقال عبيد الله : هي دار البطيخ ! فضحك الجماعة ، فقال : اقرأوا تشبيهاً فانظروا ، هي كما قلت ! قال محمد : وقد ملح عبيد الله وظرف ، وهذه القصيدة أكثر من مائتي بيت مر له فيها إحسان كثير ، ومن تشبيها مما يدل على قول عبيد الله :

أجنحت لك الوجد أغصان وكثبان	فيهن نوعان تفاح ورماني
وفوق ذينك أعنان مهذلة	سوداً لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك غناب يلوح به	أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فأكهة	وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات ساري الطل يضربه	وأقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شيء طيب حسن	فهن فأكهة شتى وريحان

فلما سمع أبو الصقر قوله :

هذا الذي حكمت قدماً بسؤده	عدنان ثم أجازت ذاك قحطان
قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم	كلا لعمري ولكن منه شيبان

قال : هجاني والله ! قيل له : هذا من أحسن المديح ، اسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف	كما علا برسول الله عدنان
----------------------------	--------------------------

فقال أنا بشيبان ليس شيبان بي : قيل له : فقد قال :

ولم أقصر بشييان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان
الله شييان قوم لا يشيهم روع إذا الروع شابت منه ولدان

فقال « والله لا أثبتته على هذا الشعر وقد هجاني فيه . قال الشيخ أبو عبيد الله المرزباني رحمه الله تعالى : وهذا ظلم من أبي الصقر لابن الرومي وقلة علم منه بالفرق بين الهجاء والمديح » .

وجاء في الجزء الثاني من زهر الآداب أن علي بن العباس الرومي كان « مفرط الطيرة شديد الغلو فيها . قال علي بن عبد الله بن المسيب : وكان يحتج لها ويقول إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة أفتراه كان يتفائل بالشئ ولا يتطير من ضده ؟ ويقول إن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يرجل ناقة ويقول يا ملعونة ، فقال لا يصحبنا ملعون ، وأن علياً رضي الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقرب ، ويزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها ، وأن بعض الناس هي في طباعهم أظهر منها في بعض ، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال : على وجه من أصبحت اليوم . . فدخل علينا يوم مهرجان ستة ثمان وسبعين وقد أهدي إليّ عدة من جوارى القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في إحدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ولم يظهر لي أمره وأقاده باقي يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت لي ابنة من بعض السطوح وجفاه القاسم بن عبيد الله فجعل سبب ذنك المعنيين المغنيتين وكتب الي :

أيها المحتفى بحولٍ وعُورٍ	أين كانت منك الوجوه الحسان ؟
قد لعمري ركبت أمراً مهيناً	ساءني فيك أيها الخلصان
فتحك المهرجان بالحول والعو	ر أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحر	ة مصبوغة بها الأكفان
وتجاف مؤمل لي جليل	لج فيه الجفاء والهجران
قلماً غاب من أمورك عنوا	ن مبن ، وللزمان لسان
لا تكن بالهوى تكذب بالآخبا	ر حتى تهين ما لا يهان
لا يقدك الهوى إلى نصره الآخبا	ر حتى يقدم البرهان
ان عقب الهوى هوى وعقبى	طول تلك المهونات هوان
لا تصدق عن النبين إلا	بحديث يلوح فيه البيان
خبر الله ان مشأمة كا	نت لقوم وخبر القرآن

أفزور الحديث تقبل أم ما قاله ذو الجلال والفرقان
أترى من يرى البشير بشيراً يمتري في النذير ياوسنان
فدع الهزل والتضحك بالطي رة والنصح مئمن مجآن

وجاء في ذلك الجزء بعد ذلك :

« وكان أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش غلام أبي العباس المبرد في عصر ابن الرومي شاباً مترفاً ومليحاً مستظرفاً ، وكان يعث به فيأتيه بسحر فيقرع الباب ، فيقال له من ؟ فيقول قولوا لأبي الحسن مرة ابن حنظلة ، فيتطير لقوله ويقيم الأيام لا يخرج من داره وذلك كان سبب هجائه إياه . . . فاعتذر إليه وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ، وكان الأخفش أكثر الناس اخواناً فقبل عذره ومدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ذكر الاخفش القديم فقلنا ان للأخفش الحديث لفضلا
الخ الخ . . .

ثم عاد علي بن سليمان إلى أذاه واتصل به ان رجلاً عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها فقال قصيدته التي يقول فيها :

ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقرده
ولا أنا المفهم البهائم والط ير سليمان قاهر المردة
فان يقل انسي حفظت فكالد فتر جهلا بكل ما اعتقده
سأسمع الناس ذمه أبداً ما سمع الله حمد من حمده

« »

وفي الوقائع بينه وبين الأخفش يقول الزبيدي تلميذ أبي علي القالي وهو صاحب طبقات النحويين المتوفى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة : « حدثني أبو علي قال : كان علي بن العباس الرومي لا يدع التطير والتفاؤل في جميع حركاته وتصرفه وكان علي بن سليمان الأخفش قد أولع باعتراضه في مخارجه فيما يعثر به ، فرجما صرفه بذلك عن وجهه وربما دق عليه الباب فإذا قال من أنت ؟ قال الشؤم والبلاء ! فلا يبرح علي بن العباس يوم ذاك ، فلما شق عليه ذلك هجاه فأقذع في هجائه ، فكان الأخفش يستعمل حفظ هجائه ثم يمليه فيما يملئ من الأخبار والأشعار على أصحابه ، فلما رأى علي بن العباس أن الأخفش لا يألم لهجائه أقصر عنه . »

يقول صاحب العمدة في هذه الوقائع بينه وبين الأخفش :

« وقد مزقه بالهجاء كل ممزق وجعله مثله بين أصحابه . على أن الأخفش كان يتجلد عليه ويظهر قلة المبالاة به وهيهات وقد وسمه وسمة الدهر وسامه سوم الخسف والقهر » .
والأقوال في طيرة ابن الرومي كثيرة منها ما استطرد إلى ذكره صاحب زهر الآداب حيث قال بعيداً ما أسلفنا نقله :

« ولابن الرومي في الأخفش إفحاشي صنّت الكتب عنه ، قال علي بن إبراهيم كاتب مسروق البلخي : كنت بداري جالساً فاذا حجارة سقطت بالقرب مني ، فبادرت هارباً وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح والنظر إلى كل ناحية ، من أين تأتي الحجارة ، فقال : امرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوفت ، وقالت . اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشاً . فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخطبها ، ففعلت وبادرت بالجرة واتبعتها شيئاً من المأكول ، ثم عادت إلي فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع عينه على جاره له كان نازلاً بازائه ، وكان أحذب يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب . فعجبت لحديثها ، وبعثت بخادم كان لي يعرفه ، فأمرته بأن يجلس بازائه وكانت العين تميل إليه ، وتقدمت إلى بعض أعواني أن يدعو الجار الأحذب ، فلما حضر عندي أرسلت وراء غلامي لينهض إلى ابن الرومي ويستدعيه الحضور ، فاني لجالس ومعني الأحذب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتمد ، ودخل ابن الرومي فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع شسع نعله : فدخل مذعوراً ، وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حال فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له يا أبا الحسن أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال قد لحقني ما رأيت من العثرة لأنني فكرت أن به عاهة وهي قطع أنثييه ! قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم ويفرط ، قال ومن هو ؟ قلت علي بن العباس . قال : الشاعر ؟ قلت نعم . فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه	بتفريق ما بيني وبين الحبايب
رجعت إلى نفسي فوطئتها على	ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها	فايامه محفوفة بالمصائب

فخذ خلسة من كل يوم تعيشه وكن حذراً من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطرح تطير جارٍ أو تفاؤل صاحب

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه ، ولم أدر أنه شغل قلبه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة وبرذعة معه ، فحلف ابن الرومي لا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره ، وأوماً إلى جاره ، فقلت ، وهذا الفكر أيضاً من التطير ، فأمسك . وعجب من جودة الشعر ومعناه وحسن مأثاه ، فقلت له ليتنا كتبناه ! قال اكتبه فقد حفظته وأملاه لي .
ومن شدة حذره وعظيم تطيره قوله لأبي العباس بن ثوبة وقد ندبه إلى الخروج إليه وركوب دجلة :

حضضت على حطبي لناري فلا تدع لك الخير تحذيري شرور المحاطب
ومن يلسق ما لاقيت في كل مجتنى من الشوك يزهّد في الثمار الأظايب
إذ اقتني الأسفار ما كره الغنى إليّ وأغراني برفض المطالب
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب
فصبري على الاقتسار أيسر مطلباً علي من التغرير بعد التجارب

.....

الخ الخ

وهي طويلة وفيها مركاتية تنبئ عنه وتدل عليه ، ولو مددت أطناب الاختيار لتتبع هذا النحو من شعره لخرجت عن غرض الكتاب .

وفي الجزء الأول من العمدة أنه : « كان كثير الطيرة ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى أن بعض إخوانه من الأمراء افتقده فأعلم بحاله في الطيرة ، فبعث إليه خادماً اسمه أقبال ليتفاهل به ، فلما أخذ أهبطه للركوب قال للخادم : انصرف إلى مولاك ! فأنت ناقص ومعكوس اسمك لا بقا . . . وابن الرومي القائل :
الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحداث ، وله فيه احتجاجات وشعر كثير . »

وقال علي بن عبد الرحمن العباسي صاحب معاهد التنصيص المتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة : « كان كثير التطير جداً وله فيه أخبار غريبة ، وكان أصحابه يعبثون به فيرسلون إليه من يتطير من اسمه فلا يخرج من بيته أصلاً ، ويمتنع من التصرف سائر يومه ، فأرسل إليه بعض أصحابه يوماً بغلام حسن الصورة اسمه حسن ، فطرق الباب عليه فقال من ؟

قال حسن . فتفاءل به وخرج ، وإذا على باب داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ألف ورأى تحتها نوى تمر ، فتطير وقال : هذا يشير بأن لا تمر ، ورجع ولم يذهب معه ، وكان الأخفش علي بن سليمان قد تولع به فكان يقرع عليه الباب إذا أصبح ، فاذا قال من القارع ؟ قال مرة بن حنظلة ! ونحو ذلك من الأساء التي يتطير بذكرها ، فيحبس نفسه في بيته ولا يخرج يومه أجمع ، وكتب اليه ينهاه ويتوعده بالهجاء » .

وجاء في هذا الكتاب قبل ذلك : « . . . حكي ابن درستويه ان لائهاً لامه فقال له : لم لا تشبه كتشبيهاً ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال ألا تنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله ؟ فأنشده قوله في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حولة من عنبر
فقال له زدني ، فأنشده قوله في الأذريون الأصفر وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود
وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر اليه وفرشه في المنزل :

كان	أذريونها	والشمس	فيه	كالية
مداهن	من	ذهب	فيها	بقايا
				غالية

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ! ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس ؟ هل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام .

وساق صبيح للصباح دعوته	فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم	فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً	على الجو دكناً والخواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب باخضر	على أحمر في أصفر اثر مبيض
كاذيال خود أقبلت في غلائل	مصبغة والبعض أقصر من بعض

(وبعضهم ينسبها لسيف الدولة بن حمدان منهم صاحب اليتيمة) .

وقولي في صانع الرقاق :

إن أنس لا أنس خبازاً مررت به	يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة	وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة	في صفحة الماء يلقى فيه بالحجر
وقولي في قالي الزلابية :	

ومستقر على كرسيه تعب
رأيته سحراً يقلّي زلاية
كأنما زيتته المقلّي حين بدا
يلقي العجين لجيناً من أنامله
وفي الجزء الثاني من زهر الآداب : « كان ابن الرومي منهوماً في المأكّل ، وهي التي
قتلته . وكان معجباً بالسّمك فوعده أبو العباس المرثدي أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة لا
تنقطع . فبعث إليه يوم سبت ثم قطعه ، فقال :

ماحيثاننا جفتنا وأئني
جاء في السبت زورهم فأتينا
وجعلناه يوم عيد عظيم
وأراهم مصممين على الهجـ
قد سبتنا وما أتنا وكانوا
فاتصل ذلك بالناجم فكتب الى ابن الرومي

أبا حسن أنت من لانزا
فكم تحسن الظن بالمرثد
ألم تدر ان الفتى كالسرا
فبحر السراب يفوت القلو
وخرج ابن الرومي الى بعض المتنزهات وقصدوا كراماً رازقياً فشرّبوا هناك غامة يومهم ،
وكانوا يتهمونه في شعره ، فقالوا ان كان ما تنشدنا لك فقل في هذا شيئاً ، فقال لا تريموا
حتى أقول فيه وأنشدهم لوقته :

ورازقيّ مخطّف الخصور
الخ الخ .

وفي الجزء الأول من هذا الكتاب : « وكان ابن الرومي لا يزال مُعْتَمِئاً وكان يغضب اذا
سئل عن ذلك ، وسأله بعض الرؤساء : لم تعتم ؟ فقال بديهاً :

يأيها السائلي لأخبره
أستر شيئاً لو كان يمكنني
عنى : لم لا أراك معتجراً
تعريفه السائلين ماستراً

وقد بين العلة التي أوجبت اعتماجه في قوله :
تعممت احصاناً لرأسي برهة
فلما دهى طول التعمم لمتي

من القر يوماً والحرور اذا سفع
وأودى بها بعد الاطالة والفرع

عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ماجرت علي من الصلح
 فيالك من جان علي جناية جعلت اليه من جنائته الفرع
 وأعجب شيء كان دائسي جعلته دوائي على عمد ، وأعجب بأن نفع !
 وفي الجزء الثالث من هذا الكتاب : « قالوا : وكان الناس يتشوقون الى أوطانهم ولا
 يفهمون العلة في ذلك حتى أوضحها علي بن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله
 ابن طاهر يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل أجبره على بيع داره واغتصبه
 بعض جذرها بقوله :

ولي وطن آليت ألا أبيعهُ وألا أرى غيري له الدهر مالكا
 عمرت به شرخ الشباب منعماً بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا
 وحُب أوطان الرجال إليهم مآرب قنساها الشباب هنالكا
 اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا للذكا
 فقد ألفتة النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا
 الخ ...

وقال علي بن عبد الكريم النصيبي : أتاني أبو الحسن بن الرومي بقصيدته هذه وقال :
 انصفني وقل الحق . . أيها أحسن قولي في الوطن أو قول الأعرايي :

حب بلاد الله ما بين منعج الي وسلمى أن يصوب سحابها
 بلاد بها نيطت على تمائمى وأول أرض مس جلسدي تراهيا
 فقلت : بل قولك ، لأنه ذكر الوطن وعجته وأنت ذكرت العلة التي أوجبت ذلك
 وتختلف سليمان عن نصره ابن الرومي فذاك الذي هاجه على هجائه ، فمن ذلك قوله وقد
 خرج في بعض الوجوه فرجع مهزوماً :

جاء سليمان بنى طاهر فاهتاج معتز بني المعتصم
 كأن بغداد وقد أبصرت طلعتة نائحة تلتدم
 مستقبل منه ومستدبر وجه بخيل وقفنا منهزم

وقال

قرن سليمان قد أضرب به شوق إلى وجهه سيتلفه
 كم يعد القرن باللقاء وكم يكذب في وعده ويخلفه
 لا يعرف القرن وجهه ويرى قفاه من فرسخ فيعرفه

.....

وقال المعري في رسالة الغفران : « أما ابن الرومي فهو أحد من يقال ان أدبه كان أكثر من

عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة ، واستعار من أبي بكر بن السراج كتاباً فتقاضاه به فقال ابن الرومي لو كان المشتري حدثاً لكان عجولاً ، والبغداديون يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية . وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء ، ومن أولع بالطيرة لم ير فيها من خيرة » .

أما وفاته ففيها يقول المسعودي في كتابه مروج الذهب . « وعن أهلك القاسم بن عبيد الله على ما قيل بالسم في خشكنانجة علي بن العباس بن جريج الرومي ، وكان منشؤه ببغداد ووفاته بها ، وكان من مختلفي معاني الشعراء والمجودين في القصير والطويل متصرفاً في المذاهب تصرفاً حسناً ، وكان أقل أدواته الشعر وكان ابن الرومي الأغلب عليه من الأخلاط السوداء ، وكان شرهاً نهماً وله أخبار تدل على ما ذكرناه من هذه الجمل مع أبي سهل اسماعيل النوبختي وغيره من آل النوبخت » .

واختلفت الروايات في قتله فقال الشريف المرتضى في أماليه :

« أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب قال حدثني محمد بن يحيى الصولي قال حدثني الباقراني قال : اتصل بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر علي بن العباس الرومي وكثرة مجالسته لأبي الحسين القاسم ابنه ، وسمع شيئاً من أهاجيه فقال لأبي الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا . فدخل يوماً عبيد الله إلى أبي الحسين وابن الرومي عنده فاستنشد من شعره فأنشده وخاطبه فرأه مضطرب العقل جاهلاً ، فقال لأبي الحسين بينه وبينه : ان لسان هذا أطول من عقله ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر في عاقبته . فأخرجه عنك ! فقال أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه في دولتنا ويذيعه في تمكننا . فقال يا بني ! اني لم أرد باخراجك له طرده ، فاستعمل فيه بيت أبي حية النميري :

فقلن لها سراً : فدينك لا يرحُ سليماً ، وإن لا تقتليه فالملمي

فحدث القاسم بن فراس بما جرى ، وكان أعدى الناس لابن الرومي وقد هجاه باهاج قبيحة . فقال له : الوزير أعزه الله أشار بأن يُغتال حتى يستراح منه ، وأنا أكفيك ذلك ، فسمه في الخشكنانج فمات . . . قال الباقراني والناس يقولون ما قتله ابن فراس وإنما قتله عبيد الله . قال ابن الرومي لما رجع إلى داره وقد دب السم في أعضائه شعراً :

اشرب الماء إذا ما تلتهب نار أحشائي لاطفاء اللهب
فأراه زائداً في حرقتي فكأن الماء للنار حطب

هذه رواية

واعتمد ابن خلكان رواية أخرى فقال : « توفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى

الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة أربع وثمانين ، وقيل سنة وسبعين ومائتين ببغداد ، ودفن في مقبرة باب البستان وكان سبب موته رحمه الله تعالى أن الوزير أبا الحسين القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفتات لسانه بالفحش فدرس عليه ابن فراش (هكذا) فأطعمه خشكناجة مسمومة وهو في مجلسه ، فلما أكلها أحس بالسسم فقام ، فقال له الوزير إلى أين تذهب ؟ فقال إلى الموضع الذي بعثني إليه ، فقال له سلم على والدي ! فقال له ما طريقي على النار ! وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياماً ومات ، وكان الطبيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسسم فزعم أنه غلط في بعض العقاقير ، وقال ابراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه : رأيت ابن الرومي يجود بنفسه فقلت له : ما حالك ؟ فأنشد :

غلط الطبيب عليّ غلطة مورد عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة المقدار
وقال أبو عثمان الناجم الشاعر : دخلت على ابن الرومي أعوده فوجدته يجود بنفسه فلما قممت من عنده قال لي :

أبا عثمان أنت حميد قومك وجودك للعشيرة دون لومك
تزود من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك
وللناجم قصة عن وفاة ابن الرومي رواها ابن القارح في رسالته الى المعري وفيها يقول : « دخلت عليه في علته التي مات فيها وعند رأسه جام فيه ماء مثلج وخنجر مجرد لو ضرب به صدر خرج من ظهر . فقلت : ما هذا ؟ قال : الماء أبل به حلقي ، فقلما يموت إنسان إلا وهو عطشان . والخنجر إن زاد على الألم نحرت نفسي ، ثم قال : أقص عليك قصتي تستدل بها على حقيقة تلفي : أردت الانتقال من الكرخ إلى باب البصرة ، فشاورت صديقنا أبا الفضل وهو مشتق من الافضال فقال : إذا جئت القنطرة فخذ عن يمينك وهو مشتق من اليمن ، واذهب إلى سكة النعيمة وهو مشتق من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافي وهو مشتق من العافية . فخالفته لتعسى ونحسى . وشاورت صديقنا جعفرًا وهو مشتق من الجوع والفرار فقال : إذا جئت القنطرة فخذ عن شمالك وهو مشتق من الشؤم ، واسكن دار ابن قلابة . وهي هذه ، لاجرم قد انقلبت بي الدنيا . وأضرّ ما عليّ العصافير في هذه السدرة تصيح « سيق سيق » فما أنا في السياق . ثم أنشدني :

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك في العشيرة دون لومك
تمتع من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك
وألح به البول ، فقلت له : البول ملحٌ بك . فقال :

غداً ينقطع البول ويأتي الويل والغول
ألا ان لقاء الله هول دونه الهول
ومات من الغد . . »

وروى صاحب زهر الآداب اتفاقاً أن ابن الرومي فُصد في مرض وفاته من سياق قصته عن بعض معانيه المأخوذة حيث يقول في الجزء الأول من الكتاب :
« دخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله في التغير فأخبر أنه مشغول فرجع ، فبعث إليه الرشيد . ختنى فاتهمتنى ، فقال إذا انقضت المدة كان الحنف في الحيله . والله ما انصرفت إلا تخفيفاً . أخذ ابن الرومي فقال وقد فصدته بعض الأطباء فزعم أن الفصد زاد في علته . غلط الطبيب إلى آخر البيتين . . ولهذا القصة قيمتها فيما يلي من البحث في أسباب وفاته .

هذه أنفع الأخبار التي وردت في ترجمته . أما ديوانه فقد جاء عنه في الفهرست لابن النديم أن شعره « كان على غير الحروف . رواه عنه المسيبي ثم عمله الصولي على الحروف وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ فزاد عن كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت » .
ثم ذكر أسماء رواته وعدة الأوراق التي كتبها من شعره وهم :
مثقال غلام ابن الرومي مائة ورقة ، ورواه أبو الحسن علي بن العصب الملحي عن مثقال عن ابن الرومي ،
ابن الحاجب غلام ابن الرومي مائة ورقة ، أحمد بن أبي قر الكاتب مائة ورقة ، خالد الكاتب وعمله الصولي مائتا ورقة » .
والصولي هو أبو بكر الصولي الحافظ الراوية المشهور .

الفصل الثالث

حياة ابن الرومي

كما تؤخذ من معارضة أخباره على شعره

ذلك كل ما عثرنا عليه من أخبار ابن الرومي متفرقاً في كتب الأدب والتاريخ ، لم نترك منه الا نبذاً قليلة تجيء في مواضعها من فصول هذا الكتاب ، والا الفصول الذي لا ينتظم في مادة الترجمة ولا يزيدنا علماً بالرجل أو بأدبه وشعره .

وكل هذا الذي عثرنا عليه وما يشابهه في مادته لا يجزىء في ترجمة وافية أو فيما يقرب من ترجمة وافية . لأنه مفرط الزيادة في مواضع ومفرط النقص في مواضع أخرى ، وبين أجزائه فجوات بعيدة لا تُترك خلواً ، ولا حيلة لنا الآن في ملئها . فلا خبر عن صباه ولا عن دراسته ولا عن أهله ولا عن أمر مفصل موثوق به من أمور معيشته ، وبغير هذه العناصر الجوهرية لا تقوم ترجمة ولا يكمل تصوير رجل . وعلى هذه القلة في الأخبار التي بين أيدينا لا نراها تسلم من الخطأ حيناً ومن المبالغة أحياناً . فنحن - على حد المثل الذي اخترناه - كمن يؤتى له بعظام ناقصة ليبنى منها بنية جسم كامل ، وفيها مع هذا عظام مدموسة لا تدخل في بنية الجسم الذي يراد تركيبه !

إلا أن ابن الرومي يعوضنا بعض العوض من ذلك النقص الكبير بخاصة فريدة فيه ليست في غيره من الشعراء : هي مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته في شعره . فما من أحد كان له شأن في حياته إلا وجدت اسمه في ديوانه ممدوحاً أو مهجواً أو موصوفاً

أو مردوداً عليه ، وما عاب أحداً مشيته أو أكله أو لبسه العمامة أو طريقته في النظم إلا كان لذلك خبر مقيد في ديوانه ، ولم يعرف عنه أنه كان يشتهي طعاماً أو فاكهة إلا وذلك معروف من شعره قبل أن يُعرف من نوادر المتحدثين عنه ، وما خامر طويته خلق محمود أو مذموم إلا شهد به على نفسه كأنه في حرج من أمر كتانته :

أقر على نفسي بعيبي لأنني	أرى الصديق يحو بينات المعاييب
لؤمت لعمر الله فيما أتيت	وان كنت من قوم كرام المناصب
ولا بد من أن يلؤم المرء نازعاً	إلى الحمأ المسنون ضربة لازب

على أنه يشهد بخلة الكذب على نفسه كما يشهد لها بهذا الصديق المقرون باظهار العيوب ، فيقول في أصرح عبارة :

وأني لذو حلف كاذب	إذا ما اضطرت وفي الأمر ضيق
وهل من جناح على مرهق	يدافع بالله ما لا يطيق ؟!

ويقول في تسجيل حرصه وجبنه :

وأصبحت في الاثراء أزهد زاهد	وإن كنت في الاثراء أرغب راغب
حريصاً جباناً أشتهي ثم انتهي	بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها	واستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غاييتي قبل مذهبي	ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب

ويتوهم أن اناساً سعييون مجونه في مجلس الشراب ويرون انه لا يليق بما يدعي من العلم والوقار فيسبقهم إلى ذلك ويقول :

وأرى أن معشراً سيقولو	ن سخي من الرجال لعوب
أين عنه وقار ما يدعيه	من علوم لحاملها قطوب
ولعمري ان الحكيم وقور	ولعمري ان الكريم طروب

ويحس دبيب الشيخوخة في مآرب نفسه وخلجات قلبه فيخشى أن يفوته تسجيل ذلك كأنه محاسب عليه معاقب على تفويته ، فيقول لقرائه :

إكتهلت همتي فأصبحت لا أبهج	بالشيء كنت أبهج به
وحسب من عاش من خلوقته	خلوقة تعثره في أربه

وهكذا في الصغائر والكبائر ، وفي وقائع العيش وحواطر السريرة ، وفيما يلقي به الناس ويلقى به الله .

وقد تجدد في الشعراء من تتعرف بعض وقائعه من قراءة شعره ، ومن تستطلع خلائقه من ثنايا كلامه ، ولكن ابن الرومي لا يحوجك إلى التعرف والاستطلاع لأنّه يغنيك عن الملاحظة بما يقوم به هو من ملاحظة نفسه وتقييد شوارد فكره وهمسات فؤاده وسبحات أحلامه . فكأنما هو رقيب على بواطنه وظواهره ، وكأنما أعطى نفسه ليحجبها ويقيدها تجاربها فيها ! فكان ديوان شعره كناشة الرقابة أعدها ليحصى فيها كل ما يحصىه الرقيب الحبيب .

هذه الخصلة في الشاعر تعوضنا كثيراً عما ضيعته التواريخ من حوادثه وأوصافه . فعلى ما جاء في ديوانه نعلم في تصحيح الأخبار المسطورة وتكميلها على وجه نستوفي به الترجمة جهد المستطاع ، فهو حسبك من مترجم حياته وصافة لحقيقته ، ولولا أن الشعر لا يسجل الأرقام ولا يتقصّى كل ما فات الشاعر قبل أن يصبح شاعراً لكان هو حسبك من راوية لا تحتاج بعده إلى تدوين رواية .

أصله ونشأته

« ولد أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد في الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية في دار بازاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور » .

وقد رجعنا إلى كتب المضاهاة بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي والقبطي فوجدنا في كتاب « التوفيقات الإلهامية » لصاحبه محمد مختار باشا أن أول رجب من تلك السنة يوافق يوم الثلاثاء الذي يقع في العشرين من شهر يونيو سنة ٨٣٥ ميلادية ، وفي السادس والعشرين من شهر بؤنة سنة ٥٢٢ قبطية . فالיום الثاني من رجب هو يوم الأربعاء وهو مما يحقق صحة تاريخ المولد الذي لم يختلف فيه مؤرخوه .

وكان ابن الرومي مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور ، وجعفر هو الابن الثاني للمنصور لم يتول الملك ولم تكن له ولاية عهد ولا كانت بعده لأحد من ولده الذين نشأ فيهم الشاعر .

ولا يدع ابن الرومي مجالاً للشك في أصله الرومي فانه يذكره ويؤكد في مواضع شتى

من ديوانه كقوله :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حِجَى
وقوله في مدح بعض مواليه من بني العباس :
ومتى اختل ابن روميكم
وقوله فيهم :
مولا همّ وغذي نعمتهم
والروم ، حين تنصني ، أصلي
وغير ذلك كقوله :

قد تحسن الروم شعراً
و : آبائي الروم توفيل وتوفلس
و : يا بني السمرى قد لزمكم
و : إذا ما حكمتُ والروم أهلي
و : إذا الشاعر الرومي أطرى أمبره
و : إن لم أزر ملكاً أشجى الخطوب به
بل ان تعدت فلم أحسن سياستها
د كقوله وهو كما تقدم في نسب أبيه وأمه :

كيف أغضى على الدنية والفر
س خؤلي والروم أعمامي
واسم جده مع هذا جُرَيج أو جورجيس وهو اسم يوناني لا شبهة فيه . فلا معنى إذن
للك في أصله ولا ينبغي الالتفات إلى من قال إنه سمي ابن الرومي لجماله في صباه .

أبوه

ولم يرد لأبي الشاعر ذكر خاص في ديوانه إلا حيث يقول من قصيدة بائنة يذكر فيها
مناقبه ومناقب آبائه :

وكم من أب لي ماجد وابن ماجد
له شرف يربى على الشرف المربي
إذا أمطرت كفاء بالبذل نُورَت
له الأرض واهتزت رباها من الخصب

والا حيث يقول :

شاد لي السور بعد توطئة الأ س أب قال : أنت للشرف

والبيتان الأولان فخرٌ يراد به وقع الكلام واستيفاء باب من أبواب الشعر التي كان الشعراء ينظمون فيها من نسيب ومدح وثناء وهجو وفخر ونحوها ، فليس فيه خبر ولا رواية . ولكنه معالجة فنية كهذه الموضوعات التي يعالجها الشاعر المعاصر لتصوير الأطوار النفسية ووضع الأمثال على لسان الحال ثم لا يعني بها الاخبار عن نفسه وإن جاءت بضمير المتكلم . وقد كان الشاعر القديم يأبى أن يخلو ديوانه من باب من أبواب الشعر المعروفة ويأنف أن يُظن به التقصير في واحد منها ، فهو لهذا يشب ويفخر ويقول في الفخر ما يهول وقعه لا ما يصدق خبره ! والفخر على هذا الاعتبار عمل فني يؤخذ على هذا المعنى ولا يُستمد منه التاريخ أو يرجع اليه في تقرير الوقائع .

والبيت الثالث يلحق بهذين البيتين في الفخر والاشادة بالنسب من ناحية « الفن » لا من ناحية « التاريخ » . إلا اننا نستخلص منه أن أباه كان يتوسم فيه الذكاء ويرجو أن يشرف بعلمه وأدبه كما شرف بالعلم والأدب كثيرون من أبناء الموالي ارتفعوا إلى مناصب الوزارة من طريق الكتابة والمساجلة ومعاشرة العظماء المتأدبين ؛ وكان أبوه صديقاً لبعض العلماء والأدباء منهم محمد بن حبيب الراوية الضليع في اللغة والأنساب ، فكان الشاعر يختلف اليه لهذه الصداقة وكان محمد بن حبيب يخلصه لما يراه من ذكائه وحدة ذهنه ، وحدث الشاعر عنه فقال « انه كان إذا مر به شيء يستغربه ويستجيده يقول لي يا أبا الحسن ضع هذا في تامورك »^(١)

ونرجح أنه فقد أباه وهو صغير لم يتفع . لأنه لم يرثه حين وفاته مع أنه قال الشعر وهو صبي في المكتب^(٢) ، ولأنه كان يسمى أخاه « والدا » كأنما كان عليه فضل تربية وكفالة .

(١) معجم الادباء الجزء السادس ص ٤٧٤

(٢) جاء في ديوانه ١٤ قال الابيات الآتية في هجو غلام ماضى يسمى جعفر وهي اول ما قاله

اجعفر حزت جميع العيو	ب فما فيك من خلة تمدح
كلامك اكذب من يلمع	يخيله بالضحى صحصح
وحلمك اطيش من ريشة	وروحك من هضبة ارجح
ووجهك من وجه يوم الفر	اق في مقلتي عاشق اقبح
فما في حياتك لي مفرح	ولا في ممالكك لي مترح

ونستغرب نحن ان تكون هذه الابيات اول ما قال ولكننا لا نستغرب ان يقولها في المكتب لانهم كانوا يكتبون فيه حتى يحفظوا القرآن وكان ابن الرومي شاعراً مجيداً وهو دون العشرين .

أمه

وقد علمنا أن أمه كانت فارسية من قوله « الفرس خؤ لي والروم أعمامي » وقوله « فلم يلدني أبو السواس ساسان » بعد أن رفع نسبه الى « يونان » من جهة أبيه ، ولا يخفى أن انتهاءه الى ساسان لا يُقصد به أنه من أبناء الملوك الساسانيين وانما هو كقول المصري اليوم أنه من أبناء الفراعنة ، ولا علاقة في النسب بينه وبينهم .

وربما كانت أمه من أصل فارسي ولم تكن فارسية قُحاً لأبيها وأمها وهذا هو الأرجح ، لأن علمه بالفارسية - كما سيأتي - لم يكن علم رجل نشأ في حجر أم تتكلم هذه اللغة ولا تحسن الكلام بغيرها .

وماتت أمه وهو كهل أو مكتهل كما يقول في رثائها :

أقول - وقد قالوا : أتبكي كفاقدٍ	رضاعاً ، وأين الكهل من راضع الحلم
هي الأم يا للناس جرّعت فقدها	ومن ييك أمّاً لم تُدّم قط لا يُدّم

وكانت تقيّةً صالحّةً رحيمةً كما يؤخذ من أبياته في رثائها :

لقد فجعت فيك الليالي نفوسها	بحنية الأسحار حافظة العتم
ولم تخطيء الأيام فيك فجيعه	بصوامة فيهن طيبة الطعم
وفات بك الأيتام حصن كنافه	دفيء عليهم ليلة القدر والشيم
جعنا وأفردناك غير فريدة	من البر والمعروف والخير والكرم
فلا تعدمي أنس المحل فطالما	عكفت فأنست المحاريب في الظلم

وبزع عليها جزعاً شديداً ينم عليه قوله :

ألا من أراه صاحباً غير خائنٍ	ألا من أراه مؤنساً غير محتشم
ألا من تلينى منه في كل حالة	أبريد برت بذى شعثٍ يلّم
ألا من إلبى اشتكبي ما ينوبني	يفرج عني كل غم وكل هم
نبا ناظري يا أم عن كل منظر	وسمعي عن الأصوات بعدك والنغم
وأصبحت الآمال - مذ بنت - والمنى	غوادر عندي غير وافية الذمم
وصارمت خلّاتي وهم يصلونني	وقد كنت وصّال الخليل وإن صرم

وأنسني فقد الجليس وأوحشت مشاهده نفسي ، ولم أدر ما اجترم
وكانت لها أخت ماتت قبلها ، فهو يقول إذ يرثيها انه كان له جناحان من عطفها وعطفه
أمه :

أراني وأمي بعد فقدان أختها وإن كنت في رفقه بها وصلاحي
كفرخ قطاة الدوّ بان جناحه فباء إلى حصن بفرد جناحي
أخوه :

ويظهر أن أبويه لم يعقبا من البنين غيره وغير أخيه محمد المكنى أبا جعفر ، وهو أكبر منه
لأنه يقول « بأخي بل بوالدي بل بنفسي » وهو يتفجع بذكره ، وشقيقه لأنه يقول في
موضع آخر :

بأخ شقيق بعد أم برة بالأمس قطع منها أقرانه
ويذكره بمثل ذلك في غير موضع .

وكل ما وصل إلينا عن هذا الأخ قصة جاءت في ديوان الشاعر نعلم منها أنه كان أديباً
« وكان يكتب لرجل فعزل بعد مدة ، فعبت به آل أبي شيخ أصدقائه وقالوا : عزله
شؤمك ، وكان بين آل أبي شيخ وابن سعد ان مؤدب المؤيد مودة فخرجوا إليه في أيام
المؤيد فأقاموا مدة ، وكان من المؤيد ما كان وتشتت أصحابه فكتب إليهم أبو جعفر يولّع
بهم ويقول : أنا شؤمي عزّال وشؤمكم قتّال وسيأتاكم في هذا نظم علي بن العباس ،
يعني أخاه ، ومن ذلك النظم قوله :

ل ولكن شؤمكم قتّال	أنا شؤمي فيما تقولون عزّا
وابن سعدان تضرب الأمثال	بالذي أدرك المؤيد منكم
مقبلات فأدبر الاقبال	زرقموه والصالحات عليه
.....
للك لشؤم تزول منه الجبال	ان شوماً حلت به عقدة المد

ونعلم من هذه القصة أن محمداً عاش إلى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وهي السنة التي
قتل فيها المؤيد ، وكان ابن الرومي في تلك السنة قد بلغ الحادية والثلاثين . فالأرجح أن
محمداً قد عاش بعدها بضع سنوات ، لأن الشاعر ذكره في رثاء أمه حيث قال : « أقاسي

وصنوي منه كل شديدة « أي ذكره وهو كهل جاوز الحادية والثلاثين . لأنه كان كهلاً حين ماتت أمه كما مر بنا في رثائها ، والحادية والثلاثون ليست بسن كهولة إلا أن يكون الدين لاموا الشاعر لفرط جزعه على أمه قد تعمدوا تكبير سنه لاستيجاب الملام .

ونرى في موضعين من الديوان أبياتاً يستعطف بها الشاعر لأخيه رئيساً غضب عليه ، وكان أخاه مات وهو يعمل في خدمة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أحد أركان بيت بني طاهر المشهور في دولة بني العباس . فان الشاعر يقول من قصيدة يخاطب بها عبيد الله ويذكر أنخاً شقيقاً مات بعد أم برة :

فليحيه الملك الهمام فلم يفت يحياه قدرته ولا سلطانه
وحياته لي أن أقوم مقامه وأسدّ من دار الأمير مكانه

فالشاعر يتكلم عن نفسه على ما ترجمه كثيراً ويطلب أن يحل في دار عبيد الله محل أخيه^(١) . والمجزوم به بعد هذا كله أن محمداً مات بعد موت المؤيد وأنه كان على شيء من الأدب ومعرفة الكتابة وحب العبث والدعابة .

وقد حزن عليه ابن الرومي حزناً طويلاً ملحاً بقى يعاوده إلى آخر أيامه ، فلم يفتأ يذكره ويعيد ذكره في شعره إذا مدح أو عتب أو استعبر ، ومن ذاك أنه قال يرثيه :

وتُسَلِّينِي الأيام لا أن لوعتي ولا حَزَنِي كالشيء يُنسى فيعزُب
ولكن كفاني مسلياً ومعزياً بأن المدى بيني وبينك يقرب
وقال لصاحب كان يحسده ويغري به :

(١) نقول هذا ترجيحاً لا تحقيقاً لأن القصيدة مبدوءة بهذا البيت :

امسى دمشقي الامير ودعره ملق عليه بركه وجرانه
فما معنى تلقيب ابن الرومي نفسه بالدمشقي في مطلع القصيدة ؟ اكان ذلك لقباله عند الامير ؟ يجوز .

وتكرر النسبة الى الدمشقي وهو الرجل السريع اليدين المنجر عمله ، ولكننا لا نعلم من اخباره ما يؤيد هذا التلقيب . وهناك دمشقي صديقر لابر الرومي هو الاديب « ابو العباس احمد بن القاسم بن الخليل الدمشقي » عاتبه الشاعر لعاله عن معونته فقال

يا ايها المتعالي عن معونتي غنى بما فيه من ذهن ومن أدب
لو استعنت بنفس غير انفسنا او غير نفسك قابلناك بالعمد
لكن غنيت بنفس لا كفاء لها في النظم والنثر من شعر ومن خطب
ولا ملام على مرتباد مصلحة . باع اللجين بضعفيه من الذهب
فهل القصيدة موضوعة على لسان هذا الدمشقي ؟ يجوز كذلك . ولكنه جد بعيد .

ر وذمي الزمان والاخوانا

أيها الظالمى إخواني عيانا
كل من كان صادياً ريانا

وعدمت الثراء والأوطانا

أيها الحاسدي على صحبتى العسا

ليت شعري ماذا حسدت عليه
أعلى أنني ظمئت وأضحى

أم على أننى ثكلت شقيقي

وقال وهو يعاتب القاسم بن عبيد الله :

سم كؤساً من المرار رواء
مع ، وكانت لولا القضاء قضاء
س فأصمى فؤاده إصماء

أنا ذاك الذي سقته يد السقا
ورأيت الحمام في الصور الشدا
ورماه الزمان في شقة النف

وقد مرض واشتد مرضه بعد موته فهو يقول حين أجلى عن مسكنه :

كفو وفك البلاء عني كبولة
ليس انقالهن بالمحمولة
ضمّن الجسم سقمه ونحوه

فيه عافاني الاله من الشدا
بعد جهد حملت منه ضرباً
ومصاب بشقة النفس مني

ولم يبق لابن الرومي بعد موت ذلك الأخ الوحيد أحد يعول عليه من أهله أو من يحسبون في حكم أهله ، إلا أناس من مواليه الهاشميين العباسيين كانوا يبرونه حيناً ويتناسونه أحياناً ، وكان هو لعهد الهاشميين الطالبيين أحفظ منه لعهد الهاشميين العباسيين كما يظهر مما يلي . أما ابن عمه الذي أشار إليه في قوله :

إلى قدماً ، ولا يصلى له ناراً
وكلما كان زنداً كنت مسعاراً

لي ابن عم يجر الشرجتهداً
يجني ، فأصلى بما يجني ، فيخذلني

فلا ندري أهو ابن عم لح أو ابن عم كلاله . ومبلغ ما بينهما من صلة المودة ظاهر من البيتين .

أولاده وزوجته

ورزق ابن الرومي ثلاثة أبناء : هم هبة الله ومحمد وثالث لم يذكر اسمه في ديوانه ، ماتوا جميعاً في طفولتهم وراثهم بأبلغ وأفجع مارثي به والدُ أبناءه ، وقد سبق الموت إلى أوسطهم - محمد - فنظم في رثائه الدالية المشهورة التي يقول منها :

فلله كيف اختار واسطة العقد
وأنست من أفعاله آية الرشد

توخى حمام الموت أوسط صبيتي
على حين شمت الخير في لمحاته

ومنها في وصف مرضه :

فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد
إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد
ويذوي كما يذوي القضيبي من الرند

لقد قل بين المهد واللحد لبثه
ألح عليه النزف حتى أحاله
وظل على الأيدي تساقط نفسه

ويذكر فيها أخويه الآخرين :

لقلبي ، إلا زاد قلبي من الوجد
يكونان للأخزان أوري من الزند
فؤادي بمثل النار عن غير ما عمد
يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي

محمد ماشيءٌ تُوهَّم سلوةً
أرى أخويك الباقيسين كليهما
إذا لعبا في ملعب لك لذعا
فما فيهما لي سلوة بل حزازة

فابنه محمد إذن قد مات منزولاً في حياة أخويه الصغيرين وهو فيما بين الرابعة والخامسة ، لأنه يقول فيه « لقد قل بين المهد واللحد لبثه » ويقول « وظل على الأيدي تساقط نفسه » وإنما يحمل الطفل المريض على الأيدي في مثل تلك السن ، ولا يحتمل أن يكون أصغر من ذلك لأن أخاه الصغير كان في سن اللعب ، وهي لا تكون قبل الثالثة ونحوها

أما ابنه هبة الله فقد ناهز الشباب على ما يفهم من قوله في رثائه :

يا حسرتا فارقتنني فتنأ غضاً ، ولم يثمر لي الفن

والبيت من قطعة مريرة دفيئة الحزن أشبه بالنشيج منها بالنحيب يقول فيها :

بالأمس لُف عليكما كفن
يمضي الزمان وأنست لي شجن
بل حيث دارك عندي الوطن

أبني إنك والعزاء معاً
تالله لا تنفك لي شجنا
ما أصبحت دنيائي لي وطناً

أولادنا أنتم لنا فتن وتفارقون فأنتم نحن
وكانها لم تشف لوعته أو كأنه لام نفسه على حزنه الصامت . فعاد يقول وهو موزع
القلب بين الصبر والجزع :

شجى أن أروم الصبر عنك فيلتوي عليّ ، ولؤم أن يساعدي الصبر
فياحزني ألا سلو يطيعني وياسواتي من سلوتي ، إنها غدر
وفي الديوان أبيات بائئة يرثي بها ابنا لم يذكر اسمه ، وهي هذه الأبيات :

حماء الكرى هم سرى فتأوبا فبات يراعي النجم حتى تصوبا
أعيني جودا لي فقد جدت للثرى بأكثر مما تمنعان وأطيبا
بني الذي أهديته أمس للثرى فله ما أقوى قناتي وأصلبا
فان تمنعاني الدمع أرجع إلى اسي إذا فترت عنه الدموع تلهبا

وببعد أن تكون رثاء لابنه الأكبر هبة الله ، فهي على الأرجح رثاؤه لأصغر أبنائه الذي لم
يذكر اسمه ، ولا ندرى هل مات قبل أخيه أو بعده . ولكن يخيل إلينا بالمقابلة بين هذه
المراثي أن الأبيات البائية كانت آخر ما رثي به ولداً لأنها تنم عن فجيعة رجل راضه الحزن
على فقد البنين حتى جمدت عيناه ولم يبق عنده من البكاء إلا الأسى المتلهب في الضلوع
وإلا العجب من أن يكون قد عاش وصلبت قناته لكل هذه الفجائع . وقد كان رثاؤه لابنه
الاولى صرخة الضربة الأولى ففيها ثورة لاعجة تحس من خلل الأبيات ، ثم حل الألم
المريير محل الألم السوار في مصيبته الثانية فوجم وسكن واستعبر ، ثم كانت الخاتمة فهو
مستسلم يعجب للحزن كيف لم يقض عليه ويحس وقدة المصاب في نفسه ولا يحسه في
عينيه .

ولقد غشيت غبرة الموت حياته كلها وماتت زوجته بعد موت أبنائه^(١) جميعاً فتمت بها
مصائبه وكبر عليه الأمر وقل فيه العزاء فهو يقول :

عينى سحاً ولا تشحاً جلّ مصابي عن العزاء
ورثاها في موضع آخر يقول فيه :

(١) نكاد نحزم بهذا لانه لم يشر في رثائه اياها الى ولد تركته مع استقصائه كل معنى يقال في موضوع ، وذلك احق شيء بأن
يذكر في رثاء زوجة .

فاستغزرا درة الشؤون على بدركما ، بل على قضيبكما
ويلوح منه أنها ماتت وهي فتية توصف بما توصف به الفتيات ويغلب أنه هجر الزواج
بعدها زمناً فلم يتزوج إلا في أواخر عمره إذا صح ما استخلصناه من بعض أبياته .
ونقول ما استخلصناه لأننا لا نعتمد على خبر صريح في أمر زواجه الآخر ، ولكننا لا بد
أن نقف في هذا الصدد عند أبيات قالها للقاسم بن عبيد الله وهي :

وهبُ خادماً لم يوف نعماك شكرها	فبدل عرفاً عنده بنكير
فما ذنب طفل كان تسبب كونه	رجاؤك ، يا مرجو كل فقير
أيحسن أن جر العيال رجاًؤكم	وخاب نداكم ، وهو خير خفير
غيثكم يا آل وهب فاني ،	وإن لم أكن أعمى ، أضرب ضرير

وأبيات أخرى لعل المخاطب بها هو القاسم أيضاً وهي :

منعت الكفاف الذي لم تزل	تجود به كفك الموسعه
فان كنت مسلم ذي حرمة	لقول أعاديته . ما أضيعة !
فعجله بالسيف كي يستر	يح ، إن كنت من مثله في سعه
أتسلمنا للردى ستة	وقد كنت ترحننا أربعة ؟

لا بد أن نقف عند هذه الأبيات ولا بد أن نفهم منها أنه تزوج في أواخر عمره ورزق ولداً
فأصبح أهل بيته ستة بعد أن كانوا أربعة ، ولا يمكن أن تكون الإشارة في الأبيات الرائية
إلى طفله الأول وزوجته الأولى . لأن الأبيات قلت للقاسم بن عبيد الله ، والقاسم ولد
حوالي سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلا يبلغ من السن المبلغ الذي يرجى فيه ويمدح إلا
حوالي سنة خمس وسبعين ، ولا يعقل ان ابن الرومي بقي عزباً إلى تلك السنة ثم تزوج
زواجه الأول ورزق أولاده الثلاثة .

وكيفما كانت جلية القول في هذه الأبيات فقد كانت له زوجة عندما هجا عمراً حاجب
القاسم ، لأنه قال فيه :

أيركب عمرو حوله من يحفه ويعوزني قوت أعول به عرسي ؟

ولا يكون ذلك قبل سنة خمس وسبعين ونحوها . كذلك لا شك في أنه لما قارب الستين
لم يكن متزوجاً لأنه يقول في قصيدة نظمها في نحو تلك السن :

« قال لي محمد بن حبيب : الشنف ما ظهر من البغضة في العين » وأشار اليه بعد آخر وهو :

بانوا فبان جميل الصبر بعدهم فللدموع من العينين عينان

إذ فسر كلمة « عينان » فروى عن ابن حبيب أنه قال : « عان الماء يعين عيناً وعين ساح » .

فهؤلاء ثلاثة من أساتذة ابن الرومي على هذا الاعتبار ، ولا علم لنا بغيره راجعناه . وحسبنا مع هذا أن الرجل - كيفما كان تعليمه وأياً كان معلموه - قد نش نصيب واف من علوم عصره وسأهم في القديم والحديث منها بقسط وافر في شعره ، ف يقل المعري انه يتعاطى الفلسفة والمسعودي أن الشعر كان أقل آلاته لعلنا ذلك من ش شتى في كلامه . فهي هناك كثيرة متكررة لا يُلم المتصفح ببعضها إلا جزم باطلاع على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها حتى سرت في أسلوبه وتفكيره ، وما كان د الفلسفة في تلك الأيام يصنع أكثر من ذلك ليتعلمها أو ليعد من متعلميها . فأنت لا لرجل غير مشغول أو ملم بالفلسفة والقياس المنطقي والنجوم كلاماً كهذا الكلام :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها	يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما ييكى منها وانها	لأرحب مما كان فيه وأرغد .
أو : سأمده بعض الباخلين لعله	إذا اطرّد المقياس أن يتسما
أو : غاب تحت الحس حتى	ما يرى إلا قياسا
أو : إذا احتج محتج على النفس لم	تكذ على قدر يمنى ها تعتب
أو : يا باطلا أوهمته نحايله	بلا دليل ولا تبى برهان
أو : رجوت صلاح القبل بالبعد فانبرى	
لنا ظلمكم فاستفسد القبل بالبعد	

أو ما قاله في أصحاب الجدل :

لذوي الجدل إذا غدوا لجداهم	حجج تفضل عن الهوى وتجود
وهن كآنية الزجاج تصادمت	فهوت - وكل كاسر مكسور

فالقائل المقتول ثم لضعفه ولو هي ، والأسر المأسور
أو ما قاله في هجاء صاعد وابنه أبي عيسى ومنه :

وثنى بابنه السفية المعنى	بأساطير! رسططا ليس
والذي لم يصح بأذنيه إلا	نحو ذو ثوريوس أو واليس ^(١)
عاقداً طرفه ببهرام أو كيو	ان أو هرمس أو البرجس
أو بشمس النهار والبدر والزهر	رة عند التثليث والتسديس
واجتماعتهن في كل قيد	افتراقاتهن عن كل قيس

فهو في الأبيات الأخيرة يذكر الفلاسفة والرياضيين بأسمائهم المعروفة في الكتب المنقولة ، ويذكر أكثر الكواكب بأسمائها الفارسية ، ويذكرها في غير الأبيات بأسمائها المعروفة عند العرب وخصائصها التي كانت معروفة عند الكلدانيين والفرس الأقدمين ونقلها منهم اليونان ولا تزال مشهورة إلى اليوم في آداب الغربيين . فيقول في مدح إسماعيل بن بلبل وكان كاتباً قائداً :

وافى عطارد^٢ والمريخ مولده فاعطياه من الحظين ما اقترحا
لأن عطارد كان رب الكتابة والحكمة والفنون عندهم والمريخ كان رب الحرب والشجاعة :

ويقول في مدح عبيد الله بن سليمان بن وهب :

إذا صت زهرته صبوة	قال له هرمسه : هندس
وإن عدا هرمسه حده	قالت له زهرته : نفس

والزهرة هي ربة الجمال واللهو ، وهرمس هو اسم عطارد عند الفرس وهو رب الكتابة والحكمة كما تقدم . يعني أن ممدوحه يميل مع اللهو والجمال فتهيب به الحكمة والمعرفة ، ويرهق نفسه بهذه فتدعوه الزهرة إلى التنفيس :

وربما أعطاك شواهد مساهمته في معارف زمانه كلها من أساطير مأثورة وعلوم قديمة وحديثة في بيت واحد ، كقوله يداعب المرثدي حين أخلف وعده في هدايا السمك :

(١) راجع اسمي ذروثيوس واليس في اخبار الحكماء للقفطي

أَلْحَوْتَ حَوْتَ الْأَرْضِ أَمْ حَوْتَ يُونُسَ لَكَ الْخَيْرَ أَمْ حَوْتَ السَّمَاءِ أَرُومَ ؟
فحوت الأرض هو الحوت الذي تزعم الاساطير انه يحمل الثور الكبير الذي يحمل
الأرض ، وحوت يونس هو الحوت الذي ابتلع النبي يونس وجاء نبأه في القرآن ، وحوت
السما هو البرج المعروف باسم الحوت .

وبين أيدينا خبران عن اقتناء الكتب إذا لاحظنا قلة اخباره في كل شأن من شؤونه علمنا
أنهما يدلان على شيء كثير : أحدهما أتى به المعري في رسالة الغفران وفيه أنه « كان يتعاطى
الفلسفة واستعار من أبي بكر السراج كتاباً فتقاضاه به ، فقال ابن الرومي : لو كان
المشتري حدثاً لكان عجباً » .

والخبر الثاني مأخوذ من ديوانه إذ يعاتب أبا الحسين محمد بن المعلى لتضييعه كتاباً استعاره
منه فيقول له من قصيدة :

منحتك مصباحاً فاعشاك ضوءه وقد كان ظني أنه سيركا

وخبران من هذا النوع في حياة قليلة الأخبار يشقان - مع شواهد شعره الكثيرة - عن
شغف دائم بالتحصيل ومدارسة العلوم الى ما بعد سن الكهولة ، فانه لا يقول « لو كان
المشتري حدثاً لكان عجباً » إلا وهو كهل أو شيخ جاوز الكهولة .

ومن الحق له وللتاريخ ألا نهمل أخباره عن نفسه في هذا الباب للابانة عن منزلته من
العلم والدراسة كلما كانت هذه الأخبار مطابقة لما نعرف من مجمل حاله . ففي بعض شعره
يقول عن نفسه أنه أدمن الدرس ورفض المكاسب في سبيل ادمانه كما جاء في هذه
الآيات :

أن امرأ رفض المكاسب واغتدى يتعلم الآداب حتى أحكما
فكسا وحلياً كل أروع ماجد من حرٍّ ما حاك القريض ونظما
ثقة برعي الاكرميين حقوقه لأحق ملتمس بألا يجرما

وأظهر من ذلك قوله في الهزمية الكبيرة للقاسم :

ان أكن غير محسن كل ما تطل ب إنني حسنٌ اجزاء
فمتى ما أردت صاحب فحصى كنت ممن يشارك الحكماء
ومتى ما أردت قارض شعر كنت ممن يساجل الشعراء
ومتى ما خطبت مني خطيباً جل خطبي ، ففاق بي الخطباء

ومتى حاول الرسائل رسلي بلغتني بلاغتني البلغاء
وأظهر من هذا وذاك أبياته التي يمدح بها أبا سهل النوبختي ويذكره فيها مودة آل النبي
واشتغالها معاً بالتفكير في ادحاض شبهات الفلاسفة والمتكلمين ، ومنها :
ويدمج أسباب المودة بيننا مودتنا الأبرار من آل هاشم
واخلاصنا التوحيد لله وحده وتذيينا عن دينه في المقاوم
بمعرفة لا يقرع الشك بابها ولا طعنُ ذي طعن عليها بهاجم
وإعمالنا التفكير في كل شبهة بها حجة تُعبي دهاة التراجع
يبيت كلانا في رضى الله ماحضاً لحجته صدرأ كثير الهيام
وهذه الأبيات احببى أن نعتمد عليها في هذا الباب ، مذ كانت تتعدى فخر الانسان
بنفسه إلى التذكير بوقائع معهودة ومدارس طويلة ، جرت بينه وبين رجل من صفوة أهل
العلم والدراية في أيامه .

وقد وردت في أبياته الهمزية السابقة إشارة إلى حدقه الكتابة ومشاركته في البلاغة المثورة
تعززها اشارة مثلها في هذا البيت :
ألم تجدوني آل وهب لمدحكم بشعري ونثري . أخطلاً ثم جاحظاً

فلا بد أنه كان يكتب ويمارس الصناعة الشعرية . إلا أن ما استجمعناه من مثورات لا يعدو
نبذاً معدودة موجزة ، منها رسالة إلى القاسم بن عبيد الله يقول فيها متنصلاً :
« ترفع عن ظلمي ان كنت بريئاً ، وتفضل بالعفو ان كنت مسيئاً ، فوالله اني لأطلب
عفو ذنب لم أجته ، وألتمس الاقالة مما لا اعرفه ، لتزداد تطولاً وازداد تدللاً ، وأنا أعيد
حالي عندك بكرمك من واش يكيدها ، واحرسها بوفائك من باغ يحاول افسادها . وأسأل
الله تعالى ان يجعل حظي منك بقدر ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيث استحق منك ،
والسلام » .

ومنها رسالة كتبها يعود صديقاً : « أذن الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح
بيد العافية عليك ، ووجه وفد السلامة اليك ، وجعل علتك ماحيةً لذنوبك مضاعفة
لثوابك » .

وكتب إلى صديق له قدم من سيرا فأهدى الى جماعة من اخوانه ونسبه :
« أطال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتك وجعلني فداءك . لولا انني في حيرة من أمري

وشغل من فكري لما افترقنا ، وشوقي علم الله فغالب وظمأي فشديد . وإلى الله الرغبة في أن يجعل القدرة على اللقاء حسب المحبة ، إنه قادر جواد .

« ومكاننا من جميل رأيك أيدك الله يبعثنا على تقاضي حقوقنا قبلك ، وكريم سجايك وأخلاقك يشجعنا على امضاء العزم في ذلك ، وما تطولت به من الايناس يؤنسنا بك ويسطننا اليك ، وآثار يديك تدلنا عليك وتشهد لنا بسياحتك ، والله يطيل بقاءك ويديم لنا فيك وبك السعادة . »

« وبلغني أدام الله عزك أن سحابة من سحائب تفضلك أمطرت منذ أيام مطراً عم اخوانك بهدايا مشتملة على حسن وطيب ، فأنكرت على عدلك وفضلك خروجي منها مع دخولي في جملة من يعتدك ويعتقدك وينحوك ويعتمدك ، وسبق إلى قلبي من ألم سوء الظن برأيك أضعاف ما سبق إليه من الألم بفوت الحظ من لطفك ، فرأيت مداواة قلبي من ظنه وقلبك من سهوه ، واستبقاء الود بيننا بالعتاب الذي يقول فيه القائل : ويبقى الود ما بقي العتاب ، وفيما عاتبت كفاية عند من له اذنك الواعية وعينك الراعية . »

وقال في تفضيل النرجس على الورد : « النرجس يشبه الأعين والمضاحك والورد يشبه الخدود ، والأعين والمضاحك اشرف من الخدود . وشبيهه الأشرف أشرف من شبيهه الأدنى ، والورد صفة لأنه لون والنرجس يضارعه في هذا الاسم لأن النرجس هو الريحان الوارد اعني أنه أبدا في الماء . والورد خجل والنرجس مبتسم ، وانظر أدناها شبيها بالعيون فهو أفضل . »

هذه نماذج من منشوراته لا نعرف غيرها فيما بين أيدينا ، وخليق بمن يكتب بهذا الأسلوب أن يعد في بلغاء الكتاب وإن لم يعد في ابلغهم . على أن ابن الرومي لم يكن يحسب نفسه الا مع الشعراء اذا اختلفت الطوائف . فانه يقول عن نفسه وهو يمدح أبا الحسين كاتب ابن أبي الاصبع :

ونحن معاشر الشعراء نسمى إلى نسب من الكتاب دان
وإن كانوا أحق بكل فضل وأبلغ باللسان وبالبنان
أبونا عند نسبتنا أبوهم عطارد السماوي المكان

ولا عجب في هذا . فقد كان للشعر كل ما درس الشاعر من فلسفة وعلم وأدب ، وكانت هذه المعارف عنده كالروافد للشعر لا نفع لها ان لم ينته بها المصعب الى النهر الكبير . ولم يكن له عقل فيلسوف ولا عقل عالم . وقد رأيت قياسه المنطقي في تفضيل

الترجس على الورد ، فهل قياس فيلسوف هو أو قياس فنان ؟ انه لقياس فنان نظر الى الدنيا كأنها متحف للناظر ومسرح للشعور ، وقليلاً ما نظر إليها كأنها معمل للتحليل او قضية مبهمة للتأمل والتفكير .

أما حظه من علوم العربية والدين فمن الفضول أن نتعرض لاحصاء الشواهد عليه في كلامه ، لأنه أبين من أن يحتاج الى تبين . وندر في قصائده المطولة او الموجزة قصيدة تقرأها ولا تخرج منها وأنت موقن باستبحار ناظمها في اللغة واحاطته الواسعة بغريب مفرداتها وأوزان اشتقاقها وتصريفها ومواقع امثالها وأسماء مشاهيرها وما يصحب ذلك من أحكام في الدين ومقتبسات من أدب القرآن . فليس في شعراء العربية من تبدو هذه الشواهد في كلامه بهذه الغزارة والدقة غير شاعرين اثنين احدهما صاحبنا والثاني المعري : وقد كان يمدح الرؤساء والأدباء امثال عبيد الله بن عبد الله وعلي بن يحيى واسماعيل بن بلبل فيفسر غريب كلماته في القرطاس الذي يثبت فيه قصائده ، كأنه كان يشفق أن تفوتهم دقائق لفظه وأسرار لغته ، ثم يعود الى الاعتذار من ذلك اذا انس منهم الجفوة والتغير :

لم أفسر غريبها لك لكن لامرئ يجهل الغريب سواكا
لغيرك لالك التفسير ، أنى يفسر لابن بجدتها الغريب

وكانوا لشهرته باللغة وعلم أسرارها ولطيف نكاتهما يختلقون له الكلمات النافرة يسألونه عنها ليعبثوا به أو يعجزوه ، وقصة « الجرامض » احدى هذه المعانيات التي تدل على غيرها من قبيلها . فقد سأله بعضهم في مجلس القاسم بن عبيد الله : ما الجرامض ؟ فارتجل مجيباً :

وسألت من خبر الجر مض طالبا علم الجرامض
وهو الخزاكل والغوا مض قد تفسر بالغوامض
وهو السلجكل شئت ذ لك ، ام أبيت بفرض فارض

وكلها كلمات من « مادة » الجرامض لا معنى لها ولا وجود .

واذا صح استقراؤنا وكان من اساتذته امثال ثعلب وقتيبة فضلاً عن الأستاذية الثابتة لابن حبيب فلا جرم يصير ذلك علمه بالغريب والانساب والأخبار وهؤلاء كلهم من نخبة النخبة في هذه المطالب . ولا سيما اذا أعانهم تلميذ ذو فطنة متوقدة الفهم وذكرة سريعة الحفظ كهذا التلميذ ، فقد مر بك أنه كان يحفظ الأبيات الخمسة من قراءة واحدة . فهب

في الرواية بعض المبالغة التي تتعرض لها أمثال هذه الروايات فهو بعد سريع الحفظ وهذا ما يعينه على تحصيل اللغة وتعليق المفردات .

أفكان مع هذا العلم بالعربية يعرف لغةً غيرها ؟ إن جده كان رومياً ولكن كثيراً من الناس اجدادهم غرباء عن أوطانهم وهم لا يعرفون غير لغة الوطن الذي ولدوا فيه .

وإن امه كانت تنتمي الى فارس ولكننا لا نعلم أفارسية هي أم من أصل فارسي قد يرتفع الى الأجداد ، وفرق بين الحاليتين كما لا يخفى . لأنها قد تجهل الفارسية وهي حفيذة فارسي أو يغلب أن تجهلها في هذه الحالة ، وقد تتكلمها وهي بنت فارسي وفارسية فيلقنها ابنها وينشأ على التكلم بها من صباه .

وفي أشعار ابن الرومي كلمات فارسية غير قليلة كالبنفسا (البنفسج) والدستبند (ضرب من الرقص) والبذبخت (سيء الطالع) والشير (الأسد) والبرشوجة (طائر) والدستنبوية (الشمامة) والكخذاة (القهرمانة) وأشباه هذه الألفاظ ، ولكن العلم بالفاظ كهذه وبأضعافها لا يكثر على ساكن بغداد في ذلك العصر الذي تقاربت فيه الأمتان الفارسية والعربية وامتزجت فيه الحضارتان ونفذ فيه الفرس إلى كل فرع من فروع المعيشة الرفيعة والوضيعة . فمن أبناء القاهرة اليوم من يتلقف أضعاف هذا العدد من الكلمات الفرنسية والانجليزية والايطالية ويجريها في مخاطباته اليومية ، وهو لا يتكلم بغير لسان وطنه .

بل هناك ما يكاد يدنو بنا إلى الجزم بجهل ابن الرومي اللغة الفارسية وهو قوله في هجاء اسماعيل بن بلبل يتهمة في عربيته :

أُسْمَاعِيلُ	مِنْ	رَجُلٍ	تَعَرَّبَ	بَعْدَ	مَا	شَاخَا
وَأَصْبَحَ	مِنْ	بَنِي	شَيْبَا	نَ	ضَخَمَ	الشَّأْنَ
وَصَارَ	أَبُوهُ	بَسْطَامًا	وَكَانَ	أَبُوهُ	قِيَاخَا	
وَصَارَ	يَقُولُ	« قَمِ عَنَا »	وَكَانَ	يَقُولُ	« قَوْهَاخَا »	

فأول ما يتبادر إلى الذهن أن « قوهاخا » هذه ترجمة « قم عنا » باللغة الفارسية . ولكننا سألنا من يعرفونها بينما فلم يعرفوا للكلمة هذا المعنى ولا غيره ، وأكبر الظن عندنا أنها ليست الا حكاية صوتية لبعض المخارج الفارسية يحكيها ابن الرومي على سبيل التهكم بالعجمة في تلك المخارج . وقد تكون تصحيفاً من « قوماخا » وهي قريبة من نطق

الأعجمي لقم عنا . . ولو كان حظه من العلم بالفارسية أكثر من حظ الحكاية الصوتية لكان أحرى به أن يظهر في هذا المقام .

مزاجه وأخلاقه

أي خبر من الأخبار التي تسربت إلينا عن حياة ابن الرومي لا نتركه مختارين غير أسفين لو استطعنا أن نستبدل به صورة لوجه الرجل وشخصه ؟ بل أي خبر من هذه الأخبار لا نتركه مختارين غير أسفين لو استطعنا أن نستبدل به وصفاً دقيقاً للملامح الرجل وقسماته وشارته وسائر ما يتصل بشكله ؟ فقد تعودت النفوس أن تشتاق إلى رؤية من تتحدث به وتسمع عنه ولم تتعود ذلك عبثاً ، ولكنها تعودته لأن الرؤية تزيدها معرفة بمن تريد أن تعرفه ، أو لأن المعرفة لا تكمل بغير رؤية .

وليس من مجرد المصادفة - فيما نعتقد - أن تشيع الصور الشمسية والترجمة التحليلية والدراسة النفسية في عصر واحد ، ولا أن تكون الأمم المعروفة قديماً ببراعة الترجمة وكتابة السير أعماً معروفة كذلك بتقييد الملامح والسمات في الصور والتماثيل . فان فراسة الظاهر جزء من فراسة الباطن . وكلتاها لازمة لفهم السيرة واتقان الدراسة النفسية .

ونحن نؤمن بالفراسة كل الايمان ولا نشك إلا في المتفرسين أو في بعض المتفرسين . فالذي فاتنا من ترجمة ابن الرومي بفوات صورته قسم ليس بالقليل ، وتعويض هذا القسم بما بقي لنا من الوصف العرضي والأخبار المنزورة من أصعب الأمور .

فها نحن أولاء نكتب سيرة ابن الرومي ولا نعرف ما الفرق مثلاً بين سحته وسحنة شاعر من شعرائنا الآخرين ، نعم ان ابن الرومي كان كما نعلم سليل أبوة يونانية وامومة فارسية ، ولكن ألم يكن من الجائز أنه كان اقرب إلى ملامح الأمومة منه إلى ملامح الابوة ؟ أو اقرب إلى ملامح الأبوة منه إلى ملامح الأمومة ؟ اكان له وجه فارسي أو وجه يوناني أو وجه رجل فيه مسحة من سمات الشعيين أو مسحة فيه من هؤلاء ولا هؤلاء ؟ ما نظن ذلك مما يستغنى عنه في ترجمة شاعر أو صاحب ترجمة كائناً ما كان .

فاذا كنا سنرجع إلى ذخيرتنا التي نعتمد عليها من شعر الشاعر وإلى القليل من اخباره التي تسربت إلينا فلا ندحه لنا في هذا الصدد ولا حيلة ، وعزاؤنا بعض العزاء اننا قد نهتدي من شعره واخباره إلى صورة له تعين على تخيله وتمثيله وأن لم تغن عن صورته

الحقيقية ولا عن وصفه الدقيق كل الغناء .

كان ابن الرومي صغير الرأس مستدير اعلاه ، أبيض الوجه يخالط لونه شحوب في بعض الأحيان وتغير ، ساهم النظرة بادياً عليه وجومٌ وحيرة : وكان نحيلاً بين العصبية في نحوله ، اقرب إلى الطول أو طويلاً غير مفرط ، كث اللحية اصلع بادر اليه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرا فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعه ، ولم يكن قط قوى البنية في شباب ولا شيخوخة ولكنه كان يحس القوة السيرة في الحين بعد الحين كما يحس غيره العلل والسقام ، فكان إذا مثنى اختلج في مشيته ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل ، لاختلال اعصابه واضطراب اعضائه . وكان على حظ من وسامة الطلعة في شبابه معتدل القسما لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا حسنة بارزة في صفحة وجهه ، اما في الشيخوخة فقد تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق به ما لا بد أن يلحق بمثله من تغير السقام والهموم .

هذه خلاصة الصورة التي استخرجناها من شعر الشاعر واخباره ، وقد كان ينبغي أن نكتفي بها ونقف عندها لو كانت « الترجمة لذاتها » هي الغرض الوحيد من هذا الكتاب . ولكن « الترجمة » ليست هي كل ما نقصد اليه ولا اهم ما نقصد اليه ، لأن الطريق المؤدي إلى الترجمة غرض كبير من أغراض الكتاب لا يقل عن بيان الترجمة لذاتها ، ووسيلة الوصول إلى النتيجة كالوصول إلى هذه النتيجة ، والصيد مقصود هنا كما تقصد المائدة والطعام الذي على المائدة . فمن الواجب علينا أن نبين مكان هذه الترجمة من شعر ابن الرومي وحاجة الأخبار التي بين أيدينا إلى التكميل من كلامه في وصف نفسه عامداً وغير عامد ، وان نبين كيف ان ديوان شعره قد تجاوز حد الترجمة الباطنية إلى الترجمة التاريخية ، لاشتغال وجدان الرجل عليه وفرط استيعابه لنفسه في شعره ، وشدة الامتزاج بين حياته وفنه :

فأما أنه كان صغير الرأس مستدير اعلاه فيؤخذ من رده على من عاب صغر رأسه :
إذ تنقصتنى بصعلكة الرأس س ، سفاهاً واذمت غير ذميم
ما تعديت أن وصفت خشاشاً لودعياً كالحية المشهوم . . .

.....

وقديماً ما جرب الناس قبلي ثقل الهام في الخفاف الحلوم
واعتر ، ان أفضل الطير في الط ير ، وفينا ، كروسات اليوم

فهو يقول لعائبه إن صغر الرأس لا يزري به لأن الحية المشهومة - وهي موصوفة بالحكمة واليقظة - صغيرة الرأس ، والبومة كبرته ، وهي مضعوفة فاشلة بين الطير والناس .

وأما أنه كان أبيض اللون فذلك غير عجيب في رجل له جدّ من الفرس وجدّ من الروم ، وقد قال هو يصف ديباجة وجهه في نظرة العمر :

يا هل تعود سوائف الأزمان اولاً ؟ فمنصرف الى السلوان
كما أروح وللشبيبة حبرة أرني العيون بفاحم فتان
وبمشرق صافي الأديم كأنما فيه اثلاق من صفيح يمان

والأشراق والصفاء والاثلاق أشبه بالبياض منها بأي لون من ألوان الوجوه .

وأما أنه كان « يخالط وجهه شحوب في بعض الأحيان وتغير ، وأنه كان ساهم النظرة بادياً عليه وجوم وحيرة » فيفهم من قوله وقد لاحظت عليه بنت صغيرة لعبيد الله بن عبد الله أنه كان كثير السكون والتفكير :

وشقيقة قالت اراه مفكراً حتى أراه من السكينة نائماً
فأجبتها اني امرؤ هيامة في كل واد ما أفيق هماً
امسي واصبح للشوارد طالباً بهواجسي ، حول الأوابد حائماً

وهي ملاحظة صادقة بسيطة كأكثر ملاحظات الاطفال - ولا سيما البنات - على الرجال الذين يرونهم عند آبائهم فيفترسون فيهم ويطلقون النظر اليهم . ثم أن اناسا كانوا يعيرون عليه انقباضه كما يؤخذ من قوله في هجاء بعضهم : « يعيب انقباضي معجباً بانبساطه » وكما قال علي بن ابراهيم كاتب مسروق البلخي « كان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حال » . ولولم يكن هذا واضحاً في شعره واخباره لتوسمناه من اعتلال صحته وخيبة أمله وكثرة شكواه .

وأما نحوله « العصبي » المعروف بالدلائل عليه في شعره كثيرة منها قوله :

أنا من خف واستدق فما يث قتل ارضاً ولا يسد فضاء

.....

أف ليث الليوث نفساً وإن كند ت بجسمي ضئيلة رقشاء

ومنها :

يقول القائلون ضوياً جداً ولم تنضجك أرحام النساء
ومن انضاجها أي اعرت عظامي من لحومهم الوطاء
إذا ما كنتُ ذا عود صليب فيكفني القليل من اللحاء

ومنها :

وزارية علي بأن رأيتني من الهزلي حقيراً في السمان
وذلك فضلاً عن مدحه النحافة فيمن كان يمدحهم وتفضيله شأواً الخاص على شأواً
البطان لأن العصب جعل في الرجال قديماً و« كذا الجدل في الحبال المتان ».

ونعلم انه كان أقرب إلى الطول أو طويلاً غير مفرط من شعره وحده لا من خبر روي
عنه . فقد كان شديد السخر بالقصار شديد النكاية في هجائهم ، ومن قوله في
شيخوخته :

أقول وقد شابت شواتي وقوست قناتي واضحت كدنتي^(١) تتخذ

ومنه :

وأرى قوامي لج في تقويسه ولقد يلج اللين في تعطيفه

والقوام والقناة والتقويس بالطوال اشبه ، ولا سيما حين يلج التقويس ولا يقف عند
الانحناء اليسير . ويتوسم فيه الطول من أبيات كثيرة كهذا البيت :

وكم مثلها من ظبية قد تفيأت ظلالي وأغصانُ الشبيبة مُتد

ومثله :

وظبية من ظباء كان مسكنها في ظل غصني ، اذا ظل الضحى التهبها

ومثله :

اذ للشبيبة صبرة تصبو بها وبشاشة تصبي بها وتروق
يهتز منك لأريحيات الصبا غصن تفيؤه الطباء وريق

(١) بنية الجسم من شحم ولحم

ولا يكون الاهتزاز والتشبيه بالغصن الذي تنفيذه الأطباء الا لقوام فيه امتداد وطول .
وقد طلب مرة ثوباً فكتب يقول ويذكر نفسه بضمير الغائب :
فأنجز الوعد بثوب له من الجياد المرتضاة الحسان
وفي القوافي ثمن مريح فلا يقصر ذرعه عن ثمان
فاذا حسبنا كل حساب للطمع فلا نظن ثمانني أذرع تُطلب لرجل قصير أو فوق القصير
بقليل .

إلا أنه لم يكن مفرط الطول لأنه كان يهجو من في طوله أفرأط كما قال في عمرو
الحاجب :
فَلَيْقَدْ مِنْهُ طَوْلُ نَهْرٍ مَعْوَجٍ وَلِلْأَنْفِ مِنْهُ نَفْخَةُ الْبُوقِ فِي الْكُفْرِ
ونحسب هذه الشواهد كلها كافية في تخيل قوامه ، وانه لم يكن بالطويل المفرط ولا
بالقصير .

وكان ملتحياً ولا شك في اوائل كهولته لأنه يقول :
رَأَيْتُ جَلِيسِي لَا يَزَالُ يَرُوعُهُ بِيَاضُ الْقَذَى فِي الْحَيْتِي فَيَمِيطُهُ
فَكَيْفَ بِهِ عَمَّا قَلِيلٌ إِذَا رَأَى قَذَى الشَّيْبِ قَدْ عَفَى عَلَيْهَا سَمِيطُهُ^(١)
فهو قد التحى في سن يتوقع ما بعدها من زيادة الشيب وعمومه . إلا انه كان كث اللحية
قصير شعرها كما قال :
وَلَمْ أَزَلْ سَبَطُ الْأَخْلَاقَ وَاسْعَهَا وَإِنْ غَدَوْتُ امْرَأً فِي الْحَيْتِي كَثْتُ
وكأنما جعل من ذلك النقص فخراً لأنه نقص لا يد له في استدراكه ، فكان يسخر من
اللحي الطوال ويسمّيها اذناً وباً ومخالي ومذبات ويشك في أدب كل غزير اللحية بل يجعل
غزارتها دليلاً قاطعاً على نزارة ادبه حتى البحرّي ! لأن :
البحرّي ذنوب الوجه نعرفه وما رأينا ذنوب الوجه ذا ادب
ومغالطته في هذا بادية من دخيلة احساسه بهية اللحية وانها علامة التذكير حيث يقول
لصاحب لحية طويلة :

(١) شيره .

ارع فيها الموسيقى فانك منها يشهد الله - في أثم كبير
أيما كوسج يراها فيلقى ربه بعدها صحيح الضمير
هو أخرى بان يشك ويغرى باتهام الحكيم في التقدير

.....
لحية أهملت فسالت وفاضت فاليها تشير كف المشير
ما رأتها عين امرئ ما رآها قط الا أهل بالتكبير
روعة نستخفه لم يرعها من رأى وجه منكر ونكير
فاتق الله ذا الجلال وغير منكراً فيك ممكن التغير
او فقصر منها فحسبك منها نصف شبر علامة التذكير

والرغبة في غزارة اللحية معقولة من زجل اصلع كان يفرق من الصلع ويخفيه جهده -
ويود أن يداريه بغزارة الشعر في وجهه الذي لا يستطيع مداراته كما كان يداري رأسه .
أما الشيب والصلع فحديثه عنهما طويل وشهرته بما قال فيها مضرب الامثال بين
الأدباء .

شاب رأسه في غضارة الشباب فقال :

شاب رأسي ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيباً أن يرى النور في القضيب الرطيب

ولم يدع لنا أن نسأل عن السن التي شاب فيها لأنها هي الحادية والعشرون من عمره كما
عينها لنا تعييناً في قوله :

فظلم الليالي انهن أشبنتني لعشرين يحدهن حول مجرم
ثم والى ذكر السنين مرحلة بعد مرحلة ، فقال فيا دون الثلاثين
وأنى تفرع رأسي المشيب ، ولم اتفرع ثلاثين عاماً
ويبلغ الأربعين فعد نفسه من الموتى الا احلاماً تذكره الحياة :

متاً إلا حشاشة وادكار مثل أحلام حالم النوم
ومتى ما انقضت اجاري طرف مات الا صيامه في المصام

.....
وقضيت الرضاع عن درة الكر ملتجريم اربعين تمام

وهكذا في الخمسين والخامسة والخمسين والستين ، كأنه عابر طريق يحصي ما عبر منها

وما بقي له ان يعبر . وما وخط الشيب شعره حتى آلى له من البداية « يمينا لاخفينك جهدي » ووالى اخفائه بقية عمره . واخفى الصلح حين اصابه في شبابه كما اخفى المشيب ، فكان لا يرى في مكان الا لابساً عمامة ، وعز عليه ان يبنى بهذا التشويه في نظره وهو الذي أولع بكل تشويه يتصالح به ويفتن في تمثيله ويعرق اصحابه في المزح والدعابة . فلزم العمامة لا يخلعها واخفى سر ذلك عن جلسائه وجليساته ، فكان اثقل شيء عليه ان يتعرض متعرض لهذا السر المصون !

يا أيها السائل لاخبره عني : لم لا اراك معتجراً ؟
أستر شيئاً لو كان يمكنني تعريفه السائلين ما ستر
ومن غيره هجاه وقال فيه :

يعيرني لبس العمامة سادراً ويزعم لبيها لعب مكتم
وتلا ذلك ما لا بد منه في هجاه صاحبا من عوار الكلام .

ثم انكشف الأمر ولم تُغن الحيلة في لجاج الفضوليين والمتشوفين فعاد إلى العمامة يحيل عليها اللوم ويتهما بجريرة الصلح ويقول انه لم يكن اصلح قبل أن يلبسها وانما كان يتقي بها البرد والحر فدهاه طول التعمم في لمته ، فهو يلبسها الآن لستر هذا التشويه . . الحديث !

تعممت احصاناً لرأسي برهة من القر يوماً والحرور اذا سفع
فلما دهى طول التعمم لمتي واودى بها بعد الاصاله والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت علي من الصلح
فيالك من جان على جناية جعلت اليه من جنايته الفرع

ولا يبعد ان يكون هذا صحيحا بعض الصحة ، وان خوفه البرد والحر كان من اسباب ملازمته العمامة وان لم يكن هو كل السبب ، فقد كان يكابد في الصيف نصباً كما قال لبعض ممدوحيه « يا علياً بما اكابد فيه » (١) . . . وكان مرهف الحس جداً فكان أهون من يهيج أعصابه ويستفز خلقه ، بل كانت الرائحة إذا قويت تؤذيه وتصدعه ، فلهذا كان يذم الورد ويمدح النرجس كما جاء في فصل التلطف من كتاب الصناعتين . ومن بلغ منه

ف يعدو فلا تزده التطاء
لا تعاونه ، ان فيه اكتفاء

(١) قد مضى أكثر الشتاء وجاء الصيف
يا علياً بما اكابد فيه

التفرز هذا المبلغ لم يعد أن يلبس العمامة لانتفاء الحر والبرد ، ولم يعد كذلك أن يكون ضعيف الشعر فطرة وان يصيبه الشيب والصلع لضعف سبب .

أما مشيته فقد تولى هو وصفها لنا على طريقته التي لا تدع شيئاً من تمثيل الشكل والحركة ، فعلمنا منه أنه كان يخلج في مشيته كأنه يحمل بين يديه غربالاً يديره :
ان لي مشية اغربل فيها آمنا أن اساقط الاسقاطا

وهذه المشية معروفة تدل عليها حركة الغريلة وتكثر فيمن بهم خلل في العصب أو العضل . وفي ديوانه أبيات يهجو بها اخا نضر الجهد لأن نضراً أراد أن يزوجه بنته فمنعه من ذلك أخوه وقال له : أما تنظر إلى مشيته مثل مشية المخثنين ؟

ونحسب أننا في غنى بعد هذا عن شواهد أخرى على حظه من الصحة وقوة التركيب في شبابه ومشيه ، ولكننا لا نحب أن نحدث إذا امكن أن نجزم ، فالرجل يقول في صباه :
واني للقوي على المعالي وما أنا بالقوي على الصراع

وكان يشكو مرض العينين قبل الشيخوخة ، ففي ذاك يقول من قصيدته الدالية في صلح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وأخيه سليمان ، وهي مما نظم حوالي الأربعين :

شغلت عنك بعوار اكابده	لا باللاهي ولا ماء العناقيد
ولو قعدت بلا عذر لمهد لي	جميل رأيك عذري أي تمهيد
قاسيتُ بعدك لا قاسيتُ مثلها	نهار شكوى يباري ليل تسهيد
أمسي واصبح في ظلماء من بصري	فما نهاري من ليلي بمحدود
كأنني من كلا يومي وليلته	في سرمد من ظلام الليل ممدود
إذا سمعت بذكر الشمس آسفني	فصعدت زفراشي أي تصعيد

وذلك إلى شكاية من المتطبين واعتذارات كثيرة بالمرض تدل على بنية مصابة وحظ من العافية قليل .

فلما أدركته الشيخوخة لا جرم برحت به واشتدت وطأتها عليه فرجفت اعضاؤه وتعاورته الأسقام واحتاج إلى العصا وزاغ نظره وثقل سمعه .

ودب كلال في عظامي ادبني جنيب العصا ، اناد أو اتأيد
وبورك طرفي فالشخص حiale قرائن من ادنى مدى وهي فرد
او كما قال في قصيدة أخرى :

واحدث نقصان القوى بين ناظري
وسمعي بين الشخص والصوت برزخا
وجماع ذلك قوله :

أنا ذاك الذي سقته يد السقم كؤوساً من السقام رواء
ورأيت الجحام في الصور الشنع فكانت لولا القضاء قضاء
وقد اختلفت أقوال ابن الرومي في حظه من القسامة قبل أن تجور عليه السن وتعصف
السقام بما كان له من صباحة في ضحوة عمره . فهو اذا أراد ان يمزح أو يهون على نفسه فقد
الشباب العزيز - قال :

من كان يبكي الشباب من جزع فلست ابكي عليه من جزع
فان وجهي بقبع صورته ما زال لي كالشيب والصلع
أو قال :

جزى الله عني قبح وجهي سعادة كما قد جزاه ، والاله قدير
دعوت به قوماً فأدوا اتاوة كأنني عليهم عند ذاك امير
وهو اذا أراد أن يرثي الشباب ويتفجع عليه قال :

وكنت جلاء للعيون من القذى فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد
أو قال :

وما يرجى من البيض ابتسام لمن امسى لفرقه ابتسام
كأن محاسني لم تضح يوما وفي لحظاتهم لها اقتسام
كأنني لم ار اللمحات نحوي. وفي اللمحات لثم والتزام

والمرء يبالي اذا اراد أن يتهكم أو يتفجع ، وببالي اذا اراد التهوين أو التهويل ، فالصورة
الأولى ادخل في باب الصور الهزلية التي فيها ما في جميع هذه الصور من التحريف والمسخ
والمبالغة ، والصورة الثانية ادخل في باب الصور المحسنة التي يكثر فيها التنويق
والاصلاح ، ولكننا نرجح انه كان كما قلنا « على حظ من وسامة الطلعة في شبابه معتدل
القسيمات لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا صفة بارزة في صفحة وجهه » . لأنه كان يتناول
بالسخر كل عيب في وجوه الذين هجاهم من خصومه ومازحهم من اصحابه ، فلو كان فيه
مثل هذه العيوب البارزة التي لا تدارى ولا يغالط بها لما تناولها ولا حول الانظار الى مثلها في
وجهه ، أو هو لو كانت فيه هذه العيوب وتناولها بالهجو والدعابة لتعرض له المهجرون بمثل
فعله فرد عليهم شعراً كما رد عليهم حين تعرضوا له في العيوب الأخرى من مشية أو صلح

أو هزال . فالأقرب الى الترجيح انه لم يكن ذا عيب بارز ولا حسنة بارزة ، وانه لم يكن
ظاهر الحسن ولا ظاهر التشويه . علي انه كائناً ما كان حظ من القسامة في صباه قد فقد ولا
ريب ذلك الحظ الذي كان له حين شاخ وجاوز الخامسة والخمسين ، فاننا لا نتخيل الجمال
لشيخ نحيل معروق تقوس ظهره وشحب وجهه وانطفأ وميض عينيه وطال عليه السقم
والغم ولم تزينه الشيخوخة بذلك التاج الفضي الذي تسبغه على رؤوس الشيوخ ولا بتلك
الحلية الناصعة التي تحيط بها وجوههم بالوقار والجمال .

على أن ضعف البنية لم يكن ليضير ابن الرومي كثيراً في شبابه او في شيخوخته لو أنه
اعتدل في عيشه وقوي على ضبط نفسه ، فان ضعف البنية قد يعمر ويبلغون فوق
الستين التي بلغها ابن الرومي وهم في عشة سوية وحالة من الصحة مرضية ، وربما يُف
الهزيل على الثمانين وهو معاف الجسد موقى من الامراض التي لا يتقيها الاقوياء ولا
يجمعون من مواجهة اسبابها ، ولكن ابن الرومي كان هزيراً وكان مع هزاله قليل التصون
والاحتباس ، فجنى على بدنه فوق ما جناه عليه هزاله ولج به الحس المتوفز فتهافت على
لذات الحياة واطايبها تهافت من لا يجب ان تفوته متعة او تفلت من يديه نهزة ، وكبر له
الخيال لذات الحس ومباهجه فاكب على مائدة الحياة كالطفل على مائدة الحلوى لا تمنعه
كظة ولا تقمع شهوته حمية . وراح منهوماً كذلك بكل لذة عقلية يلتهم المعرفة كما يلتهم
اللهو والنعمة التهام من يخشى أن يذاد عنها ولما يستوف شعب شهوته منها . فجار على بنيته
الضاوية وانطلق مسرفاً في درسه مسرفاً في اشتهاؤه مسرفاً في طعامه وشرابه ، وروي له
الشعر حتى في اصناف الطعام والشراب بل روي له الشعر في هذه الأغراض حيث لا
يروى له شعر غيره . قال محمد بن يحيى الصولي فيما نقله المسعودي في مروج الذهب :

« أكلنا يوماً بين يدي المكتفي بعد هذا بمقدار شهر - أي بعد أكلة روي فيها شعر لابن
الرومي - فجاءت لوزينجة فقال : هل وصف ابن الرومي اللوزينج ؟ فقلت نعم : فقال
أنشدني ، فأنشدته :

لا يخطئني منك لوزينج	إذا بدا أعجب أو عجباً
لم تغلق الشهوة أبوابها	إلا أبت زلفاه أن يحجبا
لو شاء أن يذهب في صحنه	لسهل الطيب له مذهبا
.....

مستكنف الحشو ولكنه أرق جلدأ من نسيم الصبا
كأنما قُدَّتْ جلابيه من أعين القطر الذي طنبأ^(١)
يخال من رقة خرشائه^(٢) شارك في الأجنحة الجندبا

إلى آخر الأبيات . فحفظها المكتفي فكان ينشدها .

وأخبر نبطويه عن أحمد بن حمدون : « تذاكرنا يوماً بحضرة المكتفي فقال : أفيكم من يحفظ في نبيذ الدوشاب شيئاً ؟ فأنشدته قول ابن الرومي :

إذا أخذتَ حبه ودبسه ثم أجدتَ ضربه ومرسه
ثم أطلت في الأناء حبسه شربت منه البابل^١ نفسه

فقال المكتفي : قبحه الله ما أشهره ! لقد شوقني في هذا اليوم الى شرب الدوشاب »

وإننا لنقرأ هذه الأبيات وأمثالها الكثيرة في ديوان ابن الرومي فيخطر لنا عصره المترف وخطره لنا ان الاسهاب في وصف الطعام والشراب لم يكن في ذلك العصر معيباً ولا غللاً بالمروءة ، لأنه كان عصر الشهوات جميعها وأولها شهوة المأكّل والمشارب ، بل كان عصرأ يصح أن يُسمى بعصر الموائد والولائم لأنها كانت وصلة الاجتماع في الجد واللهو وملتقى طلاب اللقاء في مواعد الوجبات اليومية وغير مواعدها المألوفة ، وكان من مقاييس مروءة الرجل أن ينظر إلى مطعمه في بيته وبراعة طهاته ونفقتة على أكله ، فغضب المتوكل على عافية بن شبيب وأقصاه من مجلسه ونفاه إلى البصرة لأنه رأى له طعاما لا يليق بمن يجالس الخليفة وينال صيلاته ، ونحن لا نتصفح أخبار المجالس في ذلك العصر إلا صادفنا الحديث عن الولائم والمهارة في اتقانها والسخاء في النفقة عليها . فربما كان الخليفة وجلساؤه يتواعدون إلى الموعد ومع كل منهم طعامه يتفكهون باستعراض ألوانه ، والمقابلة بين صناعاته وطعومه ، وكان من تمام ظرف الأديب والنديم أن يجذق شأن الطعام ويخبر صنعه وما قيل في وصفه ، فظهرت في ذلك العصر كتب الادباء في فن الطهو ككتاب الطبخ لابراهيم بن العباس الصولي وكتاب الطبخ وكتاب فضائل السكباغ لمحظة البرمكي ، وخفت مذمة النهم لأنه أصبح كأنه قدرة وعلم وظرف ! وكأنه في ذلك كله أقرب إلى الفخر منه إلى الملامة !

(١) اذا امتلحت فطرة الماء كان خافرة رقيقة هي المعصودة ها .

(٢) الخرشاء فشرة البيض العلبا .

يخطر لنا ذلك العصر المترف ونحن نقرأ هذه الأبيات الكثيرة في ديوان ابن الرومي فنسأل أنفسنا : ما نصيب العصر في تلك الأوصاف وما نصيب الرجل ؟ وما حظ العين من لون وشكل وما حظ المعدة من شبع وامتلاء ؟ فذن شاء أن يحسب نعم ابن الرومي على النحو المتقدم باباً من الأدب لا باباً من الشره فله ذلك وحجته في هذا الحسبان غير ضعيفة ! ولكنه هو لا يدعنا نحار في خليقة كهذه الخلائق التي تحكي عنه ويكون لها دخل في حياته ، فاذا تطرق الشك إلى جانب فلا بد له من جانب آخر يقطع ذلك الشك ويردك إلى اليقين فيه ، ومن شعره المحفوظ ما يروي لك كيف كان يعاب في أكله وكيف كان رده على من يعيبونه ، فتارة يقر بالذنب ويزعم أنه هفوة لا جريمة :

أن اصطبغت ولقمتي معصومة^(١) أنشأت تهجوي بذلك ظلماً ؟
عيبٌ لعمرِكَ غير أن لم آته عمداً ! فهبني هافياً لا جارماً

وتارة يقول لقسطنطين جارية أم حبيب وكأنها ضحكت من أكله :

ذريني قسطنطين أكل شهوتي وتبشميني ؛ اني بذلك راض
فأكثر ما ألقى من الزاد كظة مدى، يومها واليوم أسرع ماض
ثم لا ينسى أن يعرض كدأبه بغير ذلك ، وأن يذكر الكظة التي لا تنصرف إلا بعد تسعة شهور !

وتارة يصف الطعام ويعقب الوصف بالتشويق اليه واللهفة عليه :

لهفي عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها رجيم
بل هو لا يدعنا نحار حتى في « الأصناف » التي كان يحبها ويؤثرها على سواها . فقد علمنا مثلاً أنه كان يحب الموز من الفاكهة لأنه غذاء القلوب لا غذاء المعدة !

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع إلى القلوب
وأنه كان يعاف المشمش لأنه دواء لا غذاء :

إذا ما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق إنه لطبيب
وعلمنا أنه كان يشتهي السمك ويمعن فيه :

(١) اصطبغ ولقمته معصومة اي وضع اللقمة في الطعام وفي فمه لقمة يمضنها .

فيا حبذا إمعاننا فيه ناضجاً كما جاء من تنوره المتوقد
وعلمنا أن ابن أبي بشر المرثدي غلط مرة فوعده أن يوافيه أيام السبت بالهدية منه بعد
الهدية . فوقع المسكين في شباكه فما كانت تنقضي فترة إلا على تذكير له ومناوشة ، وجعل
ابن الرومي هذا الوعد هجيراً ودعابته التي لا يفرغ منها . وما كان يفرغ من دعاية ولا غير
دعاية وفيها بقية ، فحيناً يقول إنه قد تهود في انتظار السمك ويسأل ابن أبي بشر !

ما لحياتنا جفتنا وأننى	أخلف الزائرون منتظرهم !
قد أزحنا اعتلالهم وجعلنا	سبتهم جمعة ، فما يُشكّهم ؟
جاء في السبت زورهم فأتينا	من حفاظ عليه ما يكفيهم
وجعلناه يوم عيد عظيم	فكانا اليهود أو نحكيهم
واحتملنا مقالة الناس فينا	ولهم كل ما احتملنا وفيهم
.....

قد سبتنا ، وإنما كان قومٌ يوم لا يسبتون لا تأتهم

يشير إلى المائدة التي كانت تأتي بني إسرائيل يوم يسبتون . . !

وحيناً يحمد الله الذي نجى السمك حين تعلقت به شهوة ابن الرومي ووعد المرثدي :

الحمد لله الذي نجى السمك	من الشصوص الجائلات والشبك
علمه يونس من تسبيحه	ما كان أدنياه الى تسريحه
فهو من الصيد في أمان	ما دمست أبغيه ، وفي ضمان
وحيناً يسأل المرثدي مسعظاً لابطائه	

أألحوت حوت الأرض أم حوت يونس لك الخير ، أم حوت السماء أروم ؟
وحيناً يسأل السمك :

أيا سمكاً بين الساكين عزة	إلى كم يرانا الله عنك نصوم
وحيناً يُعلم المرثدي أن دجلة قريبة من قصره وأنه قليل العذر في اخلاف وعده :	
إعلم وقيت الجهل أنك في	قصر تليه مطارح السمك
.....

وبناتٌ دجلة في فنائكُم	مأسورة في كل معترك
.....
بيض كأمثال السبائك بل	مشحونة بالشحم كالعلك
تُغني عن الزيات قاليها	وتبخّر الشاوين بالودك
.....
فليصطد الصياد حاجتنا	تصطد مودتنا بلا شرك

وهكذا وهكذا مما يغريه به حب السمك وحب الدعابة ، وكلاهما شهى اليه !

وكان هذا ديدنه في كل أمر من أموره : اسراف واستقصاء لا يسكهما ضابط ولا تعقدهما عزيمة ، اسراف واستقصاء في النكتة وفي المعنى وفي الدرس وفي الطعام والشراب والشهوات ، لا حدّ لهما إلا البشم والامتلاء واستنفاد ما بين يديه من مادة مادة في ساعتها حتى لا سؤر ولا صباية :

ان يكن عندك لي نص	ح فما عندي انتصاح
لا تلمني فاهوى في	ه جماح وطماح
ما على المفتون في ما	غلب الصبر جُناح
كل شيء غلب الصب	ر إليه فمباح
انما الدنيا ملاه	واغتياق واصطباح
والمزاح الجدد ، إن فك	ررت ، والجسد المزاح

وتختلف ترعات هذا الاسراف وسببها كلها واحد : سببها كلها توفر الحس ومطاوعة الرغبة الحاضرة والاندفاع معها وقلة الصبر عنها ، ولو أن هذه الأشواق الجائعة شفعت بمسكة من العزم المتين لا اعتدلت حاله ولو بعض الاعتدال وسلم جسمه ولو بعض السلامة ، ولكن أنى له العزيمة وهو أسير إحساس اللحظة التي هو فيها لا يترك له استغراقه في مؤثراتها الحاضرة منفذاً إلى التفكير في قابل أو غابر ، ولا يعدل بما يزينه الحس والخيال حظاً تزينه له الحكمة والخصافة ؟

وصاحب هذا المزاج إذا خلا من الاحساس النائر والرغبة الجائعة يثوب لا محالة إلى وجوم يجثم على صدره وانقباض يثقل على وجدانه . كالنشوان لا يفيق من أحلام الكأس حتى يرين عليه السأم فيسرع إلى النشوة ، فهو أبداً بين النقيضين من ثورة الاحساس وشدة الوجوم .

وليس التناقض بين ثورة الاحساس والوجوم في الحقيقة إلا ظاهراً لا يتعمق إلى البواطن الدخيلة ، إذ ان فرط الاحساس كثيراً ما يؤدي بصاحبه إلى فرط الوجوم اتقاء الألم أو شعوراً بالوحشة التي تنتابه حين يرى التفاوت بين شعوره وبلاده من حوله ، أو مضياً مع عادة التفكير والخلو بالنفس التي ينميها الثقافتان الإنسان الى موارد الاحساسات المتوالية على وجدانه وحسه ، وإذا لم يتوجه الاحساس الى العمل والحركة فسيبيله التي لا يحيد عنها أن يتوجه الى التأمل ومناجاة السريرة ، ونذر أن يوجد الخجل والاحتجاز الا مع شدة الوعي والتنبيه لكل حركة يتحركها الانسان وكل كلمة ينسب بها وكل أثر يكون لحركته وكلامه في نفوس غيره ، فالكسوف أدل على الحس المتوفز في بعض الأحيان من الحركة والاضطراب .

ولعل الأصوب أن نقول ان ابن الرومي وقع من مزاجه واسرافه في حلقة موبقة لا يُدرى أين طرفاها . فمزاجه أغراه بالاسراف والاسراف حتى على مزاجه ، فان هذا الاسراف الموكل بالاستقصاء في كل مطلب ورغبة خليق ولا غرو أن يسقم جسمه وينهك أعصابه ويتحيف صوابه ، بيد أنه لا يسرف هذا الاسراف الا وفي جسمه سقم وفي أعصابه خلل وفي صوابه شطط لا يكبح جماعه ، فالعلة هي سبب الاسراف والاسراف هو سبب العلة ! وهو من هذه الحلقة الموبقة في بلاء واصب ومحنة لا قبل بها للضليع الركين فضلاً عن المهزول الضئيل ، وعلاقة كل ذلك باختلال الأعصاب وشدوذ الأطوار بدءاً وعوداً ثم عوداً وبدءاً علاقة من جانب الجسد ومن جانب التفكير .

ولا تعوزنا الأدلة على اختلال أعصاب ابن الرومي وشدوذ أطواره من شعره أو من غير شعره ، فان أيسر ما نقرأه له أو عنه يلقي في روعك الظنة القوية في سلامة أعصابه واعتدال صوابه ، ثم يشتد بك الظن كلما أوغلت في قراءته والقراءة عنه حتى ينقلب إلى يقين لا تردد فيه . وكل ما نعلمه عن نحافته وتقزز حسه وشيخوخته الباكرة وتغير منظره واسترساله في الوجوم واختلاج مشيته وموت أولاده وطيرته ونزقه وشهوانيته الظاهرة في تشبيهه وهجائه ، وإسرافه في أهوائه ولذاته ثم كل ما نطالعه في ثنايا سطورهِ من البدوات والهواجس - قرائن لا تخطيء فيها الدلالة الجازمة على اختلال الأعصاب وشدوذ الأطوار ، بل لا تخطيء فيها الدلالة على نوع الاختلال ونوع الشذوذ .

ونقول « نوع الاختلال » لأن هذه الكلمة عنوان واسع يشمل من الحالات النفسية والجسدية مثل ما تشمله كلمة « الصحة » أو أكثر ، فهذا صحيح وهذا صحيح ولكن

البون بينهما جد بعيد ، وهذا مختل الأعصاب وذاك مختلها ولكن الخلاف بينهما في الأخلاق والمشارب كأبعد ما يكون بين فردين مختلفين من بني الانسان . فتختل أعصاب المرء فاذا هو جسور عنيد معتسف للأخطار هجام على المصاعب لا يبالي العظامم ولا يحذر العواقب ، وتختل أعصاب المرء فاذا هو وديع مطيع حاضر الخوف متوجس من الصغائر يبالغ في تجسيمها أو يخلقها من حيث لم تخلق ولم يكن لها وجود في غير وهمه . وبين الحالتين - لا بل في كل حالة من الحالتين - نقائص وفروق لا تقع تحت حصر ولا تطرد على قياس .

وبديهي أن ابن الرومي لم يكن من الفريق الأول في « نوع اختلاله » ولكنه كان من الفريق الثاني الذي يستحضر الخوف ويكثر التوجس ويختلق الأوهام .

ومن أصحاب هذا المزاج من يخاف الفضاء أو يخاف الماء أو يخاف حيوانات منزلية لا قوة لها ولا ضراوة كالقطط والكلاب والجرذان ، فابن الرومي واحد من هؤلاء نحسب أنه كان مستعداً لهذه الهواجس طول حياته في صحته ومرضه وفي شبابه ومشيبه ، ونحسب أن استقصاءه للمعاني الشعرية والالاحاح في تفريعها وتقليب جوانبها إن هو إلا علامة خفيفة من علامات هذا الوسواس الذي لا يريح صاحبه ولا يزال يشككه ويتقاضاه الثبت والاستدراك ، فيمعن ثم يمعن حتى لا يجد سبيلاً إلى الامعان .

ولكنه مع استعدادة للهواجس في شبابه ومشيبه قد تمادى به الوسواس في أعوامه الأخيرة حتى أصبح آفة متأصلة غلبت على أقواله وأفعاله جميعاً فليس له عنها محيص ، فأفرط في الطيرة واشتد خوفه من الماء لا يركبه ولو أدقع ودعاه إلى ركوبه من يمنونه الأفراد وحسن الضيافة ، وصور لنا ما يعتريه من خوف الماء تصويراً لا يدل إلا على حالة مرصية ولو كان التشبيه فيه من مجاز الشعر وتهويل الخيال ، وهذا بعض ما قاله في مخاوفه وأهوال ركوبه :

ولسوثاب عقلي لم أدع ذكر بعضه ولكن من هولـه غير ثائب

.....

أظـل إذا هزته ريـح ولألأت له الشمس أمواجاً طوال الغوارب

كأنـي أرى فيهن فرسان بهمة يليحون نحوي بالسيف القواضب

والماء الذي يصفه هنا هو ماء دجلة لا ماء البحر ولا ماء المحيط !

هذه الوسواس هي التي عنها الذين قالوا - في رواية المسعودي - « انه كان الأغلب عليه »

من الاخلاط السوداء » والذين روى عنهم المعري أنه « كان أدبه أكثر من عقله » . وهي التي وسمته في نظر أبناء عصره بسمة الركاقة والجنون .

بين أصحاب هذا المزاج أناس من نوابغ الشعر والفنون عرفوا بسرعة الملاحظة وسرعة الخاطر ، أو عرفوا - على الأصح - بسرعة انتقال الخواطر وتعاقب الأفكار واستحضار المناسبات الخفية والمشابهات البعيدة التي تدركها سرعتهم ولا تدركها عقول السواد في بطئها وأخذها بالسير المألوف .

وقد تتفاقم هذه الخصلة فتصل إلى الجنون الذي يقول عنه القائلون انه يخلط بين الشرق والغرب ويقحم الأحاديث في غير مواضعها ومناسباتها لسرعة وثبه من كلام إلى كلام ومن معرض إلى معرض ، ولخفاء أوجه المناسبة بين موضوعات تفكيره على الذين يستمعون إليه .

ولكنها إذا هي لم تبلغ إلى حدها الأقصى المشاهد في أعراض الجنون كانت خصلة نافعة للشعراء والمصورين بما تقرّب لهم من المشابهات البعيدة وتبرز لهم من فوارق الأفكار الدقيقة وظلال الأشكال المستسرة ، إذ لا يلزم من سرعة تفكيرهم أنهم يخطئون التفكير ويحيثون به مقتضياً أو مشوهاً على غير استواء . فانهم في هذه الخصلة كالآلة التي تنطلق بالصورة المتحركة فتعرض لك في لحظة ما يعرض في برهة ، والمناظر بعد واحدة والنسبة بينها كلها على استواء واحد . أو هم كالمجهر المكبر الذي يري الأشياء كلها أكبر مما تراه العين المجردة وهي بعد صحيحة الأبعاد مستقيمة الاوضاع ، والعلم يحتاج إلى التكبير في درس الأشياء ويحتاج إلى مثل هذا التكبير في درس النفوس فليس كل ما دق الشعور به عن الناس عامة باطلاً معيياً ، ولا كل ما خفي على العين حقيقاً بالتجاهل والاختفاء .

إنما يدرك الخطأ أصحاب هذا المزاج في الغالب من ناحية واحدة هي ناحية ضبط الاحساس أو ناحية التفريق بين الخواطر وإحساساتها التي تناسبها .

فقد زعموا في الأساطير أن السحرة الأقدمين كانوا إذا فكروا في جنّي يريدونه حضر بين أيديهم بغير استدعاء ولا انتظار إشارة .

فلك أن تقول أن ما زعموه حقيقة لا أسطورة ، وأن السحرة الأقدمين موجودون في كل

زمان لأنهم هم بأعينهم سحرة الفن من أصحاب ذلك المزاج .

يخطر لهم أن صديقاً مات فما هو إلا أن يومض في ذهنهم هذا الخاطر حتى يثب معه الحزن الذي يحزنه الصديق على صديقه ، أو بعبارة أخرى يثب معه الجنّي الملازم لخطر الموت بغير استدعاء ولا انتظار إشارة .

وقد تسنح لأحدهم الفكرة فما هي إلا أن تراءى في خياله حتى يقترن بها الاحساس الذي يناسبها من خوف أو غضب أو فرح أو اغتباط ، ثم لا يستطيع أن يضبط حركة إحساسه ولا أن يصرف عنه الخابجة النفسية التي أيقظتها فيه هذه الفكرة ، فكل شرمظون فهو عنده كالشر المحقق على حد قول شاعرنا :

وإذا ما ظننت شيئاً فخفه رُب شر يقينه مظنونه

وربما كان أحدهم على قمة جبل فيسبح له خاطر السقوط منه فسرعان ما يهب في نفسه شعور الوجع والاضطراب كأنه قد سقط فعلاً ، ثم لا يستطيع دفع شعوره ولا يهدئ من روعه علمه بأنه مستقر على الأرض ناج من خطر الوقوع الموهوم ! وربما سنبح الأفعى فتفاجئه الرهبة من سمها الناقع ولو لم يكن في موضع تطرقه الأفاعي أو يظن بها طروقه . لأن هذا التنبيه الصغير كاف لتحريك الاحساس وجيشانه وتمثيله لخياله في مثل لمح البصر ، ثم لا توجد عنده القدرة على رد إحساسه إلى نصابه والهيمنة على حركات نفسه . فهو كأولئك السحرة في قوة الاستدعاء لولا أنه ينسى الإشارة التي يصرف بها الشياطين فتلتوي عليه وترديه !

وهذا هو مورد الخطأ على أصحاب ذلك المزاج .

ولكنك ترى أنه ليس ثمة خطأ في الخاطر ولا في الاحساس الذي يلازمه ، فالخاطر صحيح والاحساس كذلك صحيح وإنما الخطأ أن الاحساس يجيء قبل الأوان أو في غير الأوان . وقد يعد ذلك عيباً في العلم أو في تدبير المعاش ، أما في الفن فلا عيب فيه . لأن الفنان أحوج ما يكون إلى استحضار الشعور في غير موعده وتمثيل العاطفة كلما دعت حاجة عارضة إلى تمثيلها . فهذه الخصلة قد تؤذيه في معاشه وقد تؤله وتشقيه ، ولكنها لا تستلزم الخلل في تفكيره وسنفتته إلا من حيث التكبير والتجسيم ، وقد يكون التكبير والتجسيم ألزم لظهور الخفي وتقريب البعيد من نظرة القسط والهدوء ، ولا سيما في الفنون .

ومع كل هذا يجب أن نذكر أن أمن شيء في الحكم على هذه الأمزجة وأشباهها هو ألا

تركن كل الركون إلى قاعدة مقررة في تقدير أعمالها وأحوالها ، وألا تزال مترقباً منها للمفاجآت والغرائب في كل لحظة . فقد يجتمع العنف العصبي والوداعة العصبية في اهـاب واحد ، وقد يعنف اللطيف ويلطف العنيف حسبما يطرأ عليهما من الطوارئ ، وهذا الذي تراه اليوم يتوقد ذكاء وفطنة قد تراه في بعض حالاته خابي الذهن كليل الفهم لا يعي عنك ما تقول ، وهذا الذي يقيم القيامة للصغائر التوافه قد تراه وقتاً ما وهو مستحف بالعظائم لا يبالي ما كان منها أو ما يكون . . . وأنت تسأل : أفي تركيبهم تناقض ؟ فلك أن تقول نعم ولك أن تقول لا . لأن التناقض موجود في ظواهر الأفعال غير موجود في بواطن المزاج ، فمن كانت تقيمه الهنة الضعيفة وتقعده إذا هي لمست وبلغت منه حري ألا يبالي الحوادث الجسام إذا هي لم تلمسه ولم تبلغ منه ، فالمعول في ثورته وسكينته على ما يباشر حسه ويلامس أعصابه . لا صغير إلا وهو خطير مثير إذا أزعجه وملاً إحساسه ، ولا خطير إلا وهو هين طفيف إذا غاب عن وهمه وأعفاه من رؤيته ، فهو الدهر بين تبرم وفرع من توافه الأشياء وطمأنينة وسخر من فوادم الخطوب .

ويحتاج الأديب أحياناً إلى هذا التناقض كما يحتاج إلى استحضار الاحساس في غير أوانه ، أو يحق لنا أن نقول إن شاعرنا خاصة قد استفاد من هذا التناقض مضاءً وحدةً في ملكة السخر التي اشتهر بها وبلغ فيها أوجه ، فان النقائص والمفارقات ألزم لوازم هذه الملكة بعد دقة الملاحظة . وها هنا معدن النقائص والمفارقات التي يعانيتها الساخر في نفسه وقد يستغني بها عن مراقبة غيره .

كان ابن الرومي ساخرأً ولا جرم ، كان شاعر النقائص في عصر النقائص ، وكان شاعر الفطنة الوحية في عصر الرياء المضحك أو عصر الاختلاف بين الظواهر والبواطن والبعـد الشاسع بين ما هو كائن وبين ما يُدعى ويُستوجب . فلا جرم يسخر وعناصر السخر في نفسه وفي زمنه ! وقدرة السخر في قلبه وفي عقله . ! ولا جرم يسخر وهو مهياً للسخر فيما عدا ذلك بتعدد أصوله وتوزع أهوائه وعصبياته . فان صاحب العصبية الواحدة خليق أن يتحيز ويتنطس ويغلو في الجـد والمرارة ، ولكن صاحب العصبيات الكثيرة لا يستطيع أن يفعل ذلك ولا يسعه إلا أن يستخف ويضحك من تلك الدعاوى وتلك المظاهر التي يضعها غيره من الناس موضع الجد والقداـسة .

وها هنا شاعر ينتمي أبوه إلى الروم وتنتمي أمه إلى الفرس ويدين هو بدين العرب ويتنسب في ولائه إلى أبناء النبي العربي ويتقاسم ولاءه عدوان لدودان من العباسيين

والطالبيين فأين تكون العصبية وأين تكون المطاعن والمثالب ؟ ثم أين يكون التصديق الأعمى وأين يكون التكذيب الأعمى ؟ لن يسعه هو إذا اشتجرت مفاخر الروم والفرس والعرب والталиبيين والعباسيين واختصمت بينهم العصبيات والمنافسات إلا أن يبسم في كل صوب بسمه العطف والدعابة ، وأن يصبح على عبر قصد منه عظيم الاستعداد للتسامح والفكاهة : كالذي يختصم إليه بنوه ويدعي كلهم ما يدعي من فضله وغيوب اخوته ، وكل ما فيهم من فضل وعيب هو من لحمه ودمه ووشائج حبه وحنانه .

فقد اجتمع لابن الرومي اذن من عناصر السخر ما لم يجتمع لأحد في عصره : اجتمعت له دقة الملاحظة والاحساس وعمق الشعور بالناقضات في نفسه وفي زمنه ، وسعة النظر إلى الفوارق وسماحة العطف التي تقابل مرارة العصبية . فهو ساخر لا يبارى في سخره ، وعابث مطبوع على العبث بكل شيء حتى ضحبه ونفسه . يستخدم السخر في الهجاء والمدح والمطايبة والمعاتبة ، ويعرض لك في متحفه الكبير تلك الصور الهزلية التي لا مثيل لها في شعر شاعر واحد من شعراء العالم كله ، ثم لا يأنف أن يريك بينها صورة له بل صوراً شتى لا يعوزها حظ من العناية وأمانة الصناعة .

فهذا الوجه الذي فصل للصلاة والتعبد في الفلاة وجه من هو ؟ انه وجه ابن الرومي فيما صور له حيث يقول :

شغفت بالخرد الحسان وما يصت لبح وجهي إلا لذى ورع
كي يعبد الله في الفلاة ولا يش همد فيها مشاهد الجمع !

ومن هذا الغائص الذي تعلم السباحة ليغوص لا ليسبح ، أو هذا الخائف المراقب الذي يمر بالماء في الكوز مر المجانب ؟ انه هو ابن الرومي أيضاً حيث يقول عن نفسه :

وكيف ؟ ولو ألقيت فيه وصخرة لوافيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذي سباحة سوى الغوص والمضغوف غير مغالب
فأيسر اشفاقي من الماء انني أمر به في الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على نفس راكب ؟

وابن الرومي أيضاً هو ذلك المنهوم الذي يشره إلى الطعام حتى في الأحلام ، ويأسف على أن يذاد عنه ولو في المنام :

ولقد منعت من المرافق كلها حتى منعت مرافق الأحلام
من ذاك اني ما أراني طاعماً في النوم أو متعرضاً لطعام
الا رأيت من الشقاء كأنني أنسى وأكبح دونه بلجام !

وابن الرومي كذاك هو الشيخ الفاني الذي لا ينسبه هم الشيخوخة أن يتهكم بنفسه
ويحمد الله على زيفان بصره ، لأنه بركة تجعل الشخص شخصين في نظره :

وبورك طر في فالشخص حياله قرائن من أدنى مدى وهي فرد

هذا مثاله من سخره بنفسه . أما سخره بغيره فله في أفانيه الكثيرة ومعانيه الغريبة ما يقوم
بديوان كامل ، وبراعته فيه طبقة لا تعلوها طبقة في نوعها ويندر أن يدانيها فحول
الساخرين في المشرق والمغرب ، فله في أجذب كان يضايقه ويترصده أمام داره ليتطير
منه :

قصرت أخادعه وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها ، فتجمعا

وهي براعة لا نظير لها في وصف الشكل والحركة ولا في تضمينها هيئة السخر التي عمل
فيها الشاعر عمله المركب ليتم فيها نصيب العين والضحك والخيال . فصورة الرجل وهو
يتهاى لأن يصفع ثم يتجمع ليتقى الصفعة الثانية هي صورة الأحذب بنصبها وفصها لا
يعوزها الالتقان الحسي ولا الحركة المهيئة ولا الهيئة الزرية ولا التأمل الطويل في ضم أجزاء
الصورة بعضها إلى بعض حتى يتفق التشبيه هذا الاتفاق .

وله في معلم صبيان مغن :

أبو سليمان لا ترضى طريقته لا في غناء ولا تعليم صبيان
له إذا جاوب الطنبور محتفلاً ضرب بمصر وصوت في خراسان
عواء كلب على أوتار مندفة في قبح قرد وفي استكبار هامان
وتحسب العين فكيه إذا اختلفا عند التنغم فكّي بغل طحان

وله في جحظة وكان مغنياً جاحظ العينين :

تحاله أبداً من قبح منظره مجاذباً وترأ^(١) أو بالعاماً حجراً

(١) وتر القوس لا وتر العود .

كأنه ضفدع في لجة هرمٍ إذا شدا نغماً أو كرر النظرا
وله فيه :

نبئت جحظة يستعبر جحوظه من فيل شطرنج ، ومن سرطان
وارحتا لمناديه تحملوا ألم العيون للذة الأذان
وله في مغن :

إنك لو تسمع ألقانه تلك اللواتي ليس يعدوها
لخلت من داخل حلقومه موسوساً يخنق معتوهاً^(٢)
وله في مغنية :

تضغط الصوت الذي تشدو به غصةً في حلقها. معترضة
فاذا غنت بدا في « جيدها » كل عرق مثل بيت الأرضة
وله في مغنية أخرى :

صوتها بالقلوب غير رفيق بل له بالقلوب عنف وبطش
فاذا رققته بالجهد منها خلّت في حلقها شعيراً يحش
وله في صاحب لحية :

لو غاص في الماء بها غوصة صاد بها حيتانه أجمعا
أو قابل الريح بها مرة لم ينبعث في خطوه أصبعاً
وله في أبي حفص :

ان أبا حفص وعثونه كلاهما أصبح لي ناصبا
قد اغريا بي بهجواني معا وحدي وكان الأكثر الغالبا
إن كان كفواً لي في زعمه فليعتزل لحيته جانباً!؟

وله في رجل له منظر ولا أدب عنده :
طول وعرض بلا عقل ولا أدب فليس يحسن الا وهو مصلوب

(٢) البيتان غير موجودين في الديوان المخطوط .

وله في أكل مضاعة :

بعض أضراسه يكادم بعضاً	فهي مسنونة بغير سنون
لا دؤوبٌ إلا دؤبٌ رحاها	أودؤوب الرحي التي للمنون
لا تعطل رحاك يا ابن سلياً	ن فليس الثواب فيها بدون
فُسماً لو وقفتهيا للمساكيـ	ن لما مسهم غلاء الطحين
ما ظننت الانسان يجتر حتى	كنت ذاك الانسان عين اليقين

وله في قصير أعور أصلع :

أقصر	وعورٌ	وصلع في واحد
شواهد	مقبولة	ناهيك من شواهد
تنبئنا عن رجل	مستعمل	المقافد
أقمأه القفد فاضـ	حى	قائها كقاعد

وله في قصير :

على أنه جعد البنان دحيحٌ إذا ما مشى مستعجلاً قيل : يدرج

رله فيمن هجاه :

رقادك لا تسهر لي الليل ضلةً	ولا تتجشم في حوك القصائد
أبي وأبوك الشيخ آدم تلتقي	مناسباً في منسب منه واحد
فلا تهجنني حسبي من الذم أننى	وإياك ضمتنا ولادة والد

وله في بخيل :

يقتر عيسى على نفسه	وليس بياق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره	تنفس من منخر واحد

وله في أصلع :

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله
وله من أمثال ذلك ما يطول بنا احصاؤه ولا نرى هنا فائدة من الاسهاب في تكرار
شواهد

وأبرع ما يكون سخره كما ترى إذا هو شبه لك صورة محسوسة أو خلق لك من خياله صورة معنوية ، فانه يحكم التشبيه ويحكم خلق الصورة فيُضحك بالمقابلة بين الشيء وشبيهه ويُضحك بما تتخيله من المنظر الغريب حين يعتمد إلى خلق الشكول المعنوية ، كصورة الأحذب مثلاً أو كصورة الرجل « المستعمل المقافد » . . . الذي يضرب في كل مكان صالح منه للضرب ، فيصلع لفقده في موضع شعره ويقصر لكثرة الطرق على رأسه ويعور لضربه على عينه ، وحركة الأبيات نفسها حين تتلى على عجل كحركة الصفعات ما تني نازلة صاعدة كما أنبأ عنها في تلك الأبيات .

أو كصورة الرجل الذي لا نفع له إلا أن يصلب لأنه بذاك يظهر أحسن ما فيه وهو عرضه . وطوله ، أو كصورة المغني الذي تراءى عيناه الجاحظتان كعيني الضفدع « الهرم » في لجة يكرر النظر ويغني وفمه في الماء !

وكان فضلاً عن هذا لا تفوته من الأغراض فائتة في اللفظ ولا في المعنى ولا في التصوير : ألقِ بالك مثلاً الى كلمة « جيدها » في هذا البيت :

فاذا غنست بدا في جيدها كل عرق مثل بيت الارضة .
فلو أن ساخرأ غير مطبوع على السخر أراد هذا المعنى لاختار كلمة غير « جيدها » للمبالغة في التقييح والتشويه ، ولكنك تنظر فترى أصلح الكلمات في هذا الموضع هي الكلمة التي توهمك الحسن وتحضر لك المناقضة التامة بين الوهم والصورة المشهودة ، فيستوي طرفا النكتة ويبدولنا الفرق المضحك بين الجيد وبيت الارضة ، كما نضحك من الفرق الذي يبدولنا إذا وقف القزم الى جانب العملاق .
وتأمل كلمة « طحان » في هذا البيت .

وتحسب العين فكّي إذا اختلفا عند التنغم فكّي بغل طحان

فليس تمام القافية وحدها بهذه الكلمة بل الصورة المعنوية هي التي تمت بها أحسن تمام . لأن السخر لن يُستوفى في هذا التشبيه إلا إذا تمثلنا في موقف الغناء المتمتع بغلاً من بغال الطحانيين العجاف الجياع يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان ، ولو كان بغلاً من البغال الفارهة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخر وقوة التشبيه . وفس على ذلك « الشيخ » آدم ، أو قس عليه سائر الأبيات والصور .

وسياتي تفصيل الكلام على ملكة التصوير في شعره عند الكلام على عبقريته والصلة بين
فنه وبين الطبيعة والحياة .

وليس يكفي ان نقول ان ابن الرومي كان ساخراً بارع التصوير لنعلم كل شيء نحب أن
نعلمه عن سخره . فان السخر يتنوع حتى لا ينفق في الباعث الذي يوحيه ولا في العبارة
التي تؤديه . وأدباء « النفسيين » يقسمونه الى التهكم والعبث والمجانة والفكاهة ،
ويجعلون كل قسم منها جميعاً نوعاً من « الضحك » قائماً بمفرده مستقلاً بصبغته وغرضه .
والأقرب الى فهم الموضوع عندنا أن نوحّد الضحك ونجعل الاختلاف في الخلائق
والحالات النفسية . فنفرق بين ضحك الخليقة الكريمة وضحك الخليقة اللثيمة ، وبين
الضحك في حالة الرضى والعطف والضحك في حالة الغضب والجفاء ، ثم نفرق بين
العبث في الحالين المختلفين من النفس الواحدة : فعبث النبيل الأريحي غير عبث الوضع
الخبث ، وتهكم الصارم الأبّي غير تهكم الرخو الذليل . وفي الدنيا من التهكم بمقدار ما
فيها من المتهكمين ، معني بذلك أن التهكم ليس « نوعاً » واحداً من الضحك ولا شكلاً
واحداً من الملكات ، ولكنه أنواع تختلف باختلاف الحالات والخلائق والأساليب . فخير
لنا أن نرجع الى اختلاف هذه الحالات من أن نجتمع التهكم كله في باب واحد وصبغة
واحدة ، وهو ليس كذلك .

وما من ضاحك إلا وهو قابل لجميع هذه الحالات في مختلف الأطوار ، فهو متهكم حيناً
وعابث حيناً ومازج بين هذين الشعورين في بعض الأحيان ، كما يتفق كثيراً أن يمتزج
الشعوران المتغايران .

فاذا قلنا ان ابن الرومي ساخر فقد بقي أن نعرف نوع السخر لنعرف نوع الطبيعة التي
توحيه ، فان المرء - كما تقدم - يكون ساخراً وهو طيب سليم الطوية وساخراً وهو خبيث
مظلم السريرة . فمن أي فئات الساخرين كان ابن الرومي وأي خليقة من الخلائق كانت
تهيمن على سخره ؟ أنسلكه في الطيبين أو في الخبثاء وفي الخلائق الشفافة القويمة أو في
الخلائق الكدرة العوجاء ؟

إننا نسأل هذا السؤال ونبتسم .

نبتسم كما قد نرى الطفل اللعوب يعدو وراء مضحكة من المضاحك أو فرجة من الفرج
ثم يسألنا السائل في جد ورزانة : ما هي العداوة التي يكنها ذلك الطفل لمن يعدو حلفهم

ويلهو بمعابثتهم . . ! فأى عداوة وأي صداقة ؟ وأي خبائه وأي طيبة ؟ هنا مضحكة وكفى . . ! ولن يفهم الطفل في منطقته إلا أنه يستطيع هنا أن يضحك ، فلم لا يضحك ؟ إي نعم لم لا والضحك لذيد والاغراء به حاضر ؟!

فابن الرومي هو ذلك الطفل في سخره وضحكه وتهكمه وهجائه ، لسنا نفهمه حق فهمه إلا إذا تمثلناه أبداً في جدة الاحساس واخضراره على هيئة الطفولة النامية التي لا تحف ولا تشيخ وإن جفت المفاصل وشاخت الأوصال ، وستر بنا عقد كثيرة من عاداته ومواهبه لا تُدرك ولا تفسر إلا على اعتبار واحد وهو أنه طفل كبير لا يفرغ من الطفولة طول حياته . فسل ما شئت عنه ولكن سؤل الك عن الطفولة النامية بمزيتها ونقصها وطيبها وخبثها ورضاها وغضبها ، وانتظر منه سوء الأدب إذا غضب أو احتدم غيظه واحتسق صدره ولكن لا تنس أن الأدب السيء خلة غير خلة الطبيعة السيئة ، وان ليس الكظم والسكوت علامة على الكرم والصفح الجميل في كل حال .

وأجهل الناس بالطبائع الانسانية من يصف امراً كابن الرومي بالحسد والضغينة لأنه كان يألم ويتحسر لحرمانه ويعجب لحظوة الجهلاء بالخير دونه ، إذ ليس الحسد أن يألم الانسان لأنه محروم مزوود عن النعم التي يشتهيها ويتذوقها ويعرف معنى المتعة بها ، ولا أن يرى - مصيباً أو مخطئاً في رأيه - أنه أجدر وأليق بتلك النعم ممن لا يحسبهم انداده في الفضل والذكاء وأقرانه في المناقب والمآثر ، كلا ! ليس هذا هو الحسد المذموم المعدود في رديء الصفات ، وانما الحسد المذموم هو خلق كرية يبتلى به المرء فلا يطيق النعمة عند غيره وان كانت عنده ولا يستريح إلى شعور الناس بالسعادة لانقطاع ما بينه وبينهم من رحم العطف والمشاركة في الأفراح والالام .

فالحسد بضوب في العاطفة ، وابن الرومي أبعد انسان من بضوب العاطفة ، وتحجر في الشعور وليس للتحجر في خلائق ابن الرومي وأمثاله مكان ، والحاسد لا يجعل الخير مقروناً بالفضل والنعمة مرهونة بالمناقب ، ولا يطلب المتعة والجاه لأنه أقدر وأجدر ممن ينعمون بها في الدنيا بغير حق ولا معرفة ، إذ التفكير على هذا النمط غريب عن جبلة الحاسد الذي إنما يريد الخير لأنه يريد كفى ! ثم لا يكلف عقله أن يدي له بحجة في طلبه غير حجة الأثرة الحيوانية التي لا تسأله سبباً والأناية الصماء التي لا تعقل ولا توازن ولا تتدبر ، ويسوء أن ينعم الناس لأنه يرى النعمة وقفاً عليه ويرى أن كل ما سر غيره مسلوب منه ، وليكن ذلك السرور علماً وهو لا ينافس العلماء أو صلاحاً وهو لا يتشبه

باهل الصلاح أو شرفاً وهو لا يطمح إلى الشرف ، فحسبه أنه سرور في عرف أحد من الناس وحظ ينعم به غيره ويتملأه ليكون ذلك السرور ثأراً عنده ويكون تنغيص السرور به من همه وأربه . وهذا هو الحسد الذي ليس في طبيعة ابن الرومي ذرة منه ، بل ليس ما عنده إلا نقيضه وضده .

فقد كانت ألد متعه التي وصفها تلك المتع التي غنمها مع صحبه وسعد بها كما سعد غيره ، وربما كان لا يلح ذلك الاحاح في طلب السمك الذي يحبه إلا ليسرع به إلى صديق يدعوه اليه ويشركه فيه :

متى عهدك بالكرخ وبالشبوط والفرخ
وبالبكر التي لم تشق بالنار ولا الطبخ

وقد كان شعوره بحرمان غيره كشعوره بحرمان نفسه ولو لم تكن بينه وبين المحروم صداقة ولا علاقة . فكان يرثي للحمال المكدود إذا بصر به فيصف حاله وصف مشفق عليه يألم لجميع ألمه :

رأيت حملاً مبين العمى يعثر في الأكمل وفي الوهد
محتملاً ثقلاً على رأسه تضعف عنه قوة الجلد
بين جمالات وأشباهاها من بشر ناموا عن المجد
وكلهم يصدمه عامداً أو تائه اللب بلا عمد
والبائس المسكين مستسلم أذل للمكروه من عبد
وما اشتهى ذاك ولكنه فر من اللؤم إلى الجهد
فر إلى الحمل على ضعفه من كلحات المكثر الوغد

وما كان بينه وبين ذلك الحمال من صلة حركت فيه ذلك الاشفاق عليه والعجب من صبره إلا أنه كان يؤثر مقاساة الجهد على مقاساة اللؤم ، وبرح العناء على التكسب بمدح البخلاء ، ويريح نفسه مما يعانیه الشاعر ويفتقر إليه من استجداء النوال وذل السؤال ، وهي صلة لا تتحرك بها العاطفة إلا في نفس مجبولة على العطف والتأسي بأحوال الكبير والصغير والرفيع والوضيع .

« وكان هو وصديق له متصلين برجل جليل من حاشية السلطان فكان المتصل به يسرف على صديقه في الاستخفاف به » فقال ابن الرومي يلوم ذلك الرجل الجليل على استخفافه بصديقه :

تشتمه	بوزن	ما	أحب	أن	تشتمني
أكرمه	وللذى		أو	توقع	الأكرام لي
يحشمه	بحضرتي		فان	ما	تفعله
.....				
يظلمه	كل	امرىء	وانني		يظلمني

ولو رجلٌ غيرُ ابنِ الرومي في موضعه كان بنفسه حسد أو دخيلة سوء لسره أن ينحصر بالحفاوة دون زميله والتمس الزلفى عند ذلك الرجل الجليل بموافقتة على مزاحه واستخفافه لكنه كان في الواقع كأبرأ الناس من حسد وأعظمهم سروراً بعطف صديق ، بل كان الصديق مقدماً عنده على الحبيب :

عرج على ذكر الصد	يق وعدُّ عن ذكر الحبيب
كم مكثّر لي خبث	ومقل قول لي مطيب

لان العطف حاجة من حاجات قلبه وضرورة من ضروراته ووقاء له مما كان يرهقه ويشتد على صبره . فكان عطف الصديق يحبي نفسه ويخلقه خلقاً جديداً كما قال :

خليل اظل اذا زارني	كأنني اشأ خلفاً جديدا
أراني وان كثر المؤنس	ون ما غاب عني وحيداً فريدا

فما كان الرجل حاسداً ولا شبيهاً بالحاسد ، وما كان الا انساناً كسائر الناس يحب الخير لنفسه ولا يكرهه لغيره ، بل ما كان الا ذلك الطفل الكبير الذي كأنه في حدة طمعه وقلة حيلته وقد فتح عينيه وفغرفاه الى قطعة الحلوى في يد غيره فبلع ريقه وصاح في براءة وهراحة لا تعرفهما طبائع الحاسدين :

لا تلومن حاسداً . ألم النفس من البخس يا أخى شديدا !

وما حيلة المسكين في شهوة قلبه وفي قلة حيلته وحوله ؟ وكيف الصدوف عن النعمة وما هو بزاهد فيها ولا بجاهل لقدرها ولا بغافل عن لذاتها ؟ أهو معصوم من الفتنة كما قد حرم نصيبه من النعمة ؟ لا ! بل ان فتنته لأشد وأضرى وانه بالغبن لأحس وأدرى :

يا ليت أهل العقل اذ حرموا	عصموا من الشهوات والفتن
لكنهم حرموا وما عصموا	فقلوبهم مرضى من الاحن
وهم أحس على بليتهم	من غيرهم بمرارة الغبن

فمبلغ القول في حسده انه كان شديد الرغبة في متع الحياة قليل الحيلة في احتجانها ، فاذا سميت هذا حسداً فقل ان ابن الرومي حاسد وقل ان الطفل الذي يتطلع الى الحلوى في يد رفيقه الصغير حاسد . وأضف الى الحسد بهذه التسمية معنى جديداً لم يكن من معاني هذا الخلق البغيض الذميم .

ويقال في حقه ما يقال في حسده . فقد كان ساخطاً ولم يكن حاقداً ، والبون بعيد بين السخط والحقد . وان التبتت أعراض هذين الخلقين على طلاب الظواهر .

فهما خلقان متباينان وقد يكونان في بعض الأحيان متناقضين ، فيسخط الانسان بل يدوم سخطه وليس في قلبه من الحقد أثر ، وقد تكون كثرة سخطه لكثرة استجابته للمؤثرات الجديدة الطارئة التي تتعاقب على حسه ، أي لقلّة حقه وقلّة اصراره على البغض القديم .

والحقد توأم الحسد في خلة الأثرة الحيوانية والانانية الصماء ، فلهذه الخلة يستكبر الحاقد الاساءة الصغيرة الى نفسه كما يستكثر الحاسد النعمة القليلة على غيره ، والسبب في الحالتين واحد . وهو أنه لغلوه في حب نفسه واستغراقه في الأثرة الحيوانية لا يريد أن يساء هو ولا أن يُسر غيره ، وليس يعنيه أن يساء بالحق أو بغير الحق وان يكون عادياً في هذه الاساءة أو معدواً عليه . فان ذلك كله من وراء تفكيره وحسابه ، ولا فرق عنده بين أن يظلمه الناس في الاساءة اليه أو ينصفوه وبين أن يسيئوا اليه بالعدوان عليه او بصدده هو عن العدوان ، فمن الحاقدين من يحقد على الناس لأنهم أبوا عليه ان يضرهم ليستفيد من ضررهم ووقفوا بينه وبين مصلحته ولو كان وقوفهم هذا من حقهم ولا نفاذ حياتهم !! وهو لا يفكر بالعدل ولا يكره العدوان لأنه جور وعسف ولا يعرف من الكراهة الا أن يكره ما يسوءه كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ فيه العذر والاضطرار ، وهذا غير الشعور الذي يشعر به المرء حين يعتدى عليه بغير الحق فيسوءه ذلك ثم يتوالى العدوان فيتوالى الاستياء ويطول السخط والامتعاض ، فان من النبل أن يغضب المرء للعدوان وقع به أو وقع بغيره فان لم يرتفع بغضب العدوان إلى مقام النبل فهو لا يهبط بصاحبه إلى ما دون منزلة العذر المعقول والطبع المستقيم .

من هذا القبيل كان شعور ابن الرومي حين توالى عليه أسباب السخط فتوالى سخطه وغضبه وتواصلت شكواه وضجره ، فكل سبب كان يثيره فهو سبب « أخضر » لا مشابهة

فيه لأسباب الحقد التي يطول ثواؤها بالضمير حتى تفسد وتتغفن أو تيبس وتتحجر .

وما كان لطبيعة مهتاجة كطبيعة ابن الرومي طاقة بضرب من الاحساس غير ذلك الذي نسميه « بالأخضر » لجدته وحرارة نبضه وسرعة أثره وسرعة زواله ، وأنتى لمثل هذه الطبيعة إصرار الحقد وتدبيره وثباته على ما فيه بين تقلب الحوادث وتجدد المسرات والمصائب ؟ كل ما تطيقه هذه الطبيعة من الشعور هو ذلك الشعور الذي تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته ، فإذا كانت الأسباب ما تزال مؤلة مغضبة فالألم دائم والغضب لازم والناس يقولون حينئذ انه الحقد وانه الضغينة وانه خلق ذميم وطبيعة رديئة ، لأن الحقد هو الاسم الذي يطلقه العامة على الاستياء إذا دام واتصل وتوالت موارده فتوالى وجوده ، ولأنهم ربما بلغوا من بلادة الأنانية وقلة الاحساس بمعنى العدل أن يسيئوا إلى المستضعف المخذول ولا يتوقعوا منه الألم والاستياء ولم لا ؟ ألا يسرهم أن يعبثوا به ويتمجنوا عليه ؟ فما باله إذن لا يسر بما به يسرون ولا يضحك هو كما هم يضحكون ؟!

فكل ما كانت تطيقه طبيعة ابن الرومي من الشعور هو ذلك الذي تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته ، فإذا غابت الأسباب وفترت المؤثرات نسي شعوره في لمحة عين وانقلب إلى نقيضه ، وفي قصته مع الأخفش عبرة لمن شاء أن يعرف ما وراء سخطه من الطيب والغفران والمودة ، فقد صمد الأخفش ما صمد من الزمن يعبث به ويثقل عليه في العبث حتى منعه أن يبرح بيته ويتصرف لمعاشه ، فعاتبه ابن الرومي فلم يرعو وأنذره فلم يحفل وقال له يتوعده :

لا يأمنن السفية بادرتي فأنني عارضٌ لمن عرضا
عندي له السوط إن تلوم في السـ ير وعندي اللجام إن ركضا
وما توعده إلا بعد لجاج ومحال وصلح واعتذار ، فلما لم ينفعه ذلك هجاء وأقذع في هجائه كعادة أهل الزمان في كل هجاء ، فعاد الأخفش اليه يسترضيه ويستعطفه فرضي وعطف ، وأسرع فنسي تثقله ونسي الهجاء وأقبل يقرظه ويطربه ويبالغ في تقريظه وإطرائه غير تارك لنفسه بقيةً لوتر قديم ولا لوتر مستأنف :

ذكر الأخفش القديم فقلنا إن للأخفش الحديث لفضلا
وإذا ما حكمت والروم أهلي في كلام معرب كنت عدلا
أنا بين الخصوم فيه غريب لا أرى الزور للمحاباة أهلا
ومتى قلت باطلاً لم القّب فيلسوفاً ولم أسوم هرقل

بدأ النحو ناشئاً فغذاه أحدث الأخفشين فانقاد رسلا
.....
يا ظماء إلى الصواب ردوه يسقكم بالصواب علا ونهلا
هو بحر من البحور فرات ليس ملحاً ، وليس حاشاه ضحلا

وأطنب في ذلك حتى دعاه مقومه وخدينه :

قل له يا مقومي وسمي وكُنِّي ومن غدا لي شكلا
قد اردت الاطناب فيك فقالت لي غاياتك البعيدة مهلا
ورأيت اليسير يكفي من الح لي إذا النصل كان مثلك نصلا

إلا أن الأخفش لم يصف هذا الصفاء ولم يكن إلا عابثاً في صلحه كما كان عابثاً في
خصامه ، فعاد إلى شنشنته معه وعاد ابن الرومي إلى سلاحه الذي نبذه حتى حسب
صاحبه انه حطمه ، فقال يذكره :

حذار عُرامي أو نَظار فانما بظلكم قطع من الرجز مرسل
ولا تحسبن الصلح أنصل التي ولا أنني في هدنة السلم أغفل
ولكنني مستجمع الحلم مغير أفوق نبلي تارة وأنصل
فان هاجت الهيجاء أو عاد عودها على بدئها لم يُلْق مني أعزل

وليس يُغر الحاقد هذا الغرور ولا الناس يصنعون هذا بمن يعلمون حقه ويحذرون منه
تصميم نيته .

وانقلب ابن عمار على ابن الرومي وابن الرومي كما عرفت من أخباره هو الذي أعانه بما
في وسعه وقربه من الرؤساء أصحابه وجعل له سبباً إلى رزقه ، فجراه انقلاباً بانقلاب
ومسبة بمسبة ، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن تحيل جهده على عطفه واستلال حقه وحسده
فلم يفلح ، وكتب إليه يستعيده إلى سالف مودته :

أيها الحاسدي على صحبتي العس ر وذمي الزمان والاخوانا
حسداً هاجه على ثلب شعري ولقائي معبساً غضبانا
وانتقاصي مع العدو وقد كا ن يرى لي نقائصي رجحانا
ليت شعري ماذا حسدت عليه أيها الظالمي اخائي عيانا

أعلى أنسي ظمئت وأضحى
 أم على أنسي أمشي حسيراً
 أم على أنسي ثكلت شقيقي
 عد كريماً إلى كريم كما كند
 لا عقاباً بما تقول ولكن
 وتيقن أنسي مقيم على العهد
 لا أعد الذنوب منك ذنباً
 كل من كان صادياً ريانا
 وأرى الناس كلهم ركبانا
 وعدمت الثراء والأوطانا
 ت وإلا لقيت مني هوانا
 بجفاء أردفته هجرانا
 بد حياتي، وخذ بذاك ضمانا
 بل هدايا مقبولة وحنانا

فلم يجد ذلك في استعطاف ابن عمار ولم يشنه عن عدائه وثلبه . . . ثم تقرأ في ديوان ابن الرومي فترى فيه قصيدة قالها قبل موته بخمسة أيام أوستة يمدح الجراح على لسان ابن عمار هذا لتيسير منفعة كان يرجوها لديه .

ونظن أننا في غنية عن سرد القصص والأمثلة على عطف ابن الرومي وُغراته وطيب قلبه ، فقد كان العطف كما أسلفنا حاجة من حاجات طبعه وضرورة من ضرورات حياته ، وآية ذلك بينة في شعره كله وفي تفجعه على أحبابه وشدة فقدته لأهله ، وقناعته منهم باليسير من المودة يأخذها حيث وجدها ويأسى عليها حيث لا يجدها ، وهو القائل وقد صدق :

وإنني لبرء بالأقارب واصل على حسد في بعضهم وعلى بغض

ولقد آن أن نبذ تلك الطريقة العتيقة التي كان بعض الأقدمين يعتمدونها في نقد الأخلاق وتسمية أسمائها والمقابلة بين المتشابه والمتخالف منها ، فانهم تعودوا أن يأخذوا فيها بالأعراض دون الجواهر وبالظواهر دون المخابر ، وكانوا ينظرون الى السمات البادية ولا ينظرون الى ما وراءها من بواعثها . . . فالغضب الدائم والحقد سمة واحدة فهما اذن خلق واحد ! ومتى كان الشاعر كثير الذم والانحاء على الناس فهذه حجة جديدة تضاف الى سمات وجهه ، فلا جدال اذن في حقه ولا شك في قبح سريره وجنوحه الى الشر دون الخير والعداوة دون المودة . . . فاذا اتفق مع هذا انه شهد على نفسه بالحقد فقد بطل الجدال وحقت عليه الكلمة ونفذ فيه القضاء . ألا تراه ناقماً مغتاً ؟ ثم ألا تراه هاجئاً لا يكف عن الذم والشتيمة ؟ ثم ألا تراه يقر بذنبه ويصارع الناس بدفين بغضه ؟ فماذا بقي بعد من أسباب الحكم غير أن يوصم وأن يدان ؟!

لا يا قضاة . ! بقي من أسباب الحكم كل شيء ولم يحصل لدينا بعد هذا كله سبب واحد يجوز لنا أن نعتمد عليه ! بقي البحث في أسباب نقمته وذمه وشهادته على نفسه ، فإن هذه هي العناصر التي تتألف منها الأخلاق وليست ملامح الغضب ولا كلمات الشفاه . فإذا نحن عرفناها فذاك ، أما إذا ظلت مجهولة فقد جهلنا كل سر ولم نعرف إلا ألوان الطلاء .

علام تدل النعمة ؟

ثم علام يدل الاعتراف ؟

إن الانسان لينقم وهو من أشرف الناس في نقمته ، وانه ليرضى وهو من أخبث الناس في رضاه ، وإن اعتراف المعتترف لأحجي أن يرثه من رذيلة المواربة والنفاق ، وهي رذيلة لا تخلو منها طبيعة الحاسد أو طبيعة الحقود .

ويلوح لنا أن نقاد الأخلاق على هذا النمط لا يختلفون كثيراً من قضاة الزمن الغابر الذين كانوا يضربون « المتهم » ليقر بالذنب ثم يأخذونه بشهادته على نفسه فغاية الفرق بينهم أن نقادنا لا يضربون ولكنهم كذلك لا يسألون عن المنقود المسوق اليهم هل هو مضر وب أو غير مضر وب ؟ ونخالهم يغتبطون بأن يساق اليهم مضر وباً معترفاً ليغنيهم عن البحث ويعفيهم من مؤنة السؤال والجواب !

وشهادة الانسان على نفسه بالشر كشهادته لها بالخير كلتاها لا قيمة لها ما لم يكن لها مصداق من الطبيعة والواقع . فابن الرومي قد شهد على نفسه بالحق فقال وهو يتحدث بأخلاقه :

شكري عتيد وكذاك حقدي للخير والشر مكان عندي

وقال :

وما الحقْد إلا توأم الشكر في الفتى	وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي إساءة	فثم ترى شكراً على حسن القرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع	من البذر فيها فهي ناهيك من أرض
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها	بل العيب أن تدان ديناً فلا تقضي

فهذا اعتراف صحيح يتلهم عليه القضاة : قضاة المحكمة العتيقة ، ولكنه بعد ليس بالمهم في البحث عن أخلاق الرجل لأن وراءه سراً هو الأهم في هذا الصدد وهو الحقيق بأن يدار البحث اليه .

فيجب أن نعلم أولاً لماذا شهد ابن الرومي على نفسه بالحق هذه الشهادة ، فإن الحقود لا يشهد على نفسه بحقه والمطبوع على الصراحة لا يكون مطبوعاً على الحقد . وصراحة ابن الرومي هنا تلفت النظر إلى أمر شاذ في هذا « الاعتراف » وتدعونا إلى السؤال عن سره ، وسره ليس ببعيد .

فالرجل كان يدعي الحقد ليخيف الذين يستوطنون جانبه ويستسهلون إرضاءه بعد اغضابه ، فما كان يذكر الحقد الا وهو ينذر ويتوعد من طرف خفي أو ظاهر ، ويخير الناس بين شكره وحقه ليغنموا شكره ويجتنبوا حقه . فهذه الدعوى عنده كتلك السحنة البغيضة التي ينتحلها بعض الحيوان للاخافة والتهويل حين لا يكون خيفاً ولا هائلاً في الحقيقة . . . وهو محتاج إلى دعواه حاجة الحيوان الى سحنته البغيضة في معترك الحياة .

وسبب آخر لاعترافه بالحق أنه كان يتفلسف ويدرس الجدل ويتعاطى صناعة البرهان ويجب أن يمتحن قوته في المنطق والفلسفة بتقبيح الحسن وتحسين القبيح حسبما يبدو له من وجهيه ومن تنازع الأقوال فيه ، وتلك سنة كانت معروفة في ذلك العصر يقيسون بها البلاغة ويقيسون بها قوة البرهان . فمدح ابن الرومي الحقد وذمه ولم يقصر بحجة الدم عن حجة المديح ، وهو القائل في ذم الحقد والرد على مادحيه :

يا مادح الحقد محتالاً له شنبها	لقد سلكت اليها مسلكاً وعثا
لن يقلب العيب زيناً من يزيّنه	حتى يرد كبيراً عاسياً حدثا
قد أبرم الله أسباب الأمور معاً	فلن ترى سبباً منهن منتكناً
يا دافن الحقد في ضعفي جوانحه	ساء الدفين الذي أمست له جدنا
الحقد داء دوي لا دواء له	يرى الصدور اذا ما جمره حرثا
فاستشف منه بصفح أو معائبة	فانما يُرى المصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت	ولا تكن لصغير الأمهر مكثرتا
والعفو أقرب للتقوى وإن جرم	من مجرم جرح الألباب أوفرثا ^(١)
يكفيك في العفو أن الله قرّظه	وحياً إلى خير من صلّى ومن بُعثا
شهدت أنك لو أذنبت ساءك ان	تلقى أخاك حقوداً صدره شرثا ^(٢)

(١) فرث شق وفرث الرجل ضرب كبده وهو حي .

(٢) الشرث من السيوف والاسنة المحدد وشرث الرجل غلظ ظهر كفه .

نعم وسرك أن ينسى الذنوب معاً
إنسى إذا خلط الأقوام صالحهم

جعلت قلبي كطرق السبك حسد
ولست أجعله كالخوض أمزجه

وهو القائل في هذا المعنى :

يا ضارب المثل المزخرف مطرياً
أصبحت خصم الحق تهدم ما بني
أطريت غثك لا سمينك ضلةً
شبهت نفسك والأولى يولونها
ورأيت حفظك ما أتوا من صالح
وزعمت فيك طبيعة أرضية
ولقد صدقت وما كذبت فانه
لكن هاتيك الطبيعة في الفتى
ولصمته عن ذكرها أولى به
فينا وفيك طبيعة أرضية
هبطت بآدم قبلنا وبزوجه
فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها
بشيت لعمر الله تلك طبيعة
واستأسرت ضعفتى بنيه بعدها
لكنها مأسورة مقسورة
فجسومهم من أجلها تهوي بهم

عرفوا الروح الله فيهم فضل ما
فتنزهوا وتعظموا وتكرموا
نزعوا إلى التجر الذي منه أتت

وان تصادف منه جانباً دمثا
بسيء الفعل ، جداً كان أو عبثا

يستخلص الفضة البيضاء لا الخبثا
بحفظ ما طاب من ماء وما خبثا

للحق لم تقدح بزئدر وار
والحق محتج ، وأنت تماري
واخترت من خلقك غير خيار
آلاءهم بالأرض والعمار
أو سيء - كرمأ وعنت نجار
يا سابق التقرير بالاقرار
لا يدفع المعروف بالانكار
مما يلظ عليه بالأستار
من عدها في الفخر يوم فخار
تهوي بنا أبداً لشر قرار
من جنة الفردوس أفضل دار
من تلکم الجنات والأنهار
حرمت أبانا قرب أكرم جار
فهم لها أسرى بغير أسار
مقهورة السلطان في الأحرار
ونفوسهم تسمو سمو النار

قد اثرت من صالح الآثار
عن لؤم طبع الطين والأحجار
أرواحهم ، وسموا عن الأغوار

فابن الرومي القائل هذا هو ابن الرومي القائل ذاك وكأننا بقضاة المحكمة العتيقة
يتحفظون للادانة المبرمة ويبحثون بين أيديهم عن المجرم الذي دانوه فلا يجدون هنالك إلا

متفلسفاً يقلب القضية على وجهيها ، أو هراً مستضعفاً يزأر لأنه خائف لا لأنه خيف . . أو يعلمون أن الرجل قد يستجمع سمات الغضب الدائم ولهجته ويعترف على نفسه بحقه ولا يكون بعد ذلك على شيء من الحقد كثير ولا قليل .

وجميع أخلاق ابن الرومي تنتهي عند البحث فيها إلى مثل هذه النهاية ، فهو كما أسلفنا لا يعرف من الأخلاق إلا « الأخضر » الذي يجري فيه الماء لوقته ، أو هو لا يعرف من الأخلاق إلا ما يحضره سببه وتختلج في صدره دواعيه :

أيندم ويتوب عن المعاصي ؟

نعم ! وجبت التوبة والندم . إذ :

حتى متى نشترى دنيا بآخرة سفاهةً ، ونبيع الفوق بالدون
معلنين بآمال تخادعنا وزخرف من غرور العيش موزون
أيلهو ويقصف ؟

نعم ! يلهو ويقصف ويقول لمن يتوب ويندم :

لا تخنط الحب بالنقوى فتعطفنا على المقاسي عذاب الهجر والبين
ولم نبع قط دنيانا بآخرة ومثلنا لا يبيع النقد بالدين
أيسكر بعد اقبال المشيب وادبار الشباب ؟
نعم :

فأعذرُ شراب المدامة شارب لتقصير أيام المشيب الأطاول
أو :

فالآن حين أجد الشيب يطلبني أبادر الشيب باللذات عجلانا
أم يقلع عن السكر بعد اقبال المشيب وإدبار الشباب ؟
قد يكون ذلك خيراً :

فدع شربها إذ أصبح الرأس مشرقاً محاذرةً أن يصبح القلب مظلماً
ولا تَرينك السن والله والنهي على الشيب والاسلام واللوم مقدماً
أيشح ويمرص على ماله ؟

نعم ، فانه :

إذا لم يكن عندي سوى ما يكفني فشحي عليه مثل شحي على عرضي
لأنني متى أتلفته احتجت حاجة تُذيل مصون العرض في طلب القرض
أيجود ويسرف ؟
نعم ، و :

لا تحملنّ هموم أيام على يوم لعلك أن تقصر عن غده
بل هو يسأل الله أن يقيه الشح ويلهمه الجود :

قني يا إلهي شح نفسي فاني أرى الجود لي حظاً وشيمتى البخل
وربما تعاورته الحالتان في لحظة واحدة ، فتراه حائر النفس بين الحرص والتوكل لا
يطمئن إلى هذا حتى يثوب إلى ذاك :

وقضاء الآله احوط لنا س من الأمهات والآباء
غير أن اليقين أضحى مريضاً مرضاً باطنياً شديداً الخفاء
ما وجدتُ امرءاً يرى أنه يو قن إلا وفيه شوبُ امتراء
لو يصح اليقين ما رغب الرا غب إلا إلى ملك السماء
وعسير بلوغ هاتيك جداً تلك عليا مراتب الأنبياء
أو قد يدركه الحذر أو الأريحية فيحجم عن هجاء السلطان ويعلن سر احجامة كأنه
مطالب بهذا الاعلان :

لا أقذع السلطان في أيامه خوفاً لسطوته ومر عقابه
وإذا الزمان أصابه بصروفه حاذرت رجعتيه ووشك مثابه
وأعد لؤماً أن أهم بعضه إذ فلتت الأيام من أنيابه
ذلك حين يساوره الخوف ويذكر الأريحية . فأما إذا ثارت بلابله واضطربت لواعجه
وملكه الغيظ فاجتاح حزمه وخوفه فهو أهجم هاجم على سلطان حديد نابٍ أو مفلوله ؟
وهو الجسور في هجائه على ما يخافه الجسور الذي لا يخاف .

فهو ابن ساعته وطوع الحاضر من احساسه ، و« التوبة الطارئة » هي المفتاح الذي يُفص به
كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة ، وما كان في نفسه من سر مغلق الا وجدته هو
معنى منهوماً بالغوص عليه والكشف عنه لقارئي شعره !

معيشته :

عاش ابن الرومي حياته كلها في بغداد ، لا يفارقها قليلاً حتى يعود سريعاً وقد نازعه اليها شوق وغلبه نحوها حنين ، وكانت بغداد يومئذ عاصمة الدنيا غير مدافع : فيها كل محاسن العمار الواسع وعبوبه وكل رفاة العمار الواسع وشقائه . قصور تبلغ النفقة على بنائها وتأثيثها الوف الألوف ، ومتاجر يؤمها أصحاب القوافل من أقصى المشرق وأقصى المغرب ، ومدارس ومكاتب وحلقات للمذاكرة يجلس فيها الأئمة في كل فرع من فروع العلم والأدب ، وإلى جانب ذلك بيوت في كل منزله ومرتاد على النهر أو في الخلاء للهو والمعاورة والسمر يغني فيها القيان ويرقص الجوارى ويغشاها العلية والسواد ، ويسكت عنها الخلفاء حيناً فتكثر وتعمر أو يغضبون عليها فيبعدونها إلى حيث تغيب عن الأنظار ولكنها لا تغيب عن الطلاب والرواد ، ومن وراء ذلك أحياء مبنوذة يكمن فيها اللصوص والمغتالون يتألبون على نقب الدور وحمل الخزائن واستدراج الموسرين على نحو ما نقرأ عن عصابات الاثم والجريمة في عواصم هذا الزمان ، فإذا تصفحت أخبار بغداد بما اشتملت عليه من جمال وشناعة وبذخ وفاقة واحتيال على طلب المال والمتعة من كل مطلب وانصراف إلى السرور والرغد في كل وجهة فكأنك تتصفح أخبار الغرائب في عواصم الدنيا التي تسمى اليوم باريس وبرلين ولندن وشيكاغو ونيويورك .

وهذه العواصم كافة لا تطيب فيها إقامة إلا بمال ، أما بغداد خاصة فكان ساكنها أحوج إلى المال من ساكن العواصم الحديثة ، لأنها كانت عرضة للغلاء في القرن الثالث لاضطراب الأمور في الجهات التي كانت تديرها وانقطاع الوارد عنها حيناً بعد حين . فإذا وقع فيها الغلاء ندر الخبز وارتفع سعر الدقيق وكان ما وصفه ابن الرومي في بعض شكاياته

أحسن ما كان الدقيق موقعا من رجل أفلس حتى أدقعا

.....

وأصبح القوم البطان جوعاً وخشى الجائع ألا يشبعا

وهي إذا لم تغل لم ترخص ولم يستغن طالب المعيشة فيها عن بعض اليسار كما قال بعض الشعراء :

سقى الله بغداد من جنة غدت للسورى نزهة الأنفس

على أنها منية الموسر ين ولكنها حسرة المفلس

وابن الرومي لم يكن طالب معيشة وحسب ، بل كان طالب معيشة ومتعة ومسرة ،
وكان منهوماً في مطالبه كلها قليل الصبر على غواية المناعم واللذات أنى كانت وحيث أمكن
منها الحول والحيلة :

فبادر الدهر بالمناعم واللذات ات واحذر من وشك مزتحل
فان تعذر ان يجتنك بالقوة فاحتل لطائف الحيل

وكان كثير الألفة لبيوت القيان يعاشرهن ويسمعهن ولا يسمع فيهن لوم لائم :

ولاح في القيان فقلت مهلاً رميت بنبل أوتار القيان
.....
شبيهات الرماح قنا متون وكلما في القلوب بلا سنان
وهل من حربة أو من سنان كعين أو كغفر أو بنان ؟

وربما كان الشعر من حيله التي كان يحتال بها على ود القيان وحضور مجالسهن فيشني
عليهن حيناً ويهجوهم أحياناً وينال بذلك ما يناله غيره بالدنانير والدراهم ، بيد أنها حيلة
تغنيه في هذا الغرض قليلاً ولا تغنيه كثيراً ، ثم هي لا تغنيه عن المال كلما احتاج اليه في
سائر وجوه عيشه ولهوه .

فصاحبنا في مدينة الغلاء قد عاش وعلى غير التقشف والزهد قد فطر ، فهل كان ميسور
الحالة مكفي المؤنة ؟ وهل كان الشعر كفيلاً له بما يغنيه في ضروراته ونوافله ؟ أو هو كان
فقيراً محروماً لا يصيب من فرص العيش إلا ما يغبه على موائد الأمراء أو يحتال له « لطائف
الحيل » حيثما أسعفت وأفادت ، وقلما تسعف وتفيد ؟

ان قصائد ابن الرومي في جملتها لا تدع إلا أثراً واحداً في ذهن القارئ من هذه
الوجهة ، وهو أنه كان في ضنك وفاقه كثير الحرمان كثير الشكاية . ولكنها لا تخلو هنا
وهناك من أبيات تدل على كفاف أو حظ من اليسر ، وعلى أن بعض ممدوحيه كانوا يجرمونه
عطاياهم لذلك اليسر الذي يروونه عليه :

أحرمني لأنني مستقل وأنني لست كالرّزحى السغاب
فما تحمي ذوات الدرّ دراً إذا صادفن ملان الوطاب

ومن أبياته ما يدل على أنه كان صاحب ضيعة وصاحب دارين و ثراء وتحف موروثه منها قدحٌ زعم أنه كان للرشيد وقال في وصفه وقد أهدها إلى علي بن يحيى المنجم :

وبدیع من البدائع يسبي	كل عقل ويطبي كل طرف
وفي الحسن والملاحه حتى	ما يوفيه واصف حق وصف
قدح كان للرشيد اصطفاه	خلف من ذكره غير خلف
كفم الحب في الحلاوة بل أحد	لى ، وإن كان لا يناغي بحرف
صينغ من جوهر مُصَفَّى طباعاً	لا علاجاً بكيمياء مُصَفٍّ
تنفذ العين فيه حتى تراها	أخطأته من رقة المستشف
كهواء بلا هباء ، مشوب	بضياء ، أرققٌ بذاك وأصف
وسط القدر لم يكبر لجرع	متوال ، ولم يصغر لرشف

فعلى هذا يلوح لنا أنه كان ميسر المعيشة ولو بعض التيسير ، وأنه كان في وقت من أوقاته « مستقلاً » ليس « كالرزحى السقاب » غير أننا لا نعلم بخبر تلك الضيعة إلا لنعلم أنها مجدبة تطيل عناءه ولا تغل عليه :

أعاني ضيعة ما زلت منها بحمد الله قدماً في عناء

وأنها كانت تصاب بالجراد فيأتي على زرعها في بعض السنين :

لي زرع أتى عليه الجراد	عادني مذ رزئته العواد
كنت أرجو حضاده فأتاه	قبل أن يبلغ الحصاد الحصاد

وأنه كان يستعفي من دفع خراجها ويكتب إلى وهب بن سليمان يشكو إليه ضيقه وسلب الخطوب ما في يديه :

هب لراجيك ما عليه فإن اسـ	مك وهب ووسمك الوهاب
أنت بحر ومن له تجبى الأمر	حوال بحر لجانيه عباب
فارغباعن مداد شعبي فليست	فيه الا صباية ، بل سراب
وارثيا لامرئ ألح عليه	للزمان الصئول ظفر وناب
سلبته الخطوب ما في يديه	وله من تجميل أثواب
.....
غير أن ليس في خراجي وحدي	ما بأعلاقه يسوغ الشراب

لك في مكثري الرعية دوني حَلَبُ كيف شئت بل أحلاب
كذلك لا نعلم « بشرائه » الا لنعلم أنه أصيب فيه بحريق و :

حدوث حوادث منها حريق تحيف ما جمعت من الثراء
وأنه أصبح يستطعم بعد أن كان من المطعمين :

أمن بعد منزلة المطعمين أعدم منزلة الطاعم

وكذلك لا نعلم بخير داريه الا لنعلم أنها غضبتا منه كما زعم أو خرجتا من يده بحق أو
بغير حق على أية حال ، فلما كان في نحو الثلاثين جار على دار له تاجر يعرف بابن أبي
كامل - في رواية زهر الآداب - فاغتصب بعض جذرها وأجبره على بيعها وفزع ابن الرومي
الى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه ويذكر تلك الدار أو ذلك « الوطن » :

ولى وطن أليت ألا أبيع	وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة	كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحجب أوطان الرجال اليهم	مأرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفتة النفس حتى كأنه	لها جسد أن بان غودر هالكا

وقد ضامني فيه لثيم وعزني	وها أنا منه معصم بحبالكا
وأحدث احداثا أضرت بمنزلي	يربغ الى بيعه مني المسالكا
وراعمني فيما أتى من ظلامتي	وقال لي أجهد في جهد احتيالكا
فما هو الا نظمك الشعر سادرا	وما الشعر الا ضلة من ضلالكا
مقالة وغد مثله قال مثلها	وما زال قوالا خلاف مقالكا
صدوقا عن الخيرات لا يرأم العلا	ولا يحتذي في صالح بمثالكا
من القوم لا يرعون حقاً لشاعر	ولا تقتدي أفعالهم بفعالكا
يعيرني سؤل الملوك ولم يكن	بعار على الأحرار مثل سؤل الكا
مدلاً بمال لم يصبه بحلة	وحق جلال الله ثم جلالكا
وحسبي عن إثم الآلية زاجر	بما امتلات عيني به من جمالكا
واني وان أضحي مدلاً بماله	لامل أن ألقى مدلاً بمالكا
فان أخطأتني من يمينك نعمة	فلا تخطئه نقمة من شمالكا

فلم يصغ اليه سُلَيمان بن عبد الله .

وهذه هي قضية الدار الأولى التي عُصبت وسُلَيمان وال على بغداد وابن الرومي يومئذ في نحو الثلاثين . وهي قضية كما ترى مفصلة لم يسقط منها حرف مما قيل بين الخصمين المتنازعين . ! تقرأ الأبيات حتى تنتهي منها فلا يسعك الا أن تنسى الدار وتنسى يسر ابن الرومي وعسره التفاتاً الى هذا الاستقصاء الدقيق في سرد وقائع المشكلة والمشاجرة التي نشبت بين صاحب الدار والتاجر الباغي عليه في زعمه ، فما من كلمة قيلت في تلك المشاجرة أو تقال في أمثالها الى اليوم الا جاء بها ابن الرومي وأبرأ بها ذمته كما يبرىء الذمة حالف اليمين الغموس : يحجور التاجر على دار الشاعر فينقض جدارها ويتلفها ليجبره على بيعها ، فيقوم الشاعر ويقعد ويرغي ويزبد وينذر خصمه الويل والثبور وعظائم الأمور ، فيهزأ التاجر المعز بثروته الساخر بكل شيء غير ذهبه وفضته ويقول له : وماذا عساك أن تفعل ؟ قصارك أن تنظم قصيدة ! . فاذهب وانظم ما بدا لك ودع الشعر ينفعك ! فما هو الا ضلّة من ضلالك وبلاء لك يضرُّ بك ولا يجدي عليك ، فيغضب الشاعر لشعره ويذكر الأدب والعلم والملوك والأمراء فيستخف التاجر بفخره ويقول له : وما أنت من ذاك كله . . ما أنت الا متسول مسترشد تمد يديك الى مال غيرك !! فيرتد عليه الشاعر مزرباً بما لم يجمع إلا من السرقة والخداع والسحت والحرام ، ويذهب يشكو ويستعدي ويرجو ويستجدي ، وهكذا تدور الملاحاة والمنابرة في القصيدة وتُسجّل القضية كلها في الشعر على غمط لا ينجم حرفاً ولا يزيد فيها ولا ينقص . كأن الشاعر مشغول بالرواية عن الدار والمنازعة عليها !! ومن الطبيعي أن يحدث جميع ما حدث ولكن ليس من الطبيعي أن يثبت الشاعر جميع ما حدث في قصيدة . إذ لا فرق بين أقدر الشعراء وأضعفهم إلا أن أقدر الشعراء يجيء في شعره « بالطبيعي » البسيط وأضعفهم يهمل « الطبيعي » البسيط وينقص منه أو يزيد عليه .

وللدار الثانية قضية نعرف تفصيلها كما عرفنا تفصيل هذه القضية ، فقد نازعته فيها امرأة ونزعتهما منه عنوة فكتب إلى الوزير عبيد الله بن سُلَيمان يعرض عليه القضية ويستغيث :

تَهَضُّمُنِي أَنْشَى وَتَغْصِبُ جَهْرَةً عَقَارِي ، وَفِي هَاتِيكَ أُعْجِبُ مَعْجَبٍ
لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي لَامِرِي الْقَيْسَ قَوْلَهُ « فَاَنْكَ لَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ تَعْلَبِ »

وكانت آخر قصيدة قالها - كما في الديوان - لامية يقول فيها :

أقول إذ غصبتني كف جارية
ان الغواني بما أملن من أمل
متى غلبن رجال الجدد في زمن
وان أعجب شيء أنت مبصره
كف خضيب من الحناء غاصبة
يا حسرتا لي ! ويلهفا ! ويا عجباً
في دولتي أنا مغصوب وفي زمني
يريد دولة بني وهب أنصاره وممدوحيه .

ومن الواضح أن هذه الدار أخذت منه قبيل موته بزمان قليل ، لأنه يطلب رجوعها في أواخر شعره ويقول انه لم يكن يومئذ « من رجال اللهو والغزل » . وقد يحتمل ان هذا الشعر كله قيل في دار واحدة لا في دارين وأنه تشبث بتلك الدار بعد ما أحدث فيها التاجر الأحداث ورام أن يضطره الى بيعها فلم يبيعها وظل مالكاً لها حتى ضاعت منه في أخريات عمره ، وهو احتمال يرد على الخاطر ولكننا نستبعده لأن زهر الآداب صريح في أن التاجر « أجبره » على بيع داره ولأن ابن الرومي لا ينسى أن يذكر الصبا وطول العهد بسكنى الدار لو كانت هي الدار الأولى التي ملكها وعاش فيها من صباه الى هرمه .

وثم قصة أخرى « لدار » كان ابن الرومي يسكنها ويخاطب في شأنها والى الشرطة احمد ابن محمد الوثاقي الذي بقيت له الولاية إلى ما بعد موت ابن الرومي ببضع سنوات ، فعن تلك الدار يقول :

بينما النفس وَيَبَّها بك ترجو
وتراعي آمالها منك انجا
اذ اتاني الرسول منك بأمر
وهو ازعاجها بأعنف عنف
أنا إن لم تذد بيميناك عني
ملك دار معمورة مأهولة
ز مواعيد للمنى ممطولة
يشبه الموت نفسه أو رسوله
عن محل قد استطابت حلوله
غير شك فريسة مأكولة

ونظن أن البيتين الآتين مما قاله في هذه الدار بعينها :

(١) ربان من أرباب العرب في الجمالية .

يا ويح من أصبح في غمة ليس له من كربها مخرج
فروحه تزعج عن جسمه وجسمه عن بيته يزعج
وقد تكون هذه الدار هي التي نزعتها منه المرأة ، وقد تكون داراً مأجورة وهو الأرجح
عندنا ، لأن الشاعر لا يقول في مزاياها إلا أنها « محل قد استطاب حلوله » و « منزل أحب
نزوله » وأنها مكان :

فيه عافانيّ الآله من الشك و وفك الآله عني كبولة
بعد جهد حملت منه ضرراً ليس اثقالهن بالمحمولة

وهو كلام أشبه بأن يقال في مكان جرب بعد تجربة غيره ، وكان فيه معنى للاستطابة
والاختيار ، وله على غيره من الأماكن المأجورة مزية الموافقة والاستحسان . ويزيد في
ترجيح ذلك أن الشاعر يقول إنه كان يرجو « ملك » دار معمورة مأهولة فما كفاه أن تفوته
الدار المملوكة حتى أزعموه عن مسكنه . . . وذلك بما تقدم أشبه .

وأيا كان الخلاف فيما سبق فالأمر الذي لا خلاف فيه أنه مات في دار مأجورة . فان
الناجم يقول حين قص علينا قصته في مرض وفاته انه انتقل من الكرخ إلى باب البصرة
فسكن في دار ابن قلابة ولم يسكن في دار ابن المعافى كما أشار عليه بعض أصدقائه . وهو
يصف حاله قبيل ذلك فيقول من قصيدته البائية إلى القاسم بن عبيد الله حين عزم على
الشخص إلى « أمد » مع الخليفة المعتضد :

ثوبسي الرث والثياب طراء وطعامي برغمي المجشوب
ومحلي عاريّة وجدارا ت بيوتي فكلها منقوب
ومقيلي في الصيف سخن بلاخيـ ش ، فعظمي يكاد منه يذوب

فالذي يُفهم من هذه الأخبار حين يجمع بعضها إلى بعض انه ورث داراً من أبيه هي التي
يقول إنه قضى فيها أيام صباه ، فلا تكون على هذا إلا إرثاً نشأ فيه قبل أن يدرك السن التي
يُكسب فيها ثمن الدور ، وورث تحفاً تُقتنى كتلك الكأس التي زعم أنها كانت للرشيد ،
وقد تكون الضيعة بعض إرثه من أبيه وقد تكون مما اقتناه في بعض حالات وفرة ، ولكنه
كان يحتاج إلى الدين فيعرض عقاره للضياع وتقوم عليه الحجة فلا يقدر الولاة على دفع
خصومه وقبول دعواه ، وشكاياته من الديون كثيرة تؤيد هذا التفسير . فمنها :

على دين ثقیل أنت قاضيه يا من يحملني ديني رجائي
وقد حمانيّ اخواني مواردهم ووكلني إلى بحر سواقيه

ومنها :

أقول لما رأيت عرسي تسترزق الله باليدين
سيجعل الله بعد عسر يسراً بجدوى أبي الحسين
.....
من حسن حال ورفه بال ورفع قدر وخط دين

ومنها :

وارتكاب الديون إياي في ظلد لك يهجوك باللسان الفصيح
ففي هذه الديون ضاع عقاره واستبد به دائنوه .

ومثل ابن الرومي لا يُستغرب منه أن يسرف ويستدين وإنما يستغرب منه أن يقصد في نفقته ويعتدل في تصرفه ، فهو إما مضياع متلاف وأما شحيح مقتر حسباً يتعاوره من المغريات بالانفاق وهو اجس الخوف من الفاقة ، وقد كان هو مضياعاً متلافاً وشحيحاً مقترأً في نوبات نوبات لا يُدرى لها سبب ولا يضبط لها ضابط ، فكان مضياعاً متلافاً على الكره منه وشحيحاً مقترأً على الكره منه كذلك ، وكثيراً ما أنحى على نفسه باللوم لحرصه وضعف إيمانه وشكاها إلى الله كأنما يغالبه على الحرص مغالب شديد المراس كما قال :

الى الله أشكو شح نفسي لأنني أرى الجود لي حظاً وشيمتي البخل
وقد كان حق الجود بذل ذخائري الى أن يراني الله يُعوزني الأكل
ولكن نفسي آثرت نبل مالها وما حيث نبل المال ما يوجد النبل
أو كما قال :

وفيم اجتهادي في محاولة الغنى وما للغنى عند الجواد به قدر
وحينا يثقل عليه الصراع بين حرصه وسرفه ويخلد الى العجز عن المغالبة فيلتمس المعاذير لنفسه ويجعل الشح من المكارم المحمودة لأنه يصونه عن الحاجة ويعصمه من السؤال والاقتراض :

إذا لم يكن عندي سوى ما يكفني فشُحي عليه مثل شحي . على عرضي
لأنني متى أتلفتة احتجت حاجة تذيل مصون العرض في طلب القرض
فهو لا يزال أبداً شديد الزهد شديد الرغبة :

وأصبح في الاثراء أزهد زاهد وإن كان في الاثراء أرغب راغب
فلا جرم يضطرب في عيشه ويخرج عن القصد في حالتي شحه وسرفه ، ويظل مدخراً لا
يتنفع بما ادخر أو مبدداً لا يبقى من ماله ولا يذر .

على أنه لو بقي له كل ما ورث من أبيه وكل ما علمنا أنه ملكه لما أغنانا ذلك عن البحث
في مورد رزقه وسبب اتصال عيشه . إذ كان البيت الذي يسكنه مالكة لا يحسب من موارد
الكسب ، والضيعة التي « ما زال منها في عناء » لا تبلغ أن تدر عليه رزقا يكفيه ، ومن
أخباره ما يقطع بعثور جده وبؤسه الغالب عليه معظم حياته ، فلولا هذا البؤس لما لزمه
ميسم النحس ولا عيروه الخيبة والخصاصة ، ولولا عسره وافتقاره لما وقع بينه وبين
البحثري ما وقع . إذ هجاه « فأهدى اليه تحت متاع وكيس دراهم وكتب اليه ليريه أن
الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه ، وإنه لم يحمل على ما فعل إلا الفقر والحسد
المفرط » !! فإذا خطر لنا أن مطالبه الكثيرة لا تدل على حقيقة فقره وإنها عادة جرى عليها
كما جرى الشعراء في عصره فاشتهاره بالنحس والتخلف وردُّ البحثري عليه دليل على عسر
حقيقي ما فيه ريب ، أو دليل على حاجة دائمة الى المدائح والصلوات يعول عليها في
ضرورات معاشه فضلاً عن نوافل لهوه .

فسؤ النا الذي ينبغي أن نسأله في هذا المعرض هو : ماذا كان نصيبه من المدائح وكيف
كانت حظوته عند ممدوحيه ؟ والجواب الذي لا تردد فيه ان لم يكن نصيباً جزيلاً ولا حظوة
مغبوطة . إذ هو لم يتصل بالخلفاء ولم يأخذ جوائزهم الكبيرة التي تغني الشاعر عن
السؤال زمناً أو تغنيه عنه بقية حياته ، وإنما كانت مدائحه كلها للولاء والوزراء والقواد
والكتاب ومن يضارعهم ويقل عنهم في الرتبة والثروة ، فلم يمدح خليفة قط إلا لعلاقة بين
هذا الخليفة وبين رئيس أو نديم من الذين يعرفهم وينتمي اليهم ، فمدح المستعين وهجا
المعتز حين تنازعا الخلافة بينهما لأن محمد بن عبد الله بن طاهر كان من حزب المستعين
وكان مقيماً في بغداد وابن الرومي يمدحه ويقيم معه في المدينة ، ومدح المعتمد لأن بناناً
المغني اقترح عليه مدحه - وهو يكتب لبنان - فأجابه إلى ما اقترح وذكر اسمه في ختام
القصيدة :

فلا	يزل	في	نعيم	عيش	مزاجه	الخفض	والليان
حتى	يرى	فيه	كل	سؤل	ومنية	عنده	بنان

ومدح المعتضد بالمقاطيع الكثيرة لأنه كان صديق آل وهب وكالهم من لدن تولى العهد إلى أن بويع بالخلافة .

وقس على ذلك سائر مدائحه للخلفاء وولاة العهود وما هي بالكثيرة في عددها ولا هي بالكثيرة في عدد أبياتها ؟ فقد كان لا يعنى بتطويلها كما كان يطول مدائح الولاة والوزراء لأنها مدائح لم تقصد لذاتها ولم ينظمها إلا مرضاة لأصحابه وتلبية لاقتراح المقترحين عليه ، وكأنهم كانوا يطمعون بذلك في تقرّيبه من الخلفاء وإزلافه لعطاياهم ، ولكنهم لا يفعلون . فظل محجوباً عن الخلفاء لا يستدعونه ولا يسألون عن شعره حتى مات وجاء المستكفي يسأل عما قاله في الطعام والشراب !

ونعود إلى الوزراء والرؤساء لنبحث عن نصاب الجائزة عندهم وغاية ما يصلون به الشاعر إذا رضوا عنه وبالغوا في عطائه . وليس يطول بنا البحث في هذا لأنه واضح من الحديث الذي جرى بين البحتري وابن الرومي حيث يقول البحتري : « اقرأني أبو عيسى ابن صاعد قصيدة لك في أبيه وسألني عن الثواب عنها فقلت : أعطوه لكل بيت ديناراً » فكأن هذا غاية ما يرتقي إليه الموصي بجائزة وغاية ما كان ينتظره ابن الرومي من شفاعته متشفع يتودد إليه ، وابن الرومي نفسه قد عين نصاب هذه الجوائز تعييناً في بيت يخاطب به علي بن يحيى المنجم يقول فيه :

وما المائة الصفراء منك بدعة ولا من أخيك الأريحي أبي الصقر

يعني مائة دينار . فهي إذن غاية الغايات من جوائز الأمراء ، ولا بد أن يحسب في هذا التقدير حساب مبالغتين مفروضتين في هذا المقام هما مبالغة الطمع ومبالغة الثناء ، بل حساب مبالغة أخرى صريحة في البيت وهي أن لانعام بمائة دينار كان أقصى ما تسمو إليه الأريحية وكان بدعة في ذلك العصر من غير هذين الممدوحين . فمن الرؤساء - على هذا - من كان يجيز الشاعر إن أجازه بعشرين ديناراً وعشرة دنانير وما فوق ذلك وما دونه ، وكانت هذه هي السنة الشائعة والنصاب الذي جرى عليه العرف بين معظم الرؤساء ومعظم الشعراء .

وأنت تقلب ديوان ابن الرومي فتقرأ فيه عشر قصائد في الشكوى والتذكير والاستبطاء والالحاح والانداز والهجاء إلى جانب قصيدة واحدة في المدح الخالص من العتاب والاستنجاز ، فلنقدر أنه نجح في مائة قصيدة وأخذ عليها مائة جائزة فمحصل ذلك كله لا

يزيد على ألفي دينار مع التسهل في عدد الجوائز ومقدار الدنانير ، وألفا دينار يتلقفها الشاعر في نحو أربعين سنة ليست بالرزق الرخي ولا بالوقاء من العوز والدين في مدينة الغلاء وعصر البذخ والاسراف ، ودع عنك أنها نجى متقطعة ممنونة لا يعرف لها موعد ولا توافق أوقات الطلب والحاجة .

ذلك نصاب الجوائز عند الرؤساء والوزراء إذا رضوا وسمحوا بالعطاء ، فأما الخطوة عندهم فلم تكن من قسمة ابن الرومي في أكثر الأوقات وإن أكثر وإن أجاد وإن أفرط في التزلف والاسترضاء : فما أكثر ما كانوا يتجنون عليه ويستخفون به ويتمحلون العلل الواهية لحرمانه وجفائه والقدح في شعره ! فهذا اسماعيل بن بلبل مدحه بقصيدة معدودة في شعر المدح العربي من أقدم أزمانه إلى أحدثها فتجهم له وضمن عليه ، ولأي ذنب ؟ لأنه قال فيها :

قالوا أبو الصقر من شييان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شييان
وأى شيء في ذاك ؟ فيه كما زعم أنه هجاء وأنكر عليه ما ادعاه من نسبه . ! فقل له هذا من أحسن المديح ، فاسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علا برسول الله عدنان
فتجنى وتعلل وقال : أنا بشييان ليس شييان بي . فقل له إنه لم يبخس شييان وقد قال فيها :

ولم أقصر بشييان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان
لله شييان قوم لا يشيهم روع إذا الروع شابت منه ولدان

فأصر على التجني والتعلل وأقسم لا أثابه ، ورجع الشاعر مغضوباً عليه فوق حرمانه وطرده . . . وقد كان رجاءه بما جود وأطال أنه يرضى عنه ويثاب . ولم يكفه هذا حتى جنى على نفسه انحراف الوزراء الآخرين عنه . لأنهم لم يمدحوا بتلك القصيدة ، فراح منهم من يقول إنها دار الطبخ !

ومدح محمد بن عبد الله بن طاهر مرة فانقلب ناقداً منافساً للشاعر وهجا شعره ولم يجزه بشيء :

مدحت أبا العباس أطلب رفته فخييني من رفته وهجا شعري

فهبنى قد أعفيتَه من مثوبتي أَيْغضي له شعري على مضض الوتر ؟
ومن اهما لم إياه أنه كتب قصيدة عتاب إلى أبي سهل النوبختي فنظر إليها والرياح
تلعب بها في جانب الدار وقد خُطط في ظهرها بالمداد ! فثارت نائرتَه وأقبل يعاتب لاهمال
العتاب بعد أن كان يعاتب لاهمال الثواب :

رقعة من معاتب لك ظلت ولها في ذراك مثنوى مهانُ

.....
سَطَّر العابثون فيها أساطير عفت متنها فما يستبان
خط ولدانكم أفانين فيها أو رجالُ كأنهم ولدان

.....
وقبيح يجوز كل قبيح رقعة من معاتب لا تصان

ويتأجنون فيقولون اذا مدحهم أنه ينظم الشعر كأنه نائم . . فيرى المسكين فرضاً لزاماً
أن يسلم لهم العيب الذي عابوه وأن يستخرج معنى جديداً من معاني الثناء على ذلك
الممدوح الذي تماجن عليه :

مدحتك مدح المستنيم إلى امرئ كريم فقلت الشعر وسنان هاجعا

ولا ترى له شعراً في أحد من الذين انقطع لهم وأكثر من قصدهم إلا رأيتَه يشكو في
خطابه له أنه يظلمه حقه ويخصه بالحرمان دون أمثاله ومن هم أقل منه . فهو يقول لبني
وهب :

فاز السورى من ربحكم بسحائب هطلت ، وفزتُ بسافيات تراب

ولبني طاهر :

أرى الشعراء حَطُّوا عندكم سواء عيَّهمُ واللسينُ
سواي ! فاني أراني امراً هزلت ، وكلهمُ قد سمن

ولبني هاشم :

بني هاشم مالي أراكم كأنكم تجورون أحيانا وأنتم أولو عدل
كما لو هجاكم شاعر حل قتله كذاك فأوفوا مادحا دية القتل

ولاسماعيل بن بلبل :

أبا الصقر لست أرى مهدياً لك المدح - غيري - إلا مثاباً

ولعل قربه منهم وحسبانه عليهم هو الذي أنزر نصيبه من جوائزهم وحفاوتهم ، لأنهم كانوا يحسبون عليه حضور مجالسهم وموائدهم وإسهامه أحياناً فيما يسهم فيه الجلساء والندمان من ألطافهم وهداياهم ، ويوجبون عليه بذلك أن يظل لهم وخدمهم شاعرهم وأديب بيتهم يطرفهم بالملح الأدبية ويواليهم بالتهنئة في مناسبات التهنئة والثناء في معارض الثناء ثم لا ينتظر منهم الخلع والصلوات على كل قصيدة ولا في كل موسم كما ينتظرها الشاعر الطارئ الذي يلقي قصيدته ويذهب لطيته . وهم فوق هذا يمتنون عليه أن قبلوه في مجالسهم وأحضره موائدهم ويفرضون عليه وفاء العبد للسيد والصنيعة لولي النعمة ، ويظنون أنهم كفלוه بالعيش الرغيد والظل والظليل :

إذا	امتاحهم	أكله	عبد	وه	تعبيد	رب	لمربوبه
يخالون	أنهم	بلغوا	ه	بالقوت	أفضل	مطلوبه	
وأنهم	حرسوا	نفسه	به	من	غوائل	مرهوبه	
يذيل	مضيفهم	ضيفه	كملبوسه	أو	كمركوبه		

والأغلب عندنا أنهم كانوا يقبلونه في مجالسهم ويحضرونه موائدهم غراماً بضروب الشذوذ والشهرة وكلفاً بالطرائف والملح كما هودأب أصحاب المجالس في كل أمة ، فكانوا يأنسون به في بعض حالاتهم ويقربونه لغرابه أطواره ووفرة محفوظه من الأشعار والنوادر والأمثال وسرعة ارتجاله للتشبيه والمحاكاة ، فكانهم اصطنعوه للاغراب لا للمودة وتخيره للمظهر لا للثقة والكرامة ، ولهذا كانوا يحضرونه مجالس الاحتشام وينحونه عن خلوات الحفاوة والتبسط ، وكان يعلم بهذا فتسوؤه فوق مساءته بالحرمان ويُعَجِّله الغيظ الذي لا يقوى على كظمه أن يسكت عن العتاب في مثل هذا الأمر ، فيعتب كلما حُجِبَ كما قال في مرة من هذه المرات للقاسم :

في جلنار وأختها دبسية يا ابن الوزير لعائب متعجب
احضرتوني جلنار وأحضرت دبسية الكبرى لغيري تحجب

وكان يحار في هذا الحجب ولا يدري ما علته ولا ما النقص الذي استوجبه ، ويسائل الأمير عن نفسه :

هل ترى الغفلة شابت حلمه أم ترى النكراء شابت فطنته

هل ترى العي يؤاخي صمته أم ترى الغي يؤاخي لسنه
هل ترى الشك عليه غالباً عند حق ، أم تراه يقنه
هل رأى منك قبيحاً بثه أم رأى منك جميلاً دفنه
هل لديه لك سر ذائع أم أمانات غدت محتجئة

لكن حيرة ابن الرومي هذه قد ترشدنا الى أسباب حجبه لأنها ترشدنا الى بضاعته التي أعدها للمنادمة وحسب أنه مستحق بها التقريب والمصاحبة ، وهي أدوات العلم والبحث والشك في موضع الشك واليقين في موضع اليقين ! وما هي بالزرم ما يلزم النديم في مجالس الخلوة فضلاً عن مجالس الاحتشام ، فقد يستغني النديم عنها كلها بالقدرة على المصانعة ومسايرة الأهواء ، في حين أن العلم لا يغنيه عن تلك القدرة ولا يسد مسدها في مجالس الاحتشام ولا مجالس الاباحة .

بقي حفظ السر وما نظن دعواه فيه مطابقة للحقيقة أو لرأي جلسائه المحتجزين عنه في خلوات الاباحة : لأن من كان مثله مطبوعاً على « الاعتراف » بعيوبه لا نخاله يمسك لسانه ويحفظ سراً رآه ساعة لهو . . . فاذا حجبته الأمراء عن مجالس الخلوة فلائنه لا ينفعهم في تلك المجالس ولا يؤمن عندهم على أسرارها وما يقع فيها من فلتات اللسان وبوادى رفع الكلفة وارسال النفس على السجية .

لكنهم كانوا يحبونه أيضاً عن المجالس العامة ولا يقتصرون على حجبهم عن المجالس الخاصة ، وكانوا يقطعون ما بينه وبينهم حتى تضيق به الدنيا ويتنمر له كل من ينتمي إليه أو ينتمي اليهم :

تعرفت في أهلي وصحبي وخادمي هواني عليهم مذ جفانسي قاسم
فيعود يسأل الاذن في المقابلة ويكتفي به عن سائر المطالب :

بل أنت معفى من جميع حوائجي إلا لقاءك في السواد الأعظم
لا أبتغي ما كنت أسأل مرة حسبي بوجهك ، فهو أفضل مغنم

قال هذا وقد حجبته القاسم عن لقائه وأمر الخدم برده ، وكان القاسم وأمثاله يمنعون بعض المنع وفي نفوسهم بعض الرعاية له وبعض الرضى عنه ، فأما إذا غضبوا عليه وصرحوا له بالجفاء فقد كانوا ينبذونه ويوصدون دونه كل باب ويخلون بينه وبين الحجاب يدعونه ويتصلفون عليه ، والحجاب لا يُعوزهم التصلف على مستأذن يأمنون العواقب فيه

ويأنسون من سادتهم الرضى بإيذائه ، فان الحجاب منافسٌ لكل جليس ينزل من سيده منزلة الخليل والسمير وهو قائم على الباب مقام الخادم ، وهو يود أن يدل عليه بقدرته على الرد والاذن والاقصاء والتقريب والتمييز في الحفاوة والتعظيم ، فكان ابن الرومي في فترات الاقصاء والاعراض يقاسي شديداً من غلظة الحجاب ويسرع كدأبه إلى شرح ما يلقاه منهم على أبواب الرؤساء المعرضين عنه ، وهو شبيه بما يلقاه كل طارق مهيبض الجانب من كل حاجب غاضب أو متغاضب :

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب	محا الله ما فيه من الكسر بالكسر
عبوس ، إذا حييته بتحية	فيالك من كبر ! ومن منطق نزر !
يظل كأن الله يرفع قدره	بما حط من قدري وصغر من أمري
إذا ما رأني عاد أعمى بلا عمى	وصم سميعاً ما بأذنيه من وقر

ولقد كان يحمد الله أحياناً أنه نجا من تعجرف الحجاب عليه بغير أذى في جسده :

عمّ الأذنين بأذنه وتخلفت	حالي ، فلم أذكر ولم أتوهم
لكن نبذت مع اللقيف بسمع	وبمنظر للشامتين ومعلم
بل ما أصابتني هناك شماتة	لكن غُبطت لأنني لم أطم !!

فلم يكن رزق الرجل إذن متصلاً من الجوائز ولا من الطاف المجالس ، ولم تكن حاجته إلى ضرورات العيش بالحاجة المصطنعة التي لا تنم عن فاقة حقيقية في معظم أيام حياته ، فسؤاله الدقيق والطعام والملبس سؤال محتاج إلى ما يطلب معتمد على ما يجمع من النوال . ولنا أن نشك في حاجته إلى الشيء حين يطلبه ويلج في طلبه ، ولكن ليس لنا أن نشك في حاجته عاجلاً أو آجلاً إلى ذلك الشيء من طريق السؤال كما كان يصنع عامة الشعراء في الأزمان الماضية ، ولا سيما في ذلك الزمان الذي اضطربت شؤونهم وقل ضمانه وتلاحقت طوارئه ، فمن مسائل ابن الرومي ما يصعب الشك في صدقه كقوله يستعطف وهو يكاد يئأس :

إن لله غير مرعاك مرعى	يرتعيه وغير مائك ماء
وتيقن متى جنيت على عبد	ك ضيماً وضيعة وعناء
أن لله بالبرية لطفاً	سبق الأمهات والاباء
.....
لي خمسون صاحباً لو سألت الـ	قوت فيهم ألفيتهم سمحاء

أتري كل صاحب لي منهم يمنع الشهر بلغتي اجراء
لي في درهمين في كل شهر من فقام ما يطرد الحوجاء

وكثيراً ما ألم لهذه الحاجة الدائمة وتوصل الى الرؤساء أن يجربوه في ولاية او جباية أو
يتخذوه لعمل في الديوان يريجه من ذل السؤال وعذاب القلق والانتظار ، فكانوا يضمنون
عليه بما سأل ويأبون ان ينقذوه من سوء تلك الحال ، ولزم آل وهب ما لزمهم وهو يترقب
أيام دولتهم ويترجى الخير الجزيل على أيديهم ، فلما صارت اليهم الوزارة لم يصنعوا شيئاً
وزادوا انهم قطعوه بعد صلة ومنعوه ما كان يناله قبل الوزارة ! وكثر زوارهم وقصادهم
فتأخر مقامه بينهم وربما رأوه حيناً وهو مقدم على سواه .

أنا من عراك وبساب دارك موحش من كل مؤتلف عليّ مقدّم

وكان أسمح الرؤساء معه من كان يلهمه عن العمل في الديوان بوظيفة صغيرة يشاهاها
عليه ولا يثبتها في سجل الأرزاق المرصودة المضمونة بعض الضمان ، ومن شأن هذه
النوافل أن تحتاج ابدأً الى التذكير والتنبيه فما لا بد أن يجز اليه التذكير والتنبيه من السأم
والجفاء ، فاذا حصل ذلك - ولا بد من حصوله - خسر الوظيفة وصاحب الوظيفة وباء إلى
شر مما كان .

والعمل الوحيد الذي ذكر في ديوانه هو عمله في الكتابة عند آل بنان المغني الذي كان
ينادم الخليفة المعتمد ويغنيه ويسأل ابن الرومي ان يمدح الخليفة بلسانه ، وكأنه لبث في هذا
العمل عشر سنين على ما يجوز أن يؤخذ من قوله :

والغناء الشديد شدواً وضرباً سحنة قد ملأت منه الاناء
ظلت عشرأ كواملاً في مغانيه أغني واسمع الانحاء

ولن يكون ذلك العمل الا ضئيل الاجر مغبونه كما يظن بأجر يتناوله كاتب مغن ، وكما
يدل بيتاه المشهوران في بنان :

تعالى جد ديناري بنان فحلا حيث حل الفرقدان
ولو أن النفوس بحيث حلاً غدون من الحوادث في أمان

فان قلنا ان « الدينارين » هنا للتطفيف لا للحصر فاقصى ما يرتقي اليه الديناران ان
يكونا عشرة ! وعشرة دنانير ليست بالرزق الطيب في عصر كعصر المعتمد بمدينة بغداد .

فمعيشة الرجل في جميع أدوارها كانت معيشة عارف بالحياة متذوق لها وهو مع المعرفة والتذوق ملدد محروم طويل الهم بأمر الرزق مشّت الفكر بين القلق والخيبة والمطل والحُرمان ، وهي معيشة مزعجة مكهربة تهدد القوى وتنهك الفكر والجسد ولا تكون الا وخيمة الاثر في نفس رجل مثله كثير المخاوف عليل الاعصاب .

لماذا فشل

فشل لأنه كان قليل الحيلة صغراً من الدهاء ، ذلك أوجز ما يقال في أسباب فشله ، فما من عمل كان يحتاج إلى حيلة إلا كان ابن الرومي فيه مخففاً أو كان مصدوفاً عنه حتى اللعب ، ومن ثم كراسته للعبة الشطرنج التي راجت في أيامه وكثر التفنن في طرائق لعبها بين ممدوحيه حتى كان أحدهم يلعبها وظهره إلى رقعتها ، وهو الذي يقول فيه :

تقتل الشاه حيث شئت من الرقعة طباً بالقتلة النكراء
غير ما ناظر بعينك في الدس ت ولا مقبل على الرسالة
بل تراها وأنت مستدبر الظهر ر بقلب مصور من ذكاء
ما رأينا سواك قرناً يولي وهو يردي فوارس الهيجاء

ولكنه هو كان يجهلها ويحاول البراعة فيها فلا تساعده الحيلة ، فينقلب هارثاً بها ويقضي عليها بأنها من تعلات الفراغ والجوع .

أرى لعبة الشطرنج ان هي -حُصِّلَتْ- أحق أمور الناس ألا تحصلا
تعلت بوابين جاعاً وارملا بباب قليل خير ، فتعللا

او يقول :

تفرست في الشطرنج حتى عرفتها فان صح رأيي فهي بالوعة العقل

وحسب الرجل أن تقل حيلته في أواسط القرن الثالث ليكون مقضياً عليه بالهلاك أو بالفاقة وان اتصل بذوي الاخطار والعاملين في سياسة الدولة ، بل يقضي بالهلاك والفاقة لانه اتصل بميدان هو احوج الميادين إلى المكر وسعة الحيلة ، فمدائح ابن الرومي نفسه أدل شيء على ضرورة الدهاء في أيامه وشيوع هذه الخصلة بين أبناء عصره .

فانه مدح أشتاتاً من ذوي المقامات بينهم الوزير والقائد والنديم والكاتب والفيلسوف فكان الدهاء صفة تتكرر في مدح كل واحد منهم وثناء مشتركاً بين من يُطلب منه الدهاء بحكم عمله ومن لا يُطلب منه ولا يعيه ان يفوته ، واليك امثلة قليلة نكتفي بها عن احصاء كل ما جاء على هذا المعنى في مدائحه الكثيرة

قال في علي بن يحيى النديم :

فل بالحجة الخصوم وبالكيد د زحوف العدى ذوي التأليب

وقال في ابن ثوابه الكاتب :

وبكيد يروي القنا علقاً ويختضب اختضابه
وقال في القاسم بن عبيد الله الوزير :
يرمي بدهاء من فلائقه في وجه دهاء من فلائقها
وقال في عبيد الله بن عبد الله القائد :
يصاول القرن او يخاتله جلدأ اريأ بعيدة سربه
كاللث في بأسه وآونة مثل الشجاع الخفي منسربه
وقال في الجنود الأتراك :
ترى شبه الأساد فيهم مبيناً ولكنهم ادهى دهاء وانكر

وقد صدقت في هذه المدائح فطنة ابن الرومي الى صفة عصره والخلق الذي لا بد منه للمتقدمين فيه من ندماء أو كتاب أو قادة أو وزراء أو جنود ، فلم يكن لواحد من هؤلاء غنى عن الكيد والختل والدهاء ، ولم تكن للعصر كله صفة بارزة بروز هذه الصفة التي اشتدت الحاجة اليها بين القلائل والدسائس والاضطراب الدائم إلى اتقاء الشر ومداواة الاقوياء والحيلة لما تأتي به طوارئ الاحداث ، واحجى أن تشتد الحاجة اليها حيث تعشش الفتنة وتبيض وتفرخ بين رجال الدولة ومن يعاشرهم ويلحق بهم من الشعراء والندمان ومغتتمي الفرص من صعود هذا وهبوط ذاك واقبال هذه الدولة وادبار تلك ، فقد كان هذا هو عمل كل يوم وشاغل كل ساعة في البيئة التي عاش فيها ابن الرومي خاصة ، فما كانت ايامهم تنقضي على غير خليفة يعزل او يدبر له العزل وولي عهد يخلع او يدبر له الخلع ووزير يكاد له او يكاد لخصمه وصاحب مال يصادر او يسعى لمصادرة غيره ، وهذا واشباهه شغل يفترق من يزاوله ويعيش في بيئته الى الدهاء افتقاره الى اداة المعيشة الاولى وسلاح الحرب الألزم له من كل سلاح .

في ذلك العصر عاش ابن الرومي وهو اعزل لم يستعد له بعدة ولم يحسن قط ان يتداهى على أحد ولا أن يحترس من دهاء أحد . وراح يتقلب فيه باحساس طوع الحوادث ولسان طوع الاحساس ! فكان نقيض الرجل الذي يصلح لمثل زمنه . إذ كان ألزم ما يلزم ذلك الرجل ان يملك احساسه ولا يطيعه ، وان يجعل بين احساسه ولسانه سداً منيعاً من الرياء يستتر خلفه ، فاخطر ما يجر الخطر على المرء في عصور القلق ان يرسل نفسه وأن يطلق لسانه وأن يلهو بما بين يديه عما حوله ، كما كان يفعل ابن الرومي ومن طبعوا على غراره . وما نظنه كان يكرر صفة الدهاء في ممدوحيه الا وهو يشعر بخلوه منه وحاجته اليه ، غير أن الشعور بالحاجة إلى الدهاء لا يعطيه الدهاء ! كما أن شعور المريض بالحاجة إلى القوة لا

يعطيه القوة ، وغاية ما يستطيعه أن يأسى ويتكلف ما ليس في خلقه ، فلا يفيد الأسى ولا التكلف إلا أن يبدي من ضعفه ما هو أولى باخفائه .

ذلك أول الفشل أو ذلك أوجز ما يقال في اجمال اسبابه .

وهو مع هذه الغرة التي تعد من اكبر الجنايات في عصر الدسيسة والمداورة - كانت له جناية اخرى تعد من اكبر الجنايات في جميع العصور وبين جميع الأمم وعند جميع الأفراد . كان غريب الاطوار ولا أضر على الضعيف الحيلة من غرابة الأطوار . لأنها تفرده بين الملأ فتنبه وحده هدفاً لكل ما في الطبائع الانسانية من لؤم وسفاهة وسوء ظن وبجاعة . و« الشيء مستوحش اذا غربا » كما يقول ، فحسب المرء ان يشتهر بهذه الغرابة وأن يسجلها عليه من يعرفه ومن لا يعرفه حتى تبطل دعواه وتسقط حقوقه ويكون « المجتمع » قد أصدر عليه حكماً سريماً كذلك الحكم الذي كان يصدره السلطان في غابر الأزمان باهدار دم الطريد الهارب من عقوبته وسخطه . فلا ينصفه احد ولا يتخرج متخرج من العدوان عليه والتعرض لغضبه ، فانما أساس الانصاف ان يعرف للانسان حق الرضى والغضب وحق الشكوى والملام ، فاذا سلب هذا الحق واشتهر عنه انه يألم لغير ما يوجب الألم ويفرح لغير ما يوجب الفرح ويعجب والناس لا يعجبون ويثور والناس لا يثرون ويطرق وهم لا يعرفون فيم يطرق ويهمل وهم لا يشعرون فيم يهمل - فهم اذن في حل من اسخاطه واهتضام حقه ! وهو اذن طلبة السلطان الأعظم سلطان المجتمع الذي أهدر دمه وأباح أمنه وماله ، فلا يشكو الا وهو متهم ولا يُشكى الا وللشاكى عليه حجة . . وكل ذنبه بين الناس انه من معدن غير معدنهم وذو شعور بالحياة غير شعورهم ، وقد يكون خيراً منه واجدر بالانصاف .

بل حسب المرء أن يشتهر بالغرابة حتى يصبح المؤلف من عمله غريباً يفعلوه هو فيلاحظ ويتبعه الناس بالغمزات ، ويفعله غيره فلا يلاحظ ولا يتغامز احد عليه . لأن سمعة الغرابة هي المهم في هذا الصدد ، وليست الحوادث التي توصف بالغرابة .

وقد يُعفى الغريب الاطوار من « هذا الاهدار » اذا كان مع غرابة اطواره له سطوة أو ثروة أو عصمة يعتمصم بها من عشيرة تغار عليه أو جار يميل اليه ، فربما أساغوا منه غرابته في هذه الحالة وعدوها حلية تزينه وظريقة ترغبهم فيه . فاما ان يكون ضعيفاً لا حول له ولا حيلة وغريباً في خلقه وشعوره فذلك هو الجرم المضاعف الذي لا شفاعة فيه ولا نجاة

من عقوبته ، وقل في عقوبة مشدد فيها كما يشاء لؤم من لا يخاف عاقبة لؤمه ، مبالغ فيها
كما يُبالغ في ايداء كل معدوم النصير .

عاش ابن الرومي في ذلك العصر قليل الحيلة فهو أعزل ، غريب الأطوار فهو مستهدف
لكل من يرميه ، دقيق الحس فهو معذب بما يصيبه . وثقلت عليه صدمات الحيلة وساء ظنه
بانصاف الناس فوهن ما فيه من بقية عزم الشباب - وعاف السعي وانطوى على اليأس
ووجدت نفسه لذلك وجداً تعرغه من صرخته :
لا عذر لي في أسفي بعدها على العطايا . عفتها ! عفتها !

فكان هذا مع ضعفه واعتلاله وحذره المغروس في تركيبه وحاجته الى من يرأمه ويعينه
صارفأله عن السعي في طلب الرزق والنزوح عن الوطن ، جانحاً به الى القعود حيث قعد
لا يرى إلا أن البلاد كبلده وأن الأخيار والأشرار سواء في قلة انصافه :
ذقت الطعوم فما التذذت كراحة من صحبة الأشرار والأخيار

وما كان الرجل مخلوقاً للجلد والمشقة في أيام الشباب بله المشيب ، ولكنه كان ربما رحل
في تلك الأيام الى الأبله او سامرا « سر من رأى » او بعلبك ، وهي فيما نظن ابعد ما وصل
اليه في رحلاته . فلا يلبث أن ينكرها وتنكره ويعود منها وما لقي فيها الا مثل ما لقي في
وطنه :

لقد أنكرتني بعلبك واهلها بل الأرض بل بغداد صاحبة البتل
ويرسل الى أصحابه في بغداد يتشوف ويقسم لا ازمع بعدها سافراً ولا أثر على قريهم
مطمعاً :

وان يقض لي انت الرجوع فانه	علي له الا افاركم نذر
ولا أبتغي عنكم شخوصاً ورحلة	مدى الدهر ، الا أن يفرقنا الدهر
فما العيش الا قرب من انت إلفه	وما الموت الا نأيه عنك واهجر

« طول مقام المرء في الحى خلق لدياجتيه » كما قيل . فاذا احصينا أسباب الجفاء الذي
كان يشكوه من ممدوحيه وأسباب فشله بعبارة اخرى ، فلا شك أن طول مقامه ببغداد
واحد من تلك الأسباب التي رجحت عليه غيره من انداده الشعراء ومن هم أقل في
الطبقة ، لانهم كانوا يغيبون ويحضرون فلا يضمن عليهم الأمراء بالعطاء في السنة بعد

السنة او بعد السنوات ، ولأنه كان مقيماً امام اعينهم في كل يوم فلا يلقي عندهم حفاوة الطارق بعد غياب .

وهو لم يرحل تلك الرحلات القصيرة التي كان يظنها غربة طويلة الا وهو في ابان القوة والطمع في الولاية والجوائز . فلما طال عليه الأمر ووطن نفسه على اليأس قعد في بغداد لا يريها وقنع بما يتفق له وهو وادع في بلده وابتى أن يجيب من يستدعيه اليه ويخضه على « الحطب لناره » . . . لأنه يكلفه ركوب البحر وهو اخوف ما يكون من ركوبه :

حضضت على حطبي لناري فلا تدع لك الخير تخويفي شرور المحاطب

.....
ايعزب عنك الرأي في ان تثيني مقيماً مصوناً من عناء الطالب

وما هي بعد الا دعوة فيما نظن لم يكن بالمنظور أن تتكرر ، إذ قل في الولاة من كان يعني بشأنه وشأن رزقه في حالي شبابه ومشيه ، وقل فيهم من كان يرعى حقه ويخلص في مودته :

وربما اغتر هو ببعض المجاملة منهم وخيل لنفسه حقاً عندهم فتشفع اليهم في اتباعهم كما تشفع لمهندس القاسم الأسير المغضوب عليه « وما ضيف بأضعف من اسير » . . . او كما تشفع لكتابه الذين « اضحوا وهم أسوأ الكتاب احوالا » . . . او كما تشفع فيما هو أكبر وأجل وهو شكاية الحسن بن عبيد الله الى ابيه من تقديم أخيه القاسم عليه وترشيحه لعظيم المراتب دونه . الا أنها شفاعات لا نعرف ماذا اوجبها على ابن الرومي ولا نعرف ماذا كان مصيرها عند المشفوع لديهم ، فهي ان دلت على شيء قاطع فانما تدل على ان قوماً ذوي حوائج كانوا يقصدون فيها من يقبل تبليغها ويأنسون من ابن الرومي تلبيةً لا يأنسونها في صحابة الامراء غيره ، وربما أغراهم به سذاجة طبعه وسرعة استمالته . ولا سيما في وساطة الحسن عند ابيه والتماسه منه أن يسوي بينه وبين أخيه القاسم ، لانه : ليس يوهي اخاه شذك ايا ه ، ولكن يزيده في اشتداده

ولا يبعد أن تكون هذه الوساطة علة اعراض القاسم عنه ومجافاته اياه تلك المجافة التي قيل إنها انتهت بقتله . فغير ابن الرومي لا يقدم على هذه الوساطة وهو جليس القاسم المطالب في شريعة تلك الأيام بنصرته على كل من ينافسه ولو جاءت المنافسة من أخيه ، اذ يرى الحزم والحكمة أن يتبع الدولة حيث كانت والا يعرض نفسه لغضب صاحب الخطوة من اجل أخ له مهجور ضعيف الأمل في النجاح ، فاستشفاع الناس بابن الرومي لا يدل

على أكثر من هذا ولا على أكثر من انهم ارادوه للتبليغ والتذكير عسى أن ينبهوا غافلاً
ويسمعوا من لم يسمع .

وقد يدل على أنه أصيب بسبب هذه الشفاعة في رزقه وحياته كما يلوح لنا من جرائر
الوساطة بين الحسن وابيه ، فأما أن تدل هذه الشفاعات على حق مرعي له عند الأمراء
وعناية منهم بأمر رزقه وصيانتته في قربه وبعده فذلك احتمال بعيد تناقضه اخباره وأشعاره
على السواء .

وما نخال أن احداً من ممدوحيه كان بينه وبين ابن الرومي من المؤاخاة في الأدب مثل ما
كان بينه وبين أبي سهل بن نوبخت سليل البيت الفلكي المعروف ، فقد كانت بينهما
مساجلات كثيرة تلمح فيها مخاطبة الند للند والصديق للصديق في بعض الأبيات ، فابن
الرومي يغرب في مدحه ويقول :

اعلم الناس بالنجوم بتو نؤ بخت علماً لم ياتهم بالحساب
بل بأن شاهدوا السماء سموأ ورقياً في المكرمات الصعاب

وأبو سهل يحبيه وهو يعتذر من قلة اضطلاع بهجابه :
هكذا يجتنى الودود من الاخو ان اهل الازهان والاداب
نظم شعر به ينظم شمل الم جدد كالعقد فوق صدر الكعاب
قد سمعنا مديحك الحسن الف مرض ولكن لم نضطلع بالجواب

ومثل هذا الخطاب لا يكون إلا بين رجلين صديقين أو كالصديقين فيما توجبها العلاقة
بينهما من الولاء والمعونة . فانظر مع هذا كيف كان ابو سهل في رعايته لحقه وعنايته بامر
وصيانتته لقدرة ؟ كان كما قال فيه :

لي صديق اذا رأى لي طعاماً	لم يكد أن يجود لي بشراب
فاذا ما رأها لي جميعاً	كفياني لديه لبس الثياب
فمتى ما رأى الثلاثة عندي	فهني حسبي لديه من آرابي
لا يراني اهلاً لملك الظها	ري ولا موضع العطايا الرغاب
وكأنني في ظنه ليس شأني	هو ذي نية ولا مُتَّصَاب
في طبع ملائكي لديه	عازف صادف عن الاطراب
او حمارية ! فمقدار حظي	شعبة عنده بلا اتعاب
انما حظي اللقاء لديه	مع ما فيه بي من الاعجاب

ليس ينفك شاهداً لي بفهم وبيان وحكمة وصواب
ومتى كان فتح باب من الابواب توقعت منه اغلاق باب

نعم ! مع ما فيه من الاعجاب به والشهادة له بالفهم والبيان . فقد كان قصارى حقه عند صاحبه هذا وعند اصحابه الموسرين جميعاً ان يعجبوا به او يتعجبوا لفتنته وغرائب احواله ، او يساجلوه في الشعر مساجلةً يظهر بها قدرتهم على مجارة شاعر قدير منقطع للشاعرية ، أو يسامروه سمرأً يلهون فيه بحديثه ونوادره ثم يستأذوه الثمن غالباً من صبره وماء وجهه . فأما ما وراء ذلك من نفع ومبرة فليس من حقه عندهم وليس له منه كما قال الا نصيب الملائكة او نصيب الحمير . . وما كان واحد من كبار ممدوحيه عاجزاً عن اغائته واصلاح امره وتدبير عمل له يناسبه لو صححوا النية ولم يساوموه مساومة التاجر الشحيح لياخذوا منه أكثر مما يعطوه . وليأبوا أن يهبوه ما دام في وسعهم أن يمنعوه . ففي قدرتهم كانوا أن يستحضروا النية في اصلاحه وجبر نقائصه وتلافي عيوبه . وفي قدرتهم كانوا أن يجدوا سبباً واحداً على الأقل يوجب هذا الحق عندهم من باب الوفاء أو من باب الرحمة ، بيد انهم لم يجدوه ولا حاولوا ايجاده . . ووجدوا اسباباً شتى لحرمانه واهماله والاعتذار من توجيه الأعمال اليه واتخاذها للكتابة أو النظر في بعض مرافق الديوان :

ونحن نقرأ قوله لابي سهل الذي تقدم ذكره :

أتزعم اني إن توليت قرية

رأيت ازوراري عن صديمي من الفرض؟

وقوله للقاسم :

أركيكاً رأيت عبدك صفراً لا جنسى فيه ؟ ام جنسى شنعاء ؟

فنفهم جملة هذه العلل التي كانوا يعتلون بها عليه ، نفهم انهم كانوا يكرهون توليته لثلاث يستقل عنهم ويعرف له مورداً غير موردتهم او أنهم كانوا يحسبون عليه غرارته ذنباً يجرمه الولاية كما حرمة العطاء وكفالة الرزق من جناية لا يكدرها المن والتسويق ، وهي - ولا مرأى - اسباب طبيعية للحرمان في الحياة نفهمها حين نبحت عن سر حرمانه ، ولكنها لا تصلح عذراً للمتفضل الذي يريد الافضال ولا تعد ميزاناً رفيعاً للمروءة ومكارم الاخلاق . فمن الطبيعي ان ياكل الذئب الحمل وأن يعبث اللئيم بالغيرير وان ينهب المحتال مال الطفل اليتيم والمغتال مال الاعزل الضعيف ، الا أن البون بعيد جدا بين هذه الأسباب الطبيعية في الدنيا وبين معالي المههم ومكارم الاخلاق ، وان هذا البون البعيد

جدا هو مناط الحمد واللوم والشرف والفضة والفضل والقصور .

وكان لفشل ابن الرومي وحرمانه سبب آخر هو فشله وحرمانه . نعم كان فشله وحرمانه سبباً لنفرة الناس منه واتهامهم اياه ، فكانوا يلومونه على بلواه ويعدونها من ذنوبه وخطاياهم : وكان لومهم هذا بلاء فوق بلاء وحسرة فوق حسرة ، وشكايه أشد عليه من سائر الشكايات لانها تحرمه حق الشكاية :

يا رب ما اطول البلاء وما أكثر في أن بليت لوائي
يلومني الناس ان حرمت وما الزمنى الله غير احرامي

فاذا شكاف هو مذنّب ، واذا سكت فالرزئية عنده أعظم من السكوت وهذا ألم ما يُبتلى به المنكوب وأظلمه وأدعاه الى المزيد من نكته وظلمه . . . ولكنه كذلك طبعي مألوف في الناس ، لأنهم لا يكلفون أنفسهم الرأفة بأحد اذا استطاعوا أن يحيلوا عليه جريرة خطايه ! فاذا حرّم فما ذاك الا لأنه محروم مستحق للحرمان بما جناه على نفسه أو بما جناه عليه القضاء ، واذا كان كذلك فهم أولى بالاجفال منه والهرب من عدوى شقائه ! والا فماذا يصنعون له وهو الجاني على نفسه ؟ ثم ماذا يصنعون للقضاء ولا طاقة لهم برد القضاء ؟ فمن حرّم وفشل فليحرم أبداً وليفشل أبداً ، وليكن مصابه حجةً للمزيد من مصابه ودليلاً على شقاء مكتوب عليه ، لا خلاص منه ولا للناس فيه حيلة !

وتضاف الى ذلك الحرمان نكبات متواليات لا يد لمخلوق فيها ولا هي مما يجنيه انسان على نفسه أو يرده انسان عن حوزته ، فتحق عليه تهمة الشؤم وتثبت عليه مطاردة الاقدار . ! فلا رأي للعاقل الا أن يفرّ منه ويلتمس العصمة والأمان بالبعد عنه . . وقد أطبقت على ابن الرومي النكمتان نقمة الفشل والحرمان ونقمة الفجائع في أهله وولده والتلف في زرعه والحريق في ثرائه والضياع في عقاره . فالرجل لا ريب مشؤوم يستعاذ منه ، وطريدة للأقدار لا يجيرها مجير وهو آمن على سربه ، فمن غرر بنفسه وعالج خلاص الطريدة من القدر الذي يتعقبها فهو مبتلى لا محالة بمثل بلائها ، ثم لا يلومنّ الا نحسه ورأياً سخيفاً ، سؤل له التورط في المهالك وخيل اليه أنه مجير من قدرة الله ورادّ لما لا مردّ لحكمه .

وحقّ لأبناء القرن الثالث أن يخافوا المشؤومين وطرداء القدر لأنه كان عصر السعد والنحس والقلاقل والمفاجآت ، مع الايمان بما يصحب ذلك من الخرافات والالوهام ، ولأنه العصر الذي تمت فيه ترجمة الكتب الهندية والفارسية وشاعت بين المسلمين أحاديث النجوم

والطوالع ما كان منها خرافياً كاذباً وما كان من قبيل العلم الصحيح ، وزاد في شيوع تلك الأحاديث أن الدولة كانت يومئذ للفرس وأن آداب المجالس في قصور الملوك والشرفاء كانت آداب الفارسية والناشئين في البلاد الفارسية ، وكانت لهؤلاء ساعات للسعود وساعات للنحوس ومقارنات بين الأفلاك يطيب معها الطعام والشراب تارة ولا يطيبان تارة أخرى ، بل كان لكل شيء في الأرض والسماء حسابه وأرصاده وبشائره ونذره ، فلا يسافر المسافر ولا يتحرك العامل إلا بعد استشارة للنجوم وموافقه لارصاد الطوالع ، ولا عجب أن يدرج الفرس على ذلك وهم أمة عبدت الكواكب زماناً وجعلت لها صفات الخير والشر وأسندت إليها تدبير الحوادث وتحويل الدول وتقدير المقادير .

وكأنما شاءت الأقدار أن تهيء للقرن الثالث كل أسباب العناية بالنجوم فظهر في أوائله مذهب « هالي » الذي رأيناه هنا في دورته الأخيرة قبل نحو عشرين سنة ، والذي قال فيه أبو تمام في تلك الأيام .

وخوفوا الناس من دهياء داهمة	إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة	ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة	ما دار في فلك منها وفي قطب

وليس يصعب علينا أن نتمثل كيف يكون أثر ذلك المذهب المرهوب أول ظهوره في زمان كذلك الزمان وبين أناس كأولئك الأناس قد غلب عليهم الاشتغال بالتنجيم صادقهم ومكذوبه وكثر بينهم جداً من يعلقون حوادث الأرض بأنباء النجوم .

ولقد تردد ذكر السعود والنحوس وأسماء الكواكب في كلام شعراء القرن الثالث والقرن الذي بعده من أثر هذه العوامل كلها فألمع إليها أبو تمام والبحري مراراً وأفرط ابن الرومي في الإشارة إليها لأنه كان أعلم من صاحبيه بهذه المطالب . وتمادى الأمر بمن بعدهم حتى أصبح درس النجوم فريضة على كل رجل مثقف مطلع على آداب زمانه ولو كان كالمعري مكفوف البصر غير صالح للتوسع في هذا الباب . فكان رهن المحبسين يذكرها في سقط الزند واللزوميات ويصف مواقعها ويتكلم عن مقارناتها كأنه فلكي مشغول بصناعته وليس بأديب ضرير واضح العذر في جهل هذه الصناعة .

ثم اتفق أن راجت عقيدة النجوم في الأسرتين اللتين علق بهما ابن الرومي وكان لهما نصيب من شعره ومدحه وعتابه أكبر من نصيب سائر عمودحيه : نعمي أسرة بني طاهر وأسرة

بني وهب ، وهما أقوى وأغنى من حكم في ذلك الزمان من الأسر التي تصرف في الدولة
وتصدى أبناءها للمدح والعتاء وتولية الأنصار وعزل الخصوم ، فلما مات محمد بن عبد
الله بن طاهر وخسف القمر تحدث أهله وتحدث الناس أن القمر خسف لموته ، وكتب
ذلك المؤرخون فيما كتبوا من تاريخه ، وذكره ابن الرومي في بعض شعره فقال :

بات الأمير وبات بدر سائنا هذا يودعنا وهذا يكسف
قمر رأى قمراً يجود بنفسه فبكى عليه بعبرة لا تدرف

وكسفت الشمس مرة فخاف القاسم بن عبد الله (بن سيان بن وهب) أن يكون
كسوفها مؤذناً بموت عظيم في الدولة وهلع لذلك فكان ابن الرومي هو الذي هدا روعه
ونصح له باللهم والسماح للتسرية عن نفسه وكتب اليه :

لا تهولئك شمس كسفت دون أن تطلع من مغربها
هان ذاك الرزء فيها مثلاً هان ما عزك من مطلبها
هي نار وافقت مطفئها لست بالآيس من ملهبها
فابك من تشفق من معطبه فلقد أومت من معطبها
ضل بك أن أبيخت جمرة سوف تذكها يدا مثقبها
ليس للشمس إذا ما كسفت غير شمس تخلف الشمس بها
من بنات الروم لا يكذبنا لوها المشرق عن منصبها

وإنها لفكاهة مضحكة من فكاهات الخطوب أن يكون ابن الرومي مهديء روع في هذا
وهو أحوج إنسان إلى من يهديء روعه ويذهب عنه الوجل من نذر الزمان وعلاماته !!

فالخوف من شؤم صاحبنا كان من أقوى أسباب فشله واجتنابه ، وفي بعض معاتباته
إشارة صريحة إلى تطير أبناء طاهر وأبناء وهب من هذا الشؤم واجتنابهم إياه بعد أن جاءتهم
الدولة وزخرت لهم النعمة ، مخافة على سعودهم أن يدركها طائف من شقائه ونحسه ،
فكان يقول لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر يدفع عن نفسه هذه التهمة :

نحن ميامين على أننا على أعاديك مشائيم
لما دخلنا دخلت نعمة كان لها حولك تحويم
ولم يفخمك الذي نلته بل للعطايا بك تفخيم

وكان يقول للقياسم بن عبيد الله :

طلعت بأيمن ما طائر عليكم وأسعد ما طالع
فجاءتكم دولة غضة تفيأ في ثمر يانع

وكأنما كان حاسدوه ومزاحموه يعرضون بشؤمه لبنى وهب وينسبون إليه ما يكره الوهبيون من رحلة أو مشقة ، فكان يبرأ إليهم ويسرع إلى تفنيد ما نسبوه إليه قبل أن يحسب عليه ، وما هو في حاجة عندهم إلى اختلاق الذنوب :

ولقد خفت والبريء ملقى كل ذنب برأسه معصوب
أن يقول الوشاة بي إن شؤمي قاد هذا الشخصوص ، والافك حوب
وجوابي أن لم يغيبوا وشاهد ت فزالت مخاوف ونكوب
أنا من لا يشك في اليمن منه أو يمين ابن فجرة ويحوب
جئت والدولة السعيدة خلفي رأسها في مقادتي مجنوب

فحسب الانسان في ذلك العصر أن تلوح عليه شبهة من السعد أو النحس فيقال إنه مسعود أو منحوس ، ثم تلزمه التهمة وتلصق به طول حياته وتشتد لصوقاً به إذا كان في أحواله وأخلاقه ما يغري الناس بالالحاح فيها والاصرار عليها . وهل كان شيء من ذلك ناقصاً عند ابن الرومي ؟ كلا ! بل عنده كل شبهة النحس لأنه كان عالماً ذكياً ولا حظوة ولا جاه ، فما الذي يحول بينه وبين حظوة أمثاله إلا أن يكون الجد العاثر والطارع المشؤوم ؟ ولأنه فقد أباه وأمه وأخاه وزوجته وأبناءه وعاش بعدهم كثيراً حزناً مستهدفاً للبلاء من الأيام والناس . وهل يفقد كل هؤلاء ويعيش بعدهم في تلك الحال الا المنكود المرزأ المنحوس ؟ ولأنه مني كما رأينا بالجراد في ضيعته والحريق في ماله والضياع في عقاره . وهل يمني بذلك - مع مصائب الموت والضعف - إلا من شمله النحس في شبكة لا نجاة منها لمشبوك ؟

ثم هل كان ابن الرومي مبرأ من تلك الخلائق التي تغري به أهل العبث والمجون فيلحون عليه بتهمة الشؤم ويتفكهون بما يؤلمه من ذلك ويؤذيه ؟ لا ! بل كان الرجل أول المتفائلين المتشائمين وأول من يسوغ للناس التباشر والتطير ، ولزمته الحجة من ذكائه وإدبار حظه ومن مصائبه في ذويه وصحبه ، فكان الذكاء نكبة عليه تعد في النكبات ، والمصائب ضعفين ما يصيبه من شرها وما يصيبه من سمعة نحسها وولع العابثين بالسخر منها ، وانه لمصاب عظيم . . .

ولقد رأينا أن أخاه أبا جعفر كان يكتب لرجل فعزل الرجل بعد مدة فعبث به أصدقائه
آل أبي شيخ وقالوا له : « إنما عزله شؤمك » كأن حديث الشؤم والسعد كان حديثهم في
كل نكبة وفي كل نعمة ، ولو أنصف القوم لكانوا كلهم مشؤومين منحوسين إذ كانوا كلهم
قد فجعوا في الأصحاب والأنصار وشهدوا نكبات الأخيار والأشرار . وإذ كان ابن الرومي
قد فقد أعداءه كما فقد أحبابه فلا فضل لشؤمه على سعده ولا رجحان لطوالع الخيرات فيه
على طوالع الشرور . ولكنها الحظوظ التي لا تعرف القسط في الموازين !! ومن الحظوظ
التي ألعنا بأسبابها أن يكون ابن الرومي منترداً بسمعة الشؤم في ذلك العصر دور سائر
المشؤومين !!

وسواد الناس لا ينصفون مختارين ، ثم هم لا ينصفون إذا كان الانصاف يكلفهم واجباً
أو يحرمهم فكاهة يضحكون منها ! فليس لابن الرومي إذن إلا أن يبوء وحده بجريرة
ضعفه وعقائد زمنه ، فغاية الحكم فيه أنه ولد مقضياً عليه بالفشل وعاش في زمن لا رحمة
فيه لمثله ، ووجب أن يترك لقضائه يصنع به ما لا حيلة في دفعه .

إن من الباحثين من يرى أن رجال الفنون في الجماعة الانسانية كالأطفال في الأسرة لا بد
لهم من رعاية تكتنفهم وأمداد قومية تغنيهم عن السعي لأنفسهم ، لأنهم لا يحسنون حيل
السعي ولا يجيدون عملهم إذا تفرغوا لممارسة العيش وإتقان حيله ، فإذا التمس هؤلاء
الباحثون مثلاً يدعمون به رأيهم فما نخلهم يجدون في تاريخ الآداب مثلاً أصح من شاعر
كابن الرومي في زمان عجيب متناقض كأواسط القرن الثالث للهجرة .

طيرته :

الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشئ من ضعف الأعصاب واختلالها الذي أشرنا إليه في الكلام على مزاج الشاعر ، إلا أنها خوف خاص له بواعثه وأعراضه ، وهي في ابن الرومي خلة خاصة قد بلغت مداها ولبست ألواناً غير ألوانها في أكثر المتطيرين ، بحيث وجب أن نفردها بالبحث في هذه الكلمة ببعض التفصيل . .

فأصل البواعث التي أصابت ابن الرومي بداء الطيرة هو اختلال الأعصاب قبل كل شيء .

فالرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم ، لأنه ينتظر من الدنيا خيراً ولا يحس النفرة بينه وبينها ، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها .

وقد تصادفه الحوادث كما تصادف الناس كافة فتقع على نفسه موقعاً خفيفاً يملك معه عزمه ويضبط معه شعوره ، فهو في غنى عن الحذر والتوجس مذ كان يلقي الخطر - حين يلقاه - بعدة كاملة ونفس مطمئنة ، لا يتسلف الفزع منه قبل وقوعه ولا يفرط في الفزع منه متى وقع واستحال عليه دفعه . وقد تؤدي به هذه الطمأنينة إلى نقيض الطيرة ، فيحتجب عنه الخطر الصحيح والمتوهم على السواء ، ويستسلم للأمن الصادق والكاذب استسلام المتطير لكاذب الخوف وصادقه وظاهر الوهم ومكنونه ، فهو أبداً في حالة سلم وأمان ، إذ يكون المتطير أبداً في حالة حرب وارتياب .

هذه طبيعة السليم من حيث التطير خاصة والخوف من الطوارئ عامة

أما تختل الأعصاب فالصغائر مكبرة في حسه والأشباح والأطياف كثيرة في وهمه ، يتخيل ويتوهم ، ثم يفزع مما يتخيل ويتوهم ، ثم يزيده الفزع من الأخيلة والأوهام . فان كان إلى ذلك شاعراً وكان خياله قوياً فللطيرة فيه معين لا ينضب من الخلق والابتكار والطوارق .

وتتوارد عليه المنبهات - وكل طارق في الدنيا منبه لأصحاب هذا المزاج - فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ويلمح المخاوف حيث لا يلمحها الآخرون . كما هو الشأن في كل مستحضر للحذر متوقع للمفاجأة .

فأنت تسير في الطريق المأمون فلا تزعجك نبأ ولا يلفتك ما قد يوجب التلفت . ولكنك

إذا أدلجت في الأجمة المراهوبة واستحلكت الليل حولك خيل إليك أنك تسمع في كل همسة فحيح أفعى وفي كل نفخة همهمة أسد وفي كل خبطة تليك هجمة عدو ينتحيك بمكروه ، وما اختلف على حسك بين الطريق المأمون والاجمة المراهوبة إلا اختلاف التوقع واستحضار الحذر من كل مجهول غير منظور ، وذلك هو موضع الاختلاف بعينه بين المتطيرين وغير المتطيرين .

ولقد كان ابن الرومي أوعى لنفسه من أن تخفى عليه طبيعة الحذر المركبة فيه : فهو يشعر من دخيلة طبعه بأنه حذور ، ويعلم ألا مفر له من الحذر فيتخذ من الضرورة فضيلة - كما يقولون - ويزعم أن الحذر باب الأمان :

فأمن ما يكون المرء يوماً إذا لبس الحذار من الخطوب
ويحتاج لذلك بحجج كثيرة من القرآن والحديث والمنطق والروايات كما مر بك في أخباره ، ثم لا يشك في أنه محق مصيب ضعفت حجته أو قويت وصدقت محاذيره أو كذبت . لأن الحجة في العقائد الشعورية تلحق العقيدة ولا تسبقها ، وتؤكد لها إذا وافقتها ولكنها لا تفند لها إذا عارضتها .

ومن روافد الطيرة في ابن الرومي ذوق الجمال وتداعي الخواطر فالنفس المطبوعة على ذوق الجمال تفرح وتهلل للمناظر الجميلة السوية وتنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشائنة . ويصاحب الفرح الأقبال والاستبشار والرغبة ، ويصاحب النفور الحزن والانكار والتشاؤم والكراهة ، وليس أقرب من المسافة بين النفور والطيرة إذا دق الحس وغلب عليه الحذر وأصبح الانقباض عنده نذيراً يشيه ويقتضب عليه طريق أملة .

أما تداعي الخواطر فصاحبه أبداً يستخرج من الكلمة أو الفكرة غاية ما تؤدي إليه وتتقلب عليه : ومتى كانت طبيعته الحذر ومزاجه مركباً على التشاؤم فليس أسهل من اتجاه خواطره السريعة إلى حيث ألقت طبيعته واستمر مزاجه .

فلكل كلمة عنده سر ولكل سر مخافة ! ويسير عليه أن يعرف ذلك السر ويكشف تلك المخافة لأنه سريع حركة الذهن يتنقل كومضة البرق بين المعاني ومشابهاتها ومناقضاتها وبين الكلمات وما يجانسها ويشاكل حروفها وأوزانها ، فلا يشق عليه أن يعثر بطلبته الموافقة لنزعة طبعه ومتوجه ذهنه عند معنى من تلك المعاني ومشاكله من تلك المشكلات .

وذوق الجمال وتداعي الخواطر كانا في ابن الرومي على أدق وأيقظ ما يكونان في إنسان . كانت له عين خاطفة تلتهم الألوان والأشكال التهام الجائع المنهوم الذي لا يشبع . وقد

عرفنا أمثلة من ذلك في دقة تشبيهاته وإحكام صوره وغرابة التفاته إلى مواقع للنظر لا يلتفت إليها شاعر غيره : وسنعرّف أضعاف ذلك عند الكلام على عبقريته وفنه وأسلوبه في تناول الحس وتصويره .

ثم كان مع هذه النظرة الخاطفة يشناً القبح ومحسبه ذنباً يُعاف ويُستر ، وكان يبالغ في إخفائه من نفسه إذا ابتلي به كما كان يبالغ في إخفاء صلعه والسخط على من يسألونه عنه ! فالقبح عنده شر أو نذير بالشر ، ولا يرى الأحذب أو الأعور أو الخصي أو الأشقر الذي يحكي لون وجهه لون الجلد المسلوخ أو غيرهم من المشوهين الخارجين عن سواء الخلقة إلا انقبضت نفسه وأسرع إليه ما يلزم الانقباض من التوجس والخذر والوجوم .

وتداعي الخواطر ملحوظ في جميع شعره لا يستدل منه بغرض دون غرض ولا بقصيدة دون قصيدة ، فهو يُسلسل المعنى ويشعبه حتى يُستنفد ، وكلما عنّ له خاطر لحق به ما يقاربه وما يناسبه حتى تبطل المناسبة ويضطر إلى الوقوف . هذا في المعاني . أما في الألفاظ فانه يغوص في تصحيف حروفها مثل هذا الغوص ويستخرج البعيد والقريب من رموزها وقراءتها ويستنبط منها ما يشاء من ملامح اليمن والشؤم ودفائن المدح والذم . . فجعفر عنده تساوي « جاع وفر » والخان يذكره بالخيانة .

فكم خان سَقَر خان فانقض فوقهم

كما انقض صقر الدَّجَن فوق الأراب

ويلعب بتصحيف الكلمات في السمع والخط أحياناً لينقلها إلى المدح أو الهجاء فيقول في القيان :

لا تلح من تفتنه « قينة » فان تصحيف اسمها « فتنة »
ويقول فيمن اسمه ابن « هرثمة » .

عائذُ دهره إذا سطع النقد مع بمعنى مصحف اسم أبيه
وتصحيف هرثمة هو « هزيمة » .

ويجعل عمر « عيراً » بقوله :

يا عمرو لو قلبت ميم مسكنة ياء محركة لم تخطيء الفقر
أو يفعل ذلك في الاسم الواحد معناً أشد الامعان في استخراج التصحيف للمدح والذم

كما فعل في اسم اسحاق مادحاً وهاجياً فقال وهو يمدح :
 واسلم أبا اسحاق لابس غبطة وعداك للابعاد والاسحاق
 وقال وهو يهجو وأبعد جداً في تصحيفه :

يا أبا اسحاق واقلب نظم اسحاق وصحف
 واترك الحاء على حا ل فما للحاء مصرف
 يشهد الله لقد أصبح ت عين المتخلف
 فتبدل اسم « اسحاق » بعد قلبه وتصحيف قافه فاء وسينه شينا واثبات حائه على حالها
 فخرج من هذه العملية الطويلة « فاحشا » . . . وليس بينه وبين الأصل صلة كما ترى إلا
 ما عرض له من التصحيف والتحريف من أبعد طريق .

وقد يذهب ذهنه إلى الصورة التي تنقلب إليها الأسماء بعد اللغ المضعف كما قال في أبي
 علي بن أبي قره :

أنت عبدي وشيخك السنيذ لما جد لا شك صادقاً الكنيتين
 ليس في منطق الفصيح ولكن حين يحكيكما أخو لثغتين
 مبدلٌ لام كل لفظ بياء مبدلٌ قاف كل لفظ بغين

فيصبح علي بن أبي قره في لغة الأثغ وهو عبي بن أبي غية بكسر الغين ! ولولا السرعة في
 تداعي الخواطر وخلق المناسبات لما وصل إلى هذا التصحيف في الاسمين .

وقد يعكس اللفظ ليستخرج منه فالاً لغيره كما صنع بكلمة « سَكَّان » حين انحدر العللاء
 ابن صاعد يريد واسطاً فتحركت ريح الجنوب حركة عظمت معها الأمواج فانكسر السكان
 فرجع . فقال ابن الرومي :

رأيت منكسر السكان ظاهره هول وتأويله فال لمنجاكا

.....

لأن لفظة « سكان » اذا قلبتْ حروفها « ناكس » لا شك في ذاكا

وان عقلاً كهذا العقل المطبوع على سرعة التنقل بين المعاني والالفاظ وما يتفرع عليها
 ويتسلسل منها ليس بالغريب أن يهتدي إلى مكان الطيرة والشؤم في كل معنى وكل
 كلمة ، ولا سيما إذا رانت على نفسه الخيبة وقدر الفشل في كل خطوة واقترن ذلك

بالاحساس المتوفز المتربص الذي لا تضبطه عزيمة ولا تحكمه صرامة في الفطرة .

وتداعي الخواطر بهذه السرعة من الحالات التي تتقارب فيها العبقرية والجنون كما تقدم في الكلام على مزاج الشاعر ، فيشب العبقرى في لمحة عين من المعنى الى شبيهه أو نقيضه ويصل بين القطبين البعيدين بسلسلة من المشابهات والمناقضات دقيقة الحلقات لا يتبينها الناظر الا بعد التوضيح والجهد الجهد في التنبه لداخلها وتعقب أوصالها والجري معها جرياً يتعبه ولا يسره لأول وهلة . وتسمع المجنون يتكلم فاذا هو يخلط ويأتي بالمفارقات ولكنه في داخل ذهنه يجمع بينها بمناسبات تقرب منها ما نأى وتؤلف ما تبعر ، غير أن الجنون عقيم منبت والعبقرية مثمرة نافذة . وهذا هو الفرق الكبير بين الشذوذيين المتناقضين أي بين أسمى ما يرتقي اليه الذهن وأوضع ما ينحدر إليه .

واليك مثلاً هذه الأبيات التي قالها ابن الرومي في هجاء ابن طالب الكاتب :

أزيرق مشؤوم أحيمر قاشر	لأصحابه ، نحسُّ على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخَ الا وفعله	لفعل نذير السوء شبهً مقارب
وهل يمارى الناس في شؤم كاتب	لعينه لون السيف والسيف قاضب
ويدعي أبوه طالباً وكفاكم	به طيرة ان المنية طالب
ألا فاهربوا من طالب وابن طالب	فمن طالب مثليهما طار هارب

فبهذا المثل نستطيع أن نتبع مداخل الطيرة الى نفس ابن الرومي من جانب « ذوق الجمال » ومن جانب « تداعي الخواطر » في وقت واحد ، ونستطيع أن نراقب ذهنه وهو يعمل في حركته السريعة بين الأشكال والألوان والألفاظ والمعاني كما نراقب البنية الحية وهي تعمل من وراء المجاهر والكواشف . فانظر الى لون الوجه « الاحيمر » القاشر والى نذير السوء والبلاء أين هما وماذا يجمع بينهما من الصلة والمناسبة ؟ لا صلة ولا مناسبة ! ولكن ضع بينهما المريخَ ولونه الأحمر ثم ضع مع المريخ ما اقترن به في الاساطير من خصائص الحرب والفتنة تنتظم العلاقة وتنعقد المناسبة من جميع أطرافها ، وقل مثل ذلك في لون العين ولون السيف القاضب ! وفي « الطالب » الذي لا يقابله الا « الهارب » وفي « الطلب » الذي يعقد الشبه بين الموت وذلك الكاتب ! وفرّق هذا كله فاذا هو أبعد المتفرقات . . واجمه كما جمعه ابن الرومي فاذا هو أقرب المناسبات وألزم العلاقات .

ولقد ضاعف العصرُ ما في نفسه من الاستعداد للطيرة من هذه الجوانب الكثيرة فاستعصى عليه علاجها وسهلت عليه مطاوعتها والاغراق فيها . فقد كان أصح الأصحاء في عصره

يصدق الطوالع ويؤ من بالسعد والنحس والتفاؤل والتشاؤم ، فرعم ابن الرومي أن الطيرة موجودة في الطبائع وأنه ما من أحد إلا يتفائل بأشياء ويتشاءم بأشياء ويتخذ العلامات من ظواهر الزمان لخفاياه ، ومن فلتات لسانه لما في دخائل ضميره !

وكثر التصحيف في زمنه ، بل كثر في بيت من بيوت الرؤساء التي اتصل بها وتردد عليها في مجالس سمرها ولهوها ، وهو بيت بني طاهر ولاية الحكم في خراسان والشرطة ببغداد . ومن رؤوسه عبد الله بن طاهر الذي قال ملغزاً في اسم ظريف :

اسم من أهواه اسمٌ حسن فاذا صحَّفته فهو حسن
فاذا أسقطت منه فاءه كان نعتاً لهواه المختزن

الخ الخ . . .

ومن رؤوسه عبيد الله الذي كان يعرض الشعر على ابن الرومي ويقترح عليه تصحيفه كما ترى في ديوانه .

فتمكنت عادة التصحيف في ذهنه وجاءت الطيرة فوجدت منها أداة صالحة لخلق دلائل الشؤم واستنباط الاشارات الخفية من ظواهر المعاني والألفاظ .

على أننا - مع توافر هذه البواعث في مزاجه وعصره - نلاحظ أن الروايات التي ذكرت عن طيرته لا ترجع واحدة منها إلى ما قبل الخمسين من عمره ، فرواية ابن المسيب التي يقول فيها ان ابن الرومي فزع من رؤية الحول والعمور في المهرجان ترجع إلى مهرجان سنة ثمان وسبعين ، أي حين كان ابن الرومي في السابعة والخمسين . والنوادر التي حكيت عن الأخفش لا يُظن أنها حدثت قبل نيف وسبعين ومائتين ، لأن الزبيدي يخبرنا أن الأخفش كان له تلاميذ يملئ عليهم هجاء ابن الروم فيه ، ويغلب ألا يكون للعالم حلقة يجلس فيها للتدريس قبل الثلاثين . والأخفش مات سنة ست عشرة وثلاثمائة عن نحو ثمانين سنة ، فكان ابن الرومي في الخمسين حين جاوز الأخفش الثلاثين .

والرواية التي نقلت عن إبراهيم كاتب منروق البلخي وحضرها برذعة الموسوس صاحب المعتضد ترجع إلى أيام المعتضد الذي تولى الخلافة سنة تسع وسبعين ومائتين أي حين بلغ ابن الرومي الثامنة والخمسين فيرحح أن الطيرة الشديدة في ابن الرومي كانت عارضا من عوارض الشيخوخة ، وأنه أفرط بعدما ابتلى من الآلام والأحزان وساورته المخاوف من كل جانب وقل حوله المؤاسي والرفيق ، وللشيخوخة كافة ميل إلى تصديق

الأساطير واستطلاع الغيوب وما يدخل في باب العياقة والزرع على العموم . فابن الرومي في شيخوخته أحجى أن يصاب بهذه العاقبة التي ادخرها له المرض والمزاج والعصر وحوادث الأيام .

إلا أننا يجب أن نحسب هنا حساباً للمبالغة التي تدخل على كل شهرة وتغري الناس باختراع الأقاويل وإضافة النوادر الشائعة عن كل صفة غريبة إلى الشخص الذي يشتهر بتلك الصفة ويتفرد فيها بالظهور . فقد يكون الموضوع من أخبار هذه الطيرة أكثر من الصحيح ، وقد يكون الصحيح مشوباً بالمبالغة والاطناب .

عقيدته

تقدم في الكلام على الحالة الدينية في القرن الثالث للهجرة انه كان عصرًا كثر فيه النحل والمذاهب وقل فيه من لا يرى في العقائد رأياً يفسر به اسلامه ، وبخاصة بين جماعة الدارسين وقراء العلوم الحديثة .

فابن الرومي واحد من هؤلاء القراء لا ننتظر أن تمر به هذه المباحث التي كان يدرسها ويحضر مجالسها ويسمع من اهلها بغير أثر محسوس في تفسير العقيدة . فكان مسلماً صادق الاسلام ولكنه كان شيعياً معتزلاً قدرياً يقول بالطبعيتين ، وهي أسلم النحل التي كانت شائعة في عهده من حيث الايمان بالدين .

وقد قال المعري في رسالة الغفران ان البغداديين « يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية » ثم عقب على ذلك فقال : « ما أراه الا على مذهب غيره من الشعراء » .

ولا ندري لماذا شك المعري في تشيعه لأنه « على مذهب غيره من الشعراء » . فان الشعراء إذا تشيعوا كانوا شيعة حقاً كغيرهم من الناس وربما افراطوا فزادوا في ذلك على غيرهم من عامة المتشيعين ، وانما نعتقد أن المعري لم يطلع على شعره كله فخفيت عنه حقيقة مذهبه ، ولولا ذلك لما كان بهذه الحقيقة من خفاء .

على أن القصيدة الجيمية وحدها كافية في اظهار التشيع الذي لا شك فيه ، لأن الشاعر نظمها بغير داع يدعوه إلى نظمها من طمع أو مداراة ، بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بني طاهر وناحية الخلفاء ، فقد رثى بها « يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علي » الثائر في وجه الخلافة ووجه ابناء طاهر ولاة خراسان ، وقال فيها يخاطب بني العباس ويذكر « ولاة السوء » من ابناء طاهر :

أجنوا بنسي العباس من شئناكم	وأوكوا على ما في العياب واشرجوا ^(١)
وخلوا ولاة السوء منكم وغيبهم	فأحر بهم أن يغرّقوا حيث لججوا
نظار لكم أن يرجع الحق راجع	الى اهلهم يوماً ، فنشجوا كما شجوا
على حين لا عذرى لمعتدريكم	ولا لكم من حجة الله مخرج

(١) وكى القرية ربطها واشرحها صمها والمقصود : اخفوا يا بني العباس ما في صدوركم من بغض العلويين .

فلا تلفحوا الآن الضغائن بينكم وبينهم ، ان اللوائح تنتج
غررتهم ، لئن صدقتم أن حالة تدوم لكم ، والدهر لوانا اخرج
لعل لهم في منطوى الغيب ثائراً سيسموا لكم ، والصبح في الليل مولج

فماذا يقول الشيعي لبني العباس اقصى واصرح في التربص بدولتهم وانتظار دولة
العلويين من هذا الكلام ؟ فقد أندر بني العباس بزوال الملك وكاد يتمنى - او تمنى - لبني
علي يوماً يهزمون فيه اعداءهم ويرجعون فيه حقهم ويطلبون تراثهم وينكلون بمن نكل
بهم : وهواه ظاهر مع العلويين لا مداجاة فيه كهوى كل شيعي في هذا المقام . على انه كان
اظهر من هذا في النونية التي تمنى فيها هلاك اعدائهم ولام نفسه على التقصير في بذل دمه
لنصرتهم :

إن يوالي الدهر اعدام كم فلهم فيه كمينٌ قد كمن
خلعوا فيه عذار المعتدي وغدوا بين اعتراض وارن (١)
فاصبروا يهلكهم الله لكم مثل ما اهلك اذواء اليمن

قرب النصر فلا تستبطوا قرب النصر يقيناً غير ظن
ومن التقصير صوني مهجتي فعل من اضحى الى الدنيا ركن
لا دمي يُسفك في نصرتكم لا ولا عرضي فيكم يمتهن
غير أنني باذل نفسي وان حقن الله دمي فيما حقن
ليت اني غرض من دونكم ذاك ، او درع يقيكم ومجن
أتلقي بجيني من رمى وبنحري وبصدري من طعن
ان مبتاع الرضى من ربه فيكم بالنفس لا يحشى الغبن

وليس يجوز الشك في تشيع من يقول هذا القول ويشعر هذا الشعور ، فانه يعرض نفسه
للموت في غير طائل حبا لبني علي وغضباً لهم واشهاراً لعاطفة لا تفيده ولا تفيدهم ، وقد
كان لا يذكر يحيى بن عمر الا بقلب الشهيد كما ذكره في القصيدة الجيمية وفي خاطرة
اخرى مفردة نظمها في هذين البيتين :

كسته القدا حله من دم فاضحت لدى الله من ارجوان

(١) الان النشاط واظهار القوة

جزته معانقة الدارع بين معانقة القاصرات الحسان

وبعض هذا يكفي في الدلالة على تشييعه للطالبيين واتخاذهم التشيع مذهباً في الخلافة كمذهب الشعراء ، او غير الشعراء . . ولا سيما التشيع المعتدل الذي يقول اهله بجواز امامة المفضول مع وجود الافضل ويستنكرون لعن الصحابة الذين عارضوا علياً في الخلافة ، ومعظم هؤلاء من الزيدية الذين خرجوا في جند يحيى بن عمر لقتال بني العباس .

فهم لا يقولون في نصرة آل علي اشد مما قال ابن الرومي ولا يتمنون لهم اكثر مما تمنى .

ويلوح لنا ان ابن الرومي ورث التشيع وراثته من امه وابيه ، لأن امه كانت فارسية الأصل فهي اقرب إلى مذهب قومها الفرس في نصرة العلويين ، ولأن اباه سماء علياً وهو من أسماء الشيعة المحبوبة التي يتجنبها المتشددون من انصار الخلفاء ، ولا حرج على ابي الشاعر ان يتشيع وهو في خدمة بيت من بيوت العباسيين ، لان مواليه كانوا اناساً بعيدين من الخلافة وولاية العهد وهما علة البغضاء الشديدة بين العباسيين والعلويين ، وقد اتفق لبعض الخلفاء وولاية العهد انفسهم انهم كانوا يكرمون علياً وابناءه كما كان مشهوراً عن « المعتضد » الخليفة الذي اكثر ابن الرومي من مدحه ، وكما كان مشهوراً عن « المنتصر » ولي العهد الذي قيل انه قتل اباه « المتوكل » جريمة ملاحاة وقعت بينهما في الذب عن - حرمة علي - وآله .

ومع هذا لم يخطئ المعري حين ظن أن للشعراء تشيعاً غير تشيع الدين والعصية ، اذ كان الشعراء في كل زمن يؤخذون بالعاطفة وتستجيشهم البواعث الحية التي تمجيش لها القلوب من حولهم ، وكانت العاطفة ابداً مع بني علي حيث كانت المصلحة ابداً مع بني العباس . وقد برز هذا الفارق في مقتل يحيى بن عمر خاصة لانه كان محبوباً معطوفاً عليه لشجاعته ونخوته وكرم نفسه وشبابه وجماله ، وكان معذوراً في خروجه على العباسيين لأنهم حرموه رزقه حتى عز عليه القوت وجاع وارتب وتبين ذلك لأنصاره فكانوا يعرضون عليه الطعام فيأباه ، ويقول : « ان عشنا اكلنا » . . وفي ذلك يقول ابن الرومي من القصيدة الجيمية :

أفي الحق أن يمساوا خصاصاً ، وانتم يكاد اخوكم بطنه يتبعج
وتمشون مختالين في حجراتكم ثقال الخطى اكفالكم تترجح

وليدهم بادي الضوى ، ووليدكم من الريف ريان العظام خدلج
وقد بلغ من حبه في قلوب الناس انه لما قتل التمس قتلته احدى يعالج راسه كما تعالج
رؤ وس القتلى لتحفظ وتنصب فاعياهم ان يجذوه ، وطال بحثهم عنه حتى عثروا برجل من
اراذل السوق رضي ان يصنع بالرأس ما لم يرضه الآخرون . ثم ارادوا نصبه في بغداد ،
فهاج اهلها وماجوا وخيفت الفتنة فانزلوه ولما يكذ يرفع ، ولم يعرف في تاريخ الطالبين
احد حزن الناس لموته واضطربوا كحزنهم واضطربهم لقتل يحيى بن عمر . ففي غضب
ابن الرومي شيء كثير من غضب الشاعرية او من غضب السليقة الحساسة التي لا يسعها
ان تهدأ وتفتر والقلوب حولها جائشة والصدور مكظومة والطباع نافرة . ولا ننس انه رثى
يحيى وهو دون الثلاثين في سن للعاطفة عليها سلطان عظيم وللحزم عليها سلطان
ضعيف .

ولكن اتراه - لولا العقيدة - كان يكرر هذا الغضب ويخرج هذا الخروج عن الحذر؟
اكان يجازف بحياته ويقول في التوبة اشد مما قال في الجيمية التي هيح لها هذا الهياج
وساوره فيها الحزن كما ساور الوف المحزونين ؟

وبعد فيجب أن نذكر في هذا السياق أن ابن الرومي رثى محمد بن عبد الله بن طاهر
الذي تولى حرب يحيى وجلس لقبول التهنة بقتله . ففي هذه الملاحظة ما يجوز أن يلقي
الشبهة على جده في التشيع ولده في الخصومة للمذهب . فاذا اردنا أن نذكر ذلك وجب أن
نذكر معه امورا كثيرة تصحح تلك الملاحظة وترد تلك الشبهة . وهي : أن ابن الرومي لم
يكن قتل لودا في خصومة ولا صارما في عصبية ، وان محمد بن عبد الله بن طاهر مات بعد
مقتل يحيى بثلاث سنوات سكنت فيها سورة الحزن وفترت حدة الغضب ، وان ابناء طاهر
كانوا حماة لابن الرومي بمدحهم ويرثيهم ويختلف الى قصورهم ويدخل فيما بينهم من
منافسة ومصالحة بين اقطابهم . فأولى أن نذكر هنا أنه نسي ذلك كله وهجاهم وثار عليهم
في سورة الحزن فرماهم بما نسميه الآن « الخيانة العظمى » واتهمهم بالكيد لبني علي وبني
العباس على السواء وانهم يأترون بالدولة العربية الاسلامية ليقموا على انقاضها دولة
الفرس القديمة ؟ فقال لهم في القصيدة الجيمية انكم لو امكتكم في الفريقين فرصة . .

اذن لاستقدتم منها وتر فارس وان ولياكم ، فالوشائج اوشج
ابى أن تحبهم يد الدهر ذكركم ليالي لا ينك منكم متوج

واني على الاسلام منكم لخائف بوائق شتى بابها الآن مرتج
وتلك سورة متشيع ناغم لا يبالي ما يقول وقد ملكه الحزن ونسي العواقب وراح يخبط في
تهم وحزازات كان أهونها يطير بالرأس في تلك الأيام .

ويصح أن نذكر بعدما تقدم أن الطاهريين كانوا في بواطنهم متشيعين يضطرون
اضطراً إلى حرب بني علي وقبول التهئة بموتهم كما كان الطالبيون انفسهم يضطرون إلى
شهود محافل التهئة وهم مطويون على الحزن الأليم والثأر المقيم . ويقول ابن الأثير أن
سليمان بن عبد الله بن طاهر انهزم اختياراً في حرب الحسن بن زيد العلوي الذي ثار بعد
مقتل يحيى بن عمر « لان الطاهرية كلها كانت تشيع » . فلما اقبل الحسن بن زيد إلى
طبرستان تأثم سليمان من قتاله لشدة في التشيع وقال :

نبئت خيل ابن زيد أقبلت حيناً تريدنا لتحسينا الامرينا
يا قوم إن كانت الأنباء صادقةً فالويل لي وجمع الطاهريينا
أما أنا فإذا اصطفت كتابنا أكون من بينهم رأس المولينا
فالعذر عند رسول الله منبسط إذا احتسبت دماء الفاطميينا

وتشيع الطاهريين معقول مرجح لأنهم كانوا فرساً يوافق هواهم هذا المذهب ، ويصلح
عندهم ذريعة لقلب الدولة وتجديد ملك فارس وقيام الدولة الطاهرية . فرثاء الشاعر
رجلاً من الشيعة - على هذا الاحتمال - أمر لا غبار عليه من هذه الوجهة ولا شبهة فيه على
صدق الميل والجد في العقيدة .

وان احق عقيدة أن يجد المرء فيها لعقيدة تجرئه اذا خاف ، وتبسط له العذر والعزاء اذا
سخط من صروف الحوادث ، وتمهد له الأمل في مقبل خير من الحاضر وادنى منه إلى كشف
الظلامات ورد الحقوق ، وكل اولئك كان ابن الرومي واجده على أوفاه في التشيع للعلويين
اصحاب الامامة المنتظرة في عالم الغيب على العباسيين اصحاب الحاضر الممقوتات المتمنى
زواله ، فلهذا كان متشيعاً في الهوى متشيعاً في الرجاء متشيعاً في الرأي الذي وافق الهوى
والرجاء ، وكان « على مذهب غيره من الشعراء » وعلى مذهب غيره من سائر المتشيعين .

أما الاعتزال فابن الرومي لا يكتمه ولا يماري فيه ، بل يظهره اظهار معتز به حريص
عليه ، فمن قوله في ابن حريث :

معتزلي مسر كفر يبدي ظهوراً لها بطون

أرفض الاعتزال رأياً كلا ! لاني به ضنين
لو صح عندي له اعتقاد مادنت ربي بما يدين

يقول : ان ابن حريث هذا يبطن الكفر ويظهر الاعتزال وهو الايمان الصحيح في رأي المعتزلة ، ثم يقول : اتراني إذن ارفض الاعتزال لأن ابن حريث يدعيه ؟ فيجيب نفسه : كلا ! لأنني اضمن به ، واعلم أن عقيدة ابن حريث الباطنة غير الاعتزال ، ولولا علمي بذلك ما دنت ربي بما يدين .

وكان مذهبه في الاعتزال مذهب القدرية الذين يقولون بالاختيار وينزهون الله عن عقاب المجبر على ما يفعل . وذلك واضح من قوله يخاطب العباس بن القاشي ويناشده صلة المذهب :

ان لا يكن بيننا قربى فأصرة	للدين يقطع فيها الوالد الولدا
مقالة « العدل والتوحيد » تجمعنا	دون المضاهين من ثنى ومن جحدا
وبين مستطرفي غي مرافقة	ترعى ، فكيف اللذان استطرفا رشدا
كن عند اخلاقك الزهر التي جعلت	عليك موقوفة مقصورة ابدًا
ما عذر « معتزلي » موسر منعت	كفاه معتزلياً مقترأ صفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبّطه ؟	ان قال ذاك فقد حل الذي عقدا
أم ليس مستأهلاً جدواه صاحبه ؟	أني : وما جار عن قصد ولا عندا
ام ليس يمكنه ما يرتضيه له ؟	يكفي اخا من اخ ميسور ما وجدا
لا عذر فيما يريني الرأي اعلمه	للمرء مثلك الا ياتي السددا

فواضح من كلامه هذا انه « معتزلي » وانه من اهل « العدل والتوحيد » وهو الاسم الذي تسمى به القدرية لانهم ينسبون العدل الى الله فلا يقولون بعقوبة العبد على ذنب قضي له وسبق اليه ، ولأنهم يوحدون الله فيقولون ان القرآن من خلقه وليس قديماً مضاهياً له في صفتي الوجود والعدم . وقد اختاروا لانفسهم هذا الاسم ليردوا به على الذين سموهم « القدرية » ورووا فيهم الحديث « القدرية مجوس هذه الامة » فهم يقولون : ما نحن بالقدرية لأن الذين يعتقدون القدر أولى بان ينسبوا اليه . إنما نحن من أهل العدل والتوحيد لاننا ننزه الله عن الظلم وعن الشريك .

واضح كذلك من كلامه انه يعتقد حرية الانسان فيما ياتي من خير وشر ويحتج على زميله بهذه الحجة فيقول له لم لا تثبيني ؟ ان قلت ان القدر يمنعك فقد حللت ما اعتقدت من

اختيار الانسان في افعاله ،

وان قلت انك لا تريد فقد ظلمت الصداقة واخللت بالمروءة .

وله عدا هذا أبيات صريحة في اعتقاد « الاختيار » وخلق الانسان لأفعاله كقوله :
لولا صروف الاختيار لاعنقوا لهوي ، كما اتسقت جمال قطار

وقوله :

أنى تكون كذا وأنت مخير متصرف في النقض- والامرار

وقوله :

الخير مصنوع بصانعه فمتى صنعت الخير اعقبكا
والشر مفعول بفاعله فمتى فعلت الشر اعطبك

إلا انه كان يقول بالقدر في تقسيم الأرزاق وأن :

الرزق آتٍ بلا مطالبة سيان مدفوعه ومجتذبه

ويقول :

أما رأيت الفجاج واسعة . والله حيا والرزق مضمونا

ولا تناقض عند القدرية في هذا لأنهم يقولون بالاختيار فيما يعاقب عليه الانسان ويثاب
لا فيما يناله من الرزق وحظوظ الحياة . ومن العزاء لابن الرومي ان يكون الرزق مضموناً
مقدراً لأنه امان له من مخاوف الغد المجهول وراحة من إلقاء التبعة على نفسه فيما اصابه من
الخذلان والتخلف .

اما القول بالطبيعتين فأوضح ما يكون في قوله :

فينا وفيك طبيعة أرضية تهوي بنا أبدا لشر قرار
هبطت بآدم قبلنا وبزوجه من جنة الفردوس افضل دار
فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها من تلكم الجنات والانهار
بشئت لعمر الله تلك طبيعة حرمت ابانا قرب أكرم جار
واستأسرت ضعفى بنيه بعده فهم لها اسرى بغير اسار
لكنها مأسورة مقسورة مقهورة السلطان في الاحرار
فجسومهم من اجلها تهوي بهم ونفوسهم تسمو سمو النار

لولا منازعة الجسوم نفوسهم نفذوا بسورتها من الاقطار^(١)
او قصرها فتناولوا بأكفهم قمر السماء وكل نجم سار

وكأن الفارسية هنا تسربت إلى اقوال المعتزلة كما تسربت إلى كثير من افكار الثقافة العربية ، فان القول بالطبيعتين من أقدم ما عرف من ديانة الفرس قبل اديان بني اسرائيل وقبل النصرانية والاسلام . فلما جاء التوحيد الاسلامي ابطل الثنية ولم يبطل النزاع بين الخير والشر والنور والظلام ، فجاز للمسلم أن يؤمن بالطبيعتين على ان يؤمن بالوحدانية ولا يشرك الشر في تدبير الوجود .

والى هنا تكلمنا عن مذهبه ولم نتكلم عن « فطرته الدينية » او عن قوة الايمان في نفسه .

والفرق بين الامرين لا يحتاج إلى شرح طويل . فان الناس قد يختلفون في المذهب أبعد اختلاف ويتفقون في « الفطرة الدينية » اقرب اتفاق ، فرمما رأيت ألف رجل يدينون بكل مذهب في فجاج الأرض وهم على الرغم من ذلك أصحاب « فطرة دينية واحدة » مطبوعون على حماسة الدين أو مطبوعون على حب التقديس والعبادة ، يتفقون في هذه الفطرة ، ويخرج كل منهم إلى معبده فاذا واحد منهم ذاهب إلى المسجد والثاني إلى الكنيسة والثالث إلى البيعة والرابع إلى بيت الأصنام ، او يتفقون على هذه الفطرة ، ويخرج كل منهم إلى قتال الآخرين بتلك الغيرة القوية التي يقاتل بها أولئك الآخرون . فالفطرة الدينية توجد في انصار كل مذهب وملة ، اما المذهب والملل فلا نهاية لها في التعدد والافتراق .

وابن الرومي كان مفطوراً على التدين لانه كان مفطوراً على التهيّب والاعتماد على نصير ، وهما منفذان خفيان من منافذ الايمان والتصديق بالعناية الكبرى في هذا الوجود . ومن ثم كان مؤمناً بالله خوفاً من الشك ، مقبلاً على التسليم بسيطاً في تسليمه بساطة من يهرب من القلق ويؤثر السكينة الى شيء من الاشياء ، وبلغ من بساطته انه كان ينكر على الحكماء شكهم في حفظ اجساد الاتقياء بعد الموت وحسابه من فعل الدواء والحنوط . فقال لابن ابي ناظرة حين تذوق بعض الاجساد ليعلم ما فيها من عوامل البقاء .

يا ذائق الموتى ليعلم هل بقوا بعد التقادم منهم بدواء
بينت عن رعة وصدق امانة لولا اتهامك خالق الاشياء

(١) اقطار السموات .

احسبت ان الله ليس بقادر ان يجعل الاموات كالاحياء
وظننت ما شاهدت من آياته بلطفة من حيلة الحكماء
ومات وهو يقول في ساعاته الاخيرة :

ألا إن لقاء الله هـ هول دونه الهول

وما كانت الطيرة عنده الا شعبة من ذلك « التهييب » الديني الغريزي فيه . فهو يتفلسف
ويرى الاراء في الدين ولكن في حدود من الشعور لا في حدود من التفكير ، ولهذا كان
الفنان ولم يكن الفيلسوف .

وليس من « الاجتراء » انه قال بالاختيار ، ورأى له في الدين رأياً غير ما اصطلاح
عليه السواد . فانه كان يحيل الذنب على الانسان وينفي الظلم عن القدر في العقاب
والثواب ويتصور الله على احسن ما يتصور المتفلسف مثله إلهه ، فكأنما جاءه هذا الرأي من
محابة عالم الغيب لا من الاجتراء عليه ، وانما دفع به الى رأي المعتزلة مخاوف الشكوك التي
كانت تخامرهم فلا يستريح حتى يسكن فيها الى قرار وينتهي من التفكير فيها الى بر الامان ،
ولذلك كان يأوي الى الاصدقاء يكشفهم بما في صدره ويستعين بهم على تفريج غمته :

ويدمج اسباب المودة بيننا مودتنا الابرار من آل هاشم
واخلاصنا التوحيد لله وحده وتذيينا عن دينه في المقاوم
بمعرفة لا يقرع الشك بابها ولا طعن ذي طعن عليها بهاجم
وإعمالنا التفكير في كل شبهة بها حجة تعبي دهاة التراجع
يبيت كلانا في رضا الله ماحضاً لحجته صدراً كثير الهامهم

بيد ان « الايمان » شيء واداء الفرائض الدينية شيء آخر ، فقصارى الايمان عنده انه
يؤمنه بقرب آل البيت وتنزيه ربه والاطمئنان الى عدله ورحمته ، ثم يدع له سبيله يلعب
ويمرح كلما لذ له اللعب والمرح ، ولا أهلاً بالصيام اذا قطع عليه ما اشتهى من لذة
وأرب :

فلا أهلاً بمنع كل خير وأهلاً بالطعام وبالشراب

بل لا حرج عليه اذا قضى ليلة في السرور ان يشبهها بليلة المعراج :

رفعتنا السعود فيها الى القو ز فكانت كليلة المعراج

ذلك انه كان في تقواه طوع الاحساس الحاضر كما كان في كل حالة من حالاته . يلعب

فلا يبالي ان يتاجن حيث لا يليق مجون ، ويستحضر التقوى والخشوع فلا يباريه احد من المتعبدين ، ويخيل اليك انك تستمع الى متعبد عاش عمره في الصوامع حين تستمع اليه يقول .

تتجافى جنوبهم	عن وطيء المضاجع
كلهم بين خائف	مستجير وطامع
تركوا لذة الكرى	للعيون الهواجع
ورعوا انجم الدجى	طالعاً بعد طالع
لو تراهم اذا هم	خطرنا بالاصابع
واذا هم تأوهوا	عند مر القوارع
واذا باشروا الثرى	بالخدود الضوارع
واستهلت عيونهم	فائضات المدامع
ودعوا : « يا مليكنا	يا جميل الصنائع »
اعف عنا ذنوبنا	للولجوه الخواشع
اعف عنا ذنوبنا	للعيون الدوامع
انت ان لم يكن لنا	شافع ، خير شافع
فاجيئوا اجابة	لم تقع في المسمع
« ليس ما تصنعونه	أوليائي بضائع »
« ابدلوا لي نفوسكم	انها في ودائع »

وله من طراز هذا الشعر الخاشع كثير لا تسمعه من ابن الفارض ولا محيي الدين .

هجاؤه :

أخرج القرن الثالث للهجرة شاعرين هجاءين هما أشهر الهجائيين في أدب العصور الإسلامية عامة ، أحدهما ابن الرومي والآخر دعبل الخزاعي هاجي الخلفاء والأمراء وهاجي الناس جميعاً والقاتل :

اني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً
وقد جمع المعري بينهما في بيت واحد وضرب بهما المثل لهجاء الدهر لبنيه فقال :
لو أنصف الدهر هجاء أهله كأنه الرومي أو دعبل

وليس للمؤرخ الحديث أن يضيف اسماً جديداً إلى هذين الاسمين ، فإن العصور التالية للقرن الثالث لم تخرج من يضارعهما في قوة الهجاء والنفاذ في هذه الصناعة ، وكلاهما مع هذا نوع فذ في الهجاء يظهر متى قرن بالآخر . فدعبل كما قلنا في غير هذا الكتاب :

« كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة التي تخرج على « المجتمع » وتثور به ولا تزال في حرب معه لا مسالمة فيها ولا مهادنة إلى أن يوارى الموت في ثراه ، وكان غاضباً أبداً على الناس ينكر عرفهم ويشذ على اجتماعهم ويهجو أفزادهم بأسمائهم ، وهو إنما يهجو الناس جميعاً في أشخاص أولئك الأفراد . . . وكان يهيم على رأسه في البلاد سنين عدة تنقطع فيها أخباره وتخفى آثاره ثم يظهر حيث كان فجأة وقد أثرى وغنم ليبدد ما جمعه في اللهو والقصف ، ثم ينقلب إلى شأنه من الإباق والتطواف في أرجاء الأرض ، وربما لقي الشراة وقطاع الطريق في بعض رحلاته فيجالسهم ويؤاكلهم ويأمر غلاميه أن يغنيا لهم ويعرفهم ويعرفونه فلا يمسونه بأذى ولا يذكرهم بسوء ، لأنهم أبناء نحلة واحدة يؤلف شملهم النفور من الناس ويوفق بينهم الشذوذ عما تواضعوا عليه من الآداب والديساتير . فهو قاطع طريق بفطرنه التي ولد عليها وإن لم يحمل السيف ولم يخرج للفتك والغيلة ، بل لقد قيل إنه قطع الطريق في بعض أيامه فعلا » وانه كان يكمن للناس بالليل فرصد يوما صيرفياً طمعاً بما معه ففتك به ولم يجد في كفه إلا ثلاث رمانات في خرقة فخرج هارباً من الكوفة لاشتداد الطلب عليه » وما كان هجوه لو بحثت في أسبابه إلا ضرباً من قطع الطريق على الناس اشتهاً في أكثر الأحيان للذة الصيد والقنص ونزوة المطاردة والتخويف ، لا طمعاً في المال أو طلباً للثريات . فما اتفق الناس على امام إلا هجاء وألح في

هجائه وإن أحسن اليه وأجزل له العطاء . ولا ترك أميراً ولا وزيراً ولا والياً إلا ناله بلسانه
عرضاً أو قصداً ولو كان من أبناء قبيلته ومن خاصة المفضلين عليه .

« . . . أما ابن الرومي فلم يكن مطبوعاً على النفرة من الناس ولم يكن قاطع طريق على
« المجتمع » في عالم الأدب ، ولكنه كان « فناناً » بارعاً أوتي ملكة التصوير ولطف التخيل
والتوليد وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال ، فاذا قصد شخصاً أو شيئاً بهجاء صوّب اليه
« مصورته » الواعية فاذا ذلك الشخص أو ذلك الشيء صورة مهياة في الشعر تهجوا نفسها
بنفسها وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تنطبع الأشكال في المرايا المعقوفة
والمحدبة ، فكل هجوه تصوير مستحضر لاشكاله أو لعب بالمعاني على حساب من
يستثيره .

هذا هو الفرق بين مذهبي هذين الشاعرين اللذين ظهرا في قرن واحد وأخذوا بطريقي
الهجاء في الآداب العربية .

ولك أن تقول من جهة أخرى ان الفرق بينهما كان فرقاً بين المذهب البدوي والمذهب
الحضري في الهجاء . فقد كان دعبل بدوياً نافرأ بفطرته وكان ابن الرومي حضرياً أنيساً
بفطرته ، فاذا تبرم ابن الرومي بالناس فانما يتبرم بهم تبرم من يالفهم ويأنس اليهم ويعاني
ما يعاني من عشتهم ثم يسخط عليهم لأنه مقيد بهم لا يستطيع الفكاك منهم . فسخطه
أساسه المودة والألفة وليس أساسه القطيعة والنفرة ، كما كان السخط في نفس صاحبه دعبل
الخارج على الجماعة القاطع الطريق .

ولهذا الفرق أثره في موضوع المثلث التي يلقيها كل منهما على مهجويه ، فدعبل يسلب
المهجو جميع الفضائل التي تعتز بها النفس الصارمة البدوية : يسلبه النخوة والكرم والبأس
وطيب التحيزة . ويجعله رجلاً يسمع البدوي صفاته فيقول إنه حقير مردول .

وابن الرومي يسلب مهجوه الفطنة والكياسة والعلم ويلصق به كل عيوب الحضارة التي
يجمعها التبذل والتهالك على اللذات ، فاذا حذف من هجوه كل ما أوجبه الحضارة
والخلاعة الفاشية في تلك الحضارة فقد حذف منه شر ما فيه ولم يبق منه إلا ما هو من قبيل
الفكاهة والتصوير .

والبدوي يخاف الدم والحضري قلما يخافه :

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للثتم

كما قال الرومي في بعض مہجويہ . فالافحاش وليد الحضارة والغلو في الافحاش وليد التہتك في الحضارة ، ومتى غلا الشاعر في القذف بأدناس التبذل والخلاعة فہناك عيبان محققان أحدهما ، لا شك ، عيب البيئة التي أشاعت تلك الأدناس أو جعلت الدم بها ذمماً ہیناً على الاسماع فلا بد فيه للشاعر من المبالغة والاغراق .

والثاني تبحث عنه في قائل الهجو ومُدمنه ، فانه لولا عيب فيه لما اضطر إلى الهجاء ولا آدمه وأفرط فيه .

فما هو عيب ابن الرومي - أو ما هي عيوبه - التي أولعته بالهجاء والافحاش وصيرته عنواناً لزمانه في السفاهة والبذاء ؟ يبدو لنا أن عيبه الأول هو الشهوانية والتہالك على اللذات . فالشہوانية هي التي هونت عليه الاقذاع وسوغت له خوض الفضائح فأوغل فيها غير مستكره ولا متحرج . ثم أعانها الضعف وهو عيبه الغالب عليه الذي تبدأ منه وترجع إليه جميع عيوبه .

ففي هجائه صفة ذميمة يشمئز منها القارىء جداً في كثير من الأحيان ، ولكنها صفة الضعف والخفة وليست صفة الخبث والرداءة ، وقلّ فيه وفي هجائه ما شئت من لوم وتهجين وتأفف ولكنك متى قلت فيه كل ما هو أهله وأقبلت ترد هجاءه إلى بواعثه لم تجد ثمة شراً دخیلاً ولم تخطيء قط أن تجد الحرج والاضطرار وتشعر بأن قائل هذا الهجاء رجل متآلم يدفع الألم عن نفسه وليس برجل السوء الذي يعنيه أن يوقع الألم بغيره ويعتد بإيلاام الناس غرضاً له مقصوداً لذاته .

وهو مع اشتہاره بالهجاء أسلم من غيره حالاً فيه وأكثر عذرا من غير المشہورين به . أسلم من البحتري مثلاً كما قال المرزباني في الموشح :

« وكثير من أهل الاداب ينكر خبث لسان علي بن العباس الرومي ويطعن عليه بكثرة هجائه حتى جعلوه في ذلك أوحداً لا نظير له . ويضربون عن اضافة البحتري إليه وإلحاقه به مع إحسان ابن الرومي في اساءته وقصور البحتري عن مداه ، وإنه لم يبلغه في دقة معانيه وجودة ألفاظه وبدائع اختراعاته أعني الهجاء خاصة . لأن البحتري قد هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحه ، منهم خليفتان : وهما المنتصر والمستعين وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وحاله في ذلك تنبيء عن سوء العهد وخبث الطريقة . ومما قبح فيه أيضاً وعدل عن طريق الشعراء المحموده أنني وجدته قد نقل نحواً

من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها إلى مدح غيرهم وامات أسماء من مدحه أولاً ، مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

« وقال أحمد بن أبي طاهر : ما رأيت أقل وفاء من البحرى ولا أسقط ، رأيت قائماً ينشد أحمد بن الخصيب مدحاً له فيه فحلف ليجلسن ، ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه . ثم أوصل له مديحاً إليه وأخذ له منه مالاً فدفعه إليه ، ثم نكب المستعين أحمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور فلعهدي به قائماً ينشده :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى بافكه المردى وابطاله

.....

يا ناصر الدين انتصر موشكا من كائد الدين ومغتاله
فهو حلال الدم والمال ان نظرت في ظاهر أحواله

ثم قال ابن أبي طاهر : كان ابن العلجة فقيهاً يفتي الخلاء في قتل الناس . نرجه الله .
ثم ختم القصيدة بقوله :

« والسراي كل السراي في قتله بالسيف واستصفاء أمواله »

فالبحتري كان في غنى عن هذا ومندوحة واسعة ، ولكنك قل أن تقرأ لابن الرومي هجاء تقول إنه كان من الوجهة النفسية في غنى عنه .

على أن لصاحبنا فناً واحداً من الهجاء لا ترتاب في أنه كان يختاره ويكثر منه ولو لم تحمله الحاجة وتلجته النقرة إليه ، ونعني به فن التصوير الهزلي والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهية والمشاوآت الدقيقة ، فهو مطبوع على هذا كما يطبع المصور على نقل ما يراه وإعطاء التصوير حقه من الاتقان والاختراع ، وما نراه كان يقلع عنه في شعره ولو بطلت ضروراته وحسنت مع الناس علاقاته . . . لكن هذا الفن أدخل في التصوير منه في الهجاء ، وهو حسنة وليس بسيئة وقدرة تطلب وليس بخلة تنبذ . وأنت لا يغضبك أن ترى ابنك الذي تهذبه وتهديه ماهراً فيه خبيراً بمغامزه وخوافيه ، وإن كان يغضبك أن تراه يشتم المشتوم ويهين المهين ويهجو من يستهدف عرضه للهجاء لأنك إذا منعت أن يظن إلى الصور الهزلية وأن يفن في إدراك معانيها وتمثيل مشابهاها منعت ملكة فيه أن تنمو وأبيت على حاسة صادقة فيه أن تصدقه وتفقه ما تقع عليه ، أما إذا منعت الهجاء وبواعثه فانك تمنع خلقاً يستغنى عنه وميلاً لا بد له من التقويم .

ذلك هو فن ابن الرومي الذي لا عذر له منه ولا موجب للاعتذار ، فأما ما عدا ذلك من

هجائه فهو مسوقٌ فيه لا سائق ومدافعٌ لا مهاجم ومستثار عن عمد في بعض الأحيان لا مستثير . وإنك لتقرأ له قوله :

ما استبَّ قط اثنان إلا غلبا شرهما نفساً وأماً وأباً

فلا تصدق أن قائله هو ابن الرومي هجاء اللغة العربية وقاذف المهجوين بكل نقيصة . لكن الواقع هو هذا ، والواقع كذلك أنه كان يسكن إلى رشده أحياناً فيسأم الهجاء ويعافه ويود الخلاص منه حتى ولو كان مهجواً معدواً عليه ، ويعتزم التوبة عن الهجاء مقسماً :

آليت لا أهجو طوا	ل الدهر إلا من هجاني
لا بل سأطرح الهجا	ء وإن رماني من رماني
أمن الخلائق كلهم	فليأخذوا مني أمانى
حلمي أعز علي من	غضبي إذا غضبي عرابي
أولى بجهلي بعدما	مكنت حلمي من عناني

وهذا أشبه بابن الرومي لأنه في صميمه خلق مسالماً سهلاً ولم يخلق شريراً مطويماً على الشكس والعداوة . بل هو لو كان شريراً لما اضطر إلى كل هذا الهجاء ، أو هو لو كان أكثر شراً لكان أقل هجاءً ، لأنه كان يأمن جانب العدوان فلا يقابله بمثله . وما كان الهجاء عنده كما قلنا إلا سلاح دفاع لا سلاح هجوم ، وما كان هجاؤه يشف عن الكيد والنكاية وما شابهها من ضروب الشر المستقر في الغريزة كما كان يشف عن الحرج والتبرم والشعور بالظلم الذي لا طاقة له باحتاله ولا باتقائه . وكثير من الأشرار الذي يقتلون ويعتدون في الأرض يقضون الحياة دون أن تسمع منهم كلمة ذم في إنسان ، وكثير من الناس يذمون ويتسخطون وهم مطبوعون على الخير والعطف وحسن المودة ، بل هم قد يذمون ويسخطون لأنهم على ذلك مطبوعون .

ومن قرأ مراثي ابن الرومي في أولاده وأمه وأخيه وزوجته وخالته وبعض أصدقائه علم منها أنها مراثي رجل مفطور على الحنان ورعاية الرحم والانس بالأصدقاء والاخوان . فمراثيه هي التي تدل عليه حق الدلالة المنصفة وليست مدائح التي كان يملئها الطمع والرغبة أو أهاجيه التي كان يملئها الغيظ وقلة الصبر على خلائق الناس . ففي هذه المراثي تظهر لنا طبيعة الرجل لا تشوبها المطامع والضرورات ، ونرى فيه الولد البار والأخ الشفيق والوالد الرحيم والزوج الودود والقريب الرؤوم والصديق المحزون . ولا يكون

الرجل كذلك ثم يكون مع ذلك شريراً مغلق الفؤاد مطبوعاً على الكيد والايذاء .
 وإذا اختلف القولان بينه وبين أبناء عصره فاحجى بنا أن نصدق كلامه هو في أبناء عصره
 قبل أن نصدق كلامهم فيه ، لأنهم كانوا يستبيحون إيذائه ويستسهلون الكذب عليه
 لغرابة اطواره وتعود الناس أن يصدقوا كل ما يرمى به غريب الأطوار من التهم
 والاعجاب ، في حين أنه كان يتحاشى عن تلك التهم ويغفر الاساءة بعد الاساءة مخافة
 من كثرة الشكاية وعلماً منه بقلّة الانصاف :

أتاني مقال من أخ فاغترته	وإن كان فيما دونه وجه معتب
وذكرت نفسي منه عند امتعاضها	محاسن تغفو الذنب عن كل مذنب
ومثلي رأى الحسنى بعين جلية	واغضى من العوراء غير مؤنب
فيا هارباً من سخطنا متصلاً	هربت إلى انجى مفرّ ومهرب
فعذر ك مبسوط لدينا مقدم	وودك مقبول بأهل ومرحب
ولو بلغتني عنك اذننى اقمته	لدي مقام الكاشح المتكذب
ولست بتقليب اللسان مصارماً	خليلي ، اذا ما القلب لم يتقلب

فالرجل لم يكن شريراً ولا رديء النفس ولا سريعاً إلى النقمة ، فلماذا إذن كثر هجاؤه
 واشتد وقوعه في أعراض مهجويه ؟ نظن أنه كان كذلك لأنه كان قليل الحيلة طيب السريرة
 خالياً من الكيد والمراوغة والدسيسة وما شابه هذه الخلائق من ادوات العيش في مثل
 عصره . فكان مستغرقاً في فنه يحسب أن الشعر والعلم والثقافة وحدها كفيلة بنجاحه
 وارتقائه إلى مراتب الوزارة والرئاسة ، لأنه كان في زمن يتولى فيه الوزارة الأدباء والكتاب
 والرواة ويجمعون في مناصبهم ألوف الألوف ويحظون بالزلفى عند الأمراء والخلفاء ، وقد
 كان هو شاعراً كاتباً وكان خطيباً واسع الرواية مشاركاً في المنطق والفلك واللغة وكل ما
 تدور عليه ثقافة زمانه ، او كما قال المسعودي كان الشعر اقل أدواته . . وكان الشعر وحده
 كافياً لجمع المال وبلوغ الآمال ، فماذا بعد أن يعرف الناس انه شاعر وأنه كاتب وأنه راوية
 مطلع على الفلسفة والنجوم إلا ان تخبئه الوزارة ساعية إليه تخطب وده كما جاءت إلى اناس
 كثيرين لا يعلمون علمه ولا يبلغون في البلاغة مكانه ؟ ! ألم يصل ابن الزيات إلى الوزارة
 بكلمة واحدة فسرّها للمعتصم وفصل له تفسيرها وهي كلمة « الكلا » التي يعرفها عامة
 الأدباء ؟ بلى ، وابن الرومي كان يعرف من غريب اللغة ما لم يكن يعرفه شعراء عصره ولا
 أدباؤه . فما أولاه اذن بالوزارة وما أظلم الدنيا إن هي ضنت عليه بحقه من المناصب
 والثراء !!

فاذا لم تكن الوزارة فهل أقل من الكتابة أو العمالة لبعض الوزراء والكتاب المبرزين ؟
فاذا لم يكن هذا ولا ذاك فهل غبن أصعب على النفس من هذا الغبن ؟ وهل تقصير من
الزمان الأم من هذا التقصير ؟

ونبوءة أبيه ورجاؤه في مستقبله وقوله له « أنت للشرف » أيذهب هذا كله هباء لايقبض منه
اليدين على شيء ؟ تلك النبوءات التي تنطبع على أفئدة الصغار بمثل النار ولا تزال غرارة
الطفولة وأحلام الصبا تزخر فيها وتوشىها وتعمق في الضمير اغوارها أيأتي الشباب وهي محو
لعو مطموس لا يبين أو لا يبين منه الا ما ينقلب الى الاضداد وترجمه الأيام بالسقم والفقر
والكساد ؟ وكيف يحجب الا وقد محي القلب الذي طبعت فيه ؟ وكيف ينعكس معناه الا وقد
انعكس في القلب كل قائم والتوى فيه كل قويم ؟ ذلك صعب على النفوس وليس بالسهل
إلا على من يلهو به وهو بعيد .

وهكذا كان ابن الرومي يسأل نفسه مرة بعد مرة ويوماً بعد يوم :
مالي أسل من القراب واغمد لم لا اجرد والسيوف تجرد
لم لا أجرب في الضرائب مرة ؟ يا للرجال ! وانسى المهند .

ولا يدري كيف يجيب نفسه على سؤاله ، لأنه لم يكن يدري أن فضائل كلها لا تساوي
فتيلاً بغير الحيلة والعلم بأساليب الدخول بين الناس وأن الحيلة وحدها قد تغني عن
فضائل جميعاً ولو كان صاحبها لا ينظم شعراً ولا ينظر في كتب الفلسفة والرواية
والنجوم . .

حسن ! إذن ندع الوزارة والولاية والعمالة بعد بأس مضيض يسهل علينا هنا أن نسطره
في كلمة عابرة ولكنه لا يسهل على من يعالجه ويشقى بمحتته في كل ساعة من ساعات
حياته ، ندع الوزارة والولاية والعمالة ونقنع بالمتوبة من الوزراء والولاة والعمال إن كانوا
يثبون المادحين . فهل تراهم يفعلون ؟

لا ! لأن الحيلة لازمة في استدرار الجوائز والثوبات لزومها في كل غرض من أغراض
المعاش ، ولا سيما في ذلك الزمان الذي شاعت فيه الفتن والسعيات ، وما كانت تنقضي
منه سنة واحدة بغير مكيدة خبيثة تؤدي بحياة خليفة أو أمير أو وزير . وربما كانت مصانعة
الحجاب والتأمس مواقع الهوى من نفوس الحاشية والندمان واللعب بمغامر النفوس الخفية
واضحك هؤلاء وهؤلاء اجدى على الشاعر في هذا الباب من بلاغة شعره وغرارة علمه ،
وربما كان الوزير لا يثيب الشاعر إلا ليستصلحه كما كانوا يقولون في لغة ذلك الزمان ، أي

ليتخذة نصيراً له عسى أن ينفعه يوماً في مجالس الخلفاء والأمراء بكلمة يقضي بها ما رُبأ أو يكبت عدواً أو بحيلة يقرب بها بعيداً أو يبعد قريباً . وأين يذهب ابن الرومي في هذا المجال ؟ وماذا يرجو الممدوحون من تقرّيبه وهو رجل كما كانوا يقولون عمرو موسى أده أكبر من عقله ولسانه أطول من صبره ؟ لقد كان صاحبنا صفرأً من هذه البضاعة فلا جرم نراه يشكو تكبر الحجاب ودسائس الندماء والأصحاب ويُعطى القليل حين يجزل عطاء الآخرين أو يثاب مرة ويحرم مرات ، فقد بلغ من وكس حاله في هذا أنه كان يستجدي الكساء فيمطلونه ويعود إلى الاستجداء فيعودون إلى المطل حتى يقول :

جعلت فداك لم أسأ لك ذاك الثواب للكفن
سألتكه لألبسه وروحي بعد في البدن

وبلغ من وكس حاله أن الممدوحين كانوا يقبلون شعره ولا يثيبونه فإذا الح في طلب المثوبة قالوا خذ شعرك فامدح به غيرنا كما فعل ابن المدبر حين قال فيه :

رددت علي مدحي بعد مطل وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت : امدح به من شئت غيري ! ومن ذا يقبل المدح الرديدا ؟
ولا سيما وقد اعبقت فيه غنازيك اللواتي لن تبيدا
وما للحي في اكفان ميت لبوس بعد ما ملئت صديدا

وكان يصنع القصيدة ويتبعها خمس قصائد أو ستا ليحصل على جائزتها فلا يحصل بعد الجهد على شيء ، ويعجب لذلك ويأخذ الشك في شعره فيقول :

عجبت لقوم يقبلون مدائحي وينسون تثوبي ، وفي ذاك معجب
اشعري سفساف ؟ فلم يجتبونه ؟ وان لا تكن هذي فلم لا أثوب
ولعله كان يتهم شعره أحياناً فيقول :

الشعر كالعيش فيه مع الشبيبة شيب
فليصفح الناس عنه فطعنهم فيه غيب

أو يعتذر بالفاقة من السخف :

لا تلحني في المنطق السخيف فأنني في حالة اللهيف
واحوج الناس إلى رغي

أو يقول :

قولا لمن عاب شعر مادحه اما ترى كيف ركب الشجر؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليا بر والشوك بينه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما ينجح لى رب الأرباب لا البشر

ثم يعود اليه اعتداده بكلامه فيلقي الذنب على الناس لجهلهم بمعاني الكلام :
ما خمدت ناري ولكنها الفت قلوباً نارها خامدة
أو يقول :

ما بلغت بي الخطوب رتبة من تههم عنه الكلاب والقردة
وما أنا المنطق البهائم والطير سليمان قاهر المردة
أو يقول انهم بهائم لا يفهمون الا البهائم :

بحقهم إن باعدوني وفربوا سواي وتقريب المباعد اوجب
خفافيش اعشاهما نهار بضوئه ولازمها قطع من الليل غيب
بهائم لا تصغي الى شدة معبد واما على جاني الغناء فتطرب

ويخطر له حيناً ان الأمراء يحسدون شعره لأنهم يقرضون الشعر فينفسون الجيد منه على
الشعراء ، ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحاً كما قال :

قد بلينا في دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء
إن أجدنا في مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا في مدحهم انبونا وهجوا شعرنا اشد هجاء
قد أقاموا نفوسهم لذوي المدح مقام الأنداد والنظراء

وكان من هؤلاء محمد بن عبد الله الذي قال فيه :

إخالك اذ جودت فيك مدائحي منعت ثوابي حاسداً لي على شعري
أتحسدني تجويد ريط نسجته لتلبسه ؟ يا للعجيب من الأمر؟
تذكر هداك الله اني مادح وأنك ممدوح فلا تعد بي قدري
ينافس في الشعر النظير نظيره وجل ملوك الناس عن ذلك النجر

فاذا لج به الغيظ واشتد عليه بلاء الحرمان من العمل والحرمان من المثوبة صرخ
متعجباً :

أذو آلة ؟ فاستخدموني لأكتي بقوتي ، والا فارزقوني مع الزمنى

أي ارزقوني مع العجزة والسقماء ، وهذه نهاية البؤس والخبية ونهاية الحيرة التي لا

يهتدي فيها المسكين إلى سبب مريح ، فلم يبق له من عزاء إلا ان يوقن أن الدنيا هكذا
طبعت على ظلم العارفين ومحابة الأغبياء :

رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذي زنة شريفة
كذاك البحر يرسب فيه در ولا تنفك تظفرو فيه جيفة

وكرر هذا المعنى في معارض شتى على قواف مختلفة ، لأنه سكن اليه ووجد فيه عزاءه ولو
إلى حين .

وينبغي أن نذكر هنا شيئاً لا بد من ذكره في هذا المقام لأنه لازم لادراك حقيقة الغضب
الذي كان يستولى على نفس الشاعر المحروم إذا اجاد المديح ولم يظفر بالعطاء ، فقد كان
حق الشاعر في العطاء معترفاً به يقبله الأمراء والوزراء ويقره العرف وتجري عليه القدوة .
فنحن لا نعرف اليوم ذلك الحق للشاعر ولا نستطيع لهذا أن ندرك غضبه وأسفه إذا حرم
وتوالى عليه الحرمان ، أما في عهد ابن الرومي فغضبه من المنع وأسفه على فوات الربيع من
هذه المقاصد أمر لا غرابة فيه ولا اعتراض عليه ، فالحكم عليه انما يكون بمقياس ايامه لا
بمقياس ايامنا التي يجب فيها البذل على ممدوح ولا يجوز فيها الهجاء لشاعر محروم .

ومما ضاعف الاستخفاف بابن الرومي أنه كان متطيراً غريب الأطوار لا يأخذه الناس
مأخذ الجد ولا يزال المعربدون منهم يعتمدونه بالعبث ويتأججون عليه لشدة فرقه وانزعاجه
من الفأل السيء :

يضحك من كل ما بكيت له كأن لذاته بالامي

وكان بعضهم يصبحه بقرع بابه ، فاذا سأله من الطارق ؟ قال مرة بن حنظلة ! فيمكث
في بيته لا يريم عنه سحابة يومه ! وكانوا يسوقون اليه رجلاً احذب كريبه الرؤية يقابله
بوجهه إذا خرج من منزله فيرتد على عقبه ! وكانوا يجورون عليه بالعبث فيتوعد فلا
يحفلون فيهجو ولكن بعد مصابرة واعتاب وكم قال لابن عروس :

يا ليت شعري وليت شعرك ان قلد ت وقلنا واستحكم القذع
ما ينفع الصارم اللسان اذا غودر يوماً وعرضه قطع
فارجع وبقي اخيك باقية واندم وفي الحلم فسحة تسع
أو كما قال لبني السمرى !

يا بني السمرى لا تجشموني أن تشير القصيد كل دفين
قد تجاوزت ما تجاوزت عنكم وتغاضت على قذاكم جفوني

لا يغرنكم بجهلي حلمي وارعواثي إلى حياثي وديني
ان لين المهز في السيف امضى بغيراريه في صميم الثور
أو كما قال لغيرهم ولغيرهم من العابثين والماطلين الذين كانوا يضحكون مما يبكيه
ويتفكهون بما يحز في قلبه ويدميه . فماذا أفاده العتاب وماذا دفعت عنه الشكاية ! لا
شيء ! لأن الأعراض هانت على أصحابها في ذلك العصر فلا يبالون المذمة الا أن يكون
فيها معنى الاجترأ على الجاه والقوة ، وهم احرى الا يبالوها من شاعر كابن الرومي ليس
اسهل عليهم من أن يقولوا عنه انه هذيان ممرور ، فيضيق ذرعاً بهم ويهجو كالمندفوع إلى
غير ما يجب ، ويظهر ذلك منه في بعض القصائد كما يظهر من قوله :
لا يغضبن لعمرى من له خطر فليس يرضى بظلمي من له خطر
كأنه يقول : لقد صبرت على عمرو فرضي الناس بظلمه اياي فاذا هجوته أنا الآن فما
يجو لذي خطر أن يغضب له وهو منصف بيني وبينه .
وقد يعترف بالوسواس على نفسه ولكنه يرده إلى سوء حظه واجحاف الأيام به كما قال
حين رماه الناشئ بالوسواس .

ان أوسوس فحقيق ،	يسعد القرد وانحس !
أصبح الناشئ ممن	يتغنى وهو اخرس
نافقاً عند أناس	تعسوا والدهر اتعس
ته على الدنيا وقل ما	شئت واطلم وتغطرس
لم يقند من منك شيء	ولك الجسد المقدس
كيف لا يشتد اوسوا	سي واشعبارك تدرس
وضياء الشمس لا يقب	س والظلماء تقبس

فاذا عيبت به العابثون وتحذثوا بنحسه لم يسره ذاك وحق له الا يسره وقال مناجزاً :
زعمت بانني نحس وأنني مجيبك معلناً لا اتقيكا
وانطلق يصخب ويثلب وهو في رأيه معذور في ذلك الجزم الذي جنوه عليه قبل أن يجنيه
عليهم ، ومعذور حتى من الحسد الذي كان لا يداريه ولا ينكره ولكن يقول في التماس
المعذرة له :
لا تلومن حاسداً ، النم النفا
ن من النحس يا أخي شديد

وزد على ذلك فجائعه في بنيه واحبابه واحدا بعد واحد وهو أحوج ما يكون إلى معونتهم وعطفهم بين قوم كأنه غريب فيهم لا يفهمهم ولا يفهمونه ، وزد عليه طمع الناس فيه حتى كانت تسلبه ملكه الزهيد امرأة كما جاء في بعض شعره ويغصبه منزله الذي يسكنه تاجر يستهين به وبما عسى أن يصنع :

وراعمني فيما أتى من ظلامتي وقال لي اجهد في جهد احتيالك
فما هو إلا نسجك الشعر سادراً وما الشعر إلا ضلة من ضلالكا

لهذا وأمثاله كثرت اهاجي ابن الرومي واشتد اقذاعه وكان الذين يمدحهم بالأمس هم الذين يثلبهم بعد ذلك ، يكاد لا يفصل المدح عن القدح فاصل أو يكاد يكون المدح والقدح متوالين في صفحات الديوان ، لأن الديوان مرتب على حسب الحروف لا على حسب التواريخ والموضوعات ولو أننا نصبنا ميزان العدل لكان ابن الرومي ملوماً على المدح اضعاف لومه على الهجاء . فقد كان يكذب حين يمدح ويتوسل ولم يكن يكذب حين يهجو وينتقم ، وراجع ترجمة المهجوين في قصائدهم تجددهم كلهم أو أكثرهم لصوصاً لا يتقضي على احدهم في المنصب اشهر أو سنوات حتى يعمر بيته بالمنهوب المسلوب من ارزاق الرعية الضعفاء ، ثم لا تنقضي فترة اخرى حتى يسלט عليه لصوص أكبر منه فينبؤنه ويستصفون امواله كأنهم تغافلوا عنه ريثما يجمع لهم تلك الاموال ، وان في كتب التاريخ لسوءاتهم غير هذه وآثاماً جساماً لا يقال فيها انها تحرص شاعر مغبون أو افتراء خصم منهم بالأقوال ، فان كان الصدق عذراً للثالب الصادق فعذر ابن الرومي في التشهير والتجريح اوجه من عذره في الاطراء والمدح .

وقد اشتهر بالهجاء واصبح له سلاحاً لازماً وقدرة معروفة بين شعراء عصره فراح يلوح به كما يلوح المهدد بسلاحه ويعجب به كما يعجب الفنان بعمله . ولوعوفي في نفسه ورزقه لما بقي له من الهجاء الا ناحيته هذه الفنية والأعبيه الصبيانية . فانه على كل حال لم يحترق قط من ادواته النية الخبيثة والطبع الشرير ، أو هو على حد قوله :

لو أروض الشيطان اذعن كالك لب ، او العود عضه الكلوب^(١)
ولما ذاك انني الرجل الشر ير ، مني الخنا ومني الوثوب
بل لدي الانصاف يشفعه الاح سان ما قارب الالسد الشغوب

(١) العود الجمل بالسن والكلوب المهاز .

ونعود فنقول . لو كان الرجل أكثر شراً لكان الناس أكثر اتقاء له واجتناباً لكيدته ،
فقلت دواعيه إلى سوء المقال واعفى اعراضهم واعفى لسانه فاراح واستراح .

هو وشعراء عصره :

عاصر ابن الرومي في بيئته كثير من الشعراء اشتهرهم في عالم الشعر الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعي والبحثري وعلي بن الجهم وابن المعتز وأبو عثمان الناجم .

وليس هؤلاء ولا لغيرهم ممن عاصروه وعرفوه - او لم يعرفوه - أثر يذكر في تكوينه غير اثنين فيما نظن ، هما الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعي .

فقد كان ابن الرومي معجباً بالحسين يروي شعره ويستلمح اخباره ويذكرها لأصحابه ، وكان ابن الرومي يافعاً يحضر مجالس الأدب ويتلقى دروسه والحسين في أوج شهرته يتناشد اشعاره ادباء الكوفة وبغداد ومدن العراق . حدث محمد بن الفضل الأهوازي قال : « سمعت علي بن العباس الرومي يقول : حسين بن الضحاك اغزل الناس واظرفهم ، فقلت حين يقول ماذا ؟ فقال حين يقول :

يا مستعير سوائف الخشف اسمع لحفظة صادق الحلف
ان لم أصح ويلى ويا حربي من وجتتيك وفترة الطرف
فجحدت ربي فضل نعمته وعبدته ابداً على حرف

هكذا جاء في كتاب الأغاني - وجاء فيه أيضاً عن ابن الرومي انه قال :

أنشدنا ابو العباس ثعلب قال انشدني حماد بن المبارك صاحب حسين بن الضحاك قال انشدني حسين لنفسه :

ولا	وحبيك	لا	اصا	فح	بالدمع	مدمعا
من	بكى	شجوه	استرا	ح	وان	كان
كبدي	من	هواك	اسق	م	من	ان
لم	تدع	سورة	الضنى	في	للسقم	موضحا

قال ابن الرومي . ثم قال لنا ثعلب : ما بقي من يحسن أن يقول مثل هذا .

وروي عنه كتاب الأغاني روايات أخرى من هذا القبيل تدل كلها على الاعجاب والاستملاح ، ومثل ابن الرومي يعجب بشعر الحسين الأنيق الظريف المطبوع ولكنه لا يترج بصريقه ولا يتزيا بزيه ، لأن طريقة الاناقة والصل غير طريقة الامعان والنفاد التي طبع عليها ابن الرومي . فأنت تلمح أثر هذا الاعجاب في ابيات من شعر ابن الرومي كقوله :

يا وجنتيه اللتين من وهج في صدغيه اللذين من دمع
فتعلم أنه نظم هذا البيت وهو يذكر صيحة ابن الضحاك من « وجنتي صاحبه وفترة
طرفه ». .
او كقوله :

عيني شحا ولا تسحا جل مصابي عن البكاء
ترككها الداء مستكنا اصدق عن صحة الوفاء
فتعلم انه نظمه وهو يذكر الأبيات التي روى في اولها لابن الضحاك :
لا وحبك لا اصبا فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وان كان موجعا
وابن الضحاك يقول :

كأنما نصب كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك
وابن الرومي يقول :

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

فهو كان معجباً بظرائف ابن الضحاك ملتفتاً اليها ولكنه لم يخرج عن طريقته التي طبع
عليها ولم يزد في اعجابه على ان يقتبس منه بعض الخطرات الرشيقه ، وهو شيء غير
اقتباس الطريقة والتشابه في السليقة .

وقد مات الحسين بن الضحاك وابن الرومي في التاسعة والعشرين ، ولم نر في تاريخه ولا
في تاريخ الحسين ما يشير إلى تلاقيهما في بغداد حيث عاش ابن الرومي معظم حياته ، او
في غير بغداد حيث كان يرحل ابن الضحاك .

أما دعبل فابن الرومي عارضه في موضعين ، احدهما القصيدة الطائية التي نظمها دعبل
حين اتهم « خالداً » بسرقة ديكه واطعامه لضيوفه وقال في مطلعها :

أسر المؤذن خالد وضيوفه أسر الكمي هفا خلال المايط
بعثوا اليه بنهم وبناتهم ما بين ناتفة وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد اوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناهط
أكلوه فانترعت به اسنانهم وتهشمت اقفاؤهم بالحائط

فزاد ابن الرومي فيها وأطالها وبلغ بها نيافاً وستين بيتاً وغير بعض الفاظها ، فيما قال في

معارضته وتمثل فيه كل مزاجه وملاحظاته :

طبخوه ثم اتوا به قد ابرمت	اوتاره لنادف ومرباط
متجماً لدجاجه متجلداً	كتجلد المجلود بين ربائط
ولقد رمته يوم ذلك قدرهم	بغطائط من غليه وغطامط
حملوا عليه كل ماء عندهم	وفرات كوفتهم ودجلة واسط
واهاً لذلك الديك بين مساقط	منه عهدناها وبين ملاقط
قوام اسحار مؤذن جارة	« وصّال » زوجات كمي مآقط
ينفي مناعسه بنفس شهمة	ويشاهد الهيجا بجأش رابط

والموضع الآخر الذي عارض فيه دعبلأً أبيك ثائية قال دعبل في مطلعها :

أتيت ابن عمرو فصادفته مريض الخلائق ملتاتها

فعارضها ابن الرومي وزاد عليها من أبيات :

قواف ابى الوغد ابريزها	فاخرجت للوغد اخبارها
أوبد قد اخنست قبله	كهول الرجال واحداثها

.....
ولا جرم لي ان أساءت جناة مزرعة كان حراثها

ونشأ ابن الرومي ودعبل كذلك شاعر واسع الشهرة جذاب السيرة لغزابة اخلاقه وخطارته وتطويفه من الآفاق ، مستحسن الشعر بين من يؤثرون الفحولة اللغوية ، مفضل على المحدثين من طبقته كما قال البحتري وكان يتعصب له « دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم » . وكان دعبل فيما عدا ذلك متشيعاً لآل علي غالباً في تشيعه فجذب ذلك كله نفس ابن الرومي الفتى نحوه وحبب اليه محاكاته ومجاراته ، وربما كانت الرغبة في مجاراته احدى دواعيه إلى الهجاء .

ومات دعبل وابن الرومي في الخامسة والعشرين ولا نعلم انهما تعارفا أو كان بينهما لقاء .

هذان هما الشاعران اللذان عاصرا ابن الرومي وكان لهما أثر يذكر في تكوينه . اما الآخرون فالثابت انه كان على معرفة وصحبة مع اثنين منها وهما البحتري وابو عثمان الناجم . عرف البحتري في بيت الناجم ، وكان هذا صديقاً له بقي على صداقته إلى يوم وفاته ، ورواية يحفظ شعره واخباره ويجري على طريقته في بعض تشبيهاته - فسأله

البحثري أن يعرفه إلى ابن الرومي ففعل وجرت بين الشاعرين صحبة غير طويلة ولا وثيقة ، لأن البحثري كان يدل على ابن الرومي بمكانه من الخلفاء والأمراء ، وكان ابن الرومي لا يطبق الصبر على ذلك فهجاه وعاب شعره واتهمه بالسرقة ، فمن قوله فيه :

قبحاً لأشياء يأتي البحثري بها	من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حين يصغي السامعون لها	ممن يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب أو هذر البناة إذا	اضحوا على شعف الجدران في صخب
وقد يجيء بخلط فالتحاس له	وللأوائل ما فيه من الذهب
عبد يغير على الموتى يسلبهم	حر الكلام بجيش غير ذي لجب
ما إن يزال تراه لابساً حللاً	اسلاب قوم مضوا في سالف الحقب

ثم عاد يذكره أيام رضاه ومودته والفرق بين مسالته وحر به ويقول له بعد اقتداع كثير :
يا بحثري لقد اقبلت منقلباً يوم اكتسبت هجائي شر منقلب
قد كنت تعرف مني في الرضى رجلاً حلو المذاقة ، فاعرفني لدى الغضب
تعرف فتى فيه طوراً مجتنى سلع للمجتنين وطوراً مجتنى رطب

ونظن ان المنافسة بينهما لم تكن وحدها سبب هذا الهجاء ، وانما أنس ابن الرومي اغراء من العلاء بن صاعد بالبحثري ، لأنه خاطبه في هذه القصيدة بما يظهر منه أن العلاء كان يستضعف هجاء الشعراء للبحثري ويبحث عن يشد عليه ويفحمه كما يؤخذ من هذا البيت :

أراك لم ترض ما اهدى له نفر من شتم إثمٍ لثيم خيمها وأب

فأرضى ابن الرومي نفسه وأرضى العلاء بهجائه ، وكان رد البحثري عليه ما علم القراء من اهدائه تحت المتاع وكيس الدراهم وابلاغه « ان الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه لأنه لم يحمله على ما فعل الا الفقر والحسد المفرط »

عرف ابن الرومي البحثري وابن الرومي شاعر ناضج مشهور بالافتنان في المعاني والقدرة على الهجاء وكان البحثري يحب مجاراته في بعض قصائده . فقال له في اول لقاء بينهما انه عزم على ان يعمل قصيدة على وزن قصيدته الطائية في الهجاء فنهاه ابن الرومي عن ذلك لانه ليس من عمله : فاذا كان بينهما اقتباس او معارضة فالبحثري هو المقتبس وهو الراغب في المعارضة على أننا لا نخاله استفاد من ابن الرومي شيئاً يزيد في مذهبه الذي نبغ فيه لأنها غمطان متباينان ، ولكل منهما اعتداد بنفسه يكفيه ويغنيه .

أما علي بن الجهم (المتوفي سنة ٢٤٩هـ) فقد كان بينه وبين ابن الرومي برزخ واسع من اختلاف المذهب في الدين والشعر . فابن الرومي متشيع وابن الجهم ناصب يذم عليا وآله « ولا يلتقي الشيعي والناصب » . كما يقول ابن الرومي . . وكان ابن الجهم شديد النقمة على المعتزلة وعلى « اهل العدل والتوحيد » منهم خاصة يهجوهم ويدس لهم ويقول في زعيمهم احمد بن ابي دؤاد :

ما هذه البدع التي سميتها بالجهل منك العدل والتوحيد

وابن الرومي كما مر بك من هذه الجماعة . فمذهبه في الدين ينفره من ابن الجهم ولا يرغبه في مجاراته ، ولو تشابها فيما عدا ذلك من المزاج والنزعة لقد يهون هذا الفارق ويسهل على ابن الرومي الاغضاء عنه وهو ناشئ يتلمس القدوة ويخطو في سبيل الشهرة . ولكنك تقرأ شعر ابن الجهم في فخره ومزاحه ، فيخيل اليك انك تقرأ كلام جندي يتفجج او يعربد . لخلوه من كل عاطفة غير عواطف الجند الذين يقضون اوقاتهم بين الفخر والضجيج واللهو السكر ، وليس بين هذه الطبيعة وطبيعة ابن الرومي مسرب للقدوة أو للمقاربة في الميل والاحساس ، ولا كان في شعر ابن الجهم شيء يشعر مثل ابن الرومي انه يقتدى به ويحتاج الى مجاراته ، فيميل به هذا الشعور الى الاعجاب بالشاعر الذي ابعده عنه المذهب والمزاج .

وقد ولد ابن المعتز في سنة سبع وأربعين ومائتين ، فلما ايفع وبلغ السن التي يقول فيها الشعر كان ابن الرومي قد جاوز الاربعين او ضرب في حدود الخمسين ، ولما نبغ واشتهر له كلام يروى في مجالس الأدباء كان ابن الرومي قد اوفى على الستين وفرغ من التعلم والاقتباس . ولو انعكس الامر وكان ابن المعتز هو السابق في الميلاد لما اخذ منه ابن الرومي شيئا أو لكان افسد سليقته بالاخذ عنه ، لأن ابن المعتز انما امتاز بين شعراء بغداد في عصره بمزاياه الثلاث ، وهي البديع والتوشيح والتشبيه بالتحف والنفائس ، وابن الرومي لم يرزق نصيباً معدوداً من هذه المزايا ولم يكن قط من اصحاب البديع واصحاب التوشيح او اصحاب التشبيهات التي تدور على الزخرف وتستفيد نفاستها من نفاضة المشبهات .

ويجوز أن الشعارين لم يتعارفا ولم يتلاقيا في مجلس ، لأن ابن الرومي كان قليل الغشيان جداً للمجالس التي كان يحضرها الخلفاء وولاة العهود . فضلا عن تفاوت السن والخطوة ، فضلا عن سبب آخر قد يكون من موانع اللقاء بينهما ، وهو ان ابن الرومي

هجا المعتز ومدح المستعين حين تنازعا الخلافة وتقاتلا عليها . وكان ابن الرومي من حزب المستعين لان بغداد كانت معه وهي وطن ابن الرومي ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر كان ينصر المستعين وهو يومئذ أكبر ممدوحيه . ونحن نذكر هذا السبب الآخر للاحاطة به ولا نعيه كبير التفات ، لان ابن المعتز كان طفلاً رضيعاً حين تقابل ابوه وعمه ، ولا يحتمل كثيراً انه وعى بعد ذلك كل ما قاله ابن الرومي في تلك الأيام .

ممدوحوه

لابن الرومي ممدوحون كثيرون يزدون على الاربعين ، يطول بنا البحث ولا ننتهي إلى غرض يفيدنا فيما نحن فيه لو أننا أجمالنا تواريجهم اجمالاً سريعاً بله التفصيل والانعام ، ولو كان للمدح في زمن ابن الرومي بواعث نفسية غير طلب العطاء لوجب أن نُعنى بتراجم الأشخاص الذين حركوا في نفس الشاعر تلك البواعث واستحقوا منه اكباره وثنائه ، لأن العناية بتراجهم في هذه الحالة عناية بالشاعر نفسه وبواعث نظمهم ومعايير وصفه وثنائه ، ولكن الشعراء كانوا يمدحون ولا يقصدون من المدح إلا الارضاء والتفنن في معاني التعظيم ، فمن العبث أن نحصي هنا تراجم لا تزيدنا علماً بالشاعر وليس العلم بها لذاتها مقصوداً في هذا المقام ، وحسبنا أن نلم بتاريخ الأستين اللتين خصهما الشاعر بمعظم مدائحه وكانت له صلة طويلة بهما وعلاقات مذكورة في ترجمة حياته ، وهما أسرة آل طاهر وأسرة آل وهب ، وكلاهما من أكبر الأسر التي عرفت في تاريخ الوزارة والقيادة في الدولة العباسية .



فآل طاهر أسرة قديمة تنتسب إلى أمراء الفرس الأولين ويذكر منها في عالم الحرب والأدب والنجدة أفراد كثيرون . وأول من نبغ منها واشتهر في عهد بني العباس طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان ، أسلم جده رزيق على يد عبيد الله طلحة الطلحات الخزاعي والي سجستان فنسب اليه ولُقّب بالخزاعي لهذا السبب لا لانتمائه إلى قبيلة خزاعة من جهة النسب .

وقد ولد طاهر بقرية بوشينج من أعمال « مرو » سنة تسع وخمسين ومائة حيث كان جده مصعب والياً يتولى أعمال مرو مع أعمال هراة . ثم كان الخلاف بين الأمين والمأمون فأبلى طاهر في خدمة المأمون-الفارسي الأم- أحسن بلاء وأخلص له ونصح في ولائه وتوطيد ملكه ، فولاه خراسان وأطلق يده فيها فأصبحت دولة طاهرية مستقلة في حكومتها لا تربطها ببغداد إلا خطبة المنبر ، وقيل ان طاهراً قطع الدعاء للخليفة يوماً فسمه خادم معه كان موكلاً به من قبل المأمون فأصبح ميتاً .

وكانت لآل طاهر مع ولاية خراسان ولاية الشرطة في بغداد وهي من الولايات النافعة لذوي النفوذ ، فاجتمعت لهم أسباب القوة بين العاصمة وذلك الاقليم الخطير الشأن في حياة الدولة العباسية .

وولد لطاهر ابنه عبد الله فنشأ في رعاية المأمون نشأة فاضلة وشابه أباه في النجدة والاقدام وبذه في الأدب والمروءة . تولى مصر وأعطاه المأمون مال خراجها وضياعها لسنة ، فوهبه كله وفرقه في الناس ورجع صفرأ من ذلك . فغاظ المأمون فعله فدخل اليه يوم مقدمه فأنشده أبياتاً قالها في هذا المعنى وهي :

نفسي فداؤك والأعناق خاضعة	للائبات ألباً غير مهتضم
اليك أقبلت من أرض أقمّت بها	حولين بعدك في شوق وفي ألم
أقفو مساعيك اللاتي خصصت بها	حذو الشراك على مثل من الأدم
فكان فضليّ فيها انني تبع	لما سنتت من الانعام والنعم
ولو وكلتُ إلى نفسي عييت بها	لكن بدأت فلم أعجز ولم ألم

« فضحك المأمون وقال والله ما نفست عليك مكرمة نلتها ولا احدثتة حسن عندها ذكرك ، ولكن هذا شيء إذا عودته نفسك افتقرت ولم تقدر على لم شعبك واصلاح حالك ، وزال ما كان في نفسه » ويقال أن البطيخ « العبدلاوي » المعروف بمصر منسوب إليه ولعله نسب إليه لأنه كان يستطيعه كما يقول ابن خلكان » .

ولعبد الله شعر جزل وتلحين جيد وهو القائل « ينبغي أن يبذل العلم لأهله ولغير أهله ، فان العلم أمتع لنفسه من أن يصير إلى غير أهله » ومن كلامه « سمن الكيس ونبل الذكر لا يجتمعان » .

ومحمد بن عبد الله هذا هو الذي أدركه ابن الرومي ومدحه وظن أنه ينفس عليه شعره فقال له :

أتحسدني تجويد ريط نسجته	لتلبسه ؟ يا للعجب من الأمر
تذكر هداك الله أني مادح	وانك ممدوح ، فلا تعد بي قدري

ونحسب أنه لم يظلمه ، لأنه تعود أن ينظر في شعر مادحيه نظرة الناقد المتصعب . بعث إليه حاجبه محمد بن أبي عون بأنوار من بستانه وريحان وكتب معه :

قد بعثنا بطيب الريحان	خير ما قد جنى من البستان
قد تخيرته لخير أمير	زانه الله بالتقى والبيان

فوقع على ظهر رقعة :

عون يا عون قد ضللت عن القصد وعميت عن دقيق المعاني
حشو بيتيك قد وقد فإلى كم ؟ قدك الله بالحسام الجاني^(١)

وكان محمد عظيم النفوذ في الدولة تميل الخلافة حيث يميل ، نصر المستعين فرجحت كفته على أخيه المعتز ودانت له بغداد وما وراءها وأوشك أن يتفرد بالملك وحده ، ثم ارتاب في المستعين فتخلي عنه فلم يجد المستعين بداً من خلع نفسه وتمت الغلبة عليه لأخيه . وينسب إليه أنه قال لما انهزم محمد بن خالد في بعض الوقائع بين جنود المستعين وجنود المعتز : « لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره ! » .

ومات محمد في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين ومائتين أي حين كان ابن الرومي في الثانية والثلاثين ، قال ابن الأثير : « في ليلة أربع عشرة من ذي الحجة انخسف القمر جميعه ومع انتهاء خسوفه مات محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين وكانت علته التي مات بها قروحاً أصابته في حلقه ورأسه فذبحته وكانت تدخل فيها الفتائل ، ولما اشتد مرضه كتب إلى عماله وأصحابه بتفويض ما إليه من الولاية إلى أخيه عبيد الله بن طاهر . فلما مات تنازع ابنه طاهر وأخوه عبيد الله الصلاة عليه فصلى عليه ابنه وتنازع عبيد الله وأصحاب طاهر حتى سلوا السيوف ورموا الحجارة ومالت العامة مع أصحاب طاهر وعبر عبيد الله إلى داره بالجانب الشرقي فعبر معه القواد لاستخلاف محمد فكان أوصاه على عماله . ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع إلى عبيد الله فأمر عبيد الله للذي أتاه بالخلع بخمسين ألف درهم » .

وعبيد الله هذا كان شاعراً كأخيه وأبيه وأكثر أفراد أسرته ، وكان يقول البحري ويناجزه ، وهو الذي نظم ديواناً على الحرف في شكر العلاء صاعد فعهد العلاء إلى ابن الرومي بالرد عليه ، وهو القائل :

إن الأمير هو الذي يبقى أميراً بعد عزله
إن زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فضله

وكان كأخيه محمد في نقد الشعر ولا سيما إذا مدح به غيره ، فهو الذي سمي قصيدة ابن الرومي النونية في مدح إسماعيل بن بليل بدار البطيخ ! لكثرة ما ذكر فيها من أسماء

(١) الموشح للمرزباني

الفاكهة ، فظرف في النكته وإن لم ينصف في نقد القصيدة .

وقال ابن خلكان في ترجمته : « . . . كان عبيد الله المذكور أميراً ولي الشرطة ببغداد خلافة عن أخيه محمد بن عبد الله ثم استقل بها بعد موت أخيه ، وكان سيداً واليه انتهت رئاسة أهله ، وهو آخر من مات منهم رئيساً ، وله من الكتب المصنفة كتاب الإشارة في أخبار الشعراء وكتاب رسالة في السياسة الملوكية وكتاب مراسلاته لعبد الله بن المعتز وكتاب البراعة والفصاحة وغير ذلك ، وحدث عن الزبير بن بكار وغيره ، وكان مترسلاً شاعراً لطيفاً حسن المقاصد جيد السبك رقيق الحاشية ، ومن شعره ما ذكره ابن رشيق في كتاب العمدة في باب الاستطراد فقال : ومن الاستطراد نوع يسمى الادماج ، ونحو ذلك قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد :

أبى دهرنا اسعافنا في نفوسنا وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له : نعلمك فيهم أئمتها ودع أمرنا ، أن المهم المقدم

« . . . وله ديوان شعر ، ونقتصر من نظمه على هذا القدر ، وكانت ولادته سنة ثلاث وعشرين ومائتين وكانت وفاته ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاثمائة ببغداد . . . »

ولعبيد الله أح يسمى سليمان هو الذي هجاه ابن الرومي لأنه أخلف رجاءه في رد داره . وكانت بينه وبين عبيد الله قطيعة وملاحاة شديدة ثم اصطلحا فخلد ابن الرومي هذا الصلح في قصيدة دالية اقتبسنا منها فيما تقدم بعض أبيات .

وانتهت إلى عبيد الله رئاسة قومه كما قال ابن خلكان ، إلا أن دولتهم في خراسان ذهبت منهم في أيامه واستولى عليها في سنة تسع وخمسين ومائتين ذلك المخاطر الجريء يعقوب بن الليث الملقب بالصفار من الصفرة لأنه كان في صباه تاجراً فقيراً يعمل في النحاس ، واقتصرت ولاية عبيد الله وسطوة قومه على الشرطة في بغداد فكان هذا أول بوادر الزوال في ذلك البيت المجيد ، ولحق ابن الرومي من ذلك ما لا بد أن يلحقه منه ، فضلاً عن حسبانته عليه من عثرات جده ودلائل شؤمه !

أما أبناء وهب فكانوا أهل كتابة لا شأن لهم بالحرب وقيادة الجيوش ، جاء في الفخري أنهم كانوا « من قرية من أعمال واسط وكانوا نصارى ثم أسلموا » .

وعملوا في الكتابة من مبدأ الدولة الأموية ثم حظوا عند العباسيين فاشتهر منهم اثنان هما الحسن بن وهب بن سعيد وأخوه سليمان .

وكان الحسن كاتباً شاعراً ولاه محمد بن عبد الملك الزيات ديوان الرسائل ومدحه أبو تمام فولاه البريد في الموصل . وكانت بينه وبين أبي تمام صداقة فلما مات هذا رثاه بقصيدة يقول منها :

فان تراب ذاك القبر يحوي حبيباً كان يدعى لي حبيباً
ليبياً شاعراً فطيناً أديباً أصل الرأي في الجلى أريباً
إذا شاهدته رواءك فيما يسرك رقة منه وطيباً
أبا تمام الطائي إنا لقينا بعدك العجب العجيباً
فقدنا منك قرماً لا نرانا نصيب له مدى الدنيا ضريباً

ولم يزل الحسن مقرباً مجدوداً حتى نكبه المتوكل مع ابن الزيات في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

وأخوه سليمان كتب للمأمون وهو في الرابعة عشرة . حدث ابنه عبيد الله عنه أنه قال : « كان مبدأ سعادتي أنني كنت - وأنا صبي - بين يدي محمد بن تزداد وزير المأمون . وكنا جماعة من الصبيان بين يديه إذا راح الليل إلى داره بات واحد منا في دار المأمون بالنوبة ، لمهم عساه يعرض في الليل . وكانت ليلة نوبتي فخرج خادم وقال : ها هنا أحد من نواب محمد بن يزداد ؟ فقال الحجاب له نعم ! ها هوذا ، فأدخلني إلى المأمون فقال لي : اعمل نسخة في المعنى الفلاني ، ووسع بين سطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد إصلاحه . قال : فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيّضته وأحضرتة إليه . فلما رأيته قال : كتبت النسخة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب . فقال : بيّضته ! قلت نعم ، فزاد في نظره إليّ كالمتعجب مني ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ورفع رأسه إلي ، وقال : ما أحسن ما كتبت يا صبي ! ولكن أريد أن تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر ، وخط عليهما بقلمه ، فأخذت الكتاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما أراد وجثته بالكتاب ، وكان قد ظن أنني أبطله وأكتب غيره ، فلما قرأه لم يعرف مبدأ المحو فاستحسنه وقال لي : يا صبي ! لا أدري من أي شيء أعجب ! أمن جودة محوك أم من سرعة فهمك أم من حسن خطك أم من سرعتك ، بارك الله فيك ! فقبلت يده وخرجت ، وكان ذلك أول علو منزلي وصار المأمون لا يجري مهم إلا قال : « هاتوا سليمان بن وهب » .

واستوزره المهتدي « ولقبه الوزير حقاً لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها »^(١) . استكتبه يوماً عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العمال ، فلما وضعت الكتب بين يديه قال له وقد قرأها : أحسنت يا سليمان ، ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل ! وذلك أن سليمان كان إذا ولي عاملاً أخذ منه مالاً معجلاً وأجل مالاً إلى أن يتسلم عمله . . . ونكبه الوثائق وحبسه فقال وفي هذا الشعر غناء :

نوائب الدهر أدبتني وإنما يوعظ الأديب
قد ذقت حلواً وذقت مرّاً كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر بؤس ولا نعيم إلا ولي فيها نصيب

ثم خرج من الحبس ليلة مات الوثائق ، ولكنه كان مطموعاً فيه لكثرة ماله واشتهاره بالرشوة فقبض عليه الموفق ومات في حبسه سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وقيل سنة إحدى وسبعين . . . ولما قبض الموفق عليه وعلى ابنه عبيد الله تذاكر جماعة أنه إنما استكتبها ليقف منهما على دخائل موسى بن بغا وودائعهم فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما فقال ابن الرومي وكان حاضراً :

ألم تر أن المال يتلف ربه إذا جم آتیه وسد طريقه
ومن جاور الماء الغزير مجمة وسد مغيض الماء فهو غريقه^(٢)

وسليمان بن وهب هو أبو عبيد الله وجد القاسم ، وكلاهما وزير المعتضد وتلقى مدائح ابن الرومي الكثيرة ، ولا سيما القاسم . فانه كان صاحب القسط الأوفر من جميع مدحه .

وكانت أول ولاية عبيد الله للوزارة في عهد المعتضد ثم بويح المعتضد سنة تسع وسبعين ومائتين فأقره على وزارته ولبث فيها إلى أن مات سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وكان كاتباً حاذقاً وسائساً حصيفاً وفيه يقول الشاعر :

إذا أبو قاسم جادت يداه لنا وإن مضى رأيه أو حد عزمته
لم يحمد الأجودان البحر والمطر تأخر الماضيان ، السيف والقدر
وإن أضاءت لنا أضواء غرته تضائل النيران الشمس والقمر

(١) الأغاني

(٢) الأغاني

من لم يبت حذراً من حد صولته لم يدر ما المزعجان الخوف والحد
ينال بالظن ما يعي العيان به والشاهدان عليه العين والأثر
ويروى أنه لما مات عزم المعتضد على أن يستأصل شأفة أولاده ويستصفي أموالهم ،
فحضر القاسم ابنه واستعان ببدر المعتضدي وكتب خطاباً بألفي ألف دينار فاستوزره
المعتضد^(١) .

قال صاحب الفخري « كان القاسم بن عبيد الله من دهاة العالم ومن أفاضل الوزراء ،
وكان شهياً فاضلاً لبيباً محصلاً كريماً مهيباً جباراً ، وكان يطعن في دينه . . . » .
وقال ابن خلكان . « كان الوزير المذكور عظيم الهبة شديد الاقدام سفاكاً للدماء ،
وكان الكبير والصغير منه على وجل لا يعرف أحد من أرباب الأموال إلا نقمه . وتوفي سنة
إحدى وتسعين ومائتين في خلافة المكتفي وعمره نيف وثلاثون سنة ، وفي ذلك يقول عبد
الله بن الحسن بن سعد :

شربنا عشية مات الوزير سروراً ونشرب في ثالثه
فلا رحم الله تلك العظام ولا بارك الله في وارثه

وابن خلكان قد أخذ هذا الوصف من مروج الذهب المسعودي ، وفي هذا الكتاب أن
القاسم قتل عبد الواحد عم الخليفة المكتفي والخليفة مجهل ذلك ولا يريده . وكان القاسم
يغريه به « فوكل به من يراعي خبره وما يظهر من قوله إذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد
طرب وهو ينشد شعر العتابي :

تلوم على ترك الغنى باهلية طوى الدهر عنها كل طرف وتالد
إلى أن يقول :

ذريني تجنني ميتي مطمئة ولم اتجشم هول تلك الموارد
فان نفيسات الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الأساود .
وإن الذي يسمو إلى درك العلا ملقى بأسباب العلا والمكايد

فقال له بعض ندمانه وقد أخذ منه الشراب : يا سيدي أين أنت مما تمثل به يزيد بن
المهلب :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد حياة لنفسي مثل أن أتقدما
فقال له عبد الواحد : مه ! لقد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قاتل هذا
البيت وأصاب أبو فرعون التميمي حيث يقول :

وما بي شيء في الوغى غير أنني أخاف على فخارتي أن تحطما
ولو كنت مبتاعاً من السوق مثلها لدى الروع ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك إلى المكتفي ضحك وقال : « قد قلت للقاسم ليس عمي عبد الواحد ممن
تسمو همته إليها أطلقوا لعمي كذا وكذا . فلم يزل للقاسم بعبد الواحد حتى
قتله » .

وكان القاسم مكروهاً على خلاف أخيه الحسن الذي كان يحبه الناس ويحسنون الظن
به . فلما مات الحسن قال أبو الحارث النوفلي :

قل لأبي القاسم المرزاً قابلك الدهر بالعجائب
مات لك ابنٌ وكان زيناً وعاش ذو الشين والمعائب
حياة هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب

قال أبو بكر الصولي النديم : « وقد رأيت أبا الحارث هذا وكان رجلاً صدوقاً » .
ونظم آخر في هذا المعنى فقال :

قل لأبي القاسم المرزاً وناد يا ذا المصينتين
مات لك ابنٌ وكان زيناً وعاش شين وأي شين
حياة هذا كموت هذا فالطم على الرأس باليدين

ولكن عبيد الله أباهما كان على رأي يخالف رأي الناس في ولديه ، فكان يقدم القاسم
ويهمل الحسن ، حتى راجعه في ذلك ابن الرومي بقصيدة سبقت الإشارة إليها ، ولعله
رأى من دهاء ابنه القاسم وغدره أنه أصلح للحكم في ذلك الزمان ، وعلم أن الخلق
الكريم أداة لا تنفع في هذا الغرض فأخر ابنه الحسن عن منزلة أخيه .

والقاسم هذا هو الذي أجمعت كتب التاريخ على أنه قتل ابن الرومي بالسهم لأنه أشفق
من فلتات لسانه .

وفاته :

يقول ابن خلكان في تاريخ وفاة ابن الرومي : « توفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأول سنة ثلاث وثمانين وقيل أربع وثمانين وقيل ست وسبعين ومائتين ، ودفن في مقبرة باب البستان . »

فأي هذه التواريخ هو الصحيح ؟

إن الذين جاءوا بعد ابن خلكان تابعوه في هذا الشك الذي لا مسوغ له اعتماداً على روايته بغير بحث في شعر الشاعر ولا في كتب المؤرخين الذين سبقوا ابن خلكان . ولا مسوغ لهذا الشك كما قلنا لأن ابن الرومي أثبت لنا انه بلغ الستين وعاش إلى ما بعد سنة ثمانين إذ يقول :

طربت ولم تطرب على حين مطرب وكيف التصابي بابن ستين أشيب
فهو لم يمّت في سنة ست وسبعين على التحقيق ، ولا يُظن ان الستين هنا تقريرية لضرورة الشعر وأنها قد تكون خمساً وخمسين أو ستاً وخمسين ، فانه ذكر الخمس والخمسين في موضع آخر حيث قال :

كبرت وفي خمس وخمسين مكبر وشبت فألحاظ المها عنك نُقِرُ
وليس من المعروف عنه انه كان يعنى بنظم ما يريد .

ولو راجع ابن خلكان كتاب مروج الذهب للمسعودي لعرف منه أن ابن الرومي كان حياً بعد ست وسبعين ، فلا محل للقول بموته في تلك السنة . فقد جاء في تاريخ المعتضد من ذلك الكتاب أن قطر الندى بنت خمارويه وصلت إلى مدينة السلام مع ابن الجصاص في ذي الحجة^(١) سنة إحدى وثمانين ومائتين ، ففي ذلك يقول علي بن العباس الرومي :

يا سيد العرب الذي زفت له باليمن والبركات سيدة العجم
إلى آخر الأبيات ، وهذا فضلاً عن مقطوعات أخرى نظمها الشاعر في العرس الذي احتفل به الخليفة سنة اثنتين وثمانين .

(١) الطبري يقول ان دخولها بغداد كان لليلتين خلتا من المحرم سنة ٢٨٢

فمن المحقق إذن أن ابن الرومي تجاوز سنة ست وسبعين ، ولم يبق لنا إلا أن نبحث في الستين الآخرين أي سنتي ثلاث وأربع وثمانين .

فعندنا تاريخ اليوم والشهر من أولهما وليس عندنا مثل ذلك من الثانية ، وهذا مما يرجح وفاته في سنة ثلاث وثمانين دون أربع وثمانين .

ويقوي هذا الترجيح أن مضاهاة التواريخ تثبت لنا أن جمادى الأخرى من سنة ثلاث وثمانين بدأت يوم جمعة فيكون يوم الأربعاء قد جاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى في تلك السنة كما جاء في تاريخ الوفاة .

وقد ضاهينا هذا اليوم على التاريخ الافرنجي فوجدناه يوافق الرابع عشر من شهر يونيو ، أي يوافق إبان الصيف في العراق ، وابن الرومي مات في الصيف كما يؤخذ من قول الناجم انه دخل عليه في مرضه الذي مات فيه وبين يديه ماء مثلوج ، فيجوز لنا على هذا أن نجزم بأن أصح التواريخ هو التاريخ الأول وهو « يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين » .

والأقوال بعد ذلك مجمعة على موت ابن الرومي بالسسم ، وإن الذي سمه هو القاسم بن عبيد الله أو أبوه .

ولكن الروايات في هذا الخبر لا تخلو من ضعف واضطراب ، فالرواية التي أوردها ابن خلكان تقول : إن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفتنات لسانه بالفحش فدرس عليه ابن فراش فأطعمه خشكناجة مسمومة وهو في مجلسه فلما أكلها أحس بالسسم . فقال له الوزير : إلى أين تذهب فقال الى الموضع الذي بعثتني إليه ، فقال له : سلم على والدي ! فقال له : ما طريقني على النار . . . »

وضعف هذه الرواية ظاهر . لأن عبيد الله بن سليمان مات في سنة ثمان وثمانين^(١) أي بعد آخر تاريخ فرض لموت ابن الرومي بأربع سنوات ، فكان حيا عند وفاة الشاعر ولا معنى لأن يقول القاسم له سلم على والدي ووالده بقيد الحياة .

(١) راجع الفخري

والرواية التي أوردها الشريف المرتضى في أماليه أصبح من هذه الوجهة ، لأنها تقول إن عبيد الله كان حياً عند موت ابن الرومي وأنه هو الذي أوعز بقتله ، ولكنها تقول أيضاً أنه قد اتصل « بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر علي بن العباس الرومي وكثرة مجالسته لأبي الحسين القاسم . فقال لأبي الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا . فدخل يوماً عبيد الله إلى أبي الحسين وابن الرومي عنده فاستنشدته من شعره فأنشده وخاطبه فراه مضطرب العقل جاهلاً فقال لأبي الحسين بينه وبينه : ان لسان هذا أطول من عقله ، ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر في عاقبته ، فأخرجه عنك . فقال : أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه في دولتنا ويذيعه في تمكنتنا ، فقال يا بني ! اني لم أرد باخراجك له طرده . فاستعمل فيه بيت أبي حية النميري :

فقلن لها سرّاً فدينساك لا يرح سليماً ، والا تقتليه فألمي

فحدث القاسم بن فراس بما جرى وكان أعدى الناس لابن الرومي وقد هجاه بأهاج قبيحة ، فقال له الوزير أعزه الله أشار بأن يغتال حتى يستراح منه وأنا أكفيك ذلك فسمه في الخشكناج فمات . . . قال الباقراني : والناس يقولون ما قتله ابن فراس وإنما قتله عبيد الله . »

وضعف هذه الرواية ظاهر كذلك . لأن عبيد الله كان يعرف ابن الرومي سنوات وقد مدحه ابن الرومي وتردد عليه وتشفع لديه بين ولديه ، فلا حاجة به الى أن يطلب رؤيته قبل موته ليختبره كما جاء في هذه الرواية . أما الأخير الاخرى المثورة في الكتب فهي مزيج مرتبك من هاتين الروایتين .

ويصعب علينا أن نستخلص الحقيقة من هذا الخلف والاضطراب فاذا قلنا إن عبيد الله هو القاتل كما نقل الباقراني فيجوز على هذا الزعم أنه هو الذي قال له : سلم على والدي وليس ولده القاسم ، فينتفي بذلك موضع الضعف في الرواية الأولى ، ولكننا ننفيه بفرض لا يجوز الاعتماد عليه .

واذا أردنا أن نخرج بين الروایتين ونسقط منهما ما يجب اسقاطه فالخلاصة منهما أن عبد الله خاف هجاء ابن الرومي فأوعز إلى ابنه أن يسمه لأنه كان أقرب إلى خالطته ومنادسته ، ولا صحة لما بعد ذلك من حديث القاسم وابن الرومي وإنما هو حديث غلبت فيه فكاهة القصة على صدق التاريخ .

بين هذه الشبهات المتضاربة شبهة تعرض للذهن ولا يجوز اغفالها في هذا المقام وهي تبيح لنا أن نسأل : ألا يحتمل أن يكون حديث السم كله خرافة مخترعة لا أصل لها وأن ابن الرومي مات ميتة طبيعية تشبه أعراضها بأعراض التسمم المعروفة في زمانه ؟ فمن كلام الناجم الذي زاره في مرض وفاته نعلم أنه كان يشكو من إلحاح البول فلما لاحظ الناجم ذلك قال :

غداً ينقطع البول ويأتي الهول والغول

وأنه كان قد أعد ماء مثلوجاً لأنه « قلما يموت انسان الا وهو ظمآن » وكان يقول فيما روته الأماي وهو يشرب الماء ولا يروى :

وأراه زائداً في حرقتي فكأن الماء للنار حطب

والظماً والحاح البول عرضان من اعراض « مرض السكر » وهو مرض يحدث لصاحبه التسمم ولا سيما بعد أكل الحلوى والافراط فيها ، وابن الرومي لم تكن تعوزه أسباب الاصابة به لأنه كان منهوماً بالحلوى والأطعمة الثقيلة ، مستسلماً للشهوات مسرفاً في الشراب مع ضعف أعصابه واعتلال جسمه ، فمن الجائز أنه أصيب به فاشتد عليه في شيخوخته وفصده الطيب وفسد الجرح كما جاء في رواية زهر الآداب فأودى ذلك بحياته . ويسهل في هذه الحالة أن يشيع حديث السم ولو احقه لما كان يعتري ابن الرومي من كثرة التوهم أو لما كان مشهوراً عن القاسم من سوء الطوية والضراوة بالغدر والفتك بحيث لا يكبر عليه قتل شاعر هجاءه ، فاذا كان الموت قد حدث بعد وليمة في بيت القاسم فهذا مما يؤكد التهمة ويصعب على الناس أن يعللوه بغير السم والمكيدة ، وان كان الطعام وحده كافياً للقضاء على رجل جاوز الستين في شيخوخة منهمة مهملة طالت إصابته بمرض دفين لم يكن علاجه ميسوراً في أيامه :

هذه شبهة تعرض للذهن بين مختلف الشبهات ، وكل قيمتها عندنا أنها مما لا يصح اغفاله في تحقيق وفاة الشاعر . فهي احتمال كل ما فيه أنه غير مستحيل .

أما أن القاسم كان أهلاً لأن يغدر بابن الرومي وأن ابن الرومي كان عرضة لغضب ذلك الوزير الفاتك المقتال فهو احتمال جد قريب ، فالقاسم جريء مستخف بالدماء وابن الرومي قانط سريع الغضب . وليس أيسر من أن ينسى القاسم رجلاً كابن الرومي حين أقبلت الدولة عليه وعلى أبيه وآله وتبدلت مجالسهم الأولى وأخذوا في شأن من الصولة

والأبهة غير شأنهم الذي كانوا فيه ، وليس أيسر من أن يطمع ابن الرومي في عمل أو مرتب أو مكافأة تغنيه حين أقبلت الدولة على ممدوحيه وأصحابه بالأمس في أيام التطلع والانتظار ، ومن هنا يبدأ الغضب فاللوم فالوشاية فالمبالغة في الجفاء فالهجاء من الشاعر فالوعيد من الأمير الذي ليس بين وعيده وإنجازه عائق من خوف ولا محاسبة ضمير . وسلسلة القصائد التي تشفع بها ابن الرومي وسأل العمل واعتذر من أحاديث الوشاة سلسلة طويلة يسهل ترتيبها لولا أنه لا فائدة من هذا الترتيب . فحسبنا منها أن القاسم سمع الوشائيات التي تحدث بها جلساؤه ومنافسو ابن الرومي والخانقون عليه لهجائه ، فامعن في جفائه والاعراض عن توسلاته وشفاعاته ، فلم يفلح ابن الرومي في استعطافه بمثل قوله :

بلغ البغاة عليّ حيث أرادوا	والله كائدهم بما قد كادوا
وهو الشهيد عليّ أني لم أقل	بعض الذي قد أبدأوا وأعادوا
وهب السعاة أتوا بحق واضح	أين الكرام ؟ أبدلوا أم بادوا
.....
عفو الملوك عن الهجاة مدائح	مدحوا نفوسهم بها فأجادوا

ولم يفلح في استعطافه بأضعاف هذا الكلام وهو كثير .

وحسبنا منها أن القاسم كان يتوعد ابن الرومي بالقتل فقال الشاعر يقابل بين ما وشى به السعادة إليه وما وشوا به إلى القاسم :

تحدثت الأملاء أنك حاسبي	على غير أجرام وأنك مغتالي
وما قيل املاء الرجال وقالهم	بأسهل من قبلي عليك ومن قالي
ثم يستطرد إلى الترضي والاستعطاف :	

أخالك لو عايتنني في حفيرتي	بكيت عظامي الباليات وأوصالي
وسرك أن أحيأ كما كنت مرة	بيذل الفداء الجزل والثلث الغالي
فلا تحفني حيا ولا تبك رمتي	كمصرف عني يسائل اطلالي

وتكرر وعيد القاسم بالقتل فتكرر استعطاف ابن الرومي وتذكيره بسالف المودة :

أيقتلني من ليس لي منه ناصر عليه ، وأعوانني عليه مكارمه

أبى ذاك أن الحكم بيني وبينه وأن علو القدر فيّ يخاصمه
وقد طالت السعيات وطال التوسل حتى اجتمع من ذلك ديوان غير صغير في حجمه ولا
في معانيه وابتكاراته ، وابن الرومي في كل ذلك لا يرى من القاسم إلا :
غضباً ألح من السحاب إلا حم ورضى أعز من الغراب إلا عصم
فضاق صدره وجاهره بالهجاء وأفرغ كل ما في جعبته من قذع أخفه :
يا من إذا ما رأته عين والده بين الرجال اتقاهم بالمعاذير
أقسمت بالله أن لو كنت لي ولداً لما جعلتك إلا في المطامير
وقال في آل وهب عامة :

حتى آل وهب يرتجي الري حائم إذا كتمم مُلأك سُبُل المحامد
اتهمهم في اسلامهم لأنهم كانوا قديماً نصارى فأسلموا فقال فيهم من هذه القصيدة :
وأحييتهم دين الصليب وقمتهم بتشديد « بيعات » وهدم مساجد
وابطال ما كان الخليفة جعفر تخيره زياً لكل معاند
يشير إلى إبطالهم زى أهل الكتاب الذي أمر به الخليفة المتوكل في أيام غلوائه ونقمته على
أصحاب النحل جميعاً وقراء الفلسفة وعلم الكلام .
فليس من المنتظر بعد هذه القطيعة وهذا الهجاء أن يتورع القاسم عن قتل ابن الرومي
إذا استطاعه ، وهو مستطيعه كما استطاع قتل عم الخليفة بغير جريرة ودبر لذلك تدبيره
الذي لم يعلم به الخليفة إلا بعد موته ، ومتى توعد القاسم بالحبس والقتل فليس هو
بالذي يتردد في انجاز وعيده أو يعجز عنه ، وليس ابن الرومي بالذي يتخذ الحيلة من
مكيدة يراد بها وهو يسأل القاسم عطفاً وينخدع في ظواهره بغير عناء .
وبقية المرحلة بعد هذا قصيرة :

ذهب ابن الرومي إلى داره وهو يتوقع الموت ويتلمس الشفاء و « لا مفر من الموت ولا من
قضائه المحتوم » كما قال وغلط عليه الطبيب أو عزّ عليه دواؤه فكانت إصابة المقدار .
فتلقاه الموت آخر الأمر كما تلقته الحياة : نفساً يساورها القلق ويتوفز فيها الحس ولا تزال
من خوف الألم في ألم : اطمأنت إلى القضاء المحتوم اطمئنانها وأبت أن تطمئن إلى آلامه

وصرعاته ، فاستحضرت المديّة الرميضة تحاول أن تتعجل بها الموت اذا اشتدت عليها
سكراته وأبطأ نزوله ، ولم تخش في ذلك عقاب الدين وله عليها ذلك السلطان المرهوب ،
وللساعة عندها « هولٌ دونه الهول » وبعدها حساب عسير لا شك فيه .

تلك خاتمة الترجمة التي استخرجناها من شعر ابن الرومي وعثرنا فيها بتفاصيل ودقائق لا
تستخرج من شعر شاعر غيره . فكأنما انتزعها من قبضة العدم انتزاعاً وتشبث بها كما
تشبث بالحياة فغلب عليها اهمال التاريخ غلباً . . . والفضل في ذلك لتلك الملكة الفنية
التي خلقت لتحس وتعبر عما تحسه وتسجل تعبيرها في سجل الفنون ، والتي أرهفتها
الأسقام والألام حتى أصبحت وسواساً يبالغ في تحريره واستيفائه كما يبالغ كل وسواس في
التوكيد والتقرير .

الفصل الرابع

عبقريّة ابن الرومي

فرغنا في الفصل السابق من حياة ابن الرومي لتكلم في هذا الفصل عن عبقريته وهي زبدة حياته والغرض الذي من أجله عاش ومن أجله يكتب الكتّابون عنه . فما تحرك في حياته حركة إلا كان لعبقريته منها نصيب أو في نصيب . حتى لكأنه كان لا يتحرك ولا يتنفس ولا يطعم ولا يشعر إلا ليتخذ من ذلك كله مادة حياة ويترجم ما عمل وما علم في قالب الفن ترجمة البر الأمين ، وصفوة القول في هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الافراط والانهاك ، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير .

ولسنا نصفها هذا الوصف لأنه تفسير سهل لهذه العبقرية النادرة ولكن لأنه وصف موجز يدل على أجزائها المختلفة بقليل من الكلمات .

فربما كان القول بأن ابن الرومي رجل حسّاس متوفّر الأعصاب مُلَبّي المزاج نشأ في حضارة زاهية فأجابته وأجابها وأخذت منه وأخذ منها فنبغ على ذلك المثال الفريد لأنه لا بد في الشعر من مثال فريد - ربما كان هذا أقل في العجب من تفسير عبقريته بأنها عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثة عن آبائه اليونان . . . إذ من هم أبأؤه اليونان ! لا ندري أهم من اغريق الجزر أم من اغريق البلاد المعروفة باسم اليونان أم من اغريق آسيا الصغرى التي كانت تدور الحرب فيها وحولها بين المسلمين ودولة الروم . ومن الصعب الذي يحتاج الى التفسير أن تقول إن هؤلاء الاغريق جميعاً سليقة واحدة وأمة واحدة وعنصر واحد يتحدث منه الرجل وينتقل إلى بيئة أخرى وينجب الأبناء في بيئته الجديدة فيجتمع فيهم كل ما تفرق من خصائص العبقرية الفنية التي تسمى الآن بالعبقرية اليونانية .

ثم نحن لا نعلم أن الاغريق في قديم عهدهم كانوا عنصراً واحداً ينتمي إلى سلالة

واحدة ، لأن امتزاج الأنساب بينهم وبين الأسويين ثابت لا شك فيه واقتباسهم من عقائد الأسويين وفنونهم ولغاتهم ثابت كذلك أقطع ثبوت . ولا يمكن أن نجزم برأي في وراثة الفطرة الفنية ولا سيما الفطرة في الشعب كله حتى لو عرفنا الأصل الذي تحدر منه ابن الرومي بين أصول اليونان الكثيرة . فقد كان في بلاد اليونان نفسها ألوف من أبناء الشعب اليوناني المحاطين بالبيئة اليونانية في جميع ظواهرها وبواطنها فلم ينبغ منهم في عصر ابن الرومي شاعر مثله ولا ينبغ منهم في العصور السابقة التي أزهرت فيها آدابهم وفنونهم شاعر من طرازه في جميع خصائصه وملكاتة . فلو أننا نقلنا ابن الرومي من الأدب العربي إلى الأدب اليوناني لكان فذاً في آدابهم كما كان فذاً في أدبنا ، ولم تنقض الحاجة إلى تفسيره بهذه النقلة من أدب لغته إلى أدب أصله ، ولو أننا بحثنا عن مزية أصيلة في الفطرة اليونانية تنتقل مع الدم وتسري في خلال التكوين لأعيانا أولاً أن نحصر هذه الفطرة ثم أعيانا بعد ذلك أن نحصر هذه المزية .

فنحن لا نفسر عبقرية الشاعر حين نسميها بالعبقرية اليونانية ، ولكننا نصممها في كلمات موجزة وصفاً يقر بها إلى الأذهان ويطبّعها بهذا الطابع المعروف عند المطلعين على الآداب . وما من شك في أن الشاعر الذي تحدر من أصل يوناني أياً كان مقره غير الشاعر الذي تحدر من أصل عربي أياً كان مقره . ولكن التفريق بين هذين الشاعرين شيء والقول أن الشاعر لا يحس هذا الاحساس ولا ينظم هذا النظم إلا إذا كان من أبناء اليونان شيء آخر . فحسبنا أننا نعرف ما نريد حين نذكر العبقرية اليونانية ولا نحاول بعد ذلك الخروج إلى تعليل الأصول والتعسف في تقسيم خصائص الشعوب .

وإنما وصفنا ابن الرومي بهذه الصفة لأنه صاحب عبقرية تعبد الحياة ، ونحيا مع الطبيعة ، وتلتقط الصور والأشكال ، وتشخص المعاني ، وتقدم الجمال على الخير أو لا تحب الخير إلا لأنه لون من ألوان الجمال ، ثم هي تنظر إلى الدنيا نظرتها إلى المعرض المنصوب للتملي والمتعة لا نظرتها إلى الحصن المغلق أو الصومعة الموحشة أو غير ذلك من نظرات الأجيال والأديان ، ولا نعرف صفة أجمع لهذه الخصال كلها من صفة العبقرية اليونانية التي اتسمت بها في الجملة فنون الأغريق ، فقد كان الأغريق بجملتهم كما كان ابن الرومي بمفرده ، لولا أن الأغريق كانوا يصيبون من كل متعة بمقدار وابن الرومي كان لا يعرف في أمر من الأمور مقداراً أقل من الإفراط والانهك .

عبادة الحياة

ولننظر أولاً إلى حب الحياة الذي كان أول ما اشتهر به اليونان وأول ما تستشقه من فن هذه العبقرية الحية في كل جزء من الأجزاء وكل حالة من الحالات . فابن الرومي كان من أخلص محبي الحياة بين محبيها الكثيرين ، أو كان على الأصح الأوضح من مدمني الحياة بين شرابها غير المدمنين .

وحب الحياة خليفة نادرة وإن ظن أنها أعم شيء بين الناس وعامة الأحياء . فليس الحب - سواء حب حياة أو حب شيء من أشياءها - سهلاً رخيصاً يطمع فيه كل من يريد . فمن الناس من يحب الحياة كأنه مسوق إلى حبها ، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عمله ، ومنهم من يحبها كأنما يحب شيئاً غريباً عنه ، ومنهم من يحبها كما (يحب) الحيوان الأعجم ما هو فيه ، ومنهم من يحبها حب العاشق الذي يختار معشوقه أو يستوي عنده الحب على القسر والحب على المشيئة لأنه يريد ما يقصر عليه ويأبى أن يفرض للفراق وجوداً أو يتوقع لهواه تغييراً ، فهو سعيد بأن يحب وأن يُسمح له بأن يحب ، وهو يحب الحياة لأنه حي لا موت فيه ولا عمل لكل حاسة في نفسه إلا أن تحس وتحيا وتستجد احساساً وحياة ولا تشبع من الاحساس والحياة ، وهكذا كان ابن الرومي يعبد الحياة عبادة لا يبتغي عليها أجراً غير ما يبتغيه خلص العابدين . فكان حيا كله لا مكان فيه للموت إلا الخوف منه والتفكير فيه .

وإنك لتتابع أبياته الكثيرة في هذا الغزل أو في هذه الفتنة أو في هذا السكر فيخيل اليك أنه شارب قبض على الكأس يود أن يجرعها مرة واحدة من فرط التعطش والخوف عليها لولا أنه يستعذبها ويستطيبها فيترشف منها رشفة بعد رشفة ويعود إليها ينظر ما فرغ منها وما بقي فيها ، ويضن ويشتاق ويشعر بمرارة الفقد لفرط شعوره بحلاوة المتعة ، فما نقصت من تلك الكأس - الحياة - قطرة إلا أحس بطيبتها وأحس بألم فقدتها وعرف مقدارها وقاس من الكأس حيزها وعاد يترشف لينسى فيزداد ذكراً على ذكر وخسارة بعد خسارة . وأي ذكر ؟ وأي خسارة ؟ وأي ألم ؟ وأي فجيرة ؟

لعمرك ما الحياة لكل حي إذا فقد الشباب سوى عذاب
فقل لبنات دهري فلتصنبي إذا ولي باسهمها الصياب

ومن هذه اللهفة بعد اللهفة تعرف كيف بلغ العشرين وكيف بلغ الثلاثين وكيف بلغ الخمسين وكيف بلغ الستين في قصائد ومناسبات علة لا موضع هنا لاحتصائها ولكنها

تدلك إذا راحعتها على مغالاته بهذه الوديعه وضنه بتسليمها والتعريط فيها وحرصه على دخيرتها حرص الشحيح الذي يود أن يزيد في ماله المحسوب وهو يراه ينقص ساعة بعد ساعة ولمحة بعد لمحة :

وهو إذا ذكر الشباب لم تكن صورة الشباب في ذهنه أنه فترة من الزمن ، أو ظواهر من المتعة والعافية ، وإنما يذكره وهو ينفذ إلى صميمه وباطنه ولبابه الذي لا يحسب بالأيام ولا معول فيه إلا على جدة الشعور وجلاء الدنيا في بشاشتها الأولى كأنها الثمرة المقطوفة ولها من الشمس صبغة جديدة ومن الطل مسحة غضة ومن العصير المكنوز وليمة تنادي الشهوة وتفتح اللهوة .

فلا يعنيه أن يدوم له الشباب وإنما يعنيه أن تدوم له الدنيا القديمة وهي في جدة البواكير وفي طرافة المفاجأة التي لا تذال . وإلا فما يغنيه أن يدوم الشباب والدنيا أمامه مذالة المنظر مجرودة اللون مسلوبة من تلك المفاجأة في كل نظرة وفي كل لقاء ؟

لو يدوم الشباب مدة عمري لم تدم لي بشاشة الأوطار
أجل . هذا هو الشباب في صميمه وباطنه ولبابه . والشباب عنده أيضاً أن يستقبل الحياة لأنها لا تكون جديدة إلا بهذا الاستقبال :

أطالع ما أمامي بابتهاج ولا أقفو المولى باكتئاب
والشباب عنده دولة يولّى صاحبها على هذه الدنيا فتطيعه وتعطيه من خيراتها كل ما تملك وكل ما يصبوا اليه :

سقي الشباب وإن عفا آثار معهده القثير
ما كان إلا الملك أو دى تاجه وهوى السرير
والشباب عنده هو الحياة ، لا فرق بين فقدته وفقد الحياة إلا أن فاقد الشباب يعلم بموته وفاقد الحياة لا يعلم ولا يأمل على ما فات :

وفقد الشباب الموت يوجد طعمه صراحاً ، وطعم الموت بالموت يفقد
والشباب عنده مفقود لا عزاء بعده إلا عزاء الموت القريب :
فما لي عزاء عن شبابي علمته سوى أنني من بعده لا أخلد

وان مشيبي واعد بلحاقه وإن قال قوم انه يتوعد
والشباب عنده مَبْكِي لا يُوفى البكاء إلا بالدم :

لا تلحُ من يبكي شببته إلا إذا لم يبكها بدم
ومرثي لا ينقطع رثاؤه حتى الممات :

سأئنني بآلاء الشبيبة باسطاً لساني بها حتى أحين فاقبضا
والخير الأكبر هو أن يحيا الانسان ، والشر الأكبر هو أن يموت ، ولا سيئة عنده لهذا الخير
العميم الا تنغيص ذلك الشر العميم :

سواة للحياة والموت حتم ولبذل الزمان واسترداده

وكل ما في الحياة من قلة الغبطة ان الأحياء يموتون :

كيف العزاء وما في العيش مغتبط ولا اغتباط لأقوام يموتونا
متى نعش قبل الأحياء يدركنا وان غمت قبل الأموات يعفونا

وعلى هذا النحو يقول :

رأيت حياة المرء رهناً بموته وصحته رهناً كذلك بالسقم
إذا طاب لي عيش تنغصت طيبه بصدق يقيني أن سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعي زواله فذلك في بؤس وإن كان في نعم

فالخلود ، الخلود ! لا شيء دون الخلود يرضيه ويستقر عليه مناه ، وإلا فبنو الحياة
بائسون محرومون لأنهم لا يعيشون لا لأنهم يعيشون كما يقول المتشائمون الذين لا يحبون
هذا الحب ولا يعبدون هذه العبادة ولا يحسون هذا الاحساس . وما تكلمنا بالمجاز حين
قلنا انه يعبد الحياة لأنه - على ما في شعره من هذه الأبيات المفرقة في شتى القصائد - قد كان
يعلم ويقول إن للحياة ديناً يحرم ويحلل ويامر ويطاع ولو عارض أوامر الدين :

شربت وقد كان الشباب محللاً لي السراج ما كان الكتاب محرماً
وقد طابق الشيب الكتاب فحرمت على فيك محرمين إن كنت مسلماً

وذكر المحرمات في قصيدة أخرى فقال :

لم تحلل لمن أتاها ولكن	لم يحل دونها من الشيب حام
وأتى الآن دونها فهي اليو	م حرام عليّ كل الحرام
سوائى إن أطعت شيبى فيما	لم أطع فيه حاكم الحكام
وعظ الله والكتاب فصم	ت وأقدمت أيما إقدام
ونهى الشيب بعد ذاك فأسل	مت وأحجمت أيما احجام

فقد كان يدين في خواجه هذا الدين ويستوحى منه شريعة التحليل والتحرير ، وتهم خواطره بالتبتل فيثنيه عنه هذا التبتل الذي لا تسكت دعوته ولا ينقطع رسوله :

أبى لأخي الدنيا التبتل أنها	لها زيفة في كل حين تزيفها
إذا ما جلاها في الرياض ربيعها	يروق عيون الناظرين رفيفها
وأخرى إذا ما أينعت ثمراتها	ورقت حواشيها وطاب خريفها
ترأى لنا في زخرفين كلاهما	إذا استوحف الأهواء طال وحيفها

وقد كان همه الأكبر أن يحيا لأنه مهياً النفس للاحساس بالحياة ، ولو كان همه على ما به من الخصاصة واللهفة أن يطلب القوت وينصرف إلى ذرائع العيش لما كان بالملوم .

وتعلق ابن الرومي بالحياة أقل شيء غرابة وأقرب شيء إلى طبيعة الأمور . نعم انه كان سقيم الجسم عسير الرزق مخيب الآمال فكان أخرى لذلك أن ييغض الحياة أو يحبها حب المجبر الملول ، إلا أن المرء لا يحب الحياة على مقدار سعادته بها واستجابة آماله فيها ، كما أن المرء لا يحب المرأة على مقدار ما ينال من حظوتها ويغنى من اقبالها ، بل يحب هذه أو تلك كلما امتلأت بها نفسه واشتغل بها حسه واشتبتكت بها ذكرياته وامتزجت بها رغباته ، وابن الرومي كان صاحب نفس لا توصف إلا بأنها أداة مهياة للنظر والسمع والتلقي عن الوجود من حيثما ألقى اليه بأثر من آثاره وخبر من أخباره دق أو جل وأسعد أو أشقى :

العين لا تنفك من نظر والقلب لا ينفك من وطر

ومن أبهر ما يبهرك في هذه اليقظة الحسية حاسة اللون الذاكية المتوهجة التي تطالعك من كل وصف يصف به الوجوه أو الازهار أو الكؤوس أو الحلوى أو الخمر أو غير هذه المناظر التي تلامس البصر بألوانها فانك قل أن ترى في وصف شاعر من شعراء العالم أجمع نظيراً لهذه الحاسة الشفافة المتوفرة التي تختلج لكل لمحة من لمحات اللون وكل شعاع من أشعة النور

وتفطن إلى ألطف ما يبيديه للعين من محاسن الامتزاج والمقابلة وأصفى ما يجلوه من دقائق
المباينة والمشاكلة . فيصيح صيحة الوهل حين يرى الوجنة الحمراء إلى جانب الصدغ
الأدعج ؛

يا وجنتيه اللتين من وهج في صدرغيه اللذين من دعج
ما حمرة فيكما ، أمن خجل ؟ أم صبغة الله ؟ أم دم المهج ؟
ويصيح هذه الصيحة كلما رأى هذا النظر
ليت شعري أسحر عينيك داء الـ قلب أم نار خدك الوهاج
ويقول في مثل هذا المعنى :

تلقى جنى التفاح في وجناته وترى جنى العناب في تطريفه
تمتعت منه مسامعي ومراشفي بنشير لؤلؤه وماء رصيفه
ويصف قينة فلا يكاد يعرض من مناظرها لغير الألوان التي في وجهها وثيابها :
وقينة ان مُنحت رؤيتها رضيت مسموعها ومنظرها
شمس من الحسن في معصفرة ضاهت بلون لها معصفرها
في وجنات تحمر من خجل كأن ورد الربيع حمراها
ويقول في ساقية :

بنت كرم يديرها ذات كرم موقد النحر مثمر الاعناب
حصرم من زبرجد ، بين نبع من يواقيت جمرها غير خاب
فوق لبات غادة تترك الخا لي من كل صبوة وهو صاب
تحمل الكأس والحلي فتبدو فتنة الناظرين والشراب
وفي قينة :

وشرابنا وردية لكؤسها شرر يطير
حمراء في يد أحمر الو جنات ملثمه مهير
وفي مثلها :

إذا هي قامت في الشفوف أضاءها سناها فشفت عن سبيكة سابك

وفي قيان مجتمعات :

لابسات من الشفوف لبوساً كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجوهر المضيء سناه شعلاً يلهب أي التهاب
وليس أطف من قوله في وصف الأعناب السود :
سود لهن من الظلماء ألوان

وفي العنب الابيض :

لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء في ظروف نور
أما الخمر فرجما كان نصيب عينه من نشوتها أجمل لديه وأحب إليه من نصيب السكر عند
الشاربين - إذ تراه لا يصف سكرها كما يصف ألوانها وألوان أقداحها بل هو يكاد يحسبها
لوناً شائعاً في الفضاء كما قال :

صفراء تنتحل الزجاجاة لونها فتخال ذوب التبر حشو أديمها
لطفت فقد كادت تكون مشاعة في الجو مثل شعاعها ونسيمها

وكما قال في موضع آخر :

نضا الدهر عن أسارها جل لونها فغادرها من لونها في غلائل
ثوت تصطلي شمس الظهائر برهة إلى أن أفادت لون شمس الأصائل
وهكذا يقول في الرياض التي :

توقدُ فيها كلما تلمع الضحى كواكب يذكون نورها حين تشمس

أو في الشقائق التي هي :

ترَفُ لأبصار كحلن بها ليرين كيف عجائب الحكم
شعل تزيدك في النهار سنى وتضيء في محلولك الظلم
أعجب بها شعلاً على فحيم لم تشتعل في ذلك الفحم

وهكذا يقول في كل شيء .

وليست حاسة البصر متفردة بهذه القوة بين حواس ابن الرومي ولاحظها من الذكاء

والتوفر بأوفر من حظ غيرها ، فإن الرجل كان يسمع ويشم ويذوق ويتلمس كما كان يبصر ويتصور ، فلا تقصر حاسة من حواسه عن أختها ولا تشكو إحداهن كلالاً أو فتوراً في حصتها من التمييز والشعور ، وهو القائل في وصف صوت :

صوت نديٍّ وأنفاس مساعدة كأنما نفس منهن أنفاس
يظل سامعه لدناً مفاصله كأنما فترت أوصاله الكاس

وفي وصف مغنية :

مدّ في شأو صوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقها مديد
وأرقّ الدلال والغنج منه وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشي وفيه حلي من الد غم مصسوغ يختال فيه القصيد

فكأنه قد بلغ في تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين يتمثلون للأنغام ألواناً وزخارف وأوشية تكاد تنطبع في صفحة الخيال أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها في قرارة الوجدان . وهو لا يدع لك أن تشرح أو تستخلص ما تقرؤه من كلامه حتى يقول لك بالعبارة الصريحة أنه يصل بين الرؤية والسماع ويترجم بين الحاستين فينقل إلى لغة العيون ما تضمنته لغة الأذان . وإليك ما يصف به إحدى القيان :

ذات صوت تهززه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطل عنه في تثنيه مثل حب الجمان
ذلك الصوت في السامع يحكي ذلك الغصن في العيون الرواني

ثم يستطرد إلى تمييز الأنغام فيقول :

جهوريّ بلا جفاء على السم ح مشوب بغنة الغزلان
فيه بم وفيه زير من الد غم وفيه مثالث ومثان
فتراه يحل في السمع حيناً وتراه يدق في الأحيان
رخته ورقفته وضاهي فعلها الأحمران والأسمران
فهو يحكي ترقق النهي في الر يح لعيني ذي غلة صديان
يلج السمع مستمراً إلى القل ب بلا أذانٍ ولا استئذان

وانك إذا قرأت مدائحه الأخريات في القيان المحسنات وأهاجيه في شنطف ودبس وأبي

سليمان ومن لا يجيد هذه الصناعة من المغنين والمغنيات علمت أن له أذنًا واعية تهفو إلى السماع الجميل وتنفر من السماع القبيح ، وإذا قرأت مبتكراته في فضائل الأزهار والرياحين ولذة الاستمتاع بروائحها وتمييزه لمراتبها علمت أنه كان يستروح من جمال مشموماتها مثل ما كان يستروح من جمال مناظرها ، وإذا قرأت ما قال في الموز الذي « يدفعه البلع إلى القلوب » وفي المشمش الذي إذا رأيت بستانه « فأيقن بحق أنه لطيب » وفي الدجاجة التي تلوح له « سميطة صفراء دينارية » والتي « يكاد أهابها يتفطر » . أو قرأت مقطوعاته في القطائف والفطائر واللوزينج والحلوى التي كان يقرظها ويفتن في تشبيهها علمت كيف كان النهم بالمناظر والطعوم باباً عنده للنهم بالطعام ، بل حسبك من دليل على شراهة حاسة الطعم عنده وقوة التذاذبه بها قوله انه ما كان ليحفل بالموت أو ليجزع من القبر « لولا فواكه ايلول . . . ! » .

وحاسة اللمس في هذه الاداة الحسية اليقظي كحواس البصر والسمع والشم والطعم في الدقة والرفاهة والانتباه . فها هو ذا يصف الريح الشمالية :

وشمال باردة النسيم تشفي حرارات القلوب الهيم

.....

شاردة في الليل بالنسيم بين نشير الروض والخيشوم

كأنها من جنة النعيم

وها هو ذا يصف الليل في شهر ايلول .

يا حبذا ليل ايلول إذا بردت فيه مضاجعنا والليل سجواء

وجمش القر فيه الجلد فائتلفت من الضجيعين أحشاء فأحشاء

أوها هو ذا يصف البارد :

ألذ من معتق الرساطون وقهوتي قُطربل وكَرْكين

رجرجة من ماء ليل تشرين كرونق السيف اليان المسنون

باتت على مَرْدِ نياف العرين تنفحها الريح برّسَ ممنون

في شطر كوز صُنع طَبَّ أفنون أخضر في خضرة جرو اليقطين

ألسن يا محرومها بمغبون

فها هنا تلمس معه برد الهواء الذي « يجمش » الجلود والاحشاء . بل ها هنا يخيل إليك

أن لبرد الماء في « شطر الكوز » الأخضر ثقلاً راسباً ينقع الغلة بالرجرجة قبل أن ينقعها بالشراب ، وأن الشاعر ما اختار « معتق الرُساطون » من أسماء الخمر إلا لأنها كلمة مجسمة أشبه بالرصاص البارد الذي ترى لاستقراره راحة كراحة الظمان بعد الارتواء . ثم تعيد نظرك في الأبيات فتعجب ما هي الحاسة التي لم تشترك في وصف هذه الأبيات ؟؟ أم هي حاسة البصر وهي ترى للماء رونقاً كرونق السيف اليان المسنون ، وترى خضرة الكوز كأنه جرو اليقطين ، وترى « شطر » الكوز وهو كأنما تفلق من برودة ما فيه ، وترى صنعة الكوز فإذا هي صنع قادر صناع ؟ أم هي حاسة السمع وهي تصغي إلى رجرجة الماء ونفح الريح ؟ أم هي حاسة الري وهو هنا نافع لا يُبقي من الظمأ بقية في الصدور ؟ أم هي حاسة الخيال وهو يرتفع بالكوز إلى رأس الطود النيف العرنين ويشيع القلب بالخمر المجلوبة من قطر بل وكركين ؟ فأوجز ما يقال في تصوير ابن الرومي لهذا الكوز انه قد التهمه حساً بكل ما فيه من منظور ومسموع ومشروب ومتخيل ولملموس .

فهذه أيها القارئ نفس تامة الاداة تشعر شعوراً شديداً بالحياة من حيثها واجهتها وتداخل الطبيعة في كل جزء من أجزائها . فقد عاش صاحبها يوماً يوماً من عمره ، وناحية ناحية من وجدانه ولا بس الحياة ولا بسته :

ودامت الدنيا له غضة كأنها الجارية الناهد

وليس الأمر كله حساً بالظواهر كذلك الحس الذي لا مذهب له وراء العيون والآذان والأناف ، ولا هو بالدقة التي ترهف الحواس ارهافاً فلا يكون قصارهاها الا أن تقابل بين المراثيات والمسموعات أو بين هذه وتلك وبين المسمومات والملموسات . . كلا ! فان هذه اليقظة الحسية لتصاحبها يقظة في الشعور الباطني تسري به في كل مسرى وتنفذ به إلى كل منفذ وترجم العواطف والأخلاق كما تترجم المناظر والألحان ، فإذا تتبع « المكر » في خبايا الفكر فهو القائل في ذلك قولاً لا يسبقه فيه شاعر :

لك مكر يدب في القوم أخفى من ديب الغذاء في الأعضاء
أو ديب الملal في مستهامين إلى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء في ظلم الغيب إلى قاصد له بالتواء

وإذا جال الحزن في نفسه بدت منه على الكون غشاوة ولاح له كأنما نُفخ في الصور ودُمّر كل عامر :

واظلمت الدنيا وباخ ضياؤها

نهاراً ، وشمس الصحو حيرى على القمم

.....
وابدى اكتئاباً كل شيء علمته واضعاف ما أبداه من ذاك ما كتم

ثم عرف انه هو الحزن الدخيل ، وليست الدنيا البادية للعيان هي التي يراها بتلك
النظرة الشاحبة فقال :

كذاك أرى الأشياء إما حقيقة بدت لي وإما حلم مستيقظ حلم
ولم يحلم اليقظان الا وقد أتت على لبه دهياء هائلة الفقم

وقد يتأمل المرأة فاذا هو محيطٌ- في بيت واحد- بسر « الأنوثة » كله ، وبما في المرأة من
ضعف وقوة ، وبما هنالك من العجب في أن تكون هذه المخلوقة العجيبة انساناً كالرجل
وهي والرجل جسدان مختلفان وطبعان متباينان ، وأن تكون غريبة عنه وهي قرينة له ما عن
مقارنتها محيص . وذلك كله ملحوظ في البيت الذي يقول فيه :

ومن عجائب ما يؤنى الرجال به مستضعفات لنا منهن أقران

ولا عجيبة هنا الا العجيبة التي يحسها من أحس سر الأنوثة وسر الرجولة وأحاط بالتوفيق
الغريب بين هذين الانسانين حيث يفترقان وحيث يلتقيان ، واستوعب لغز « الجنس »
ببديهية واسعة لم يحجبها عن ذلك اللغز أن الجنسيتين أشيع ما يرى في عالم الانسان
والحيوان .

وأما وقد ذكرنا المرأة ولغز الجنس المنوط بها ، فقد يكون من الواجب أن نعرف مقدار ما
شغلته من هذه النفس وحركته من هذا الاحساس ، فاذا كان ابن الرومي عابداً للحياة ،
فالمرأة ولا ريب كاهنة هذا المعبد التي تتم على يديها مراسم العبادة ، ومحورها الذي تلتف
حوله الشعائر والقرايين ، وإذا كان ابن الرومي نفساً تيقظت فيها أداة الحس والشعور ففي
المرأة ولا ريب تلتقي أشد مغريات الحس وأعمق بواعث الشعور . ولا بد من شأن لهذه
« المخلوقة » في حياة هذا الشاعر . فما هو هذا الشأن ؟ وما حقيقته ؟ وما مداه ؟ وهل هو
شأن (المرأة) أو هو شأن (امرأة) خاصة أو أكثر من امرأة خاصة ؟ وهل عشق ؟ وهل
أحب ؟ وهل عرف ما هو الحب الذي نعني به شيئاً أكثر من العشق وأكثر من الغرام ؟؟

فأما هذا الشأن فقد كان ولا يعقل إلا أن يكون ، وما فرغ ابن الرومي قط من شأن النساء ولا كره الشيخوخة إلا لأنها تصده عن المرأة أو تصد المرأة عنه ، فلأجلها قبل كل شيء كان يخاف غائلة السن ولأجلها قبل كل شيء كان يتمنى خلود الشباب :

أخشى كسادى على النساء إذا أسند ننت والسن حمة الخبل
وإنسى من كسادهن على سـ نى لأولى بالخوف والوجل
ولأجلها كذلك تمنى أن تنعكس أيام العمر فيتقدم فيه الهرم ويتأخر فيه الشباب :

فالعيش طعمان عند ذائقه مر التوالي مستعذب الأول
من غسل تارة ومن صبـ لهفى لتأخير عقبة العسل
لو أنها أخرت لطاب بها العيـ ش وإن جاوزت شفا الأجل

وفي وسعك أن تقول إنه عرف « العشق » الذي لا يعرفه إلا من نشبت علائقه بامرأة واحدة دون سائر النساء ، فوصف ما وجده من هذا العشق في غير موضع وقال من ذلك :

قد كنت أبكي لأصحاب الهوى زمناً فهل لي الآن من باك فيكيـ
أهكذا يجد العشاق كلهم ؟ يا رحمتا للمحبين المساكين !

وقال :

الحب داء عيـ لا دواء له تضل فيه الأطباء النجارير
قد كنت أحسب أن عاشقين غلوا في وصفه فاذا في القوم تقصير
سقياً لأيام لم أخبره تجربة إلا بما وصفت عنه الأخبارير

بل جرب الغيرة فقال في تهوينها على العاشق ما لا يقوله إلا غيور :

إذا خلـ خانتك بالغيب عهدـ فلا تجعل الحزن ضربة لازب
وهب أنها الدنيا التي أنت موقن بفرقتها إذ أنت في شأن لاعب

فهو قد عشق وغار وكابد لوعة الرغبة التي يحصرها العشق في إنسانة واحدة بين سائر النساء وفارق وناجى وذكّر وقال من ذلك في معشوقة فارقها على أمل اللقاء :

أعلى العهد أنت أم حلت عنه جعل الله قبل ذاك مماتي
لست أنسى امتناع صبرك للتوديع والبين مؤذن بشتات

إلا أن هذا كله عشق وليس فيه حب . وقد يكفي الاحساس والعاطفة لاضرام العشق وإغرام المرء بامرأة يشتهيها ويغار عليها ويشعر نحوها بذلك الشعور الفطري الذي ركب في عامة الرجال وعامة النساء . أما الحب الذي نعينه فلا يكفي فيه الاحساس والعاطفة ولا بد فيه من « الروحانية » أو الزهد والتضحية ونكران النفس ومن ثم نكران الحياة ويقترن ذلك بالتصوف والارتفاع بالمرأة إلى ما فوق مرتبتها في الطبيعة وفوق حظها من محاسن الأجسام . إذ الطبيعة لا تعرف في المرأة إلا أنها أنثى وكذلك العاشق ، أما المحب فانه قادر على أن يفيض من روحانيته نوراً على من يحب وأن يحفها بهالة علوية قد يهابها وقد يخشع لها في بعض المواقف خشوع المتسكين . ولم يكن لابن الرومي نصيب من هذه الروحانية ولا من ذلك النور ، فما كانت المرأة في حسه أو عاطفته إلا أنثى طبيعية ومخلوقاً جميلاً فيه متعة للأعين ومسرة للقلوب ، ونساؤه كلهن نساء المتعة والمسرة على نسق واحد يلخصه مثل هذا البيت :

حوراء في وطف قنواء في ذلف ذلقاء في هيف عجزاء في قب

وهو في هذا أيضاً وفي « للعبقريّة اليونانية » وللصورة التي رسمها اليونان الجمال « فينوس » . فقد كان اليونان طبيعيين في الجمال وطبيين في العشق ولم يكونوا روحانيين في شعر ولا فلسفة ولا تصوير ، وخلاصة الحب عندهم انه نسخة من حب « خلوى ودفيس » في غابة حفلت بالألوف من نسخ هذا الحب بين أزواج الطير والحيوان ، فإذا تنزه فهو حب عصفور لعصفورة أو ظبي لظبية أو حيوان جميل لحيوانة جميلة ، يخلو من الكثافة ويزدان بالخفة والرشاقة ، ولكنه لا يخلو من « الجسدانية » ولا من « الطبيعية » ولا يفارق الأرض ليصعد إلى سماء « الروحانية » والنور . وإذا تنزه بعد ذلك فهو صداقة حامية يشترك فيها الفكر والذوق والغريزة ، ولا ينفصح فيها مجال كبير للنزاهة والتقديس .

حب الطبيعة

وننتقل من ذاك إلى الخاصة الأخرى من خواص الطبيعة اليونانية وهي حب الطبيعة .
فقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون ولم يمنحها الحياة إلا قليلون ! أما الذين منحوها حياة
نحبها وتحبنا ونعطف عليها وتعطف علينا ونناجيتها وتناجينا فأقل من هؤلاء القليلين .

وذاك ان الشاعر قد يؤخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها وأخضرها ويُفتن بما فيها من
الزراكرش والأفانين ثم لا يعدو بذلك أن يمدح شيئاً قد يجد مله في ألوان الحلي وأصباغ
الطنافس ونقوش الجدران ، أو نحن نخطو وراء ذلك خطوة فنقول انه لا يعدو بذلك أن
ينظر إلى دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام ممشوق وحسن مفاصر على الجوارح
والأوصال ، ولكنه لا يتطلع منها إلى عطف ولا يفتش فيها عن طوية .

وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل ، ومهادوثير وهواء بليل وراحة من عناء
البيت وضجة المدينة ، فلا يعدو بذلك أن يستريح اليها كما تستريح كل بنية حية إلى الماء
والظل والهواء - كذلك تهجع السائمة في المروج ، وكذلك تهتف الضفدع في الليلة
القمرء .

وقد يمنحها الشاعر حياة من عنده أو من عند الخرافات والأساطير فإذا هي حياة بغیضة لا
تصلح للتعاطف والمناجاة ولا يصدر عنها إلا الفزع والاحجام ولا تقوم بينه وبينها إلا
الحواجز والعداوات .

أما الطبيعة التي تحب وتُناحي ويتم التعاطف بين الشاعر وبينها عن ثروة غزيرة من الشعر
والشعوب فهي طبيعة الحور الخافقات في الهواء ، والعرائس السابحات بين الأمواج ،
والعداري الراقصات في عيد الربيع ، والجنيات الهامسات في رفرقة النسيم ورفرفة الغدير
وحنين الصدى وحفيف الأغصان ، أو إن شئت فقل إنها هي الطبيعة العامرة بما في البروق
والرعود والسموات والأعماق من بطولة وعظمة ، ونضال جياش بالغضب الظافر ،
والسطة المجيدة ، والخطر المثير ، والشجاعة التي تقدم ولا تحجم وترجو ولا تخاف ، أو
إن شئت فقل إنها هي الطبيعة التي تبث الأغراء في كل شيء حتى ليحذر الملاح لجة البحار
مخافة أن تستهويه بنات الماء من وراء زرقة الأمواج ، فيثب إلى أحضانها وكأنما يثب إلى
أحضان عروس طال بها عهد الغياب :

فعلى هذا النحو تتجلى الطبيعة للعبقريّة التي تحبها وتمنحها الحياة . فليست هي دمية ولا حلية ، وليست هي مروحة للهواء ولا مجلساً للمنادمة ، ولكنها قلب نابض وحياة شاملة ونفس تحف اليها وتأنس بها و « ذات » تساجلها العطف وتجاذبها المودة ، ثم هي عمار لاخواء فيه وأسرة لا تبرح منها في حضرة قريب يناجيك وتناجيه ويعاطيك الاخلاص وتعاطيه .

وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ويستروح من محاسنها نفساً تتصبى الناظر اليها وتبرج له « تبرج الأنثى تصدت للذكر » ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الانسانية الشاعرة :

فهى فى زينة البغى ولكن هى فى عفة الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولكنه يقوله ويصف الطبيعة الوصف الذي يقتضيه ذلك الشعور ويمليه ذلك التصور ، فيشفّ وصفه لها عن شغف الحي بالحي وشوق الصاحب إلى الصاحب ، وتسمع من تشبيهه بهارئة طرب أو شجولا تخرج إلا من نفس مفعمة باصداء الطبيعة قد نفذت إلى طويتها وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور . فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض « خدا أضرع » من دهشة الفراق ، وهو يحيا مع النوار حين تخضل بالدمع عيونه وتهبط مع الليل شجونته ، وهو يحيا مع الذباب المغرد والطير الساجع في ساعة الغروب التي يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيض ، وهو ينتظم ذلك كله في انشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ولا مزيداً لوحى الخيال والسليقة :

إذا رنّقت شمس الأصيل ونفّضت	على الأفق الغربي ورساً مذعدعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها	وشوّل باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النّوار وهى مريضة	وقد وضعت خدّاً إلى الأرض أضرعاً
كما لاحظت عواده عين مدنف	توجّع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى	كما اغرورقت عين الشجي لندمعا
يرأعينها صُوراً اليها روانياً	ويلحظن الحافظاً من الشجو خشعاً
وبين إغضاء الفراق عليهما	كأنهما خلاّ صفاء تودعا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة	من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا

وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنى مغني الطير فيه فسجعا
وغرد ربعي الذباب خلاله كما حثت النشوان صنجا مشرعا
وهو يعرف الربيع حياة تتحرك في الوحش والطير كما يعرفه زخرفاً تتحلى به الأرض
والسما . لأنه وليمة الحياة للآحياء :

تجد الوحوش به كفايتها والطير فيه عتيدة الطعم
فظباؤه تضحى بمنتطح وحامه يضحى بمختصم
إن الربيع لكالشباب وإن ال صيف يكسعه لكاهرم
وهو ينتشي مع الطيور والأغصان إذا بعث الشمال بتحيتها و :

هبت سحيراً فناجى الغصن صاحبه موسوساً وتنادى الطير إعلانا
ورق تغني على خضر مهدلة تسمو بها وتشم الأرض أحيانا
تحال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه نشوانا
وهو يستمع إلى الروضة في بكائها وشدوها إذ هي :

يتداعى بها حائم شتى كالباكي وكالقين الشوادي
من مثان ممتعات قران وفرد مفجعات وحاد
تتغنى القران منهن في الأ يك وتبكي الفراد شجو الفراد
وهو يفهم الشعر الذي لا ينشده صاحبه للأجر والصنعة :

لكن كما راقى القمري جنته فظل يتبع تغريداً بتغريد
وهو يحسن الاصغاء إلى سر الحياة الكامنة في هذه الأرض وينصت إلى ما يبوح به في
نجواها إذا :

لم يبق للأرض من سر تكامه إلا وقد أظهرته بعد اخفاء
أبدت طرائف وشي من زواهرها حمراً وصفراً وكل نبت غبراء
وهو يشتهي جمال الطبيعة من كل جارحة في نفسه إذا بدت للعين :

برياض تحايل الأرض فيها خيلاء الفتاة في الأبراد
منظر معجب ، تحية أنف ريحها ريح طيب الأولاد

وقد بلغ من قوة هذا الاحساس فيه أن تجاوز حيز البديهة إلى حيز التفكير ، كأنه التفت إلى نفسه فأدرك من طول المراقبة وتواتر الاحساس المتشابه علة أنسه بالطبيعة ، وعلم أنه أنس مستمد مما يفيضه عليها من دلائل الحياة ، فقال في أبيات يصف بها الأغصان :

تلاعبها أيدي الرياح إذا جرت فتسمو ، وتحنو تارة فتتكس
إذا ما أعارتها اصبا حركاتها أفادت بها أنس الحياة فتؤنس

ولما شغف بالشباب ذلك الشغف المتوهج لم ينس معه الشغف بالطبيعة ولم يفرق بين ربيعه وربيعها وبين ثمراته وثمراتها : بل خلع من شبابه عليها وخلع من شبابها عليه ومزج بينها مزجاً لا تخاله يكون إلا في مهجة واحدة وجسد واحد . فاذا تذكر الشباب فاسمع ما هذا الذي يذكره بالشباب :

يذكرني الشباب صدى طويل إلى برد الشيا والرضاب
وشح الغانيات عليه إلا عن ابن شبيبة جون الغراب

يذكرني الشباب حنانُ عدن
تُقيّ ظلها نفحات ريح
إذا ماست ذوائبها تداعت
يذكرني الشباب رياض حزن
إذا شمس الأصائل عارضتها
وألفت جنح مغربها شعاعاً
يذكرني الشباب سراً نهياً
قرته مزنة بكرٍ وأضحى
على حصباء في أرض هجان
له حبك إذا اطردت عليه
تذكرني الشباب صبا بليلاً
أتت من بعد ما انسحبت ملياً
وقد عبقت بها ريا الخزامى
يذكرني الشاب وميض برق
فيا أسفاً ويا جرعاً عليه

على جنبات انهار عذاب
تهز متون أغصان رطاب
بواكي الطير فيها بانتحاب
ترنم بينها زرق الذباب
وقد كربت توارى بالحجاب
مريضاً مثل الحاظ الكعاب
غير الماء مطرد الحباب
ترقرقه الصبا مثل السراب
كان تراها ذفر الملاب
قرأت بها سطوراً في كتاب
رئيس المس لا غبة الركاب
على زهر الربا كل انسحاب
كرياً المسك ضوع بانتهاج
وسجع حمامة وحنين ناب
ويا حزناً إلى يوم الحساب

أفجع بالشباب ولا أعزى ؟ لقد غفل المعزي عن مصابي
تفرقنا على كره جميعاً ولم يك عن قلى طول اصطحاب
وكانت أيكثي ليد اجتناء فعادت بعده ليد احتطاب
أيا بُرد الشباب لكنت عندي من الحسنات والقسم الرغاب
بليت على الزمان وكل برد فبين بلى وبين يد استلاب
وعز عليّ أن تبلى وأبقى ولكن الحوادث لا تحابي
ليستك برهة لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب
ولو مُلكت صوتك فاعلمته لصنتك في الحريز من العياب

وهذا حنين إلى الطبيعة وشبابها وحنين إلى العمر وشبابه لا تدري أين يتبدى أحدهما وأين ينتهي الآخر . فهما حنين واحد وشباب واحد وفاكهة واحدة وروضة واحدة . وانك لتذوق الفاكهة فتذوق فيها طعم الشفاء والخدود وتجذ فيها مس الصفائر والنهود وتجمع فيها بين وليمة الحب ووليمة البستان بعد أن تسمعه يقول :

متّع الظبي من جنى غصنك اللد ن يمتعك منه قبل انختماده
من عناقيده وتفاحه الغتر ورمانه ومن فرصاده

او بعد أن تسمعه يقول :

أجنت لك الوجد أعصان وكثبان فيهن نوعان : تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهذلة سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به اطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات ساري الطل يضربه واقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شيء طيب حسن فهن فاكهة شتى وريحان

فلا افتراق عنده بين الطبيعة والشعور ، يكاد لا ينظر إلى الحسان إلا تذكر الروضة والبستان ، أو يكاد لا ينظر إلى الروضة والبستان إلا بنظرة تثير الرغبة وتوقظ الأشجان .

ولو كان للطبيعة في بلاد العراق ظواهر أخرى غير هذه الظواهر التي تَوَزَّع وصفها في فصائده ومقطوعاته لقرأت له في تلك الظواهر الأخرى وصفاً على هذا الأسلوب يحییها ويناحيها ويلهمها القول والعمل ويرودها بالسير والحاديت ، كما ترى في الأساطير

المروية عن بلاد الرعود والبراكين والمغاور والآجام . لأننا لا نحسب هذه القويحة قادرة على أن تتخيل شيئاً من الأشياء بغير حياة ، ولا على أن تفصل بين عالم الطبيعة وعالم الحياة في أي البلاد .

التشخيص والتصوير

والقريحة المطبوعة على اعطاء الحياة مطبوعة كذلك على اعطاء الشخص ، أو على ملكة التشخيص .

ولكننا نحب أن نستثني هنا ذلك التشخيص الذي تلجئ اليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير مع علم المتكلم بما في كلامه من المجاز والمفارقة . فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث ، وعن القمر بضمير المذكر ، وقد يسند اليهما فعال الأحياء العاقلة وغير العاقلة ، ولكنه بعدُ تعبير لفظي ليس وراءه تصوّر وليس وراء التصوّر - ان كان - أثر من الشعور ، ولا سببا الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين .

وإنما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالقة التي تستمد قدرتها من سعة الشعور حيناً أو من دقة الشعور حيناً آخر ، فالشعور الواسع هو الذي يستوعب كل ما في الأرضين والسموات من الأجسام والمعاني ، فإذا هي حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة ، والشعور الدقيق هو الذي يتأثر بكل مؤثر ، ويهتز لكل هامة ولا ماسة فيستبعد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير وتوقظه تلك اليقظة وهي هامة جامدة صفر من العاطفة خلو من الارادة ، وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومي بكل ما حوله ، وسبب ما عنده من قدرة الأحياء وقدرة التشخيص : قدرة التشخيص التي هي ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين ، وليست قدرة التشخيص التي هي حيلة لفظية تلجئنا إليها لوازم التعبير ويوحىها إلينا تداعي الفكر وتسلسل الخواطر .

خذ مثلاً للمعاني « التشخيصية » التي يأتي بها اللفظ والمعاني التشخيصية التي يأتي بها الشعور من أبيات ابن الرومي في مشهد الشمس ساعة الغروب .

فقد ينظر بعض الشعراء إلى الشمس في هذا المشهد فيجعلها حسناء مفارقةً ، وما دامت حسناء مفارقة فهي معشوقة أو عاشقة ، وما دامت معشوقة أو عاشقة فهناك قصة غرام تدور على هذا المعنى إلى حيث ينتهي بها المطاف ، وكل هذا لأن الشمس مؤنثة في اللغة العربية وحسناً في تشبيهات الشعراء ! فهي قصة مولدة من لفظ عَرَضِي قد يكون لها نصيب من الشعور ، وقد لا يكون لها أقل نصيب ، أما الشيء الذي لا يمكن أن يخلقه اللفظ ولا التشبيهات ولا تسلسل الخواطر فهو الشعور العميق بوحشة الغروب وما ينعكس من ذلك الشعور العميق على الشمس من ترنيق وضراعة وانكسار ونظر يائس كنظر المريض إلى

العواد ووجوم شائع بينها وبين عيون النور التي تغرورق على الأغصان لتدمع وتلحظ
الحاظاً خشعاً من الشجر والأغصاء . فلا بد إذن من شعور يسبق التشخيص ويلقي عليه
ظله ويث فيه من حياته ، وأياً كان لفظ الشمس من التأنيث أو التذكير وأياً كان موقعها من
تشبيهات الشعراء ، فإن هذا الشعور لا يتغير ولا يضعف ولا يزول .

هذا الشعور هو الذي يسبق كل تشخيص لابن الرومي أو كل « صورة مشخصة » في
شعره ، سواء تكلم عن بلد أو يوم أو خليفة أو فترة من العمر أو معنى محسوس أو غير
محسوس .

فأنت تستخرج من بغداد « صورة مشخصة » حين يقول عنها :

بلد صحبت به الشبية والصبا	ولبست ثوب العمر وهو جديد
فاذا تمشل في الضمير رأيت	وعليه أغصان الشباب تميد

وأنت ترى للمهرجان والنيروز « شخصين » يشبان ويشبان ويدنان بالأديان ويحدوها
الشوق وتلوح عليهما الهية حين يلوحان لك في قوله :

شَبَّ المهرجانَ لهُوك فيه	فغدا من غطارف الشبان
وكذاك النيروز رُد عليه	بك شرخ الشباب ذي الريعان
ولسذگرت ذا وذاك جميعاً	سنن الملك في بني ساسان
عمراً برهةً على دين كسرى	وهما الآن بعده مسلمان

فعلى منظرهما هية العـ	ز ونور الاسلام والايمان
وأحباك حب مولى شكور	فهما وامقان ، بل عاشقان
كل يوم وليلة فرط شوق	ونزاع اليك يطلعان
فبهذا وذاك حتى يجيئا	غلة فوق غلة الظمان
لو أصابا إلى الغلاط سبيلا	غالطاً الحاسبين في الحسبان
أو يخلئ عنان ذاك وهذا	سبقا موقتيهما في الزمان
ولوذاً إذا هما بك حلا	لو يقيان ثم لا يرحلان
وعزيز عليهما أن يكونا	عنك لولا الازعاج يرتحلان
لو أطاقا هناك للدهر قسراً	حرنا سائقيه أي حران

ولهنوات النفوس « شخوص » عنده يخاطبها وتخاطبه ويعتب عليها وتعتب عليه وتسمع بينه وبينها هذا الحوار :

ليتني ما هتكت عنكن سترأ	فتويتن تحت ذاك الغطاء
قلن : لولا انكشافنا ما تجلّت	عنك ظلماء شبهة قماء
قلت : اعجب بكن من كاسفات	كاشفات غواشي الظلماء
قد أفتئتني مع الخبر بالصا	حب أن رب كاسف مستضاء
قلن : أعجب بمهتد يتمنى	أنه لم يزل على عمياء

إلى آخر ذلك الحوار .

والشباب روح أو ملك يعيش كما يعيش الرجل وزميله من الجان في بعض الأساطير :

أخي وإلّهي وتربى كان مولدنا معاً وربتني الأيام حيث ربّا
والود كائن حي يعاجله القتل أو يترك إلى الهرم فيموت :

أمتٌ ودّيك عبطةً ، فمءٍ دعه على رسله يمت هرما
والعوسج شرير « ملعون » يهجي ويسخر منه ويقال فيه :

عذرنا النخل في إبداء شوك	يذود به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أبدى	لنا شوكاً بلا ثمر نراه
تراه ظن فيه جنى كريماً	فأظهر عدة تحمى حماه ؟!
فلا يتسلحن لدفع كفرٍ ،	كفاه لؤم مجناه كفاه !

وإذا كانت هذه قدرة ابن الرومي على خلق الأشكال للمعاني المجردة أو خلق الرموز لبعض الأشكال المحسوسة فإن القدرة التي سبق بها الشعراء في الأمم كافة بغير شك ولا تردد هي قدرته البالغة على نقل الأشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال . أو هي قدرته على التصوير المطبوع ، لأن هذا في الحقيقة هو فن التصوير كما يتاح لأنبغ نوابغ المصورين . فلست أعرف فيمن قرأت لهم من مشاركة ومغاربة أو يونان أقدمين وأوربيين محدّكين شاعراً واحداً له من الملكة المطبوعة في التصوير مثل ما كان لابن الرومي في كل شعر قاله مشبهاً أو حاكياً على قصد منه أو على غير قصد ، لأنه مصور بالفطرة المهياة لهذه الصناعة فلا ينظر ولا يلتفت إلا تنبهت فيه الملكة الحاضرة أبداً وأخذت في العمل موفقةً

مجيدة سواء ظهر عليها أو سها عنها كما قد يسهو المصور وهو عاملٌ في بعض الأحيان .

إنما التصوير لون وشكل ومعنى وحركة ، وقد تكون الحركة أصعب ما فيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه . ولكن تمثيل هذه الحركة المستصعبة كان أسهل شيء على ابن الرومي وأطوعه وأجراه مع ما يريد من جد أو هزل وحزن أو سرور ، وقد مر بك وصفه لمشيته التي « يغربل فيها » وللأحدب الذي شبهه بالمصفوع وهو يتجمع وينتهي للصفع ويخشاها ! فأضف إليه هنا وصفه لحركة الكتان في حقله :

وجلس من الكتان أخضر ناعم توسنه داني الرباب مطير
إذا درجت فيه الشمال تتابعت ذوائبه حتى يقال غدير
ووصفه لحركة الرقاق في يد الصانع :

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرْمى فيه بالحجر
ووصفه للقمر في سريانه :

وأسفر القمر الساري فصفحته ربابها من صفاء الجو لآلاء
ووصفه لحركة الري في النبات :

ويحور الخريف وهو ربيع وتسور المياه في العيدان
ووصفه للحركة البطيئة في سير السحائب :

سحائب قيسست بالبلاد فألفيت غطاء على أغوارها ونجودها
حدثها النعامى مثقلات ، فأقبلت تهادى ، رويداً ، سيرها كركودها

فانك تقرأ هذه الأبيات وأمثالها مما سبق في هذا الكتاب فيروعك منها - أول ما يروع - صديق تمثيلها للحركة في الجملة والتفصيل . فليس أصدق من وصف ذوائب الكتان بالغدير وهي تتلاحق مع الريح ، ثم يتم تصوير الحركة هنا تصوير اللون الأخضر والملمس الناعم والغيم الذي يسري على جلس الكتان مع الليل في وقت الوسن ويُسف بحواشيه المطيرة إلى الأرض البليل . فالصورة كاملة لا تنقص منها سمة من سمات المكان والزمان والحركة ولا حظ من حظوظ العين واللمس والخيال ، ومثلها صورة الرقاق وهي

تكبر في لمح البصر كما « تنداح » الدوائر في صفحة الماء ، ومثلها صورة الليلة القمراء وهي كاملة متحركة من بداية الأسفار إلى السريان إلى الصفحة الريا التي تطالعك بالامتلاء والنداءة إلى الصفاء المحيط بكل هذا فالألواء المشرق على ذلك الصفاء . ليس في البيت كلمة واحدة إلا لها مكانها من الصورة ونصبيها من التلوين والتمثيل والتبيين ، ومثل ذلك المياه التي تسور في العيدان كأن لها وجيباً أو ديبياً يتبعه الناظر بعينه ويصغي إليه بأذنه ، والسحائب التي لا تفرق بين حركتها وركودها لأنها أطبقت على أغوار البلاد ونجودها ، وهات ما شئت من صور له في وصف الانسان والحيوان والنبات والجماد فانك لتجدن فيها كلها مثل هذا الصدق ومثل هذه الحركة ومثل هذه الحياة . وقد يكون قولنا هذا من تحصيل الحاصل بعدما سلف من بيان احساسه باللون ويقظته لكل ما يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يدركه من ظواهر الأجسام وبواطن العواطف والأخلاق ، ولكنه تحصيل حاصل غير مألوف ولا مستغن عن بعض الابانة وبعض التفصيل .

ولو كان ابن الرومي مصوراً لما استغرب منه هذا الولع بالألوان والظلال والأشكال والحركات . لأنه كان لا يستطيع إذن أن يشرع في عمله قبل أن يلتفت الى عناصر الصورة المحسوسة ويحيلها في روعه ويهيئها للظهور على قرطاسه . أما الشاعر فلا ضرورة في نظم الشعر تفسره على أن يلتفت هذا الالتفات الدقيق إلى كل لمحة من لمحات اللون والظل وكل صغيرة من صفات الشكل والحركة . فاذا التفت إلى ذلك في عامة شعره بغير ضرورة قاسرة ولا طريقة مسبقة فانما يلتفت اليه لأنه مطبوع على التصوير ينظر إلى ما حوله فينتطبع ما يراه في حسه وإن دق وخفي - كما ينطبع النور البعيد الضئيل في مصوّر الفلكي المحكم التركيب .

وبودنا أن نثبت الآن قصيدة « المهرجان » النونية برمتها لأنها نموذج واف لشعر ابن الرومي في هذا الباب ، ولكننا نجتزئ منها بما يأتي وفيه الدلالة الكافية على هذه الملكة النادرة . قال :

يَمْنُ الله طلعة المهرجان	كلّ يمن على الأمير الهجان
.....
مهرجان كأنما صورته	كيف شئت مخيرات الأماني
.....
وأدبل السرور واللهم فيه	من جميع الهموم والأحزان

لبست فيه حفل زينتها الدني
وأذالت من وشيها كل بُرد
وتبدت مثل المديّ تهادى
فهى فى زينة البغى ولكن
كادت الأرض يوم ذلك تفشي

وتعود الرياض مقتبلات

زُخرفت يوم نعمه حجرات

حجرات ميمّات بناها
لم يكن يقتنى المساكن حتى
فأذيلت فيها تهاويل رقم
ثم قام الكماة صفّين من ك
كلهم مطرق إلى الأرض مغض

وتجلى على السرير جبين
يمكن العين لمحة ثم ينهى
فله منه حاجب قله حماه
فاستوى فوق عرشه بوقار
ثم قام الممجّدون مثولاً
ليس من كبرياء فيه ولكن
فتشوا سؤدد الأمير وعدوا
حين لم يجشموا التزيّد لا بل

ففضوا من مقالمهم ما قضوه

يا وزافت فى منظر فتان
كان قدما تصونه فى الصوان
رادع الجيب عاطلّ الابدان
هى فى عفة الحصان الرزان
سر بطنانها الى الظهران

ناعمات الشكير^(١) والافنان

جدّ موطوءة من الضيفان

من فضول المعروف أكرم بان
يتقن المجد أيمّا اتقان
قائمات بزينة المزدان
ل عظيم فى قومه مرزبان
وعلى سيقه هنالك حان

ذو شعاع يحول دون العيان
طرفها عن إدامة اللحظان
كلّ عين ترومه بامتهان
وبحلم من الحلوم الرزان
ضاربين الصدور بالأذقان
كل وجه لذلك الوجه عان
فيه آلاء بكل لسان
ما تعدوا ما حصل الكاتبان

ثم أبوا بالرفد والحملان

(١) الشكير : النبت الصغير

لا تعداه شهوة الشهوان	بعد ما أرتعوا الأنامل فيما
ض وان كان في مثال خوان	من خوان كأنه قطع الرو
ذلك الطير من جفاء الجفان	فوقه الطير في الصحاف وحاشي
.....
وخلا بالدمام والندمان	ثم سام الأمير سوم الملامي
.....
عاطفات علي بنيتها حوان	وقيان كأنها أمهات
مرضعات ولسن ذات لبان	مطفلات وما حملن جنيناً
ناهداث كاحسن الرمان	ملقيات أطفاهن ثدياً
وهي صفر من درة الألبان	مفعيات كأنها حافلات
بين عود ومزهر وكران	كل طفل يدعى بأسماء شتى
وهو بادي الغنى عن الترجمان	أمه دهرها تترجم عنه
.....
مثل عيسى بن مريم ذي الحنان	أوتي الحكم والبيان صبياً
.....
لشفى داء صدرها الحران	لو تسلى به حديثه رزء
مع تهيجه على الأشجان	عجباً منه كيف يُسلى ويلهي
.....
أمرات المحزون والجدلان	فترى في الذي يصيخ اليه

فتأمل فهل ترى في وسع المصور القدير أن يلتفت إلى لون أو ظل أو شكل أو خط أو حركة في المهرجان لم يلتفت إليها ابن الرومي في هذه القصيدة ؟ وتأمل الشاعر هل تراه في قصيدته إلا كما قلنا في بعض مقالاتنا : « كالرسم الذي بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه والاشكال يتفرسها ويطليل النظر إلى ملاحظها وإشاراتها وما تشف عنه من المعاني ، وتشير إليه من الدلائل ويراقبها في التفاتاتها ومواقفها وحركاتها ليتثنى بعد ذلك إلى لوحته فيثبت عليها ما توارد على بصره وقرينته من الألوان والمعارف والهيئات من حيث هي تحفة فنية تستهوي الحواس والأذواق ؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان واختيال الدنيا بمنظرها فيه وبرود الوشي التي أذلتها للناظرين ، واللهو والسرور الذي شمل كل شيء وأدبل له من جميع الهموم والأحزان ، ثم يرسم حجرات الأمير بزخارفها وتهويلها وضيوفها الغادين

إليها الراحين منها ، وقيام الكُماة صفاً بعد صف مطرقين إلى الأرض مغضين بالأبصار حانين على السيوف ، ثم يرسم الأمير فوق سريره ، وقد طلع على الجمع بوجه مهيب يمكن العين منه لحظة ثم ينهاها عن ادامة اللحظان ، ثم يذكر لك وقل الامارة وسمات الحلم والرزاة بين قوم يعنون له ويجلون قدره من الحب والتبجيل لا من الصلف والكبرياء ، ثم يرسم المادحين بين يديه يرتلون عليه الثناء ضاربين الصدور بالاذقان وينصرفون من حضرته بالعطايا والحملان ، بعدما شبعوا من خوان يلوح في مثل قطع الروض وإن سمي بالخوان ، ثم يرسم القيان الكواعب الابكار عاطفات على المزهرة عطف الأم على الرضيع بنهود مفعمات ، ولكنها صفر من درة الألبان ، ثم يرسم أثر الغناء على وجوه السامعين ، فإذا هو شجن وسلوى وأمرات من الحزن والجذل وطرب يشوبه السكون وسكون يشوبه الطرب . . . فلا تزال في القصيدة تنتقل بين أبياتها من صورة إلى صورة ومن منظر إلى منظر ومن حركة إلى حركة حتى تأتي عليها وقد استعرضت في خيالك متحفاً واسعاً من الأشكال والخطوط عملت فيه القريحة والنظر واشترك فيه الفن والاحساس وروى لك أصدق الرواية عن عين تلمح وتعي ونفس تحس فتستوعب وخيال يدخر الجمال المنظور فيثري بالألوان والسمات . . . »

زعموا أن بعضهم قال لابن الرومي : « لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال لِلأئمةِ : أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله ، فأنشده قوله في الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فقال زدني . فأنشده قوله في الأذريون وهو زهر أصفر في وسطه حمل أسود :

كان آذريونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاة ! تالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذاك إنما يصف ماعون بيته وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس » إلى آخر القصة .

وقد تصح هذه القصة أو لا تصح ، ولكنها على الحالتين تدل على رأي شائع في التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الأدب في عصر ابن الرومي وبين الذين يتعاطونه في هذه الأيام . فلابن المعتز تشبيهات كثيرة أبلغ من هذه التي مرت في القصة وأجمل وأنقى في المعنى

والديباجة ، ولكنهم لا يختارون له في مقام التحدي والتعجيز إلا هذه الأبيات وأمثالها ،
لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه والمشبه به وأن الغرض من التشبيه إنما هو
مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل
مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، فالشاعر الذي يصف النجوم ويشبهها
بالجواهر والحلي هو الشاعر غير مدافع وهو المثل الأعلى في هذه الصناعة . . . ثم يليه
الشعراء على حسب الأسعار في سوق المشبهات ! وقصارى ما يطلبه الشاعر من التشبيه أن
يثبت لك أنه رأى شيئين من لون واحد وشكل واحد كأنك في حاجة إلى مثل ذلك الإثبات
الذي لا طائل تحته ، فاما انه أحس وتخيل وصوّر إحساسه ، وتخيله باللفظ المبين والخواطر
الذهنية الواضحة ، فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل عنده في باب البلاغة
والشاعرية ، وهذا خطأ بعيد في فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية إلى
القدرة الآلية التي تحكي المناظر الظاهرة كما تحكيها المصورة الشمسية . فالمسافة عظيمة
جداً بين شاعر يصف لك ما رآه كما قد تراه المرأة أو المصورة الشمسية ، وشاعر يصف لك
ما رآه وشعر به وتخيله وأجاله في روعه وجعله جزءاً من حياته . وليس يعنيك أنت أن
يكون الشاعر صحيح العين مطلعاً على المراثيات المتشابهة ليتصل ما بينك وبينه ويقرب
وجدانك من وجدانه ، ولكننا يعنيك منه أن يكون إنساناً « حياً » يشعر بالدينا ، ويزيد
حظك من الشعور بها ، وتلك هي مزية ابن الرومي في وصفه وتشبيهه ومزيتة في شعره كله
من أوائل شبابه إلى اليوم الذي مات فيه . وينبغي هنا أن نذكر مرة أخرى أن ملكة الشعر
غير ملكة الوصف وليستا بشيء واحد كما يفهم كثير من القراء ، فمن وصف وشبه ولم
يشعر فليس بشاعر . ومن شعر وأبلغك ما في نفسه بغير وصف مشبه فلاحاجة به إذن إلى
سرد الصفات لتتم له ملكة الشاعرية .

من ثم نقول إننا إذا قسمنا العبقرية الفنية إلى أقسام وفصائل فخير ما نفهم به عبقرية
ابن الرومي أنها عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة ، إذ لا
نعرف صفة لعبقرية ابن الرومي هي أوجز ولا أبين من هذه الصفة المجموعة في كلمة
واحدة: فانه كان محبا للحياة في خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذي عهدناه في جملة
الفنون اليونانية ، وكان مشغولاً بالحسن الطبيعة وعناصرها كما شغلتها أساطير اليونان
وولدت منها بنات الماء وعرائس الغاب وأرباب السحب والبحار وغيرها من ولائد الذوق
والخيال ، وكان مأخوذاً بالجمال في كل شيء كما أخذوا به في كل شيء ، مستغرقاً في الحس
الدينيوي كما استغرقوا فيه . اما أنه كان كذلك لأنه من سلالة اليونان فذلك قول لا نجمز

به ولا نجزم بنفيه ، لأنه يستطيع أن يكون كذلك ولو لم يكن من تلك السلالة التي اختلطت فيها سلالات الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فما اختصّ اليونان بابداع الفنون واستجلاء الجمال ، ولا يحسن بأحد أن يدعي ذلك لشعب من الشعوب . وكل ما امتازوا به على غيرهم أنهم منحوا الفنون حرية لم تمنحها في الشعوب القوية التي توطدت فيها الدولة وتوطد فيها الدين فاشتمل على العلوم والفنون وأحاطها بقيود المراسم والموروثات ، فلما خضع اليونان لمثل هذا السلطان نضب فيهم ذلك المعين الحر وأخلدوا إلى المراسم والموروثات إلا قليلا من الحنين المتجدد إلى الفن القديم ، وامتياز اليونان بالحرية في الفن فضل عظيم جليل ولكن ما مقدار ما يسري منه في الدم ويثبت مع الغرائز ويتنقل مع السلالات ؟؟ وما هو الحد الفارق بين اليونانية وغير اليونانية في الشعوب الكثيرة التي يتناولها اسم اليونان في آسيا وأوربا وقبل التاريخ وبعد التاريخ ؟؟ فأنت ترى أن القول بالوراثة اليونانية في ابن الرومي ليس أسهل ولا أصوب من القول بانفراد هذه الظاهرة الغربية التي لا تزول غرابتها من بعض الوجوه حتى لو ظهرت في بلاد اليونان . وقد يكون فيما مرّ بك من شرح مزاجه ونشأته تعليل صالح لهذا الاحساس المتوفر يساعد على تفسيره بعض التفسير ، فحسبنا إذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها كلمة مفهومة في لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة في لغة الأنساب .

الفصل الخامس

فلسفة ابن الرومي

لكل شاعر كبير فلسفة للحياة ، أو فهمٌ لها على وجه من الوجوه . وهذه هي مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغار .

فاذا قرأت عشرين شاعراً كبيراً فأنت أمام عشرين نسخة من الدنيا ، أو أمام عشرين مثلاً لها كلٌ منها مخالف لغيره مستقل عنه في طريقة تمثيله . لأن الشاعر الكبير يشعر بكل شيء حوله . فيما من مظهر ولا مخبر إلا وله موقع من قلبه وصدى في ضميره . ولأنه مستقل في إدراكه وشعوره ينحونحو نفسه ولا ينحونحو غيره ، فاذا قرأت شعره فهناك الدنيا كلها ممثلة في ذلك الشعر على طريقته التي لا تشبهها طريقة . ولا كذلك الشاعر الصغير ، أي الشاعر الذي تضيق نفسه بسعة الدنيا فلا يشعر إلا بجانب صغير من جوانبها الكثيرة ، والذي يتبع غيره في إدراكه وشعوره فلا يثبت على قدميه لحظة إلا ريثما يتكئ على سند من سابقه أو معاصريه . فان هذا الشاعر الصغير شذرة من الدنيا وليس بمثال كامل للدنيا برمتها . وقد تكون هذه الشذرة أجمل وأتقن وأحب وأشهى من المثل الكامل في مساحته الواسعة ومنظره الجسيم ، ولكنه شذرة على كل حال أو خريطة بلد واحد لن تغنيك - بالغة ما بلغت من روائها وإتقانها - عن خريطة الأرض الكاملة ، وإن قصرت في الرواء والاتقان .

فمن الشعراء الكبار من يريك الدنيا كأنها معرض للجبال ، أو يريكها كأنها متنزه للفرجة ، أو كأنها كعبة للعبادة ، أو ميدان للقتال ، أو طريق للعبور ، أو ملعب للسرور ، أو يريك الدنيا كما هي ، وذلك أكبر الشعراء وأعلامهم في مراتب الالهام . أما الشاعر الذي تسأل نفسك بعد قراءته : ما هي الدنيا ؟ وما مثالها في خللك ؟ فلا تهتدي

إلى جواب فليس بالشاعر الكبير وإن عدّ في المجيدين من الشعراء .
فلا بد للشاعر الكبير من إدراك الدنيا كلها ، ولا بد لهذا الإدراك من صورة تختلف كثيراً
أو قليلاً من سائر الصور ، وهذا هو الذي نعينه بفلسفة الشاعر ولا نخطأه إلى معنى
الفلسفة الشائع بين المفكرين . إذ لو قصدنا إلى هذا لوجب علينا أن نقول إن الفلسفة أبعد
المطالب عن ابن الرومي وأن ابن الرومي أبعد الناس عن الفلسفة ، بل لوجب علينا أن
نقول أكثر من ذلك إن قريحة ابن الرومي كانت نقيض القريحة التي يحتاج إليها
الفيلسوف ، لأن الفيلسوف مجرد كل شيء ليراه بعين الفكر حيث تلتقي الكليات وتنعدم
الفوارق والأجزاء ، وابن الرومي كان يحسم كل شيء ليراه بعيني الفنان في عالم الأنوار
والاشكال والخطوط والحركات .

وربما خطرت للقارئ وساوس ابن الرومي وأوهامه وأساراه فحسبه من أهل الباطن
الذين ينظرون إلى الدنيا نظرة الروحانية ، وقرب ما بينه وبين الفلاسفة المجريين على هذا
الاعتبار . فيجب علينا كذلك أن نبادر إلى القول بأن ابن الرومي كان نقيض أهل الباطن
المتعمقين كما كان نقيض الفلاسفة المجريين ، لأن أهل الباطن يتجاوزون الظواهر إلى
البواطن ويحسبون الظواهر وهماً أو كذباً لا وجود له إلا في الحس المضلل المخدوع . أما
ابن الرومي فكان يعكس الأمر فيلبس الأسرار ثوب الظواهر ويلحق عالم الحياء بهذا
العالم المجسم المحسوس ، فالباطنيون ينفون الظواهر ويثبتون الأسرار وابن الرومي ينفي
الأسرار ويثبت الظواهر ، وكان يلحى الناس لأنهم يغفلون عن نذير الخفاء ولا يتقونه كما
يتقون نذير العيان . لأن الخفاء عنده أن هو إلا عيان يراه ويلمسه ويتجنبه ويلقاه .

لقد كان الرجل « جديد » الاحساس في شبابه وهرمه ، فعالمه أبداً عالم الطفولة الخالدة
الذي يطالع صاحبه أبداً بهجة جديدة أو خوف جديد : طفولة خالدة ولكنها مروعة لفرط
ما ألح عليها من السقم والألم . فهي في هذه المأدبة الآلهية التي تُسمى بالدنيا فاعرة الحس
أبداً لكل طارئ حديد من طوارئ الأغراء والترويع ، طفولة لم تردها السنون إلا إمعاناً
في الطفولة وإغراقاً في اللعب وشوقاً إلى الحلوى ورهبة من العصا واحتياجاً على هذه
رهبة ، فلن ترى في شعره كله قولة واحدة إلا هي قولة الصفل الكبير الذي يفهم أضعاف
ما يفهم الكبار ولكنه لا يحس إلا كما يحس الاطفال .

أيتكلم عن الصبر ؟ أيتكلم عن العزلة ؟ نعم ، ويتكلم عن الزهد والعفة والتقوى وعمما
شئت من الحكم والنصائح ؟! وزد عليه أنه يتكلم عنها كلام النية والعقيدة لا كلام الخبث
والرياء ، ثم ما هو إلا أن تعروه بادرة واحدة من بوادر الفرح أو الحزن وغواية واحدة من

غوايات الربيع أو الخريف حتى تذهب جميع هذا الحكم والنصائح في الرياح وينطلق الطفل الكبير مصفقاً للمتعة الجديدة أو صارخاً من الألم الجديد لأن الكلمة العليا في هذه « الفلسفة » للاحساس الطارىء لا للفكر السابق أو الاحساس القديم .

أسميها إذن فلسفة « ابيقورية » تنشئ اللذة أينما كانت وتهرب من الألم أينما كان ؟؟ إن كنت تسمي الطفل الذي يتهافت على الحلوى ويجفل من العصا « أبيقوريا » فلك أن تعد ابن الرومي في جماعة الأبيقوريين ، ولكن الأبيقورية في رأيي ليست « جدة » الاحساس المتفزز للمسرات والالام وإنما هي فتور الاحساس واستكانة الشيخوخة إلى ما يريح ، ونفورها عما يزعج ويثير . وهي في معناها الشائع نقص في الاحساس وليست بزيادة فيه . وإلا فهل تظن أبا نواس شعر بلذعة الألم أو بنضرة السرور قط ؟؟ هذا هو الأبيقوري في الأبيقوريين . . . وهو كما تعلم واحد من أولئك المترفين الذين يطلبون اللذة ويشفقون من الألم لأنهم فاترون فارغون لا لأنهم مرهقو الحس مفعمون بالحياة . أما ابن الرومي فكان يألم ويُسّر لأن حياته هي الألم والسرور ، أو لأنه لا بد له من أن يحس ولا بد للاحساس من أن يكون بعض الألم وبعض السرور ، وليس في وسعك أن تعطله من الاحساس بهذا أو بذلك إلا إذا عطلته من الحياة ، وليس في وسعه هو أن يطلب اللذة باختياره أو يجتنب الألم باختياره . لأن الجدول الرقراق لا يطلب الصفاء ولا يجتنب الكدر ، وإنما يصفو ويكدر لأنه ماء ولن يكون إلا من الماء .

فعالم ابن الرومي هو عالم الطفولة الخالدة لا عالم الشيخوخة الوادعة أو عالم « الأبيقوريين » .

والطفولة الخالدة هي الاحساس الجديد بالألم والاحساس الجديد بالسرور . ولقد دام له هذا الاحساس الجديد كأحسن ما يدوم بعد فقد الشباب ، ولكنه لفرط طمعه في الحياة كان لا يقنع إلا بأن يجمع بين « بشاشة الأوطار » وقدرة الشباب .

الفصل السادس

صناعة ابن الرومي

قولا لمن عاب شعر مادحه اما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك دونه الثمر
وكان اولى بان يهذب ما يخلد حق رب الأرباب لا البشر

يتفق لقارئ الشعر أن يعرض له في مطالعته بيت غير منسوب إلى صاحبه فينسبه إلى شاعر معروف عنده ثم يجد بعد البحث أن فراسته قد صدقت وأن البيت لذلك الشاعر بغير خلاف ، ولكنه قد يعلم السبب الذي دغاه إلى نسبة البيت اليه وقد يتعذر عليه أن يرد ظنه إلى سبب غير البداهة التي لا تعلل . لأن سمات الشعراء التي تبدو في قصائدهم وابتائهم بعضها ظاهر يسهل تتبعه والاستدلال عليه وبعضها خفي يجري في الكلام مجرى الملامح في الوجوه . تعرفها وتعرف بها الأبناء والآباء ولكنك لا تردّها إلى سبب محدود .

وليس كل الشعراء ذوي ملامح واضحة يعرفهم بها القراء ، ففي العربية مثلاً الوف من الشعراء لا تعد منهم مائة بين أصحاب الملامح الواضحة التي تعرفهم بها في القصيدة الواحدة بله البيت الواحد . وفي طليعة هؤلاء من الشعراء المحدثين - غير ابن الرومي - المتنبي والمعري والشريف الرضي ، والبقية درجات في هذه الخصلة تعرفهم بسهولة حيناً ، ولا تعرفهم حيناً إلا بعد جهد وتحقيق .

بعض هذه الملامح أو العلامات نفسي لا نعود إليه في هذا الفصل لأنه سبق في مواضع متفرقة من الفصول المتقدمة ، وبعضه لفظي يرجع إلى الصياغة واسلوب التعبير والنزعة الفنية التي ينفرد بها الشاعر بين الشعراء وان تساوا في الاجادة كما ينفرد الجميل بين ذوي الجمال بسمه خاصة تستحب فيه وان تساوا كلهم في الجمال . وهذا الذي نعنيه بالصناعة

ونتم به مباحث هذا الكتاب .

فالعلامات البارزة في قصائد ابن الرومي هي طول نفسه وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة ابیاتاً متفرقة يضمها سمط واحد ، قل أن يطرد فيه المعنى إلى عدة أبيات وقل أن يتوالى فيه النسق توالياً يستعصي على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير فخالف ابن الرومي هذه السنة وجعل القصيدة « كلا » واحداً لا يتم الا بتمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نجاه ، فقصائده « موضوعات » كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها واطرافها ، ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة .

ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سبباً من أسباب الاطالة ولكنه لم يكن كل السبب ، لأن ابن الرومي كان يطيل القصائد حفاوة بالمدوحين واكباراً لشأنهم واطهاراً لعنائه بارضائهم ، وكان يرى فرضاً عليه للمدوح أن يستصعب ولا يستسهل ، فاذا طرق القوافي السهلة اعتذر من تقصيره كما قال لعبيد الله بن عبد الله من قصيدة نيفت على سبعين ومائتي بيت :

كل مدح في غيركم فمثاب	ما أثبت عبادة الاوثان
هاكها ، لا اقول ذاك مدلا	قول ذي نخوة بها وامتان
بين أثنائها مديح نفيس	من لبوس الملوك والفرسان
ذو قواف كأنها حلق الأصد	اغ في البيض من خدود الغواني
راق معنى ورق لفظاً فيحكى	رائق الخمر في رقيق الصحان
ان تكن سهلة القوافي فليست	في المعاني بسهولة الوجدان
فابتذلها في يوم هوك واعلم	انها بعد من ثياب الصيان
وابسط العذر في ارتخااص القوافي	واتباعي سهولة الأوزان
أنت ألجأتني الى ما تراه	بالذي فيك من فنون المعاني
اي وزن وأي حرف روي	لها بالمديح فيك يدان
ضاق عن مائراتك الشعر إلا	فاعلات مفاعل فاعلان
ليس مدحٌ يفى بمدحك الا	صلوات المليك في القرآن
لا ولا حمد كفاء نعماك الا	حمد سبع من الكتاب مثان

أو كما قال لأبي القاسم التوزي الشطرنجي من قصيدة ناهزت مائة وخمسين بيتاً :

ولك العذر مثل قافيتي فيه لك اتساعاً فانها كالفضاء
وتأمل فانها الف المد لها مدة بغير انتهاء

وله رأي في اطالة الشعراء واطالته يقول فيه :

كل امرئ مدح امرءاً لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند السورود لما أطال رشاءه
غيري فاني لا أطيل مدائحي الا لاوفي من مدحت ثناءه
وأعد ظلماً ان أقل مدحيه عمداً واسخط ان اقل عطاءه

على أنه كان يستريح إلى الاطالة كما يستريح « الجواد الكريم » إلى سعة المضمار ، لأنها تشبع لذة القدرة على النظم والتمكن من اللغة وتنفي ظنة العجمة التي كانوا يعيرونه بها ويتهمون به في شعره من أجلها . . . فلغبطة في نفسه - لا لارضاء الممدوح وحده - كان يركب القوافي الصعبة ويتعمد رياضة الحروف العصية ، فيذل له اعصاها حتى الثاء والخاء والذال والزاي والطاء والغين والهاء وغيرها من الحروف النادرة في الروي الناقصة في شعر أقدر الشعراء ، وكانت فيه غيرة القول ونخوة المنافسة وهمة الوثوب إلى الغاية . فكان هذا « الجواد الكريم » يأرن للسباق كلما مرت به خيل السباق ! فاذا سمع الكلام الجيد لم يبرح أن يعارضه بكلام من بحره وقافيته ومعناه ، ولم ينس أن يجرب قوته إلى جانب كل قوة ويحرك شاعريته إلى جانب كل شاعرية . ففي ديوانه معارضات كثيرة للناطقة وابي مسلم وابي نواس والحمدوتي ودعلبل وغيرهم ممن تروى لهم الأبيات المستحسنة والحكم الماثورة : ومثل هذا لا يقصر في المضمار اذا نشطت القريحة وتفتحت اشواط الكلام .

وجه هذا للمعارضة وتجربة القدرة هو الذي كان يدعوه الى النظم في هذا المعنى او ذاك من المعاني الطريقة التي كانت تروقه في شعر بعض الشعراء . كالمثائق المغرم باللبس الجميل يستملح الكساء على لابسه فيود لو يكون له كساء من طرازه وصنفه ولكنه لا يفكر في سرقة واغتصابه ، مثال ذلك ، قال ابوتمام :

غربته العلى على كثرة الاله ل فاضحى في الاقربين جنيا

فأعجب هذا المعنى ابن الرومي فقال فيه :

رب اكرومة له لم نخلها قبله في الطباع والتركيب
غربته الخلائق الزهر في النا س وما اوحشته بالتغريب

وقال :

أعناذك أنس المجد من كل وحشة فأنك في هذا الأنام غريب
وقال : ..

فأنس الله نفساً أنت صاحبها فانها من معاليها بمغترب
.....
لولا عجائب لطف الله ما نبئت تلك الفضائل في لحم ولا عصب
وقال :

وحيد فريد في المحامد أنس بوحدته مستأثر بالفضائل
وقال :

الله يكلؤه والله يؤنسه فانه بمعالیه قد اغتربا
ويروي صاحب الاغانى بيتاً آخر نظر اليه ابن الرومي مثل هذه النظرة اذ يقول ابراهيم
بن العباس :

لمفضل بن سهل يد تقاصر عنها الأمل
فباطنها للندى وظاهرها للقبل

فيقول ابن الرومي :

اصبحت بين خصاصة ومذلة والمرء بينهما يموت هزيلة
فامدد الي يدأ تعود بطنها بذل النوال وظهرها التقيلا

وجاء في الجزء الثالث من زهر الآداب ان الحسين بن الضحاك انشد ابا نواس قوله :

كأنما نصب كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك

فنعر نكرة منكرة . فقال له الحسين : مالك ؟ فقد رعتني ! قال هذا المعنى أنا احق به
منك ، ولكن سترى لمن يروى . ثم أنشده بعد أيام :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

قال صاحب زهر الآداب : « وقال ابن الرومي فكان أحسن منهما :

ابصرته والكأس بين فم منه وبين انامل خمس
فكانها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس

فهذه المأخذ القليلة جداً في شعره تعاب ولكنها اخلق بأن تعد من المعارضة والمساوقة ولا
تعد من السرقة والغصب . او هي على كل حال ليست من سرقة المعدم الذي لا رزق له الا

رزق غيره . لانها لو سقطت من شعره جملةً وسقط معها عشرة اضعافها لما نقصت ثروته
ولامست قدرته على التوليد والابتكار اقل مساس . ولو جازت المقاصة في هذا الباب لكان
ابن الرومي دائماً طالبا ولم يكن مديناً مطلوباً ، لان ما اخذه من الشعراء اقل بكثير مما
اخذه منه الشعراء .

وهناك المعاني الشائعة والنكات الشعبية العامة التي ليست لأحد ولكنها لكل احد . اي
التي يأخذ منها كل انسان ويضيف اليها كل انسان ، او التي هي كالهواء يتساوى منه
نصيب من يشاء . فمن هذه المعاني الشائعة حتى في هذا الجيل وحتى بين الأميين الذين لا
يقرأون الشعر والأدب أن اللحية تشبه بالمخللة . وينسب الى سعيد بن وهب في كتاب
الوزراء والكتاب انه قال في قصة لا محل لذكرها هنا :

قل لمن رام بجهل مدخل الطيبي الغرير
بعد ما علق في خد يه مخلاة الشعر
ليته يدخل ان جاء من الباب الكبير

وفي كنياته عن اللحية « بمخللة الشعر » على هذه الصيغة ما يفيد ان النكتة « معهودة »
وأن الإشارة اليها على هذا النحو غمزة مفهومة ، فمن الخطأ في النقد أن يقال إن ابن
الرومي عمد الى بيت سعيد بن وهب فسرقة حين قال :

علق الله في عذاريك مخلاة ولكنها بعير شعير

فان سعيد بن وهب وابن الرومي في هذا الاقتباس يستويان ، ويزيد ابن الرومي
بتصرف جديد في المعنى . . وهو أن المخلاة فارغة ؟

وقد يلحق بهذا قول صاحب الصناعتين بعدما أورد البيتين الآتين مثلاً للمبالغة في
الهجاء :

يقترب عيسى على نفسه وليس بيباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فهو يقول : « والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى وانما اخذه مما حكاه ابو
عثمان . . ان بعضهم قبر احدى عينيه وقال أن النظر بهما في زمان واحد اسراف » فصاحب
الصناعتين اصاب حين نفى ابتكار ابن الرومي للمعنى ولكن من تراه اولى منه بفضل
الابتكار ؟ ولقد كان ابن الرومي يخطئ لو انه عدل عن نظم معناه هذا لأن أبا عثمان سبقه
بتلك الحكاية ، فحسبه منه أنه تصرف فيه وانه مسح المبالغة عنه ، لأنه لم يقل ان

« عيسى » يتنفس من منخر واحد ولكنه قال انه لو استطاع لفعل !

لكن الخذلقة التي لا يقاس اليها شيء من هذا هي زعم بعض النقاد ان ابن الرومي سرق البيتين اللذين انشأهما قبيل وفاته ! وهما :

غلط الطيب علي غلطة مورد عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحون الطيب وانما خطأ الطيب اصابة المقدار

فأبو عبد الله بن عبدوس الجهشياري صاحب « كتاب الوزراء والكتاب » يروي عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه أنه قال « إذا نقصت المدة كان الهلاك في العدة » ثم يزعم ان ابن الرومي سرق البيتين من هذه الكلمة . . وصاحب زهر الآداب يزعم أنه اخذهما من يحيى ابن خالد حين « دخل على الرشيد فاخبر انه مشغول فرجع فبعث اليه الرشيد : خنتني فاتهمتي . فقال إذا نقصت المدة كان الحنف في الحيلة ، والله ما انصرفت الا تخفيفاً » .

ولا نظن أن عصرًا مضى من عصور الإسلام خلا من اناس يؤمنون بأن الحذر لا يغني عن القدر ، او يقول عامتهم كما يقول العامة في زماننا « وقت القدر يعمي البصر » . فقول ابن الرومي أن « خطأ الطيب اصابة المقدار » انما هو عقيدته لا يزعم احد أنه سرقها إلا إذا زعم أن المسلم في هذا العصر يسرق عقائده من المسلمين في العصور السابقة ! ثم يبقى بعد ذلك ان قوله « خطأ الطيب اصابة المقدار » هو أبلغ تعبير جديد عن ذلك المعنى القديم . وما كان النقاد ليتورطوا في مثل هذا النقد لولا أن التعسف في اظهار السرقات كان في زمن من الازمان - او في زمن الجمع والتأليف - آيتهم على سعة الرواية والعلم باقدار الشعراء .

وتلاحظ في صناعة ابن الرومي لازمة الأفعال المزیدة والمشتقات التي يستخدم منها من جميع الصيغ والاوزان : فأسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان وصيغ التفضيل والمبالغة والصفات المشبهة والمصادر تكثر في شعره كثرة لم نلاحظها في شعر غيره ، ونحسب أن الافراط في استخدام المشتقات والأفعال المزیدة هو الوسيلة التي لا بد منها للشاعر العربي الذي يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ويتدرج به في مختلف درجاته . اذ ليس في اللغة العربية ظروف كالظروف التي يشتقها الافرنج من معظم الصفات والأسماء باضافة صغيرة في اول الكلمة أو في آخرها فتدل على المعنى المقصود وتدل كذلك على اختلاف الدرجة والقوة في أداء ذلك المعنى . فاذا أراد الشاعر العربي أن يلتفت إلى هذه الفروق

فلا بد له من الاستعانة على ذلك بالمشتقات والأفعال المزیدة كما كان يفعل ابن الرومي إلا أنه كان يسرف في جمعها معاً حتى تنبو بها الاذن في بعض الأبيات . كقوله :

أوقوله : صاغة صواغة صيغاً بدعاً لم تُلَق في خلد

أبصر بيضاء في القذال فلا نفر كنفر رأيتَه نفره
أوقوله :

يترك بالحول حول حولها وهو سواء وموق مائقها
أوقوله :

قلت ان تغلبوا بغالب مغلو ب فحسبي بغالب الغلاب

وهي ركابة منه كان ينساها في استطراده وربما كان يهونها عليه وسواسه . لأن طبيعة الموسوس لا تنفر من التكرار كما تنفر منه سائر الطباع . على انه كان يجمع بعض المشتقات والحروف المتشابهة المخارج فتساع - وقد تستحسن - في اصعب القوافي كما قال في الجيمية :

سلام وريحان وروح ورحمة عليك ومعدود من الظل سجع
ولا برح القاع الذي انت ربه يرف عليه ، الاقحوان المفلج

فان للرء والحاء « راحة » في القلب تزداد بالتكرار وتمهد لما بعدها من الظل الممدود والتضعيف المقبول في هذه القافية العصبية .
او كما قال من قافية الحاء :

يا صارخاً في جموع ليس تصرخه للظالمين غداً في النار مصطرخ
او من قافية الفاء :

ومنعم كالماء يشفي ذا الصدى كشفائه ويشف مثل شفيفه

ويوقعه الاستطراد - ولك أن تقول الاستغراق في المعنى - تارة في اجمال اللفظ وتارة اخرى في الأساليب الثرية التي لا ينفسح غيرها للاسهاب والاطناب والتفصيل والتفريع والمراجعة والاستدراك . فينظم في هذه الحالة وكأنه ينثر ، الا انه لا يخلو من الشاعرية ولا يسف إلى طبقة « المتن » المنظوم و« الالفيات » التي ليس فيها من الشعر إلا انها موزونة مقفاة .

ومع هذا تستطيع أن تقول إنه لم يجعل اللفظ شغلاً شاغلاً في صناعته ولم يحفل به لأداء المعنى الذي يريد . فيخيل إليك وأنت تطرد في قراءته انه يرتجل القصائد ارتجالاً ويفيض بها فيضاً لمطاوعة لفظه وغزارة مدده . فهو يجيد في تركيب أبياته واحكام قوافيه ولكنه لا ينتزع الاجادة بالجهد والترويض ، وما عليه الا ان يعني ما يقول فيقول ما يعني بغير اخلال ولا التواء ، وما عليه إلا ان يرسم فيجيء البناء على ما رسم وتقوم الاركان على ما دعم .

ومن الشعراء من تلمح الكلمة في قصيده وكأنها تئن على الشاعر بفضل وتستطيع بدالة ، لانها اطاعته ولبت رجاءه ورضيت بمقامها في حظيرته . فاذا بحثت عن امثال هذه المفردات والتراكيب في قصائد ابن الرومي فلست واجدها هناك ، لأن كلماته تُقبل إلى مواضعها وكأنها تعلم أن الفضل في مقامها للشاعر لا لها وأن الدالة في اختيارها له لا عليه ، ومن ثم لم يشغل باللفظ ولم يبد على معناه أثر الجهد فيه ، وبهذا سلم من لعب الجناس اللفظي والمحسنات الموهمة مع انه تنشأ في العصر الذي نشأت فيه هذه المحسنات . وعجيب هذا منه وهو المظير الذي كان يلقي باله الى اقل تجانس في الكلمات واضعف تشابه في الجروب ليستخرج منه النذر والبشائر ويعلق عليه القنوط والأمل ، ولكنه عجيب في الظاهر دون الحقيقة . لأنه إنما كان يبالي بالكلمات حين كان يأخذها مأخذ المظير .

وهي حينئذ لها معنى عنده ومن ورائها نبأ وفيها شعور . فليست هي خواء ولا تمويهاً ولا بهرجاء زائفاً كبهرج العاشرين والمزوقين ، إنما كان يجانس لمعنى يراه وهو يراه من بتظير مثله ولا يجانس لتزويق فارغ وهو سخيف ، فاذا لم يكن متظيراً فلا جناس ولا اكتراث باللفظ الا لما فيه من معنى ظاهر مستقيم وما له من فصاحة ونضارة ، او يتفق له جناس اللفظ كما كان يتفق للشاعر الجاهلي والشاعر المخضرم قبل عهد التنميق والصناعة ، فلا غرابة في ان تجد له او لشاعر مخضرم مثل هذا البيت :

فيسيبك بالسحر الذي في جفونه ويصيبك بالسحر الذي هو نافثه
او مثل هذا البيت :

نصيب إذا حكمت وان طلبنا لديك العرف كنت حياً تصوب
او مثل هذا البيت :

ليس ينفك طيرها في اصطحاب تحت اظلال ايكها واصطخاب

وهكذا كان في كل تمجيسه الذي لا تعسف فيه وليس هو بالكثير البارز في ديوانه الكبير .

فاذا جنّس في غير ذلك فهو عابث متعمد للعبث وليس بملفق محسنات ولا بطالب تزويق كما قال :

لو تلففت في كساء الكسائي وتلبست فروة في الفراء
وتخللت بالخليل واضحى سبيويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبي الأسو د شخصاً يكنى أبا السوداء
لأبى الله ان يعذك اهل العلد سم الا من جملة الأغبياء

فالذي يقرأه هنا لا يخطر له بته أنه يزوق ويزخرف ولا يشك لحظة في أنه يعبث ويهزل ،
وانه لا يحاول ان يبيع الناس بهرجاً بثمان ذهب وعرضاً بثمان جوهر .

أما ما يستشهد به البديعيون من كلامه كقوله في غير الجناس :

أراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات اذا دجون نجوم
فيها معالم للهدى ومصابيح تجلو الدجى والاخريات رجوم

فهو أقرب الى التقسيم الفلسفي منه إلى محسنات اللفظ وترصيعاته . وغني عن القول اننا
لم نقصد بما تقدم أن ابن الرومي كان على سذاجة الجاهلين والمخضرمين في صوغ الشعر
وفهم فنون البلاغة . فان هؤلاء كانوا يأتون بالقول البليغ ولا يعرفون علتة ، وكانوا
يطربون للشعر ولا يتوخون مذاهب نقده ، وليس في وسع شاعر عباسي أن يكون كذلك
بعدما اولع القوم بالبحث في جميع العلل والأسباب واصطلحوا في البلاغة على الحدود
والأسماء وخرجوا من حالة « العفو » الى حالة « الوعي » ومن سهو الجنة التي كانوا غافلين
فيها عن النعيم والعذاب والخلجل والعيب إلى يقظة الدنيا التي يؤخذون فيها بالتكاليف
ويدركون فيها المحاسن والعيوب ، وابن الرومي اولى ألا يكون على تلك السذاجة
الجاهلية أو المخضزمة وألا يسهو عن محاسن كلامه وعيوبه وهو الذي لم يسه قط عن شيء
فيه ولم يكن له من هم إلا ان يحصي خطرات ذهنه وخلجات فؤاده ، فهو شاعر ناقد وبليغ
له مذهب في البلاغة ورأي في المعاني وحجة في الاختيار . ونوادره في ذلك قليلة ولكن
النادرة التي ننقلها بعد كافية للابانة عن وجود هذه الملكة فيه وعملها في نقد كلامه ونقد
كلام غيره . قيل انه سمع هذه الأبيات :

أيها الطيبي المليح القد مجدول مهفوف

أنا من ميلك في مشـ يك مرعوب مخوف
لا تميلن فاني خائف ان تنقص

وهي لابن أبي فنن . فقال في البيت الآخر : « إنما اراد منه انه يميل من لينه ونعومة
اعضائه فأسرف حتى أخطأ ، وذلك أنه جعل اللين المفرط يتقصف . وإنما كان ينبغي أن
يقول لو عقد لنعقد من لينه فضلا عن ان يميل وهو سليم من التقصف » ثم اسرع إلى
معارضة القائل بهذين البيتين :

أيها القائل اني خائف أن تنقص
ليس هذا الوصف إلا وصف مصلوب مجفف

فملكة الابتكار في ابن الرومي كانت مصحوبة بملكة الانتقاد ، وفصاحته كانت فصاحة
الذي يحاسب نفسه ويحمل تكليفه لا فصاحة غير المكلفين في جنة السهو والتوفيق !

كذلك لا يفهم من سهولة شعره وتدفعه واخذ بعضه بأطراف بعض انه كان قليل
التهذيب له والرجعة اليه . فرجما فرغ من القصيدة وافضى بها الى ممدوحه ثم عاد الى
تنقيحها والريادة عليها وردها مرة اخرى كما فعل في المهرجانية التي تتبعها واطاها وكتب في
ذلك يعتذر إلى عبيد الله بن عبد الله . .

قصيدة كرها مثقفها عليك إذ ثقفت على مهل
أعجلها الوقت عن رياضتها فأقبلت ريثما على عجل

.....
لم أحتشم كرها عليك ولا سدي منها مواضع الخل
لأنني عالم بأنك لا تعت ب فيما أصلحت من عمل
وليس مثلي ينام عن خلل في مدح ممدوحه ولا زلل

على أنه - لطول رياضة الكلام المتوزون - قد أسلست له طريقة في النظم يقسر بها المعنى
على الظهور ولو اضطر الى الحشو واللف والاعتراض فلا تشعر الا وقد استدار له البيت
على احسن تركيب واصبح الحشو في يديه حسنا يزيد المعنى ولا يعيبه . فاذا اراد أن يقول
« لا تكذب الاخبار بالهوى » ولم يساعده الوزن قال :

لا تكن بالهوى تكذب بالأخبار ر حتى تهين مالا يهان

فأكسب المعنى قوة لم تكن له في عبارته البسيطة . لانه حين صاغ البيت هذه الصياغة

كأنما ينهى عن « خلق » التكذيب لا عن « فعل » التكذيب مرة واحدة او مرات . فمعنى « لا تكن مكذباً بالأخبار بالهوى » غير معنى « لا تكذب الأخبار بالهوى » . لان العبارة الاولى تفيد زيادة في النفي لا تدخل في مدلول العبارة الثانية : تفيد النهي عن « طبيعة » التكذيب او عن أن « يكون » الانسان مكذباً ، ولا تقتصر على استنكار التكذيب في هذه الحادثة او في تلك .

وإذا أراد أن يقول ان اليوم أفضل الطير وحال الوزن دون هذا المعنى البسيط قال :
واعتر ان أفضل الطير ، في الطير ، وفينا ، كروسات اليوم .

فبلغ في اظهار فشل البومة ما لا تبلغه العبارة الاولى . لانه بين فشلها بالنظر إلى مقاييس الطير وبالنظر إلى مقاييس بني الانسان ، فهي فاشلة كما يراها نظائرها في عالم الطيور وفاشلة كما نراها نحن في عالمنا الانساني ، وذلك معنى لا تجده في قول من يقول : ان البومة أفضل الطواير ، وتلك كانت طريقته في الحشو « المبارك » المقبول ، وفي تدوير النظم حتى يستدير له على احسن تقويم .

وقد كان ابن الرومي كأبناء عصره يقدم الغزل بين يدي مدحه ووصفه جرياً على سنة لم يكن في ثقافة عصره ما يدعوه إلى استغرابها والنظر في تنقيحها ، الا انه يعمل هذه السنة ويتصرف في تقديم الهجاء بالغزل فلا يقصره على الوصف والمديح ، فيخرج بذلك بعض الخروج من حكم التقليد والمحاكاة العمياء ويختار لصناعته بعض الاختيار .

ألم تر انني قبل الاهاجي اقدم في اوائلها النسيب
لتخرق في المسامع ثم يتلو هجائي محرقاً يكوي القلوبا

وقد يتصرف غير هذا التصرف كما قال :

واشغل قريضك بالنسيب وبالفكاهة والمزاح

كذلك كان يحكي ابناء عصره في تصعيب اللفظ وتعمد الغريب حين كان ينظم في الطرد ووصف الاسد وما اليه . لان الشعراء العباسيين جعلوا الطرد خاصة معرضاً للبداوة الشعرية والفحولة العربية . فكانوا في ذلك على حد ما يقال عربا اكثر من العرب وجاهليين اكثر من الجاهليين .

اما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربية ولا سيما

في القرآن . ومن هنا لم يذكر كلمة « اشياء » الا ممنوعة من الصرف ، وهي مصروفة في قول القياسيين من النحاة لانها جمع شيء . فهي افعال جمع فعل وليست فعلاء مؤنث افعل التي تمنع من الصرف ، فمن المواضع التي وردت فيها الكلمة قوله : « حرمت بالمشيب اشياء حلت » . وقوله : « قبحاً لاشياء يأتي البحتري بها » وقوله :

فيك اشياء لو وجدن قديماً
وقوله : فيك اشياء من يواليك مسر
ور بها والعدو منها مغيب
وقوله : واليك الشكاة منها ومن اش
ياء تبتز ذا الحجا معقوله
وقوله : يا حورم للحبيب يفعل بي أش
ياء لا يستحلها الحرج
وقوله :

وفيه اشياء صالحات حاكها الله والرسول

وإنما تابع المفسرين في هذا ولم يتابع القياسيين من النحاة لأن كلمة اشياء وردت في سورة المائدة ممنوعة من الصرف ، إذ جاء في الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبدلكم تسؤكم » بفتح الهمزة في اشياء ، وتعليل المفسرين لذلك « ان اشياء هنا اسم جمع كطرفاء غير أنه قلبت لامه فجعلت لفعاء ، وقيل افعلاء حذفت لامه - جمع لشيء كهين أو شيء كصديق فخفف » وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هي كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ ، فلم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوي وإلا لظهر منه ذلك في مواضع شتى مع إطالته وإكثاره وجرأته على تذليل النحو لمراده . ونقول جرأته لأننا لا نعد من خطأ الجهل قوله :

دعني وإيا أبي علي الأعور المعور الخبيث

إذ لا يخفى على المبتدئ أن « إيا » ضمير فصل يتصل بالضمائر الموصولة ولا يتصل في الكلام الفصيح بالأسماء . فابن الرومي إذا وصل الضمير المفصول بالاسم لا يفعل ذلك جهلاً بالقاعدة التي يعلمها المبتدئون وإنما يفعله وهو مجتريء عليه عالم بمكان هذه الكلمة من الخطأ والصواب ، وعلى ذكر التجوز في صرف الممنوع ومنع المصروف نقول إن ابن الرومي كان من أقل الشعراء تجوزاً في « عروضه » وأكثرهم حرصاً على أوزانه . ولا بأس بأن نذكر له هنا بيتين قالهما في مرض وفاته ورواهما عنه أبو عثمان الناجم وهما :

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك للعشيرة دون لومك

تمتع من أخيك ، فنا أراه يراك ولا تراه بعد يومك
فقد ذكرهما المعري في رسالة الغفران فعاب عليهما أنهما مقيدان وقال « وما علمت أنه
جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيداً إلا في بيت واحد يتداوله رواة اللغة ، والبيت :
كأن القوم عشوا لحم ضأن فهم نعجون قد مالت طلاهم
وهذا البيت مؤسس ، والذي قاله ابن الرومي من غير تأسيس »
والحق أنه لا خلل في وزن البيتين من حيث العروض ، وإنما كان المعري في نقده هذا
أشبه بالفقهاء منه بالأدباء ، ولو اختلف البيتان أشد خلل لما قيستهما صناعاً ابن الرومي في
جميع شعره . لأن المرء لا يقاس بنظم مرتجل يلقي به إلقاءً وهو يجود بنفسه .
وقد تلاحظ على ابن الرومي تعبيرات كالتى تسمى في عصرنا هذا بالتعابير الافرنجية في
مثل البيت

كما لو هجاكم شاعر حل قتله كذاك فأوفوا مادحاً دية القتل
وقد يلاحظ ذلك في إكثاره الهمتات مثل قوله « ضلة ! ضلة » « وسوءة سوءة » و« في سبيل
الشیطان منك نصيبي » إلى أشباه ذلك من اللفظات الكثيرة في تعبيرات اللغات الأوروبية .
فيرد على الخاطر أنه كان - لهذا - يعرف الأغريقية ويتأثر بها في أسلوبه ، أو يرد على الخاطر
أن هذه التعبيرات من أثر العجمة في سليقته والعادة في لسانه . ولكنها ملاحظة لا تستلزم
هذه النتيجة ولا نستطيع أن نعزها بملاحظات أخرى من قبيلها . ومن السهل جداً أن
نقول ان أمثال تلك التعبيرات القليلة سرت إلى ابن الرومي من دراسة الكتب المترجمة
ومعالجة التديلات المنطقية في كلامه ومساجلاته ، وأن الهمتات مألوفة فيمن كان له مزاج
كمزاجه المتوفز عربياً كان أو أعجمياً بلا خلاف . ذلك أسهل من القول باللغة الأعجمية
الذي استضعفناه فيما تقدم من الكلام على تعليم الرجل ومعلوماته .

في أي باب من أبواب الشعر كان ابن الرومي يجيد خاصة ؟
سؤال لا بد أن يخطر لنا في معرض الكلام على صناعته وأسلوبه ، وأرى أن الكثيرين
سيقولون - أو قد قالوا - أنه هو باب الهجاء لأنه اشتهر به وشاع أنه مات بسببه ، فلنعلم
إذن أنهم مخطئون في هذا الحكم لأن ابن الرومي كان يجيد في أبواب الشعر كلها على حد
سواء ويعطي قصائده جميعاً بمقدار واحد من عنايته وإتقانه .

وخذ مثلاً أقواله في الحكمة وهي أقل ما اشتهر به تجدد له مئات من الأبيات التي تسير مسير الأمثال وتخرج من عداد تلك الأفكار المطروقة التي يتفهم بها من يحبون الاشتهار بالبيت الحكيم والمثل السائر ، ولو أننا رجعنا إلى أبياته التي مرت بنا في هذا الكتاب لما ألفينا بينها تفاوتاً في الطبقة بين غرض وغرض وباب وباب ، وإنما اشتهر بالهجاء لأن الهجاء أشهر وأسير لأنه يجيد فيه أكثر من إجادته في المديح أو في الغزل أو في الصفات ، فلو أن الألسن تتسائر بالوصف البارع كما تتسائر بالهجاء اللاذع لغطى وصف ابن الرومي على هجائه لكثرة ما قال وأجاد في الوصف حتى خلال قصائد الهجاء .

وأغرب من هذا الاستواء في طبقة القول أنك تقرأ الأبيات التي مرت بك في هذا الكتاب فتحسب أنها نظمت كلها في عمر واحد ولا تدري أيها شعر الشباب وأيها شعر الكهولة والشيخوخة إلا ما يندب فيه شبابه ويتبرم بسينه ، فانظر مثلاً إلى الأبيات التالية :

قل لأيوب والكلام سجال	والجوابات ذات يوم تدار
اسكتوا بعدها فلا تذكروا الشـ	ؤم ، حياءُ . فأنتم الأجل
أنا شؤمي فيما تقولون عزاً	ل ، ولكن شؤمكم قتال
بالذي أدرك المؤيد منكم	وابن سعدان تُضرب الأمثال
زرتموه والصالحات عليه	مقبلات فادبر الاقبال
حين درت له أفويق دنيا	ه دلفتم له فكان الفصل
إن شؤماً حلت به عقدة الملـ	ك لشؤم تزول منه الجبال
ليس بدعاً من الحوادث أن يعز	ل والـ وتحقق الآمال
إنما البدع أن تزول أمور	لم يكن يهتدي إليها الزوال
كالذي حاق بالمؤيد منكم	بعد ما نوطت به الآمال
ذلك الشؤم يا بني أم شيخـ	يكن القائلين فيه المقال
ذاك شؤم فيه سهام الأفاعي	ناجز النقد ، ليس فيه مطال
ذاك شؤم كالسيل عفى على الفـ	طر جلال كما يكون الجلال
ذاك شؤم لو جاور البحر يومـ	ين لأمسى وليس فيه بلال

فهذه قطعة نظمها في نحو الثلاثين من عمره ، لأنها نظمت في نكبة « المؤيد » . فقابل بينها وبين القطعة التالية التي نظمها وهو في الخامسة والخمسين :

كبرت وفي خمس وخمسين مكبر وشبت ، فالحاظ ألها عنك نُقْر

إذا ما رأيتك البيض صدت وربما
وما ظلمتك الغانيات بصدها
أعر طرفك المرأة وانظر فان نبا
إذا شئت عين الفتى وجه نفسه
غدوت، وطرف البيض نحوك أصور
وإن كان من أحكامها ما يجور
بعينك عنك الشيب فالبيض أعذر
فعين سواه بالشناة أجدر
أو قابل بينهما وبين هذه القطعة التي نظمها قبيل وفاته على لسان العزير :

أياي بني الجراح عندي كبيرة هم القوم ينسون الأيادي منهم وأن كنت قد أهملت بعد رعاية وقلدت شغلاً ضره لي معجل أروح وأغدو فيه أنصب عامل	وأكبر منها أنها لا تكدر عليك ، ولكن المواعيد تذكر وأغفلت حتى قيل أشعث أغبر سريع ، وأما نفعه فمؤخر وأصفره كفا ، فكم أتصبر !
أعطش أمثالي وواديك فائض أبى ذاك أن الطول منك سجية وأنت لم تؤثر على الحق لذة وما زلت تختار الأمور بحكمة	ويجذب أمثالي وواديك أخضر وأنت بيت الحمد بالطول تعمر بحكم هوى ، فالحق عندك مؤثر فأفضلها الأمر الذي تتخير

فانظر حين تقرن هذه الأبيات بعضها ببعض هل ترى بينها من تفاوت في الصناعة أو اختلاف في روح الشعر ونسج الكلام وطريقة التركيب وتناول المفردات ؟ فهي وغيرها من قصائده التي نظمت من العشرين الى الستين طبقة واحدة من هذه الناحية لا تستطيع أن تتحقق فيها مزية سن على سن ولا فترة على فترة . وتعليل ذلك صعب في الشعراء المطبوعين غير ابن الرومي ، أما هو فلا صعوبة في تعليل هذا الاستواء في تركيبه والتشابه في روحه ونسجه ، لأنه ينسج من غزل واحد وبضاعة واحدة ، وهي الشعور الجديد أو الشعور الطفولة الفنية التي لازمته في حياته من المبدأ الى النهاية . فلم يتغير فيه الا القليل بعد ما درس نصيبه من اللغة والعلم واستوفى مادته من الفن والصياغة ، وكأنه الشجرة لتي نضجت مبكرة وبلغت تمامها ورسخت في تربتها ، فثمرتها اليوم كثمرتها بعد سنوات عشر أو بعد عشرين وثلاثين ، ولا عيب في ذلك إلا أن تكون الثمرة بساً لا خير فيه . أما ذا كانت ثمرة جنية كأطيب الثمر في النضرة والحلاوة والتبكير إذن أصلح من التأخير البقاء على طبقة واحدة أحب وأكمل من التغير .

فالكلمة الأولى والأخيرة في هذا العبقرى النادر أنه كان شاعراً في جميع حياته حياً في جميع شعره ، وإن الشعر كان للأناس غيره كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له جسماً لا تكون بغيره حياة .

خاتمة

بالكلام عن صناعة ابن الرومي تمت الصورة التي استخرجناها له من مجموعة شعره ومتفرق أخباره . وحسبنا أن نتمم هذه الصورة لنكون قد بلغنا الغاية من وضع هذا الكتاب وأقمنا - في عرض الطريق - أوضح الأدلة المحسوسة على وحدة المقاييس بين تعبيرات الشعر وتعبيرات الحياة . ونحسب أننا قد أقمنا هذا الدليل في وقت الحاجة إليه عند قراء الأدب الغربي بيننا ، قبل قراء الأدب العربي وحده بفرعيه من قديم وحديث . لأننا نعيش في عصر شاع فيه بين كثير من الأوروبيين أن الشعر شيء بمعزل عن خوالج الحياة ، وإننا لا ينبغي أن نتنظر منه مطلباً آخر غير الرونق والطلاوة ، وما إلى ذلك من ظواهر قسامة لا تتجاوز البشرة إلى ما وراءها من قلوب ونفوس وضائير .

وغير عجيب أن يشيع هذا الرأي القائل بين الأوروبيين في العصر الذي نحن فيه وهو عصر السامة و« الفردية » وآداب الصالونات والمجالس . إذ ماذا تنتظر من شعر يقرأه إنسان قد سئم المثل العليا وكذب بالإغراض الرفيعة وفترت فيه قوة العقيدة ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرأه إنسان تفرض عليه « الفردية » أن يظل فرداً معزولاً بين أفراد معزولين ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرأه إنسان أنيق لا يريد أن يسمع من جلسه في الصالون أو النادي أو القهوة إلا شقشقة لسان وأحاديث فراغ ؟ إنك لا تنتظر من هذا الإنسان أن يتطلب في الشعر ما يتطلبه الإنسان الذي تنشط نفسه للعقيدة ولو نشاط المكافحة والثوران أو يتطلبه الإنسان الذي تتصل بينه وبين الأحياء من حوله وشائج دم لا تزال تنقل منه اليهم كما تنقل منهم إليه ، أو يتطلبه الإنسان الذي يحس أن الكون مجال حياة وأسرار يولد فيه مخلوقاً حياً عريق الأصول في أباد ليس لها نهاية ، لا عضواً في « صالون » أو جلساً في قهوة أو سميماً في سهرات مجون . . . كلا ! إنك لا تنتظر من إنسان السامة والفردية والصالون أن يقرأ شعراً كالذي يقرأه إنسان النشاط القلبي والوشائج الأدمية والكون الأبدي المستهول الوضوح والخفاء على السواء ، فغير عجيب كما قلنا أن يشيع رأي أصحاب الرونق والطلاء في هذا العصر ، وما بقي فيه للإنسان من مطلب عزير متفق عليه غير مطلب الراحة الملء والهدوء الناعم من مزعجات الجهاد .

فاذا كنا ، مع استخراج صورة ابن الرومي من شعره ، قد وفقنا لظهار الوحدة العامة بين الشعر والحياة أو بين الفن والحياة كلها - فذلك حسبنا من مقصد جدير بالالتفات خليق أن يتقرر بيننا قبل أن يشيع في أذواقنا رأي السأم والاثرة واناقة المتبطلين .

لكننا نرجو أن نكون قد وفقنا لارضاء التاريخ الى جانب ارضاء التصوير وارضاء الوحدة بين الشعر والحياة ، وحسبنا في هذا أيضاً أننا سندع ترجمة ابن الرومي هنا خيراً مما تسلمناها من شتات الماضي صحة في الأخبار ورححاناً في الاحتمالات ، ومن هذه الأخبار أخبار تتعلق بمولده ووفاته ، وأخبار أخرى تتعلق باخلاقه ومعيشته ، ومنها أخبار تلقاها الناقلون بالتسليم وحررت في التراجم مجرى المقررات ولا مصدر لها الا خطأ عارض في طبع بعض التواريخ . كالخبر الذي يُنقل عن ابن خلكان ويقال فيه ان المتنبي روى عن ابن الرومي شعره وبينهما ما بينهما من بعدى الزمان والمكان . . . فيأخذ الناقلون ويقبله منهم من يقبل ويحار فيه من يحار ، وإنما هو اسم « المسيبي » حرّفه الطابعون إلى اسم « المتنبي » فسرى الخطأ سريانه في الكتب الحديثة بلا شذوذ . . . وغير ذلك كثير ليس يعنينا في صدد هذه الخاتمة أن نحصيه وما شاكلة ونحا نحوه في جميع المصادر والمنقولات ، لأننا نقصد إلى تصحيح ما لاح لنا خطؤه ولا نقصد إلى احصائه على المخطئين .

وبعد فمن تمام التعريف بابن الرومي أن نختم كتابنا بمختارات له لم نعتمد فيها الدلالة التاريخية التي توخيناها في شواهد الفصول السابقة ، ولا ريب أن هذه الشواهد معرض حسن تبدو فيه شاعرية المترجم في نواحي كثيرة منوعة . ولكننا نعتقد ان المختارات التي تقرأ لذاتها لا لموقعها من الترجمة أخرى أن تتمم المعرفة بشاعريته من جميع نواحيها . وها هي أولاً تلك المختارات معروضة فيما يلي لتدل على معدن شعره لا على أحسن ما فيه :

الطبيعة والحياة

(الربيع شباب الطبيعة)

ضحك الربيع الى بكا الديم
ما بين أخضر لابس كُما
متلاحق الأطراف متسق
متبلج الضحوات مشرقها
تجد الوحوش به كفايتها
فطبأوه تضحى بمنططح
والروض في قطع الزبرجد وال
طل يرققه على ورق
حشد الربيع مع الربيع له
والدولة الزهراء والزمن المز
إن الربيع لكالشباب وإن ال
أشقائق النعمان بين ربي
غدت الشقائق وهي واصفة
ترق لأبصار كحلن بها
شعل تزيدك في النهار سنى
أعجب بها شعلاً على فحم
وكأنما لمع السواد إلى
حدق العواشق وسطت مقللاً
هاتيك أو خيلان غالية
يا للشقائق لأنها قسم
ما كان يهدى مثلها تحفاً

وغدا يسوي النبت بالقيم
خضراً ، وأزهر غير ذي كم
فكانه قد طم بالجلم^(١)
متأرجح الأسحار والعتم
والطير فيه عتيدة الطعم
وحامه تضحى بمختصم
ياقوت تحت لآلي قوّم
فكانه در على لم
فغدا يهز ثابت الجم^(٢)
هار حسبك شافى قرم
صيف يكسه لكاهرم
نعمان ! أنت محاسن النعم
آلاء ذي الجبروت والعظم
ليرين كيف عجائب الحكم
وتضيء في محلولك الظلم
لم تشتعل في ذلك الفحم
ما احمر منها في ضحى الرهم^(٣)
نهكت وعلفت من دموع دم
أضحت بها الوجنات في دمم
ترهى بها الأبصار في القسم
إلا تطول باريء النسَم

(١) يطمه بالجلم يعلوه بالمقص

(٢) جمع جة والمقصود بها هنا رؤوس الشجر .

(٣) المطر الخفيف الدائم .

(السحاب)

متهللٌ زجلٌ ، تحنّ رواعد في حجزتيه ، وتستطير بروقُ
سدّتْ أوائله سبيلَ أواخر لم يدر سائقهن كيف يسوق
فسجاً ، وأسعدْ حاليه بدرق منه - سواعدُ ثرةٌ وعروق
وتنفّست فيه الصبا فتبجّست منه الكلى ، فأدبته معقوق
حتى اذا قضيت لقيعانِ الملا عنه حقوقٌ بعدهن حقوق
طفقتْ رَوَاياهُ تجرّ مزادها فوق الربى ، ومزادها^(١) مشقوق
وتضاحك الروض الكئيب لصوبه حتى تفتق نوره المرتوق
وتنسمت نفحاته فكأنه مسكٌ تضوّع ، فأرهُ مفتوق
وتغرد المكاء . فيه كأنه طرب تعلل بالغناء مشوق

(روضة)

وروضة عذراء غير عانسه جادث لها كلّ سماء راجسه
رائحة بالغيث أو مغالسه

فأصبحت من كل وشي لابسهُ خضراء ما فيها خلاة يابسهُ
ضاحكة النوار غير عابسهُ كأنها معشوقة مؤانسهُ
فيها شمس للبهار وارسهُ كأنها جماجم الشماسهُ
تزوقك النورة منها الناكسه بعين يقظى وبجيد ناعسه

لؤلؤة الطل عليها فارسهُ

وخُرّم^(٢) في صيغة الطيالة يحكي الطواويس غدت مطاوسهُ
كأنما تلك الفروع المائسه تغمسها في اللازورد غامسه
وصفوة النعمان والقوابسه من ناصع الحمرة رياً قالسه^(٣)
تكاد تحت الظلمات الدامسه تهوي اليها كلّ كف قابسه

(١) المزاد ما يوضع فيه ال اد .

(٢) نبت كاللوبة ملون حسن الشم والمنظر

(٣) ملأى طافحة

الترجس

يا حبذا الترجس ريحانةُ
لأنفٍ مغبوقٍ ومصبوحٍ
كأنه من طيب أرواحه
ركب من رُوحٍ ومن رُوح
يا حسنه في العين يا حسنه !
من لامحٍ للشرب ملموح
كأنما الطلُّ على ثوره
ماءٌ عيون غير مسفوح

الهجرة في الصحراء

وهاجرة بيضاء يُعدى بياضها
سواداً كأن الوجهَ منه محمّمٌ
أظلل إذا كافحتها وكأني
بوهاجها دون اللثام ملثمٌ
بديمومة لا ظلٌ في صحصحاتها
ولا ماء لكن قورها^(١) الدهر عومٌ
تري الآل فيها يلطم الآل ما نجا
وبارحها المسموم للوجه أظم

خابط الليل في الفياقي

وليلٍ - غشا ليلٌ من الدجن فوقه -
عفا جلبه أي الهدى من سائه
لبست دجاء الجون ثم هتكته
عذافرة تنقض من كل زجرة
يخوض عليها لجّة الهول راكب
نجيب من الفتيان فوق نجية
فريدين ، يمضيها وتمضيه في الدجى
يربها الهدى حدساً ، وتنجو برحله ،
على ظهر مَرّت^(٢) ليس فيه معرّجٌ
ينوح به بومٌ وتعزف جنة
يُحال بها من رزّ هذا وهذه

فليس لنجم في غواشيه منجمٌ
وأعلامه من أرضه فهي طُسمٌ
بوجناء ينميها غُريرٌ وشدقم^(٣)
كما انقضّ مِردي^(٤) المنجنيق الململم
هو السيف إلا أنه لا يثلم
من العيس ، في يهء ، والليل أيهم
كسمراء يمضيها وتمضيه لهذم
ودون الهدى سدٌ من الليل مبهم
ولكن تحب للركاب ومسعم^(٥)
فيعوي لها سيدٌ ويضبح سمس^(٦)
إذا اختلف الصوتان عرسٌ ومأتم

(١) اصاغر الجبال (٢) فحلان مشهوران من الابل (٣) المردى حجر يرمى به .

(٤) ارض فقير لا نبات فيها (٥) السعم السريع السير (٦) ثعلب

تعسفتُهُ إما لخفضِ أنالِهِ

وإما سَامَ الحَفْضِ ، والخفضُ يسَامُ

الأسفار

أذاقتني الأسفار ما كثره الغنى
فأصبحت في الاثراء أزهد زاهدا
حريصاً جباناً . أشتهي ثم أنتهي
ومن راح ذا حرصٍ وجبنٍ فإنه
تَنَازَعَنِي رَغْبٌ ورَهْبٌ كلاهما
فقدمت رجلاً رغبةً في رغبة ،
أخاف على نفسي وأرجو مفازها ،
ألا من يُريني غايَتي قبل مذهبي !

إليّ ، وأغراني برفض المطالب
وإن كنتُ في الأثراء أرغب راغب
بلحظي جنابَ الرزق لحظ المراقب
فقير أتاها الفقر من كل جانب
قويّ : وأعياني اطلاع المغايب
وأخترت رجلاً رهبة للمعاطب
واستارُ غيب الله دون العواقب
من أين ؟ والغايات بعد المذاهب

سفر البر

ومن نكبةٍ لاقيتها بعد نكبةٍ

رهبتُ اعتسافَ الأرض ذات المناكب

وصبري على الاقتار أيسرُ محملاً
لقيتُ من البرِّ التباريحَ بعدما
سقيتُ - على ريِّ به ألفَ مطرة
ولم أسقها ، بل ساقها لمكيدتي
إلى الله أشكو سخف دهرِي فإنه
أبى أن يغيث الأرض ، حتى إذا ارتمت
سقى الأرض من أجلي فأضحت مزلةً
لتعويق سيري أودُ حوض مطيتي ،
فملتُ إلى خان مرثٍ بناؤه
فلم ألق فيه مستراحاً لمتعب

عليّ من التغرير بعد التجارب
لقيت من البحر ابيضاض الذوائب
شغفت لبغضيها بحب المجادب
تحامقُ دهر جدّ بي كالملاعب
يعابثني مذ كنت ، غير مطايب
برحلي أتاها بالغيوث السواكب
تمائلُ صاحبها تمایلُ شارب
وإخصاب مزورٍ عن المجد ناكب
مميلُ غريقِ الشوب لهفان لاغب
ولا نزلاً ، أيان ذاك لساغب ؟

فما زلت في خوف وجوع ووحشة

وفي سهر يستغرق الليل واصب

تراه إذا ما الطين أثقل متنه
وكم خان سقر خان فانقض فوقهم
ولم أنس ما لاقيت أيام صحوه
وما زال ضاحي البر يضرب أهله
فان فاته قطرٌ وثلجٌ فانه
فذاك بلاء البر عندي شاتياً ،
الآ رب نارٍ بالفضاء اصطليتها
إذا ظلت البيداء تطفو إكامها
فدع عنك ذكر البر ، أنى رأيت
كلا نزليه صيفه وشتاؤه
لهات مميت تحت بيضاء سخنة
يجف إذا ما الريق أصبح عاصباً ،
فيمنع مني الماء واللوح جاهداً ،
وما زال يبغيني الحثوف موارباً
فطوراً يغادينني بلص مصلت ،
إلى أن وقاني الله محذور شره
فأفلت من ذؤبانه وأسوده

تصر نواحيه صرير الجنادب
كما انقض صقر الدجن فوق الأرناب
من الصرفيه والثلوج الأشاهب
بسوطي عذاب جامد بعد ذائب
رهين بسافر تارة وبحاصب .
وكم لي من صيف به ذي مثالب
من الضح يودي لفحها بالحوارب
وترسب في غمر من الال ناصب
لمن خاف هول البحر شر المهارب
خلاف لما أهواه غير مصائب
وري مفيت تحت أسحم صائب
ويغلق لي والريق ليس بعاصب
ويغرقني والسري رطب المحالب
- يحوم على قتلي - وغير موارب
وطوراً يمسيني بورد الشوارب
بعزته ، والله أغلب غالب
وخرابه إفلات أثوب تائب

السفر بحرأ بدجلة

وأما بلاء البحر عندي فإنه
ولو ثاب عقلي لم أدع ذكر بعضه
ولم لا ؟ ولو أقيت فيه وصخرة
ولم أتعلم قط من ذي سباحة
فأيسر اشفاقي من الماء أنني
وأخشي الردى منه على كل شارب

طوانسي على روع مع الروح واقب^(١)
ولكنه من هوله غير ثائب
لواقيت منه القعر أول راسب
سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب
أمر به في الكوز مر المجانب !
فكيف بأمنيه على نفس راكب

(١) غائر أو مستكن

أَظْلَ إِذَا هَزْتَهُ رِيحٌ وَلَالَاتُ
كَأَنِّي أَرَى فِيهِنَّ فَرَسَانِ بِهِمَةِ
فَإِنْ قُلْتُ لِي قَدْ يُرَكَبُ الْيَمُّ طَامِيًا
فَلَا عَذْرَ فِيهَا لَا مَرِيءَ هَابَ مِثْلَهَا ،
فَإِنْ احْتَجَاجِي عَنْكَ لَيْسَ بِنَائِمٍ
لِدَجَلَةِ خَبٍّ لَيْسَ لِلْيَمِّ ، إِنَّهَا
تَطَامِنُ حَتَّى تَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا ،
وَأَجْرَافُهَا رَهْنٌ بِكُلِّ خِيَانَةٍ
يَرَانَا إِذَا هَا حَتَّ بِهَا الرِّيحُ هَيْجَةً
ثَوَائِلَ^(١) مِنْ زَلْزَالِهَا نَحْوِ خُسْفِهَا ،
زَلْزَلِ مَوْجٍ فِي غَمَارِ زَوَاخِرِ ،
وَلِلْيَمِّ اعْذَارٌ بِعَرَضِ مَتُونِهِ
وَلَسْتُ تَرَاهُ فِي الرِّيحِ مَزْزَلًا
وَإِنْ خِيفَ مَوْجٌ عَيْدٌ مِنْهُ بِسَاحِلٍ
وَيَلْفُظُ مَا فِيهِ ، فَلَيْسَ مَعَاجِلًا
يَعْلَلُ غَرَقَاهُ إِلَى أَنْ يَغِيثَهُمْ
فَتَلْقَى الدَّلَافِينَ الْكَرِيمَ طِبَاعُهَا
مَرَكَبَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَبَابَهُمْ ،
وَيَنْقُضُ أَلْوَاخَ السَّفِينِ فَكُلَّهَا
وَمَا أَنَا بِالرَّاضِي عَنِ الْبَحْرِ مَرْكَبًا

له الشمس أمواجاً طوال الغوارب
يليحون نحوي بالسيف القواضب
ودجلة عند اليمّ بعض المذانب^(٢)
وفي اللجة الخضراء عذراً لهائب
وإن يياني ليس عني بعازب
ترأى بحلمٍ تحته جهلٌ واثب
وتغضب من مزح الرياح اللواعب
وعذرٍ ، ففيها كلُّ عيبٍ لعائب
تزلزل في حوماتها بالقوارب -
فلا خير في أوساطها والجوانب
وهذاتُ خسفٍ في شطوط خوارب
وما فيه من آذيةٍ المتراكب
بما فيه - إلا في الشداد الغوالب
خليٍّ من الأجراف ذات الكباكب
غريقاً بغتٍ يزهق النفس كارب
بصنع لطيفٍ منه خير مصاحب :
هناك رعالاً عند نكب النواكب
فهم وسطه غرقى وهم في مراكب
منجٍ لدى نوب من الكسر نائب
ولكنني عارضتُ شغب المشاعب

(١) المذنب مسيل الماء الى الارض

(٢) وال من الشيء الى الشيء لجأ

الطرد والقنص

(صيد الطير)

وقد أغتدي للطير والطير هجّع
بخلّين تمّا بي ثلاثة إخوة
مطيعين أهواء توافت على هوى
إذا ما دعا منا خليل خليله :
كأن له في كل عضو ومفصل
فثاروا إلى آلتهم فتقلّدوا
حملة زاداً خفيفاً مناطه
وقد وقفوا للحائثات^(١) وشمروا
وجدت فسي القوم في الطير جدّها
فظلّ صحابي ناعمين ببؤسها
طرايح من سودّ وبيض نواصع
تؤلف منها بين شتى ، وإنما
فكم ظاعنٍ منهنّ مزمّع رحلة
وكم قادم منهنّ مرتاد منزل
كان بنات الماء في صرح منته
زرابي كسرى بثها في صحانه
تريك ربيعاً في خريف ، وروضة

ولو أوجست مغداي ما بتن هجّعا
جسومهم شتى وأرواحهم معا
فلو أرسلت كالنبيل لم تعد موقعا
بأفديك . لبّاه مجيباً فأسرعا
وجارحة قلباً من الجمر أصمعا
خرايط حمراً تحمل السم منقعا
من البندق الموزون قلّ وأقنعا
لهن إلى الأنصاف ساقاً وأذرعا
فظلّت سجوداً للرماء وركعا
وظلّت على حوض المنية شرعا
تخال أديم الأرض منهنّ أبقعا
نشتت من ألافها ما تجمعا
قصرنا نواه دون ما كان أزمعا
أناخ به منا منيخ فججعجا
إذا ما علا روق الضحى فترفعا
ليحضر وفداً أو ليجمع مجمعا
على لجة : بدعاً من الأمر مبدعا

(١) للطير الحائثات

أدوات القتل

الرماة

لهمَّ عدَّةٌ تكفيهمُ كلَّ عدوٍّ : بناتُ المنايا والحنىُّ الموتُ
يزلون عن أكباد كل حنية خفافاً مع الأجال تعلو وتقصر
نواها نواهم في المنايا ، كأنما مواقعها فيما يشاءون تقدّر
لها ألسنٌ ما تستفيق لهاثها يكاد لعابُ الموتِ منهنَّ يقطر

سيف

خير ما استعصمت به الكفُّ غضبٌ دَكَّرُ حدهُ ، أنيثُ المهزّ
ما تأملته بعينيك إلا أرعدت صفحتاه من غير هزّ
مثلُه أفزع الشجاعَ إلى الدر ع فعالي به على كل بزّ
ما يبالي أصممت شفرتاه في محزّ أو جازتا عن محزّ

مجالس الشراب واللهو

القيان الأتراك

(في مجلس القاسم) .

كأنني في الفردوس فوق الأرايك
لدى ملك بالحق ، لا مثالك
بمدح له قد سار جم المسالك
يفهن بأفواه الأطباء الأوارك
ينمنمن وشياً غير وشي الحوائك
بترحيل أضياف الهموم السوداء^(١)
عجائب تصبي كل صاب وناسك
يصبن الحشا في السلم لا في المعارك
شجاه وسجع الباقيات الضواحك
بذاك الشجا الفتان لا بالنيازك
ولا المتعدّي قصد أهدي المسالك
إلى ناجم في ساحة الصدر فالك
وأربى على قد القصار الحوائك
لها غنج غنث ، وتكريه فاتك
وإن نالها في خصرها نهك ناهك
سناها فشفت عن سبيكة سابك
ممالك ملكن اقتدار الممالك

أظل إذا شاهدت يوم نعيمه
بمراى من الدنيا جميل ومسمع
تحت الحسان المحسنات كؤوسه
من الوضوح اللبس الشفاء كأنما
يرفعن أصواتاً لداناً ، وتارة
كفلن لنا لما اصططفن حيالنا
فما برحت تهدي الينا عجائب^(٢)
فتاة من الأتراك ترمي بأسهم
كان زمير القاصبات أعارها
ظللنا لها نصباً تشك قلوبنا
وما « جلنار » بالمقصر شأوها
لطيفة قد الندي تسند عودها
تطامن عن قد الطوال قوامها
ورقاصة بالطبل والصنج كاعب
أتيح لها في جسمها رفد رافد
إذا هي قامت في الشفوف أضواءها
سبايا اليهن استباء عقولنا

(١) الملازمة

(٢) اسم جارية

السوداء الحسناء

(في مجلس عبد الملك بن صالح)

سوداء لم تنتسب إلى برص	الشقر ولا كلفة ولا بهق
ليست من العبس الأكف ،	ولا الفلج الشفاه ، الخبائث العرق
بل من بنات الملوك ناعمة	تنشر بالدل ميت الشبق
في لين سمورة تخيرها الفراء ،	أو لين جيد الدلق ^(١)
تذكرك المسك والغوالي والس	ك ذوات النسيم والعبق
هيفاء زينت بخمص محتضن	أوفى عليه نهود معتق
غصن من الأبنوس ألف من	مؤتزر معجب ومنتطق
يهرز من ناهديه في ثمر	ومن دواجي ذراه في ورق
أكسبها الحب أنها صبغت	صبغة حب القلوب والحدق
فانصرفت نحوها الضمائر والأب	صار يعنقن أيما عنق
يفتر ذاك السواد عن يقق	من ثغرها كاللاليء النسق
كانها والمزاح بضحكها	ليل تفرى دجاء عن فلق
سمحاء كالمهرة المطهمة الده	سما تنضو أوائل السبق

الشراب في الخبائل

وصفراء بكر ، لافذاها مغيب	ولاسر من حلت حشاه مكتم
ينم على الأمرين فرط صفائها	وسورتها حتى ييوح المجمع
هي الورس في بيض الكؤوس ، وإن بدت	
لعينيك في بيض الوجوه فعندم	
مذاق ومسرى في العروق كلاهما	ألد من البرء الحديد وأنعم
إذا نزلت بالهم في دار أهله	غدا الهم وهو المرهق المتهم
أقامت بيت النار تسعين حجة	وعشراً يصلى حولها ويؤمزم
سقتني بها يضاء ، فوها وكأسها	شبيها مذاق عند من يتطعم

(١) حيوان يقرب من السنور في الحجم

لدى روضة فيها من النور أعينُ ترقرق دمعاً ، بل تغور تبسم
يضاحك روق الشمس منها مضاحكُ

مدامع من واقع الطلّ سجّم

كمستعبر مستبشر بعد حزنه	لبين خليط قوضوا ثم خيموا
يغازلني فيها غزالان منها	ربيبُ الفياقي والربيب المتومّ
إذا نصباً جديهما فكلاهما	سواءٌ وأبريق لديّ مفدّم ^(١)
ثلاثة أظبٍ نجرها غير واحدٍ	لذي اللهو فيها كلها مُتنعم
غزال ، وأبريق رذومٌ ، وغادة	تحرّك من أوتارها وتنغم

(١) المفدّم الذي عليه 'الفدّام' وهو شبه مصفاة

الموسيقى والغناء

في وحيد المغنية

يا خليلي تيممتني وحيدُ
غادة زانها من الغصن قدُ
وزهاها من فرعها ومن الحديد
أوقد الحسن ناره في وحيد
فهي بردٌ بخدّها وسلام
لم تضر قط وجهها وهو ماء
ما لما تصطليه من وجنتيها
مثلُ ذاك الرضاب أطفأ ذاك
ففؤادي بها معنى عميدُ
ومن الظبي مقلتان وحيد
من ذاك السواد والتوريد
فوق خد ما شأنه تخديد
وهي للعاشقين جهد جهيد
وتذيب القلوب وهي حديد
غيرُ ترشاف ريقها تبريد
الوجد لولا الالباء والتصريد^(١)

وغيرير بحسنها قال : صيفها !
يسهل القول إنها أحسن الأشد
شمس دجن ، كلا المنيرين -
تتجلّى للناظرين إليها
ظبية تسكن القلوب وترعا
تغنى ، كأنها لا تغني
لا تراها هناك . تحفظ عين
من هدير وليس فيه انقطاع
مدّ في شأو صوتها نفس كافٍ
وأرق الدلال والغنج منه
فتراه يموت طوراً ويحيا
فيه وشي ، وفيه حلي من
طاب فوها وما ترجع فيه ،

قلت : أمران ، هيّن وشديد
ياء طراً ويعسر التحديد .
من شمس وبدر - من نورها يستفيد
فشقي بحسنها وسعيد
ها ، وقمرية لها تغريد
من سكون الأوصال ، وهي تجيد
لك منها ، ولا يدرك ويريد
وسجور وما به تبليد
كأنفاس عاشقها مديد
وبراه الشجا فكاد يبيد
مستلذ بسيطه والنشيد
النغم مصوغ يختال فيه القصيد
كل شيء لها بذاك شهيد

(١) صرد الرجل سقاه دون الري

ثَغْبٌ^(١) ينقع الصدى ، وغناءً
 فلها الدهر لائم مستزید
 في هوى مثلها يخفّ حلیم
 ما تُعاطي القلوب إلا أصابت
 وتر العزف في يديها مُضَاوٍ
 وإذا أنبضته للشرّب يوماً
 معبد في الغناء وابن سريج
 عيهاً أنها اذا غنّت الأحرار
 واستزادت قلوبهم من هواها

وحسان عرضن لي ، قلت : مهلاً
 حسنُها في العيون حسن وحيد
 ونصيح يلومني في هواها
 لوأرى من يلوم فيه ، لأضحى
 ضلة للفؤاد يحنو عليها
 سحرته بمقلتيها فأضحت
 خلقت فتنةً غناءً وحسناً
 فهي تُعمى ، يمد منها كبير
 لي حيث انصرفت منها رفيق
 عن يميني وعن شمالي وقدّامي
 سد شيطان حبها كلّ فجّ
 ليت شعري إذا أدام إليها
 أهى شيء لا تسأم العين منه ؟
 بل هي العيش لا يزال متى است
 منظر ، مسمّع ، معان من
 لا يدب الملأل فيها ، ولا ينقض من عقد سحرها توكيد

(١) الغدير لا تعيه الشمس فيبرد الماء

حسنها في العيون حسن جديد فلها في القلوب حب جديد

أخذ الله يا وحيد لقلبي منك ما يأخذ المذيل المقيّد
حظّ غيري من وصلكم قرّة العين ، وحظي البكاء والتسهيّد
غير أنني معلّل منك نفسي بعدات خلا لهنّ وعيد
ما تزالين نظرة منك موت لي مميت ، ونظرة تخليد
نتلاقى ، فلحظة منك وعد بوصال ، ولحظة تهديد
قد تركت الصحاح مرضى يمدون نحولاً وأنت خوط يمد
ضافني حبّك الغريب ، فألوى بالرقاد النسيب فهو طريد
عجباً لي ، إنّ الغريب مقيم بين جنبيّ ، والنسيب شريد
قد مللنا من ستر شيء مليح نشتهيه ، فهل له تجريد !
هو في القلب وهو أبعد من نجم الثريا فهو القريب البعيد

رثاء بستان : المغنية

إنّا إلى الله راجعون لقد غال الردى سيرة من السير
ما أولع الدهر في تصرفه بكل زين له ومفتخر
يعدو على نفسه فيسلبها ، إلا عتاد المعدّ ذي النمر
كم ملبس لايعاب هتكه عن جلدو منه شنة الوبر^(١)
أودى بستان وهي خلته فقد غدا عارياً من الخبر
أطار قمرية الغناء عن الأرض فأى القلوب لم يطر
لله ما ضمنت حفيرتها من حسن مرأى وطهر مختبر
أضحت من الساكني حفائهم سكنى الغوالي مدهن السرر
مطّيسي كل تربة خبثت ومؤنسها بشر مجتور
يا حرّ صدري على ثلاثة أمواه هريقفت في الترب والمدر
ماء شباب ونعمة مَزجا بماء ذاك الحياء والخفر
لو يعلم القبر من أتيح له لا نحفر القبر غير محفّر

(١) الشن الغليظ

أَوْ لَأَبَاهَا، فَصَانَ حَيْثُ عَنْ رَمْسِهِ دَرَّةً مِنَ الدَّرَرِ
 إِنْ تُرَى ضَمُّهَا لِأَفْضَلِ مَحْجُو جِ لَصَبٌ وَخَيْرٌ مَعْتَمِرٌ
 أَقْسَمْتُ بِالْغَنَجِ مِنْ مَلَاظَمِهَا وَسَحَرُ ذَاكَ السَّجْوِ وَالْفَتْرِ
 لَوْ عَقُرْتُ حَوْلَ قَبْرِهَا بِقَرِّ الْأَنْسِ مَكَانَ الْقِيْلَاصِ وَالْمَهْرِ
 وَالْدَرُّ نَظْمٌ عَلَى التَّرَائِبِ مِنْهَنْ، وَأَشْكَالُهُ مِنَ الْعَتْرِ
 وَانْتَحَرَتْ فِي فَنَائِهِ بِهِمُ الْحَرْبِ وَصِيدُ الْمُلُوكِ مِنْ مَضَرٍ
 ثُمَّ سَقَيْتُ الدَّمَاءَ تَرْبَتَهَا لَمْ أَشْفِرْ مَا فِي الْفُؤَادِ مِنْ وَحَرٍ
 نَفْسِكَ يَا نَفْسَ فَاَنْحَرِي أَسْفَاً فَإِنْ هَذَا أَوَانٌ مُنْتَحِرٍ
 مَا حَسَنٌ أَنْ تَذُوبَ مَهْجَتُهَا وَمَهْجَتِي لَمْ تُرَقْ وَلَمْ تَمُرْ
 لَا يَنْكُرُ الدَّهْرُ بَعْدَ مَهْلِكِهَا هَلَكَ ذَوَاتُ الْجَلَالِ وَالْخَطَرِ

بِسْتَانِ يَا حَسْرَتَا عَلَى زَهْرِ فَيْكِ مِنَ اللَّهْوِ، بَلْ عَلَى ثَمَرِ
 بَسْتَانٍ لَهْفِي لِحَسَنِ وَجْهِكَ وَالْإِحْسَانِ، صَارَا مَعَاً إِلَى الْعَفْرِ
 بَسْتَانِ أَضْحَى الْفُؤَادُ فِي وَكِهِ يَا نَزْهَةَ السَّمْعِ مِنْهُ وَالْبَصْرِ
 بَسْتَانِ مَا مِنْكَ لَامَرِيءٍ عَوْضُ مِنَ الْبَسَاتِينِ، لَا وَلَا الْبَشْرِ
 بَسْتَانِ أَسْقَيْتُ مِنْ مَدَامَعِنَا الدَّمَاعَ، وَأَعْقَبْتَ عَقَبَةَ الْمَطَرِ
 بَلْ حَقٌّ سَقْيَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّهْبَاءِ، صَهْبَاءُ حَمَصٍ أَوْ جَدَرِ
 بَلْ مِنْ رَحِيقِ الْجَنَانِ يُقَطَّبُ بِالْمَسْكِ، سَلَالَتُهُ بَلَا عَكْرِ
 بَلْ مِنْ نَجِيعِ الْقُلُوبِ يَمْزَجُ بِالْعُطْفِ وَصَفْوِ الْوُدَادِ لَا الْكُدْرِ
 يَا نِعْمَةَ اللَّهِ فِي بَرِيَّتِهِ أَصْبَحْتَ أَحَدِي فَوَاقِرِ الْفَقْرِ
 يَا غَضَّةَ السِّنِّ يَا صَغِيرَتَهَا أَمْسَيْتُ إِحْدَى الْمَصَائِبِ الْكَبِيرِ
 أَنَّى اخْتَصَرْتُ الطَّرِيقَ يَا سَكْنِي إِلَى لِقَاءِ الْأَكْفَانِ وَالْحَفْرِ
 أَنَّى تَجَشَّمْتُ فِي الْحَوَادِثِ مَا جُشَّمْتُ مِنْ كَرِهِ ذَلِكَ السَّفَرِ
 أَحْمِيكَ مِنْ مَوْرِدٍ قَصَدْتُ لَهُ لَا يَنْتَهِي وَرْدُهُ إِلَى صَدْرِ
 يَا شَمْسَ زَهْرِ الشَّمْسِ، يَا قَمَرَ الْأَقْمَارِ حَسَنًا، يَا زَهْرَةَ الزَّهْرِ
 أَبْعَدَ مَا كُنْتُ بَابَ مَبْتَهَجٍ لِلنَّفْسِ أَصْبَحْتُ بَابَ مَعْتَبَرٍ
 أَصْبَحْتُ كَالْتَرَبِ غَيْرِ رَاجِحَةٍ بِهِ، وَقَدْ تَرَجَّحِينَ بِالْبَدْرِ
 أَصَابَنَا الدَّهْرُ فَيْكِ أَكْمَلَ مَا كُنْتُ، فَمَا رَزُونَا بِمَجْتَبَرٍ

لم تقتحمك العيونُ من صغر
فكيف تسلك والأسى أبداً
كل ذنوب الزمان مغتفر
تبَّـلَ العودُ عند فقدكم
وغاب عنا السرور بعدكم
وفاض ماءُ النعيم يتبعكم
فان سمعنا لمزهر وترأ
أما ولؤم البلى وقسوته
يا بشراً صاغه المصوّرُ من
بل من شعاع العقول حين ترى
لا تحسبوني غنيتُ بعدكم
لا تحسبوني أنستُ بعدكم
لا تحسبوني استرحت بعدكم
لا تحسبوا العين بعدكم سرحت
يأبى لها ذاك أن ناظرها
وكيف بالنوم للنباشير أطرا
سقياً ورعياً لعيشة معكم
أمتعني دهرها بغيظته
كانت لياليه كلها سحراً
لهوُ أطفنا بـبكر لذته
ولم نلّ من جناه نهمتنا
كم قد شربت الرضاب في قُبـل
جدوى فم فيه لؤلؤ وجنى
غناؤه يشتكي حرارته

ولا قلَّتْكَ النفوسُ من كبر
في كبر، والسلو في صغر
وذنبه فيك غيرُ مغتفر
وازدجر اللهو كلُّ مزدجر
واحتضر الهم حين محتضر
وانهمر الدمعُ كل منهمر
حنّ، فهاتيك عولة الوتر
لقد محّا منك أحسن الصور
نورٍ على سنّة من الفطر
الغيب بعين الذكاء والعبر
عنكم بشمس الضحى ولا القمر
إلى هديل الحمام في الشجر
إلى نسيم الشمال بالسحر
في مسرح من مسارح النظر
في شغل بالسهاد والعبر
فَ حات الحيات والأبر
أصبحت من عهدها بمفتقر
على الذي كان فيه من قصر
وكان أيامهنّ كالبكـر
وما فضضنا خواتم العذر
وان حظينا بمونق الزهر
كانت ، ولكن شربت بالعمـر^(١)
نحل بماء السحاب في النقر
وريقه يشتكي من الخصر

كُتِمَ لَنَا فِتْنَةٌ مِنَ الْفِتَنِ الـ غَرَّ بِلَا شَهْرَةٍ مِنَ الشَّهْرِ

كَأَنَّنِي مَا طَلَعْتَ مَقْبَلَةً
فِي كَفِّكَ الْعُودُ وَهُوَ يُؤْذَنُ
إِذْ مَشِيكُمْ مَذَكَّرِي غَنَاءَكُمْ
وَإِذْ فَسَادِي بِكُمْ يَذَكِّرُنِي
كَأَنَّ عَيْنِي مَا أَبْصَرْتُكَ ضَحَى
كَأَنَهَا مَا رَأَيْتُكَ كَالْمَلِكِ
يَا أَحْسَنَ الْعَالَمِينَ حَاسِرَةً
كَأَنَهَا مَا رَأَيْتُكَ صَادِحَةً
يَسْمَعُنَ ، أَوْ يَسْتَفِدُنَ مِنْكَ شَجَاً
كَأَنَّنِي مَا اقْتَرَحْتُ مَا اقْتَرَحْتُ
كَأَنَّنِي مَا اسْتَعْدَدْتُ مَقْتَرَحِي
وَصُنْتَ خِذَاً كَسَاهُ خَالِقُهُ
وَلَوْ تَكَبَّرْتَ كُنْتَ مَعْدَرَةً ،
كَأَنَّنِي مَا نَعَمْتُ مِنْكَ
رَضِيْتُ مِنْ مَنْظَرِ بَطِيفٍ كَرِيٍّ
لَوْلَا التَّعْزِيُّ بِذَاكَ آوَنَةً

عَلَيَّ يَوْمًا بِأَمْلَحِ الطَّرَرِ
بِالْإِحْسَانِ إِذَا كَانَ صَادِقَ الْخَبَرِ
مَشِي الْهُوَيْنَى سَوَاكِنَ الْبَقَرِ
«لِنَفْسِدَنِ الطُّوَافَ فِي عُمَرٍ»^(١)
فِي مَجْلِسِي - وَالْوَشَاةُ فِي سَقَرِ -
الْأَصِيدُ فِي التَّاجِ يَوْمَ مُبْتَهَرِ
وَأَكْمَلَ النَّاسَ عِنْدَ مَعْتَجَرِ
وَالصُّدْحُ الْوُرْقُ عَكَفُ الزُّمَرِ
وَالْتَمَرُ يُتَارُ مِنْ قُرَى هَجَرِ
نَفْسِي ، فَسَاعَفْتَنِي بِلَا زَوَرٍ^(٢)
يَوْمًا فَكَّرْتَهُ بِلَا ضَجَرِ
الْحَسَنَ ، فَصَعَّرْتَهُ عَنِ الصَّعَرِ
وَالْمَسْكَ مَا لَا يَعَافُ بِالذَّفَرِ
بِمَرْتَاحِ نَعِيمٍ وَلَا بِمُبْتَكِرِ
يَعْرُو ، وَمَنْ مَسْمَعٌ بِمَدَّ كَرِ
لَا نَفْطَرُ الْقَلْبَ كُلَّ مَنْفَطَرٍ^(٣)

ما انتهك الدهر قبلكم لذوي اللهو حريماً في البدو والحضر

(١) يشير إلى قول عمر بن أبي ربيعة من أبيات له :

«أبصرتها ليلة ونسوتها
قالت لها أختها تعاتبها

ولعل بستان كانت تغني هذه الأبيات

(٢) الزور الميل

(٣) أي لولا التعزي يوصلها في الخلد

أبكىك بالدمع والدماء بل التسهاد بل بالمشيب في الشعر
بل بنحول العظام محتقراً ذاك وإن كان غير محتقر
بل باجتنب الشفاء بل بتوخي النفس ما يتقى من الضرر

لا أسأل الله حسن مصطبر فانه عنك لؤم مصبر
وحزن نفسي عليك من كرم وهو على من سواك من خور
وقد يعزّي الفؤاد أنك في جنة عدن غداً وفي نهر
سيشفع الحور فيك أنك منهن بذاك الدلال والحور

هجاء أبي سليمان المغربي

ومُسِمِع لا عدمتُ فرقتَه فانها نعمة من النعم
يطول يومي إذا قرنتُ به كأنني صائمٌ، ولم أصم
إذا تغنى النديم ذكره أخذ السياق (١) الخثيث بالكظم
يفتح فاه من الجهاد كما يف تسح فاه لأعظم اللقم
مجلسه ماتم اللذاذة والقصة فب، وعرسُ الهموم والسدم (٢)
ينشدنا اللهو عند طلعتَه: «من أوحشته البلاد لم يُقم» (٣)
كأنني طول ما أشاهده أشرب كأسِي ممزوجة بدمي
تشهده فرط ساعتين فينه سيك عهداً لم تؤت من قدم
يريك ما قد عهدت في أمسك الأ دنى، كشيء في سالف الأمم
عشرته عشرة تبارك في الأع حمار لولا تعجّل الهرم
نبرد، حتى يظلّ ينشدنا هل بالديار الغداة من صمم !
يستطعم الشرب أن يقال له «أحسنْتَ !» والقوم منه في وكم (٤)،
وكيف للقوم بالتصنع ؟ لا كيف ، ولو صوّروا من الكرم

(١) الاحتضار

(٢) الهم مع الندم

(٣) كناية عن اللهوان يستوحش مجلسه فيرحل

(٤) شدة الحزن والجزع

يُظهر في وجهه إساءته	كأنها مسحة من الحمم
يَسُودُ من قبح ما يجيء به	حتى كأن قد أسفَّ بالفحم
يرتاح منه الى الأذان كما	يرتاح ذو شقةٍ الى علم
يشدو بصوت يسوء سامعه	تبارك الله باريء النسم
أبح فيه شذور حرجية	منظومة في مقاطع النغم
نبرته غصة، وهزته	مثل نيبب التيوس في الغنم
لو قدس الله ذو الجلال له	لم يرفع الله طيب الكلام
يُقزَع الصبية الصغار به	إذا بكاء بعضهم ولم ينم
يقسوله القلب - حين يسمعه -	على أحبائه بلا جرم
أحلف بالله لا شريك له	فأنها غاية من القسم
ما عرف الله قبله أحداً	ما فضل نعباته على النقم

هجو شنطف

شنطف يا عوذة السموات والار	ض وشمس النهار والقمر
إن كان إبليس خالقاً بشراً	فأنت - عندي - من ذلك البشر
صورك المارد اللعين فأعطت	ك يدها مقابح الصور

هجو كنيزة

شاهدت في بعض ماشاهدت مُسوعةً	كأنما يومها يومان في يوم
تظل تلقني على من ضم مجلسها	قولا ثقيلاً على الاسماع كاللوم
لها غناء يثيب الله سامعه	ضعفتي ثواب صلاة الليل والصوم
ظلمت أشرب بالأرطال لا طرباً	عليه بل طلباً للسكر والنوم

مناعم الخوان

طلاب المآدب

(قصيدة فيها وصف ودعابة قالها في أبي شيبة بن الحاجب وكان قد دعاه واستتر عنه) :

نجاك يا ابن الحاجب الحاجب ، وأين ينجو مني الهارب !
أبعد إحرازك إيماننا هاربتنا واعتذر الحاجب ؟
يا عجباً إذ ذاك من حالة دافعنا فيها هو الجاذب
حقاً لقد أوليتنا جفوة يحل منها البلد العاشب
انظر بعين العدل تبصر بها أنك عن منهاجه ناكب

لهفي وقد جاءتك جفالة كل مغذ ساغب لاغب
من كل شذان الحشا لهسم^(١) يأكل ما لا يأكل الحاسب
فكاه كالعصرين من دهره كلاهما في شأنه دائب
ذي معدة ثعلبها لاحس وتارة أرنبها ضاغب
تعلوه حمى شره نافض لكن حمى هضمه صالب
كأنما الفروج في كفه فريسة ضرغامها دارب
وان غدا الشبوط قرناً لهم فخذ شبوطهم التارب
أقسمت لو أنك لاقيتهم نابك من أضراسهم نائب
أبشر بكر عاجل إنني بالثار في أمثالها طالب
لا تحسبني عنك في غفلة عودي وشيك أيها الصاحب
قلت لصحبي حين راوغيهم : « لا تحزنوا ، قد يشهد الغائب
سيصنع الله لنا في غد إن كان أكدي يومنا الخائب
كروا على الشيخ بتطفيلة عن عزمة كوكبها ثاقب

(١) لمسة اكل جميع ما على المائدة

وإن زواه منكم جانب
جوسوا عليه الأرض واستخبروا
لا تنجُونَ منكم فراريجه
لا تفلتن منكم شبايطة
جدوا فقد جدّ بكم لاعباً
وليكن الكر على غرة
مقالة قمت بها خاطباً

فاعتزم القوم على غارة
يهدي أبو عثمان كردوسها^(١)
يرقل والراية في كفه

ساند فيها الراجل الراكب
هذاك ، ذاك الطاعن الضارب
قد حنها الراحح والناشب

والقوم لاقوك فأعدّد لهم
يسرّ فراريجك مقرونة
تلك التي مخبرها ناعم
واذكر بقلب غير مستوهِلٍ
أنك من جيران قُطرٍ بُلٍ
فاسقٍ حليب الكرم شرّابه
أحضرهم البكر التي ما اصطلت
تلك التي ما بايتت راهباً
تلك التي ليس لها مُشَبّهٌ
أو أمّها الكبرى^(٢) التي لم يزلْ
حقّقها بالشمس أن ربيت
أعجبٌ بتلك البكر محجوبةً

ما يرتضى الأكل والشارب
بها شبايطك يا كاتب
تلك التي منظرها شاحب
يعروه من ذكرى القرى ناخب
وعندك اللقحة والحالب
إذ ليس من شأنهم الرائب
ناراً ، فكل خاطب راغب
إلا جفا قنديل^(٣) الراهب
في الكاس إلا الذهب الدائب
لليلة من طلعتها جانب
في حجرها ، والشبه الغالب
مكروبةٌ يجلى بها الكارب

(١) طائفة الخيل

(٢) كناية عن اشراقها والاكتفاء بسناها

(٣) اولاً شبه لها الا امها الكبرى وهي الشمس التي تمزق طلعتها الغلام

مغلوبةً في الدنّ مسلوبة
بيننا تُرى في الزقّ مسحوبة
تقتصّر من واتها صرعة
إلا حمامُ الأيك في أيكَة
ذات نسيم مسكَة فائح
هاتيك هاتيك على مثلها
والثقلُ والريحانُ من شأنهم
ولا تنمّ عن نرجس مؤنس
ريحانُ روحٍ مُنهبٍ عطره
لم يلفح الصيفُ له صفحة
وزخرفت البيتُ ، كما زُخرفت
واجلسْ لهم حسناء في شدوها

لها انتصارٌ غالب سالب
إذ حكمت أن يُسحب الساحب
ليس لها باك ولا نادب
أو عازف للشرب أو قاصب
وذاث لون ورسّه خاضب
حام ولاب الحائم اللائب
فلا يعيبُ فقدَها عائب
يضحك عنه الزمنُ القاطبُ
والروحُ إذ ذاك هو الناهب
ولا سقاء عوده الشاسب. (١)

روضة حزن جادها هاضب
لكل ما سرهم - جالب

محسنةٌ ليست بخطاة بيضاء خوداً ردفها ناهدٌ
مملوكةٌ بالسيف مغصوبةٌ تستوهب الجيد إذا اتلعت
نعيم من نادمها دائمٌ كأنها والبيت مستضحكٌ
ادمانةٌ تنزب في روضةٍ واصيب عليهم تحفاً جمةً
واغرم لهم من بعد ذا كله وتب من الذنب الذي جثته
كما يقولوا حين ترضيهم :
طائرهما الهادل لا الناعب غيداء روداً ثديها كاعب
لها دلالٌ مالكٌ غاصب من ظبيةٍ افزعها طالب
وبرح من فارقها واصب والعود في قبضتها صاحب
جاوبها خشفٌ لها نازب^(١) يحمى بهن الموعدُ الكاذب
ما مثل الملاحُ والقاربُ فقد يقال^(٢) المذنب الثائب
يا حبذا المنهزم الثائب

أعتب ليوم صالحٍ فيهم ولا يكن يوماً إذا ما انقضى
عجلٌ لهم ذاك ولا تهجهم فليس من يادبُ اخوانه
اخلفنا نوءك موعوده حاشاك أن يلقاك مستمطر
ليس على امثاله عاتب صيح به : لا رجع الذهاب
ولا يثب منك بهم واثب مؤدباً للقوم بل آدب
فلا تصبنا ربحك الحاصب ومزنك الصاعق لا الصائب

اللوذج

(وهو حلواء تشبه القطائف تؤدم بدهن اللوز)

لا يخطئني منك لوزينجٌ لم تغلق الشهوة ابوابها
لو شاء أن يذهب في صخرة^(٣) لسهل الطيبُ له مذهبها
دوراً ترى الدهن له لولبا يدور بالنفخة في جامه
مستحسن ساعد مستعذبا عاون فيه منظرٌ خبيراً

(١) غزالة تصوت فيجاوريا ولدها - كناية عن مجاوبة العود لغناء المغنية

(٢) يغفر له

(٣) شمع العسل او قشر البيض

كالحسن المحسن في شدوه
مستكثف الحشو ولكنه
كأنما قدت جلابيه
يخال من رقة خرشائه^(١)
لو أنه صور من خبزه
من كل بيضاء يحب الفتى
مدهونة زرقاء ، مدفونة
ملدّعين وفم ، حسنت
ذيق لها اللوز فلا مرة
وانتقد السكر نقاده
فلا إذا العين رأتها نبت
الشبوط

فلا يبعد الشبوط من متلبس
إذا نش في سقوده عند نصجه
فتي رعى مرعى بدجلة مخصباً
إلى أن اصابته من الدهر نوبة
فأصدره الصياد عن خير مورد
وجاء به الحمال اطيب مطعم
ويا حبذا امعاننا فيه ناضجاً
واني لمشتاق الى عود مثله
ظهارة الحسنى ، ومن متجرد
واخرج من سرباله المتورّد
أبى أن يراه زائد غير محمد
وقد صار اقصى منية المتجود
وأورده الشواء اخبث مورد
إلى الطيب المنفاق غير المصدّر
كما جاء من تنوره المتوقد
وإن كنت أبدي صفحة المتجلد
الدجاجة

وسميطة صفراء دينارية
عظمت فكادت أن تكون اوزة ،
ظلمنا نقشر لحمها عن جلدها
ثمناً ولوناً زفها لك حزوراً^(٢)
ونوت فكاد اهابها يتفطر
وكان تبرأ عن لجين يقشر

(٢) وفي رواية صحنه صحنه

(١) غلام حزور بلغ القوة

الفواكه

(فواكه ايلول)

لولا فواكه أيلول إذا اجتمعت من كل نوع ورق الجو والماء
إذا لما حفلت نفسي متى اشتملت علي هائلة الجالين غرباء

(الموز)

إنه (الفوز) مثل ما فقدته (الموز) لقد بان فضله لاختفاء
ولهذا التأويل سياه (موزاً) من افاد المعاني الأسماء
رب فاجعله لي صبوحة وقيلاً وغبوقاً وما أسأت الغذاء
وأرى - بل أبت - أن جوابي : « لا تغالط ، فقد سألت البقاء »
نكهة عذبة وطعم لذيذ شاهدا نعمة على نعماء
لو تكون القلوب مأوى طعام نازعته قلوبنا الاحشاء
أنني للحقيق بالشبع السائغ من اكله وإن كان ماء

كرمة العنب الرازقي

ورازقي غطف الخصور كأنه مخازن البلور
لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء في ظروف نور
لو أنه يبق على الدهور قرط آذان الحسان الحور
له مذاق العسل المشور ونكهة المسك مع الكافور

وبرد مس الخصر المقرور

باكرته والطير في الوكور - وعذر اللذات في البكور -
بفتية من ولد المنصور املاً للعين من البدور
حتى أتينا خيمة الناطور قبل ارتفاع الشمس للذور
فانقض كالطاوي من الصقور بطاعة الراغب لا المجبور

ثم جلسنا مجلس المحبور على حفا في جدولٍ مسجورٍ"
أبيض مثل المهرق المنشور أو مثل متن المنصل المشهور
ينساب مثل الحية المذعور بين سباطي شجرٍ مسطور
فنيلت الأوطار في سرور
وكلّ ما نقضي من الأمور تعلقةً عن يومنا المنظور
ومتعةً من متع الغرور

المرأة والحب

النساء

أجنت لك الوجد اغصان وكتبان^(١) فوق ذينك اعناب مهذلة
وتحت ذلك عناب تلوح به غصون بان عليها - الدهر - فاكهة
ونرجس بات ساري الطل يضربه ألفسن من كل شيء طيب حسن^(٢)
ثمار صدق اذا عاينت ظاهرها بل حلوة مرة ، طوراً يقال لها
يا ليت شعري - وليت غير مجدية لأي امر مراد بالفتى جمعت
تجاوزت في غصون لسن من شجر تلك الغصون اللواتي في اكمتها
يلبوها الله قوماً كي يبين له وما ابتلاهم لأعنان ولا عبث^(٣)
لكن ليثبت في الأعناق حجته ومن عجائب ما يمني الرجال به
مناضلات بنبل لا يقوم له مستظهرات برأي لا يقوم له
من كل قاتلة قتلى ، وأسرة

فيهن نوعان تفاح ورمان^(٤) سود لهن من الظلماء الوان^(٥)
أطرافهن قلوب القوم قنوان^(٦) وما الفواكه مما يحمل البان
واقحوان منير النور ريان^(٦) فهن فاكهة شتى وريحان
لكنها حين تبلو الطعم خطبان^(٥) شهد ، وطوراً يقول الناس ذيفان^(٦)
الا استراحة قلب وهو أسوان - تلك الفنون فضمتهن افنان ؟
لكن غصون لها وصل وهجران نعم وبؤس وافراح واحزان
ذو الطاعة البرممن فيه عصيان ولا لجهل بما يحويه ابطان
ويحسن العقو ، والرحمان رحمان مستضعفات لنا منهن اقران
كتائب الترك يزجيهن خاقان قصير عمرو ، ولا عمرو ووردان
اسرى وليس لها في الأرض اثخان

(١) (الاغصان) اشارة الى القدود و (التفاح) الحدود والمان النهرود

(٢) كرم الاعناب اشارة الى مسترسل الشعور

(٣) (العناب) البنان المخضوب

(٤) (النرجس) اشارة الى الاعين و (الاقحوان) للثغور الناصعة الثنايا

(٥) جمع اخطب مر ويقال امر من نقيع الخطبان

(٦) سم

يولين ما فيه اغرام ، وآونة يولين ما فيه للمشغوف سلوان
ولا يدمن على عهد لمعتقد اني ؟ وهن كما شبهن بستان
يميل طوراً بحمل ثم يعدمه ويكتسي ثم يلقى وهو عريان

امتزاج روحين

أعانقها ، والنفس بعد مشوقة اليها : وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاهها كي تموت حزازتي فيشتد ما القى من الهيان
وما كان مقدار الذي بي من جوى ليشفيه ما ترشف الشفتان
كان فؤادي ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين تمتزجان

لمحة التوديع

ركب كعاب في حجاب لم تزل ، مثل الثزال عنقاً ومكتحل
لم تكتحل مقلتها سوى الكحل ولا تحلى جيدها سوى العطل
ما زلت منها في مطال وعلل حتى اذا ما قدر البين نزل
جلست منها نظرة على وجل آخرها اولها من العجل
ثم أجتتها غيابات الكلل

الشباب الراحل

أبين ضلوعي جمة تتوقد على ما مضى ؟ ام حسرة تتجدد ؟
خليلي ما بعد الشباب رزية يجم لها ماء الشؤون ويعتد
فلا تلحيا إن فاض دمع لفقده فقل له بحر من الدمع يثمد
ولا تعجبا للجلد ييكي ، فرجما تفطر من عين من الماء جلمد
شباب الفتى مجلوده وعزاؤه فكيف ؟ وأنى ؟ بعده يتجلد
وفقد الشباب الموت ، يوجد طعمه صراحاً ، وطعم الموت بالموت يفقد
رزئت شبابي عودة بعد بدأة وهن الرزايا بادئات وعود
سلبت سواد العارضين وقبله بياضهما المحمود اذ انا أمرد
وبدلت من ذاك البياض وحسنه بياضاً ذمياً لا يزال يسود
لشتان ما بين البياضين : معجب انيق ، ومشنوء إلى العين أنكد

تضاحك في افنان رأسي ولحيتي
وكنتُ جلاء للعيون من القذى
هي الأعينُ النجل التي كنتُ تشتكي
فما لك تأسى الآن لما رأيتها
تشكى إذا ما اقصدتُك سهامها
كذلك تلك النبلُ مَنْ وقعت به
إذا عدلتُ عنا وجدنا عدولها
تنكب عنا مرةً ، فكأنما
كفى حزناً أن الشباب معجلُ
إذا حل ، جاري المرء شأوَ حياته
ارى الدهر أجرى ليله ونهاره
وجار على ليل الشباب فضامه
وعزاك عن ليل الشباب معاشر
وكان نهار المرء اهدى لسعيه
أيام لهوي هل مواضيك عودُ ؟
أقول وقد شابت شواتي ، وقوست
ودبَّ كلالٌ في عظامي ادبني
وبورك طرفي ، فالشخص حiale
ولذت احاديثي الرجال ، واعرضت
وبدل اعجاب الغواني تعجبا
لما تؤذن الدنيا به من صروفها
والا فما يكيه منها وإنما
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه
وللنفس أحوال تظل كأنها

واقبح ضحاكين شيبُ وأدرد
فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد
مواقعها في القلب ، والرأس اسود
وقد جعلت مرمى سواك تعمد
وتأسى إذا نكبن عنك وتكمد
ومن صرفت عنه من القوم مُقصد
كموقعها في القلب ، بل هو أجد
منكبها عنا الينا مسدد
قصيرُ الليالي ، والمشيبي مخلد
الى ان يضم المرء والشيب ملحد
بعدلٍ ، فلا هذا ولا ذاك سرمد
نهار مشيبٍ سرمد ليس ينفد
فقالوا نهار الشيب اهدى وارشد
ولكنَّ ظلَّ الليل اندى وأبرد
وهل لشبابٍ ضل بالأمس منشد ؟
قناتي ، واضحت كدنتي^(١) تتخذ
جنيب العصا اناد او أتأيدُ
قرائن - من أدنى مدى - وهي فزْد
سليمي وريا عن حديثي ومهدد
فهنَّ روان يعتبرن وصدد
يكون بكاء الطفل ساعة يولد
لافسح مما كان فيه وأرغا
بما سوف يلقي من أذاها يهدد
تشاهد فيها كل غيبٍ سيشهد

(١) الأرد من ذهب اسنانه

(٢) مصاب

(١) اللحم ال المكتنز

لعبت بأولى الدهر ، فاغتال شرطي	باخرى حقود ، والجرائم تحقد
فصبراً على ما اشتد منه ، فانما	يقوم لما يشتد من يتشد
يذيق الفتى طورَي رخاءٍ وشدقٍ	حوادثه ، والحول بالحول يطرد
ومالي عزاء عن شبابي علمته	سوى أنني من بعده لا اخلد
وأن مشيبي « واعد » بلحاقه	وإن قال قوم انه « يتوعد »

دمعة على الشباب

لا تلح من ييكي شببته	الا إذا لم ييكها بدم
عيبُ الشببة غولُ سكرتها	مقدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها	الا زمان الشيب والهزم
كالشمس لا تبدو فضيلتها	حتى تغشى الأرض بالظلم
ولرب شيء لا يبينه	وجدانه الا مع العدم

حلم زائل

رأيت سواد الرأس واللّهو تحته	كليلٍ وحلم بات رائيه ينعم
فلما اضمحل الليل زال نعيمه	فلم يبق الا عهده المتوهم

الاحداث السياسية

مصرع

ابي الحسين يحيى من أحفاد علي

أمامك فانظر أي نهجك تنهجُ
ألا أيهذا للناس طال ضريرُكم
أكل أوانٍ للنبي محمد
تبيعون فيه الدين شر ائمة
بين المصطفى!كم يأكل الناس لولكم
أما فيهم راع الحق نبيه
لقد عمهوا ما انزل الله فيكم ،
الا خاب من أنساه منكم نصيبه
ابعد المكنى بالحسين شهيدكم
لنا وعلينا - لا عليه ولا له -
وكيف نبكي فائزاً عند ربه
وقد نال في الدنيا سناء وصيته
فان لا يكن حياً لدينا ، فانه
وكننا نرجيه لكشف عماية
فساهمنا ذو العرش في ابن نبيه
أيحيى العلى لهفي لذكراك لهفة
لمن تستجد الأرض بعدك زينة
سلامٌ وريحان وروح ورحمة
ولا برح القاع الذي أنت جاره

طريقان شتى : مستقيم واعوجُ
بال رسول الله فاخشوا ، او ارتجوا
قتيلُ زكي بالدماء مضرع
فلله دينُ الله ، قد كان يمرج^(١)
لبلواكم - عما قليل - مضرعُ
ولا خائف من ربه يتحرعُ
كأن كتاب الله فيهم مُحمّة^(٢)
متاع من الدنيا قليلٌ وزبرج
تضيء مصابيح السماء فتسرج
تسحسح اسراب الدموع وتنشج
له في جنان الخلد عيش مخرفج^(٣)
وقام مقاماً لم يقمه مزليج^(٤)
لدى الله حي في الجنان مزوج
بامثاله امثاله تتبلج
فهاز به ، والله اعلى وافلج
يباشر مكواها الفؤاد فينضج
فتصبح في اثوابها تتبرج ؟
عليك ، ومدود من الظل سحسج
يرف عليه الاقحوان المفلج

(١) مرج الدين اضطرب وقد

(٢) جميع الكتاب لم يبين حروفه ولم يفد به

(٣) عيش واسع ناعم

(٤) زليج فلا تقدم

ويا اسفي الا ترد تحيةً
 ألا إنما ناح الحماثم بعد ما
 ألا أيها للمستبشرون بيومه
 اكلكم امسى اطمأن مهاده
 فلا تشتموا وليخسأ المرء منكم
 فلو شهد الهيجا بقلوب أيكم^(٢)

سوى أرج من طيب رمسك يارج
 ثويت ، وكانت قبل ذلك تهزج .
 اظلمت عليكم غمة لا تفرج !
 بأن رسول الله في القبر مزعج !
 بوجه كأن اللون منبه اليرندج^(٣)
 غداة التقى الجمعان والخيل تمعج .

لاعطى يد العاني ، أو ارتد هارباً
 كما ارتد بالقاع الظليم^(٣) المهيج

ولكنه مازال يغشى بنحره
 وحاش له من تلکم ، غير إنه
 وأين به عن ذاك ؟ لا أين - إنه
 كأنني به كالليث يحمي عرينه
 تدأب عليّ في المواطن قبله

شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج
 أبى خطة الأمر الذي هو أسمع
 إليه بعرقه الزكّين مخرج
 وأشباهه لا يزدهيه المهجج
 أبي حسن والغصن من حيث يخرج

كأنني اراه اذ هوى عن جواده
 فحب به جسماً إلى الأرض اذ هوى
 أردتكم يحى ! ولم يطوا يطل^(٤)
 تأت لكم فيه منى السوء هينة
 تمدون في طغيانكم وضلالكم

اجنوا بي العباس من شتآنكم

وأوكوا^(٥) على ما في العياب واشرجوا^(٦)

(١) جلد او طلاء اسود

(٢) فلو نزل يحيى بن الحسين لمترك وقلبه متخوب كقلب ابيكم لسل نفسه للاسر او لولي هار !

(٣) ذكر النعام

(٤) الا يطل الخاصرة والمنسج ما بين العرف وموضع اللبد

(٥) اوكى القرية شدها بالوكاء

(٦) اشرح الخريطة داخل بين شراجها وشدها

فاحر بهم ان يفرقوا حيث لججوا
الى أهله يوماً ، فتشججوا كما شجوا
ولا لكم من حجة الله مخرج
وبينهم ، ان اللواقح تنتج
تنوم لكم ، والدهر لوان أخرج
سيسمولكم والصبح في الليل مولج
له زجل ينفي الوحوش وهزمج^(١)
بوارق لا يستطيعهن الممحج^(٢)
يرى البحر في اعراضه يتموج
وخيل - كأرسال الجراد - واوئج^(٣)
بأمثالها يثنى الأبسي فينعج^(٤)
تنفسه عن خيلهم حين ترهج
لظل عليهم حصبها يتدحرج
فتيل باطراف الرديني مسرج
هنالك خلخال عليه ودملج
ولله اوس^(٥) آخرون وخزرج
تماماً ، وما كل الحوامل تحدج
ظعائن لم يضرب عليهن هودج

وجلوا رلاة السوء منكم وغيهم
نظارلكم أن يرجع الحق راجع
على حين لا عذرى لمعتدريكُم
فلاتلقحوا الآن اللواقح بينكم
غررتهم لأن صدقتهم ان حالة
لعل لهم في منطوى الغيب نائراً
بمجر تضيق الأرض من زفرائه
اذا شيم بالأبصار ابرق بيضه
توامضه شمس الضحى ، فكأنما
يؤيده ركنان ثبتان : رجله
عليها رجال كالليوث بسالة
تدانوا ، فما للنعق فيهم خصاصة
فلو حصبتهم بالفضاء سحابة
كأن الزجاج اللهدميات فيهم
يود الذي لاقوه ان سلاحه
فيدرك ثار الله انصار دينه ،
ويقضي « امام الحق » فيكم قضاءه
تطعن خوف السبى - بعد اقامة -

كما يتعادى شعلة النار عفرج^(٥)
يكاد اخوكم بطنة يتبعج
ثقال الخطى اكفالكم تترجرج
من الريف ريان العظام خدلج

مهِ ! لا تعادوا غرة البغي بينكم
أفى الحق أن يمساو خماصاً ، وانتم
تمشون مختالين في حجراتكم
وليدهم بادي الضوى ، ووليدكم

(١) الهزيمة اختلاط الصوت

(٢) المحدث النظر

(٣) اوئج اي اشد كثافة والثفا

(٤) من عيج الراكب البعير جذبه بخطاة ليف

(٥) نبات سهل

بنفسي الالى كظتهم حسرائكم
وعيرتموهم بالسواد ؛ ولم يزل
ولكنكم زرق ، يزين وجوهكم
ابى الله الا أن يطيبوا وتخبثوا
وإن كنتم منهم وكان ابوكم
فقد علزوا - قبل الممات وحشرجوا^(١)
من العرب الاحاض اخضر ادعج
بني الروم ! الوان من الروم نعج
وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
اباهم ، فإن الصفو بالرنق يمزج

لعمري لقد أغرى القلوب ابن طاهر
سعى لكم مسعاة سوء ذميمة
فلن تعدموا - ما حنت النيب - فتنة
وقد بدأت - لو تزجرون بريحتها -
بني مصعب ! ما للنبي واهله
دماء بني عباسكم وعليهم
يلي سفكها العوران والعرج منكم ،
وما بكم أن تنصروا أولياءكم
ولو أمكنتكم في الفريقين فرصة
إذن لاستقدتم منها وتر فارس ،
أبى أن تحببهم ، يد الدهر ، ذكركم
وأني على الاسلام منكم لخائف
وفي الحزم أن يستدرك الناس أمركم
بيغضائكم ما دامت الريح ثناج^(٢)
سعى مثلها مستكره الرجل اعرج
تحش كما حش الحريق المؤجج
بوائجها من كل أوب تبوج^(٣)
عدو سواكم - افصحوا او فلجلجوا
لكم كدماء الترك والروم تهرج
وغوغاؤكم جهلاً بذلك تهج
ولكن هنات في القلوب تنجج^(٤)
لقد بينت اشياء تلوى وتنج
وإن ولياكم . فالوشائج اوشج
ليالي لا ينفك منكم متوج
بوائق شتى ، بابها الآن مرتج
وحبلهم مستحكم العقد مدمج

نظار فان الله طالب وتره
لعل قلوباً قد اطلتم غليلها
بني مصعب ، لن يسبق الله مدلج
ستظفر يوماً بالشفاء ، فتثلج

(١) علز احده القلق او الملمع

(٢) لمجت الريح اشتدت

(٣) البوائج الدواهي

(٤) تتردد وتنجير

شخصيات واعلام

بطل الشطرنج

(في أبي القاسم التوزي الشطرنجي)

يا أخخي يا أخا الدمثة والرقعة
اترى الضربة التي هي غيب
ثاقب الرأي نافذ الفكر فيها
ويلاقيك سبعة فيظلو
تهزم الجمع أو حدياً وتلوي
وتخط الرخاخ بعد الفرازين فتزد
ربما هالني وحير عقلي
ورضاهم هناك بالنصف والربع ،
واحتراس الدهاة منك واعصا
عن تدابيرك اللطاف اللواتي
بل من السر في ضمير محب
فاخال الذي تدير على القو
وأظن افتراسك القرن فال
واری ان رقعة الأدم الاحمر
غلط الناس لست تلعب بالش
انت جديها ، وغيرك من يلعب
لك مكر يدب في القوم اخفى
أو ديب الملل في مستهامين
أو مسير الفضاء في ظلم الغيبة
أو سرى الشيب تحت ليل شباب
دب فيها لها، ومنها اليها
تقتل الشاه حيث شئت من الرق
غير ما ناظر بعينيك في الدس
بل تراها وانت مستدبر الظه

والظرف والحجى والدهاء
خلف خمسين ضربة في وحاء
غير ذي فترة ولا ابطاء
ن على ظهر آلة حذاء
بالصناديد ايما إلقاء
اد شدة استعلاء
اخذك اللاعبين بالبأساء
وادنى رضاك في الارباء
فك بالاقوياء والضعفاء
هن اخفى من مستسر الهباء
ادبته عقوبة الإفشاء
م حروباً دوائر الارحاء
قرن منايا وشيكة الراء
ارض عللتها بدماء
طرنج لكن بأنفس اللعاء
ان الرجال غير النساء
من ديب الغذاء في الاعضاء
الى غاية من البغضاء
إلى من يريده بالتواء
مستحير في لمة سحاء
فاكتست لون رثة شمطاء
عة طباً بالقتلة النكراء
ت ولا مقبل على الرسلاء
ر بقلب مصور من ذكاء

ما رأينا سواك قرناً يولي
رب قومٍ رأوك ريعوا فقالوا
والفؤاد الذكي للمطرق المعرض
تقرأ الدست ظاهراً فتؤديه

وهو يردي فوارس الهيجاء
هل تكون العيون في الاقفاء
عينٌ يرى بها من وراء
جميعاً كأحفظ القراء

طبّاع شباثل

(في يحيى بن علي المنجم)

ربّ أكرومة له لم نخلها	قبله في الطبّاع والتركيب
غرّبتُه الخلاقُ الزهر في الند	ناس ، وما أوحشته بالتغريب
المعيّ يرى بأول ظنّ	آخر الأمر من وراء المغيب
لا يروّي ولا يقلّب كفاً ،	وأكفّ الرجال في تقلّب
يدرك الطلّب بالبدية دون العق	ب ، قبل التصعيد والتصويب
حازم الرأى ليس من طول تجر	يب ، لبيب وليس عن تليب
لينّ عطفه فإن ريم منه	مكسرُ العود كان جدّ صليب

في القاسم

عجبتُ لمن حزمه حزمه	تكون يده يدي حاتم
عجبتُ لمن جوده جوده	تكون له عقدة الحازم
عجبتُ لمن حلمه حلمه	تكون له صولة الصارم
عجبتُ لمن حده حده	تكون له رأفة الراحم
أرى كل ضدّ إلى ضده	من الخير في طبعه السالم

رسائل استعطاف وعتب

(عتب على سوء مقابلة)

قرأتُ في وجهك عنوانا	أذنتي بالغدر أيدانا
تالله - أنسى ما ذكرتُ الصبي	بل ما ذكرتُ الله لهفانا -
يومَ التقينا فتجهمتني	تجهّمَ المديون ديانا
وكيف أنسى ذاك مستيقظاً	ولستُ أنسى ذاك وسنانا
طلعتُ من بعد فأوهمتني	أنك قد عاينتُ شيطانا
لاقيتني ساعةً لاقيتني	أثقلَ خلقَ الله أجفانا
كأنما كنتُ تضمنتُ لي	ردُّ شبابي كالذي كانا
أو كلَّ ما لم يستطع فعله	عيسى ولا موسى بن عمرنا
يا حسن الوجه لقد شنته	فاضممُ إلى حسنك إحساناً
أنت ملولٌ خائلٌ عهدهُ	تصبغك الساعات ألوانا
تصرم ذا الوصل ، وتضحى إلى	من يجتوي وصلك ظلماتنا
حتى إذا واصلَ ، صارمته	أو سُمته صدأً وهجرانا
وتستلين الدهر ذا خشنةٍ	فظأً ، وتستخشن من لاننا
وتعقد الوعد ، فأنجازهُ	خُلفُ إذا إنجازهُ آنا
حتى إذا أنجزته مرةً	منتته سرّاً وإعلانا
وما أحبُّ الواعدي مخلفاً ،	كلا ، ولا الممتنّ مثانا
حذرتني الناس فقد أصبحت	نفسِي لا تألف إنسانا
أهتني جداً فأعززتني	ربّ امرئ عزّ بأن هانا

(الى آل وهب)

تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا	نبال العدى عني فكنتم نصالها
وقد كنتُ أرجو منكم خير ناصر	على حين خذلان اليمين شهاها
فإن أنتم لم تحفظوا لمودتي	ذماماً فكونوا لا عليها ولاها
قفوا موقف المذور عني بمعزل	وخلّوا نبالي والعدا ونبالها
هي النفس إما أن تعيش بغبطة	وإلا فغنم أن تزول زوالها

طلبتُ لديكم بالعتاب زيادةً وعطفاً فاعتبتكم بإحدى البوائق
فكنت كمستسقٍ سماءَ مخيلةٍ حياً ، فأصابته بإحدى الصواعق

(إلى القاسم)

أأحييتني بالأمس ثم تميتني برفضٍ وإقصائي ، وحقّي أن أدنّي
ولو أنني أحييتُ ميتاً عشقته لحسن الذي أثرتُ فيه من الحسنَى

هجاء

شيء ليس له وجود

قل لابن بوران - إن كان ابن بوران
يا باطلاً أو همته مخيلة
ما أنت إلا خيال طاف طائفه
قد كنت أحسبه شيئاً فأهجوّه
فإن شكّي فيه جلّ إيماني :
بلا دليل ولا تثبيت برهان
وما هجائيك إلا هجرٌ وسان
حتى أزاح يقيني فيه حسابي

(في اسماعيل بن بلبل)

صبراً أبا صقر فكم طائر
زوّجت نعمي لم تكن كفوها
وكلّ نعمي غير مشكورة
لا قدّست نعمي تسربلتها
خرّ صريعاً بعد تخلق
فصانها الله بتطبيق
رهن زوال بعد تمحيق
كم حجة فيها لزندق

كيمياء الجدد

عجب الناس من أبي الصقر اذوّد
ولعمري ماذا أعجب من أن
إن للجدد كيمياء اذا ما
يفعل الله ما يشاء ، كما شا
سيّ بعد « البطالة » الديوانا
كان علجاً فصار من شيانا
مسّ كلباً أحاله انسانا
، متى شاء ، كائناً ما كانا

تأبين !!

أقول اذ هتف الداعي بمصرعه
نعت من جمدت غزر العيون له
ومن يقنّ له الداعي بمغفره
فان تصبك من الأيام جائحة
يا منكراً ونكيراً أوجعاه فقد
بعداً وسحقاً له من هالك نطفه
ليك ! ليك ! من داعٍ بتبين
فلم تفض عبرة من عين محزون
وينشد الناس فيه بيت يقطين
لم نبك منك على دنيا ولا دين
خلوتما بقليل الخير ملعون
مشوه الخلق من نسل الشياطين

اعتزال الهجاء

يا من قسا لما شكو ت إلى تطوَّله زمانِي
واعتدني- لما رخصتُ عليه من سقط المعاني
سأصون مالك عن يدي وأصون عرَضك عن لساني
أليتُ لا أهجو طوا لَ الدهر الا من هجاني
لا بلُ سأطرح الهجا ء وإن رماني من رماني
أمنَ الخلائقُ كلهم فليأخذوا مني أمانِي
حلمي أعز عليَّ من غضبي اذا غضبي عراني
فلأصبرنُ وأكظمنُ وإن لظي غيظي كواني
لكنني سأحبُّ نف سي إذ قلاني من قلاني
وأريدها كلُّ الارا دة إذ أباني من أباني
وأرى مكاني إن تعا مة من تعامه عن مكاني
حتى يراني الله كي ف صيانتني قدري وشاني
ويعولني فعيالتي حق عليه كما براني
وليغذوني بالكرا مة إنه قدماً غذاني
وسأستعين على الفرا ق الصبر إن شوق دعاني

صور ممسوخة

يصف نفسه

فلستُ أبكي عليه من جزع	مَنْ كان يبكي الشباب من جزعٍ
ما زال بي كالمشيب والصلع	لأن وجهي بقبح صورته
وجهي - وما مُتُّ - هولَ مَطْلَعِي	إذا أخذت المرأة ، سلمني
يصلح وجهي إلاّ لذي ورع	شعفتُ بالخرد الحسان وما
هد فيه مساجد الجمع	كي يعبد الله في الفلاة ولا يش

أقول

فأقلعُ من سيل وأغرفُ من رفش ^(١)	وأما يد البصري في كل صفحةٍ
على الأنس ثم الجان والطير والوحش	أأوعده بالشعر وهو مسلطٌ
وأجبالها ، طاحت هناك بلا أرش ^(٢)	ألم أره لو شاء بلعَ تهامةٍ
ضروساً له تأتي على الثور والكبش	على أنه ينعى إلى كل صاحبٍ
وذلكم أدهى وأوكد للجرش	يخبّر عنها أن فيها ثلماً
وتجريشها تأتي على الصلب والهش	ألم تعلموا أن الرحا عند نقرها
شبهاء ، ولو أمسى مسجى على نعش	فلا تقبلوا ذاك التفارق ، واحذروا

مقارنة

وفي وجوه الكلاب طول	وجهك يا عمرو فيه طول
يزول عنها ولا تزول	مقابح الكلب فيك طراً
حاكها الله والرسول	وفيه أشياء صالحات
ففيك عن قدره سفول	والكلب وافٍ وفيك غدرٌ
وما تحامي ولا تصول	وقد يحامي عن المواشي
قصتهم قصة تطول	وأنت من بيت أهل سوء

(١) الرفش ما يحرف به التراب

(٢) الارنش الدية

وجوههم للورى عطات	لكن أقفاهم طبول
نستغفر الله قد فعلنا	ما يفعل المائق الجهول
ما إن سألناك ما سألنا	إلا كما تسأل الطلول
صمت وعيت فلا خطاب	ولا كتاب ولا رسول
مستفعلن فاعلن فعول	مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه	معنى سوى أنه فضول

الغث السمين

لنا صديق كلا صديق	غث على أنه سمين
من أقيح الناس ، لا أحاشي	من كان منهم ومن يكون
إذا بدا وجهه لقوم	لاذت بأجفانها العيون
كانه عندهم غريم	حلت عليهم له ديون
وهو على ما وصفت منه	متهم وده ظنين

كبرياء الحجاب

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب	محا الله ما فيه من الكسر بالكسر
عبوس إذا حيته بتحية	فيا لك من كبر ومن منطق نزر
يظل كأن الله يرفع قدره	بما حط من قدرى وصغر من أمرى
إذا ما رمانى عاد أعمى بلا عى	وضم سميعاً ما بأذنيه من وقر
ومن شيم الحجاب أن قلوبهم	قلوب على الآداب أقسى من الصخر
يخافون أن يحظى سواهم بحظهم	فهم من سؤل السائلين على وحر

(ثقيل)

كان للأرض مرة ثقلان فلها اليوم ثالث بفلان
أتقي غصة اسمه عليم الله فأكني عن ذكره بالمعاني
يا ثقيل الثقال أقذيت عي نبي ليت أني كما أراك تراني
من يكن عانياً بحب حبيب ففؤادي ببغضك اليوم عاني

(بارد ثقيل)

يا أبا القاسم الذي ليس يُدرى أرصاص كياؤه أم حديد
أنت عندي كماء بثرِك في الصيد فِرْ ثقيل يعلوه بردٌ شديد

(في أخرق)

وأخرق تضرمه نفخة سفاهاً وتطفئه تَفْلَةٌ
فأخلاقه تارة وعرة وأخلاقه تارة سهله

أصدقاء كثير والسلام

ولي أصدقاء كثيرو السلا	م علي وما فيهم نافع
إذا أنا أدلجت في حاجة	لها مطلب نازح شاسع ،
فلي أبدأ معهم وقفة	وتسليمه وقتها ضائع
وفي موقف المرء عن حاجة	تيممها شاغل قاطع
ترى كل غث كثير الفضو	ل ، مصحفه مصحف جامع
يحدثني من أحاديثه	بما لا يلذ به السامع
أحاديث هن كمثل الضريد	ع ، أكله أبدأ جائع
أولئك لا حيهم مؤنس	صديقاً ، ولا ميتهم فاجع

تجاريب وعظات

الظنون

يا أخسي ، أين ربعُ ذاك اللقاء ؟
كشفت منك حاجتي هنوات
تركنتني ولم أكن سيء الظنَّ
قلت - لما بدت لعيني شنعاً :
ليتني ما هتكتُ عنكن سترأ
قلن : لولا انكشافنا ما تجلّت
قلت : أعجبُ بكن من كاسفات
قد أفدتنني - مع الحُبر بالصا
قلن : أعجبُ بمهتد يتمنى
كنت في شبهة فزالت بنا عند
وتمنيت أن تكون على الحد
قلت : تالله ليس مثلي من ودَّ
غير أنسي وددتُ ستر صديقي
قلن : هذا هوّى فعرج على الحد
ليس في الحق أن تودّ لخلٍ
بل من الحق أن تنفّر عنهنَّ
إن بحث الطبيب عن داء ذي الد
دونك الكشف والعتاب فقوم
وإذا ما بدا لك العرُّ^(١) يوماً
قلت : في ذاك موتكُن ، وما الم
قلن : ما الموت بالكريه إذا كا

أين ما كان بيننا من صفاء
عطيتُ برهة بحسن اللقاء
أسيء الظنون بالأصدقاء
رب شوءاء في حشا حسناء
فثويتن تحت ذاك الغطاء
عنك ظلماء شبهة قتماء
كاشفات غواشي الظلماء
حب - أن ربُّ كاسف مُستضاء
أنه لم يزل على عمياء
ك فأوسعتنا من الازراء
بيرة تحت العماية الطخياء
ضلالاً وحيرة باهتداء
بدلاً باستفادة الأنباء
حق وخلّ الهوى لقلب هواء
أنه الدهر كامنُ الادواء
وإلا فانت كالبعداء
اء ، لأسُ الشفاء قبل الشفاء
بهما كلّ خلة عوجاء
فتبع نقابه بالهناء^(٢)
موت بمستعذب لدى الأحياء
ن بحق فلا تزد في المراء

(١) المر الجرب
(٢) القطران

(طينة الناس)

واعلم بأن الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم اذن لفاح الحمأ اللاذب

(اعتزال الناس)

ذقت الطعوم فما التذذت كراحة من صحبة الأشرار والأخيار
أحب قوماً لم يحبوا ربهم إلا لفردوس لديه ونار

(المعدم في أمان)

ما راح مغبوناً بصفقة خاسر من باع متعة فائت بأمان
أمن امرؤ من رزء شيء فاته ، والمدركوه مراقبو الحدثان
وكفى عزاء لامريء من فائت ألا يحاف عليه صرف زمان

(القناعة)

إذا ما كساك الله سربال صحة ولم تخل من قوت يحل ويعذب
فلا تغبطن المترفين فانهم على حسب مايكسوهم الدهر يسلب

(من هو الكريم !)

ليس الكريم الذي يعطي عطيته على الثناء وإن أغلى به الثمنا
بل الكريم الذي يعطي عطيته لغير شيء سوى استحسانه الحسن

(جزاء الاحسان)

ولقد كافأ بالنعمة امرؤ كافأ النعمة باخلاص الوداد
إن يكن نول نيلاً من يده فلقد نول نيلاً من فؤاد

(الدرهم والسيف)

لم أر شيئاً صادقاً نفعه للمرء ، كالدرهم والسيف
يقضي له الدرهم حاجاته والسيف يحمي من الحيف

(الشرير)

وليس بشرير ضليعٌ بحجة رمى باطلاً بالحق حين يخاصمُ
ولا واسم عرضٍ امريءٍ كان ناله بسوء - وإن لامته فيه اللوائمُ
وما بي زهدٌ في الفضل : إنه لفضل ، ولكن للرجال شكائمُ
ولكنما الشرير من عم شره ، وسؤلِمَ بدءاً فأثلى لا يُسالمُ
وعاد باذعان له وتوددٍ أخوه فلم تنفعه تلك التائمُ
وكافاً إحساناً بسوءٍ ولم يزل يراجم بالماكروه من لا يراجم

(الظلم)

لا انتقامُ المظلوم أربى على الظا لم ، من ظلمه على المظلوم
صاحبُ الظلم إن تأملت كالرا تع في المرتع الويل الوخيم
يجتلي أمره فيعلم أن قد باع ليل الكرى بليل السليم^(١)
فهو من لوم نفسه حين يخلو في عَرامٍ وفي عذاب أليم
قد أمرت حياته وشجته برحاء النديم والتنديم
لوتجافى الخصيم عنه وأغضى ، لكفاه بنفسه من خصيم

(الملام)

لا تكثرن ملامة العشاق فكفاهم بالوجد والاشواق
إن البلاء يطاق غير مضاعفٍ فاذا تضاعف كان غير مطاق
لا تطفئن جوًى بلومٍ إنه كالريح تغري النار بالاحراق

(السلو)

أبت نفسي الهلاع لرزء شيء كفى شجواً لنفسي رزء نفسي
أتهلع وحشة لفراق إلفٍ وقد وطنتها لخلول رمس

(الصبر)

أرى الصبر محموداً وفيه مذاهبٌ ، فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب !

هناك يحق الصبرُ ، والصبر واجب ، وما كان منه كالضرورة أوجب
هو المهرب المنجى لمن أهدقت به مكاره دهر ليس منهنّ مهربُ
لبوسُ جمالٍ ، جنة من شماتة ، شفاء أسى ، يُثنى به ويثوب

(اغراء المشيب)

وتولى الشباب فازددتُ ركضاً في ميادين باطلاً إذ تولى
إن من ساءه الزمانُ بشيءٍ لأحقّ امرئٍ بأن يتسلى

(الفناء)

إذا اختط قومٌ خطةً لمدينة تقاضتهم أضعافها للمقابر
وفي ذاك ما ينهائم ان يشيدوا وأن يقتنوا إلا كزاد المسافر

(الحرب الاهلية)

وما قتلُ بعض الحيّ بعضاً بناهك قواه إذا ما جاء حيّ يحاربه
وما لطمُ بعض الموج في البحر بعضه يمانعه تغريق من هو راكبه

(يجنون الحرب وغيرهم وقودها)

رأيتُ جناة الحرب غيرَ كفاتها إذا اختلفت فيها الرماح الشواجر
كذاك زناد النار عنها بنجوة ولكننا تصلى صلاحها المساعر

(الاغضاء الا عن الخلاء)

يا أبا القاسم الذي كنتُ أرجو ه لدهري قطعت متن الرجاء
لا أجازيك عن غرورك أيا ي غروراً وقت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وماذا ك لبخل عليك بالاغضاء
أنت عيني ، وليس من حق عيني غص أجفانها على الاقضاء

الشعر

(دفاعه عن شعره)

قلتُ لمن قال لي عرضتُ على الأخفش^(١) ما قلتَه فما حمده
« قصرتُ بالشعر حين تعرضه على مبین العمى إذا انتقده
ما قال شعراً ، ولا رواه ، فلا ثعلبه كان ، لا ولا أسده
فان يقلُ أنني رويت ، فكالدتر جهلاً بكل ما اعتقده
أرُمتَ زيني بأن تعرضني لدحه ؟ فالذليلُ من عضده
أم رمت شيني بأن تعرضني لثلبه ؟ فالسليم من قصده^(٢)
أنشدته منطقي ليشهده فغاب عنه عمى وما شهده
وقال قولاً بغير معرفة إفكاً - فما حل إفكهُ عقده
شعريّ شعر إذا تأمله الاند سان ذو الفهم والحجى عبده
لكنه ليس منطقاً بعث الله به آية لمن جحده
ولا أنا المفهمُ البهائم والطيرَ سليمانُ قاهُ المرده
ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقرده
وحسبُ قردٍ أراه يحسدني أن يسكن الله قلبه حسده
لا خففُ الله عنه من حسدي وزاده الله فوقه كمده
ولا تزل صورتي إذا طلعت لناظريه قذاه بل رَمده

(حملته على البحتري)

الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره للبحتريّ بلا عقل ولا أدب
قبحاً لأشياء يأتي البحتريُّ بها من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حين يُصغى السامعون لها ممن يميزُ بين التُّبع والغَرَب :
رقى العقارب ، أو هذر البناء إذا أضحواعلى شعف الجدران في صخب

(١) هو علي بن سليمان الأخفش

(٢) الذليل من ارره الأخفش والسليم من قصده الأخفش بسوء

وقد يجيء بخلط فالنحاس له
يُسِيء عَقًّا فان أكدتُ وسائله
عبدٌ يغير على الموتى فيسلبهم
ما إن تزال تراه لا بساً حلاً
شعر يغير عليه باسلاً بطلاً ،
يقول مستمعوه الجاهلون به :
والحكم فيه مبين غير ملتبس
إذا أجاد فأوجب قطع مقوله
وإن أساء فأوجب قتله قوداً
وللأوائل ما فيه من الذهب
أجاد لصاً شديد البأس والكلب
حرّ الكلام بجيش غير ذي لجب
أسلاب قوم مضوا في سالف الحقب
وينشد الناس إياه على رقب
أحسنت يا أشعر الحضار والغيب
لوريم فيه خلاف الحق لم يصب
فقد دهى شعراء الناس بالحرب
بمن يميت إذا أبقى على السلب
التأسي

خليلي قد عللتاني بالأسى
وما راحة المرزوء في رزء غيره
وضرب من الظلم الخفي مكانه
لأنك يأسوك الذي هو كلمه
فأنعمتا لو أنني أتعلل
أحمل عنه بعض ما يتحمل ؟
تعزيك بالمرزوء حسين تأمل
بلا جرم ، لو أن جورك يعدل

(حلم اليقظة)

المرء في حال التيقظ هاجع
وأخو الحجا أبداً يجاهد طبعه
يرنو الى الدنيا بمقلة حالم
فتراه - وهو محارب - كمسالم

التكلف

في الناس ذو حلم يسفه نفسه
وكلاهما تعيب محارب شيمة
كما يهاب وجاهل يتحلم
غلبت فأض بحملها يتألم

الدهر الشاعر

الناس كالشعر تلقى الأرض جائشة
والدهر شاعر آفات يفوه بها
بالجمع يزجي ، وخير منهم رجل
للناس يفكر تارات ويرتجل

الحزم

إذا طرف من حبلك انحل عقده تداعت وشيكاً بانتقاض مرائره^(١)
فلا تغفلن أمراً وهى منه جانب فيتبعه في الوهي لا شك سائره

الأصدقاء

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه يحول من الطعام أو الشراب
إذا انقلب الصديق غداً عدواً مبيناً والأمور إلى انقلاب
ولو كان الكثير يطيب كانت مصاحبة الكثير من الصواب
وما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الري في النطف العذاب

جمع المال

المال يكسب ربه ما لم يفض في الراغبين اليه - سوء ثناء
كالماء تأسن بثره إلا إذا خبط السقاة جمامه بدلاء

في الثقال

ليس حمد الجفون في مريها الد يوم ولا نفيها أذى الأقداء
إنما حمدها إذا هي حالت بين طرف العيون والبغضاء

المنى

حرك مناك إذا هممت فانهن مراوح
لا تياسن فان رزق الله غار رائج

(حظه من الشعر)

ويح القوافي ما لها سفسفت حظي كأنني كنت سفسفتها
ألم تكن هوجاً فسدتها ؟ ألم تكن عوجاً فثقتها
كم كلمات حكّت أبرادها وسطتها الحسن وطرفتھا

(١) امر الحبل فتله شديدا والمرير من الحبال ما اشتد فتله .

ما أحسنتُ إن كنت حسنتها
أنحتُ على حظي بميراتِها
فرقتهُ حين رَفَّقَتْها،
وكثفتُ دون الغنى سدَّها
أحلفُ بالله لقد أصبحت
لم أشكُّها قطُّ بتقصيرة
حرمتُ في سنِّي وفي ميعتي
لهفي على الدنيا وهل لهفة
كم آهة لي قد تأوَّهَتْها
أغدو ولا حال تسنَّمتها

ما ظرَّفتُ إن كنت ظرَّفتها
شكراً، لأنني كنت أرهفتها
وهففتُهُ حين هففتها
حتى كأنني كنتُ كثفتها
في الرزق آفَتشي وما إفتها
فيها، ولا من حيفة حفَّتْها
قراي من دنيا تضيفتْها
تنصف منها إن تلهفتها
فيها، ومن أفَّ تأففتها
فيها، ولا حالُ تردَّتْها

عَبَّاسُ مَحْمُودٍ
العَقْدُ السَّادِسُ

أبو العلاء

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة الطبعة الثانية

علامات الخلود

ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال ، وكان له حق في الخلود :
فرط الاعجاب من محبيه ومريديه ، وفرط الحقد من حاسديه والمنكرين عليه ، وجو من الأسرار والألغاز يحيط به كأنه من خوارق الخلق الذين يحار فيهم الواصفون ويستكثرون قدرتهم على الأدمية ، فيردون تلك القدرة تارة الى الاعجاز الالهي ، وتارة الى السحر والكهانة ، وتارة الى فلتات الطبيعة ان كانوا لا يؤمنون بما وراءها ..

وهذه العلامات الثلاث مجتمعات لأبي العلاء على نحو نادر في تاريخ الثقافة العربية ، لا يشركه فيه الا قليل من الحكماء والشعراء .. فهو في ضمان الخلود منذ أحبه من أحب ، وكرهه من كره ، وتحدث عنه من تحدث كأنه بعض الخوارق والأعاجيب .

بلغ من منزلته بين مريديه أن وقف على قبره نيف وثمانون شاعراً يرثونه بُعَيْدَ وفاته ، فكان بلاغ قولهم مطلع قصيدة لأحدهم - أبي الفتح الحسن بن عبد الله بن حصينة - حيث يقول :

العلم بعد أبي العلاء مضيّع والأرض خالية الجوانب بلقع

وهو مثل من أمثلة الاعجاب الذي اتفق عليه أولئك الشعراء ، وكانوا فيه ترجيحاً
لمئات ، أو ألوف من المعجبين ، لم ينظموا الرثاء ولم يقفوا على ثراه . .

وبلغ من انكار حساده والجاهلين به أنهم جعلوه من أهل الجحيم ، وألحقوه بأحقر ما
يُسب من الحيوان ، واستجهلوه غاية الجهل ، واتهموه في فهمه وذكائه . . .

قال رجل وقد عثر به : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب
سبعين اسماً ! . .

وذكر ياقوت بعض كلامه في معجمه ثم قال : « كان المعري حماراً لا يفقه شيئاً ، والا
فالمراد بهذا بين ! » .

وسئل عنه علي بن الحسن المعروف بشميم وهو من نُحاة القرن السادس . فغضب وقال
لسائله ناهراً : ويلك ! كم تسيء الأدب بين يدي ؟ من ذاك الكلب الأعمى حتى يذكر
بين يديّ في مجلسي ؟ ! . . » .

* * *

وهناك أناس استعظموه ولكنهم لم يفهموه ولا حققوا عليه ! وحسبوا أن قدرة الانسان
لا ترتقي هذا المرتقى ، وأن سر بني آدم لا يخفى هذا الخفاء ، فألحقوه بعالم المجهول
ووصلوا بينه وبين سيطرة الفلك وقضاء الأقدار . .

قالوا ان محمود بن صالح صاحب حلب اتهمه بالزندقة فأمر بحمله اليه من المعرة ،
وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال : يا ابن أخي ! قد
نزلت بنا هذه الحادثة ، فان منعناك عجزنا ، وان أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوى
الذمام ، ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال أبو العلاء : هوّن عليك يا عم ! ولا بأس
عليك ، فلي سلطان يذب عني . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصف الليل ، ثم قال
لغلامه : انظر الى المريخ أين هو ؟ فقال في منزلة كذا وكذا . . فقال زنه واضرب تحته
وتدأ ، وشدّ في رجلي خيطاً واربطه الى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، وسمعوه وهو يقول :
يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات وموجد الموجودات . أنا في عرك الذي
لا يرام ، وكنفك الذي لا يضام . . الضيوف الضيوف ! الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا
تفهم . . واذا بهذة عظيمة ! فسأل ابو العلاء عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين

كانوا بها فقتلت الخمسين . . وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعمجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير .

ومن لم يكن عندهم ساحراً او قديساً من ذوي الكرامات كان خارقة من خوارق التكوين أو طرفة من طرف الزمان . .



رووا عن تلميذه أبي زكريا التبريزي أنه كان قاعداً في مسجده بمعرة النعمان بين يدي الأستاذ يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه ، وكان قد أقام عنده سنين لم ير أحداً من أهل بلده ، فدخل المسجد بعض جيرانه فرآه وعرفه فغير من الفرح وأحس أبو العلاء بشيء فسأله : أيش أصابك ؟ فحكى له ما رآه . .

قال أبو زكريا فيما رووا عنه : فقال لي أبو العلاء : قم وكلمه ! فقلت : حتى أتمم السياق . فقال : قم . أنا أنتظر لك . فقمتم وكلمته بلسان الأذرية - أهل أذربيجان - شيئاً كثيراً ، إلى أن سألت عن كل ما أردت . فلما رجعت وقعدت بين يديه قال لي : أي لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أذربيجان ، فقال لي : ما عرفت اللسان ولا فهمته . غير أنني حفظت ما قلتما . ثم أعاد عليّ اللفظ بعينه ، من غير أن ينقص عنه أو يزيد عليه في جميع ما قلت . فتعجبت غاية التعجب ! كيف حفظ ما لم يفهم ؟

وحدث أبو الحسن الدكفي المصيصي الشاعر ، قال : لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب . رأيت شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى أبا العلاء ، وسمعه يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر . .

تلك هي العلامات الثلاث مجتمعات لأبي العلاء : اطناب في الاعجاب ، ونهاية في الزراية ، وحيرة في كلام واصفيه كحيرة المتحدثين عن خوارق الغيب وعجائب الأساطير . .

واذا بلغ من تعدد الجوانب برجل واحد أن يقول قوم إنه فخر بني الانسان ، ويقول قوم إنه كلب وحمار ، ويسلكه أناس في زمرة الشيطان ويحسبه أناس ولياً مستجاب الصلاة ، ويخيل الى فريق أنه ساحر والى فريق أنه طرفة من الطرف وأسطورة من الأساطير - فذاك هو الأفق الواسع ، وتلك هي العظمة الباقية . . ومن شاهده في زمانه فلا حاجة به أن ينتظر

ألف عام ليعلم أنه باق الى ألف عام ، وانه يحتفل به بعد ألف عام ، أو يبنىء الدنيا بامتداد خبره ما بقي لعصره خبر بين سجلات العصور .

وها قد مضى اليوم ألف سنة هجرية على اليوم الذي ولد فيه أبو العلاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلثمائة وثلاث وستين . ولد كثيرون في هذه السنين الطوال كما ولد ، ومات كثيرون كما مات ، وتكررت الولادة والوفاة في الأمم العربية مئات الملايين من المرات ، ولكن ذلك المولد النادر لم يتكرر قط في هذه السنين ، ولم يزل مولد ذلك الوليد حادثاً فرداً بين ثمرات الأصلاب والبطون ، يستحق أن يعاد إليه من سنة إلى سنة ، ومن جيل الى جيل ، ومن ألف عام الى ألف عام . .

وبين الذين كرتهم الدنيا ألوف من أمثال ذلك المسكين المغرور الذي أغضبه السؤال عن أبي العلاء بين يديه ، ورأى من سوء الأدب في مجلسه أن يعاد له اسم على مسمع منه ، ولكن التاريخ الذي كررهم كثيراً ومل من تكرارهم طويلاً لم يدركه الملal من ترديد اسم أبي العلاء المغضوب عليه وعلى من سأل عنه . ولم ير من سوء الأدب أن يصبح ويمسي بتمجيده ، وأن يحصي الأحقاب بعد الأحقاب لملاقاته في يوم عيده . بل رأى من سوء الأدب أن تمضي ألف سنة ولا يستوقف الزمن الماضي محتفلاً بذكراه ، مستعيداً لميلاده ، مشيراً الى مطلعته كما يشار الى ظواهر الكون التي تُستعاد ، لأنها قلما تعود . .

ولقد وقف على قبره - يوم وفاته - ثمانون شاعراً أو يزيدون ، وتقف على قبره اليوم أمم العروبة جمعاء ، وأمم شتى من جميع الأقطار والأنحاء ، مئين أو فوق المئين ، ينوب منها الشاهدون عن الغائبين .

واذا عدل الزمان ، فهذا الوفاء هو سواء الميزان ، بين أناس وسموه بعزة القدر ، وأناس وسموه بخسة الحيوان .

تسلّفت هذه الذكرى قبل ست سنوات . .

وكانت الصحف السورية قد نقلت الينا في ذلك الحين أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت اقامته في المعرة على قبر أبي العلاء ، وأنها تعد العدة للاحتفال

بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ والصواب على مولده كما هو ظاهر ، وكما نشير إليه بعد سطور .

فخطر لنا أن أبا العلاء قد دعي من حظيرة الخلود الى شهود ذكره ، وأن الأمد لا يزال فسيحاً بيننا وبين ذلك اليوم المشهود ، ففي ذلك الأمد متسع لرحلة علائية حول الكرة الأرضية ، يرى فيها ما يعيننا أن يراه ، ويقول فيها ما ينبغي أن يقول ، أو نقول نحن على لسانه ما يشبه مقاله في أوانه ، قياساً على ما صنع هو في السماء حين حدثنا في رسالة الغفران بلسان الأدباء والشعراء ، وجعل لهم من كلامهم وأخبارهم دليلاً له في كلامه وأخباره . .

فكتبنا يومئذ سلسلة هذه الفصول التي سمينها « رجعة أبي العلاء » وعرضنا فيها حوادث الدنيا كما تتمثل له ولمن ينظرون الى أمور العصر الحاضر مثل نظرته في سائر الأمور . ونحسب أننا أتينا بصفوة الآراء التي توافقه وتستخلص من جملة تفكيره . . . ما لم يكن قد تغير نظره بعد موته ، وهو مستحيل ! . .

ونحسب كذلك أننا لم ننحله رأياً ينكره لو أنه عاد الى هذه الحياة الدنيا في زماننا هذا ، لأننا شفّعنا آراءه الحاضرة بأقواله المحفوظة فيما عرض له من خطوط زمانه ، فتشابهت الأقوال وتقاربت الأحكام ، وبقي على من يخالفنا أن يزعم أن هذه الآراء غريبة عن منحنى أبي العلاء في تفكيره ، ويثبت ذلك بكلامه وآرائه في مثل ما نحلناه . ويومئذ يظهر ان الإنكار هو الدعوى التي تفتقر الى الشواهد والبيّنات .

وقد مضى الآن زهاء ست سنوات منذ كتبنا هذه الفصول ، دارت فيها الأيام دورتها واضطربت فيها الحوادث اضطرابها . فلا شك أننا حين وصفنا الحوادث كما وصفناها واستطلعنا العواقب كما استطلعناها ، لم نقحم على حكيم المعرفة رأياً كذبّه الواقع وأنكره الحق الصادع ، ولم ننحله قولاً يزري بصائب فهمه أو يقدح في صادق حكمه . فان كنا وافقناه فقد أرضيناه ، وان كنا خالفناه فما أخجلناه .

ومن محاسن الاتفاق أن تحتفل الأمم العربية بتمجيد أبي العلاء وهي تتطلع الى استقلال كريم يرضي الحكيم العربي الصميم ، وتنهض الى مجد طريف يستجد لها معالم المجد

القديم ، وأن تعاد « رجعة أبي العلاء » في طبعتها الثانية والدعوة الى الاحتفال جارية الى مجراها ، ووفود الحجيج المعري مستبقة الى ملتقاها ، فهي تحية في الأوان ، وقربان على ذلك المحراب . . مزاجه الشكر والعرفان . .

عباس محمود العقاد

تمهيد

منذ سنة وشهور نشرت الصحف من أبناء سورية « أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت اقامته في المعرة على قبر أبي العلاء ، وأنها تعد العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاته ، أو على ميلاده كما هو الأصوب . . فالمعري كاره الحياة يعاد طوعاً أو كرهاً الى الحياة كرة أخرى ! . .

خطر لي هذا الخاطر فأحببت أن أتخيل « رهين المحبسين » يجوس بيننا خلال الديار ، ويتمرس بأحوال الأمم في عالمنا الحاضر ، فماذا هو قائل ؟ وماذا هو فاعل ؟ . .

لا شك أن أحوالاً كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودة في أيام أبي العلاء ، ولا شك أننا واجدون في كلامه حكماً مكشوفاً أو ملفوفاً على جميع تلك الأحوال ، فأما ما يختلف من شؤون زماننا وزمانه فهل يستطيع قياسه والنفوذ الى رأي أبي العلاء فيه وفقاً لذلك القياس ؟ وهل في مقدورنا نحن أبناء هذا الزمن أن ندعو الحكيم للجهر برأيه فيه ؟ ذلك ما قد حاولناه في هذه الصفحات^(١) ، ونحسب اننا قد أصبنا فيه بعض التوفيق ، ان تعذر التوفيق كله في مجال الفرض والتخمين . .

ومضت فترة ولم نسمع خبراً عن المحفل المنظور : هل تم بناء الضريح ؟ وهل تم نحت التابوت ؟ وهل تمت العدة ؟ وهل شررت الدور التي تحجب قبر الحكيم ؟ الأرجح أن هذا كله ماضٍ في طريق التمام ، وأن المحفل المنظور قائم في موعد قريب . . . لكن أبا العلاء الذي بعثناه وأطفناه بالعالم كله مع بعض تلاميذه قد بلغ غاية المطاف ، وسثم المضيفين

(١) نشرت هذه الفصول والابواب في صحيفة البلاغ الغراء ما عدا الرابع الاخيرة فلم يسبق نشرها . .

والأضياف ، وأحب أن يثوب الى داره وأن يقر في قراره . فنحن هنا مثبتون قصيداً لأبي علائنا يودع به من سوف يستقبلونه ، ويعتذر به لمن يسكنونه في الدنيا ولا يرسلونه ، ويقول أو نقول في مكانه ، ما ينبغي أن يجري على لسانه . وذلك هو نشيد الوداع في ختام هذه الصفحات ، أنابنا في نظمه على سنة اللزوميات ، فله الحسنة منه ، وعلينا نحن السيئات . .

قيل ان بعض المكتبات الايطالية أهابت بالأدباء من العرب أن يوافوها باسم الأديب الذي تجتمع فيه خصائص العبقرية العربية ، فأجمعت الآراء على أنه هو أبو العلاء . . وقواعد الانتخاب ليست بمقطع الرأي في مزايا الفنون والآداب ، ولكننا نراها في هذه الفتوى قد حكمت بالصواب ، وأجابت أحسن الجواب . . اذ الحقيقة أن حكيم المعرفة خير من يمثل الذهن العربي والسليقة « السامية » غير مستثنى في ذلك أحد حتى صاحبه أبو الطيب . . لأن تمثيل الذهن غير تمثيل « الطبيعة العملية » التي يرشح فيها أبو الطيب للمكان الأول بين شعراء الضاد . وأبو العلاء هو الذي يمثل الذهن العربي في تفكيره وفي مقاييسه وفي نظره الى الدنيا ، دون سائر المفكرين من الشعراء .

وعسى أن تكون هذه الآراء التي وضعناها على لسانه وقسناها الى المعهود من كلامه هي ترجمان الذهن العربي حين ينظر الى حقائق العالم في زماننا الحديث . .

وقد

نقلت الصحف من أنباء سورية أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت إقامته في المعرة على قبر حكيمها وحكيم العرب أبي العلاء ، وأنها نعد العدة من اليوم للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ ، والصواب على مولده كما هو ظاهر ، فان الأمد لا يزال بعيداً بيننا وبين ذكرى وفاته ، الا اذا كان الغرض التقريب لا التحقيق ، ولا حاجة الى ذاك لقرب ذكرى الميلاد .

تمثلت مندوبي الحكومة السورية يحملون قرارها الى شيخ المعرة ، ويبلغونه أنهم سيبنون تابوتاً على قبره ، وأنهم سيدعون علماء المشرق والمغرب الى موطنه للاحتفال بذكرى ميلاده . فماذا يقول ؟ وماذا يقولون ؟

ان الشيخ ليتلمل في مضجعه بعد أن استراح فيه مئات السنين ، وانه ليخاطب جدته اليوم كما خاطبه وهو في قيد الحياة وقيد المحبس :
يا جدتى حسبك من رتبة أنك من أجدانهم معزلاً
أملني الدهر بأحداثه فاشتقت في بطن الثرى منزلاً

ثم يسأل متثاقلاً : من أنتم ؟ وماذا تبغون ؟ فلا يُعلمونه من هم وماذا يبغون حتى يتهاف قائلاً : أتبنون لي تابوتاً ؟ أما قرأتم أو سمعتم قولي :

أن التوابيت أجدات مكررة فجنّب القوم سجنأ في التوابيت

فيحار الجماعة ، ولا يدرون بماذا يجيبون . ولكنهم حريصون على اقامة التابوت ، وعلى تمجيد الرجل وتشريف مدفنه وتشريف ذكره ، وسيكون بينهم ولا ريب أناس ممن عركوا السياسة وحذقوا أساليب الخطاب والتدرج في المجاملة والارضاء ، فيقول قائل منهم : أيأبى مولانا الكرامة والتشريف ؟! . . .

فيجيب الشيخ :

لا تكرموا جسدي اذا ما حل بي ريب المنون فلا فضيلة للجسد
ثم يقول :

اذا أنا واراني التراب فخلّني وما أنا فيه ، فالتراب مؤونتي !
ثم يقول كما قال من قبل :

أأرغب في الصيت بين الأنا م ، وكم خمل النابه الصيتُ
وحسب الفتى أنه ماثت وهل يعرف الشرف الميثُ ؟
فيلهم أحدهم أن يراجعه بيت من كلامه ، وأن يذكره أنه ليس بميت وإنما هو حي
خالد ، أوليس هو القائل :

وجدت الناس ميتاً مثل حي بحسن الذكر أو حياً كميّت

فيأنس أبو العلاء الى ما سمع ، ويعجبه أن يُروى له شعره بعد مئات السنين ،
ويسألهم : وماذا تريدون الآن من جمع الجموع حول هذا التابوت الذي تبنيه ؟ أتراكم
تمدحوني وأنا القائل :

ان مدحوني ساءني مدحهم وخلتُ انسي في الثرى سُخت

فيجيبه أريب كيس من القوم يعرف كيف يتسلل الى كمين الرضى من سريرة الشيخ ،
ويقول له : بل نشني على أنفسنا وعلى بلادنا بما أنجبتُ من فضلك وأحيت من ذكرك
وحفظت من أثرك ، فأنما يعيننا ولا يعيبك أن ننسى هذا ونهأدى في نسيانه ، ولن يضيرك أن
نكف عن مدحك وأنت القائل عرفاناً بقدرك :

فلا وأبيك ما أخنى انتقاصاً ولا وأبيك ما أرجو ازدياداً

ولكنه يضيرنا كل الضير أن يثني عليك الغرباء ونحن سكوت ، وأن يمدح الناس من ملل الأرض حكماءهم وشعراءهم ولا نمدحك ونشيد بمناقبك وسجايك . .

وكأنما يطلق ألسنتهم إصغاء الشيخ وارتياحه وما يعهدونه فيه من حب الصراحة والفكاهة فيقول منهم قائل : ثم ماذا يخيفك اليوم من المديح وقصارك من خوفه أن تحسب أنك سخت في باطن الأرض ؟! لقد أصبح الخيال حقاً والحسبان واقعاً ، وجربت بطن الثرى مئات السنين . . فلا ضير عليك اليوم أن تسمع من المديح الدواوين والأسفار ! .

فيضحك الشيخ ويتفصح للحديث ويجري معهم في مجراهم فيقول : لا يغرنكم يا أبنائي أنني أزهد في المديح وأنتني أسكن الى الزهد فيه وفي المجد والسلطان ، فما أبرىء نفسي من كبرياء ، وما أزعم أنني اخترت العزلة والفاقة عن صغر في المطامع أو قناعة بالحظ الوضع ، ولكنني لا أرى لأحد عيشاً في هذه الدنيا الا أن يسودها أو يستخف بها ويعرض عنها :

ذر الدنيا اذا لم تحظ منها وكن فيها كثيراً أو قليلا
وأصبح واحد الرجلين : اما مليكاً في المعاشر أو أيبلا
وما أتيح لي أن أصبح مليكاً في المعاشر ، فأصبحت باختيارى راهباً متبتلاً أعرض عن الدنيا ولا أريها أنها هي التي أعرضت عني وبخست من حقي ! . .
اذا كان هذا الترب يجمع بيننا فأهل الرزايا مثل أهل الممالك
فيقول قائل منهم : نعم أيها الامام . لقد كررناك حتى فهمناك كما قلت في بعض شعرك :

يكررنى ليفهمني رجال كما كررت معنى مستعادا

فما تخفى علينا خافية من هواجس ضميرك ولا تغيب عنا خالجة من خوالج طبعك ، وانك لمناضل مكبوح ومغامر محبوس ، وان نفس الزاهد منك لمقرونة بنفس السيد الذي لا يدين في الحياة لغير حكمه ، ويأنف أن يموت حتف أنفه ، وقد عشت هكذا في عالم الرأي أمراً لا يأمرك الحاكمون ، وأبياً لا يخضعك المغلوبون ، وتمت يوماً :

بهيجاء يغشى أهلها الطعز الضربا
على فرشه يشكو الى النفر الكربا

من السعد في دنياك أن يهلك الفتى
فان قبيحاً بالمسود ضجعة
وترددت بين القلم والسيف فقلت :

لأظهر منه في قلم ودرج
الي المال من مكس وخرج
الى حليفك من قتب^(١) وسرج
والا فالكواكب خير سرج

وان العز في رمح وترس
وما أختار أنى الملك يجي
فدع إلفيك من عرب وعجم
سراجك في الدجنة عين صار

ويقول الشيخ مبتسماً : لقد أحصيتم علي فلتات اللسان وشوارد الأمانى وشطحات
الأوهام ، وعملتم بوصيتي حين قلت :

اقرأ كلامي اذا ما ضمنى جدئي فانه لك ممن قاله خلف

ولكني كنت أوتر لونسيتم بعضه ومنه هذا الذي ذكرتموه ، فما أحسب الا أنني حاذفه من
جملة كلامي لو تمكنت من تلك الأوراق التي حفظتموه فيها . . فاحذفوه . .

ثم يخطر لبعض الحاضرين أنها فرصة لا تضيع ، فيسألونه : ألا نحمل اليك تلك
الأوراق فنراجعك فيما تغير منها وما تأمر بمحوه ، بعد أن تنظر في الدنيا نظرة وتطلع منها
على ما استجد من حالها وتبدل من خلائق أهلها . .

فاذا الشيخ يتجههم هنيهة وقد عاودته سوداؤه وانقباض صدره وذهب يقول :

أما خلائق أهل الدنيا فانما يتبدل الرأي فيها لمن يراهم على احدى حالتين :

فمن قال انهم كانوا في غابر زمانهم أهل ورع وصلاح وأصحاب كرم وتقوى . ثم عدت
عليهم عوادي الزمن فصعدوا عن سبيل الخير ، فذلك خليك أن يصف منهم شأناً ، ثم يعود
بهم الى شأن غير الذي وصف .

ومن قال انهم اليوم جاهلون وغداً يعلمون ، وأنهم اليوم على عوج وغداً يستقيمون ،

(١) القتب : الرجل

فذلك أيضاً خليقٌ بتبديل الرأي في الناس عصرًا بعد عصر وأمة بعد أمة . .
وما أنا هذا أو ذاك ؟ . . أنا قد بلوتهم فعلمت أنهم هكذا كانوا منذ كانوا :
وهكذا كان أهل الأرض مذ فُطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا
ثم بلوتهم ورجوت صلاحهم واستأنفت الرجاء فيهم وعجبت من أمري معهم على شدة
علمي بهم ، وما زلت أستغرب من تلك الحال التي أحاولها وتحاولني :
وأعجب مني كيف أخطيء دائماً على أنني من أعرف الناس بالناس
حتى انتهيت الى رأي لا يتبدل :
فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطيع
نعم ذاك الذي ما استطعته ولن تستطيعوه ، ولكن :
نزول كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما ترى

وتذهبون في كل مذهب وتطمعون في كل مطمع ، ثم تعلمون بعد خطأ لا تزالون
ترجعون اليه أنه :

حكم جرى للمليك فينا ونحن في الأصل أغبياء !
فهو داء عياء ليس له شفاء ، وكنت أزعم أن الموت يبريء الخلائق منه فها أنا ذا معكم لم
أكد أشعر بظل الحياة حتى استرجعت من دائها كل ما كنت أشكوه وأعالجه وأرجو الغلبة
عليه . . . كلا يا أبنائي : لا تحذفوا حرفاً مما كتبت في خلائق الناس ، أو احذفوه كله فما
هو بضائركم أن تجهلوه ، وهو منا ومنكم في الصميم ، وأنه لباقي في النفوس ان زال من
الطروس . .

تمثلت هذا الحديث بين شيخ المعرة وبعثة الحكومة السورية اليه ، وأحال أنني على
صواب حين أزعم أن الشيخ في طليعة الحكماء الذين لا يغيرون ما قالوه في هذا المعنى بعد
آلاف السنين ، لأنه لم يؤمن بالنكسة بعد العلاج ، ولم يؤمن بالتقدم والارتقاء. فيتطرق
الخلاف من أحد البابين الى مجمل ما قال :

لكن شيمة واحدة في حكيم المعرة اخالها لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف الى الياء ، ولألغى كثيراً من سقط الزند وكثيراً من اللزوميات ، ولخرج بديوان يقرأه القارئ فلا يهجس في خاطره ذكر المعري المعهود ، لأن تغيير تلك الشيمة يخرجها خلقاً جديداً لا يمت بقراءة ذهن ولا بأصرة نسب الى ذلك الحكيم الذي عرفناه . .

صاحب الجلالة المعري

قلت في ختام الفصل السابق : « ان شيمة واحدة في حكيم المعرة أخالها لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف الى الياء ، ولألغى كثيراً من سقط الزند وكثيراً من اللزوميات . . . » .

فما هي تلك الشيمة ؟ . . .

هي السميت والوقار ، أو هي كما نقول في لغة العصر الحاضر أدب البيئة وأصول « اللياقة » . .

وهذه الشيمة في الواقع وازع قوي عظيم الهيمنة على جميع النفوس ، وان عدها بعضهم ثانية أو ثالثة أو رابعة في ترتيب الزواجر الأخلاقية والنفعية ، لاعتقادهم ان الزواجر انما تفعل في الطباع فعلها على مقدار ما يحيط بها من ضجيج وطنين ، أو على مقدار ما لها من أسماء وعناوين ، لا على مقدار بواعثها من الطبع ومن قوانين الاجتماع . .

ان جميع الزواجر والأوامر والنواهي لا تخرج دانقاً ولا سحتوتاً من كنز المرأة العجوز الذي تجمعه من الدوانيق والسحاتيت ، ليكون لها بعد وفاتها مشهد « يليق » ويجري مع العرف الشائع بين البيوت .

وان الرجل ليقدم على جميع المحظورات غير حافل بالعقاب أو سوء المآب ، حاشا المحظور الذي « يسقطه » في نظر الناس ويخل بقواعد المروءة في البيئة التي هو منها ، فذلك حد لا يتخطاه الا وقد تخطى قبله جميع الحدود واجترأ على جميع المنكرات .

وان الخمر والزنا والسرقة ، لفي درجة واحدة من التحريم في بعض الشرائع السماوية ،

ولكن الناس يجانبونها أو يستبيحونها على حسب نصيبتها من الزرارية في البيئات التي يعيشون بينها ، ونعني بها بيئة المعيشة وبيئة المعاشرة وبيئة التفكير ، وربما وجد من الناس من يباهي ببعض تلك المحظورات في بعض بيئاته ، وإن كانت في بيئات أخرى مجلبة العار والمذمة والنفور . . .

وربما استخف المرء أو المرأة بكل منكور وممنوع ، إلا أن يزف بنته أو بنتها مثلاً في شوارع أقل من الشوارع المصطلح عليه ، مع أنه غير ممنوع في دين ولا في قانون ولا في شرع معقول ، ولكنه ممنوع في أدب البيئة أو أدب اللياقة . . فهو إذن أصعب المنوعات . . .

والخلاعة هي غاية السقوط عند العرب أو عند المتكلمين باللغة العربية ، وإنما الأصل في الخليع أنه الرجل الذي يخلعه أهله ويبرأون منه ، فهو من ثم يجلب على نفسه أكبر العار ، وإن لم يقارف شيئاً من معاصي الدين والقانون على حسب العرف الحديث .

وانهم ليجدون متسعاً من القول في كل عاص ، وكل جارم ، وكل آثم إلا الخليع فلا متسع فيه من القول بعد الخلاعة . . وما عسى أن يقول القائل في خليع ؟؟ تلك غاية الغايات وقصارى الموبقات ، فلا ملامة ولا عتاب !! . . .

المعري مثل من الأمثلة البالغة على سلطان البيئة أو على سلطان أدب « اللياقة » وأدب العرف والتقاليد .

فهذا الحكيم الذي عرض على فكره كل أصل من أصول الحكمة وكل مذهب من مذاهب الدين ، فلم يقبل منها إلا ما ارتضاه برهانه ، ولم يتخذ له اماماً غير العقل في صبحه ومساءه . . هو بعد هذا كله أسير « أدب اللياقة » يمنعه هذا الأدب ما ليس يمنعه شرع ولا فلسفة ولا عقيدة وهذا القائل :

وسيان من أمه حرة حصان ومن أمه زانية !

هو هو الذي يأبى أن يدخل الوليد على النساء بعد بلوغه العاشرة ، ويأبى أن تذهب المرأة إلى الحمام ، ويخشى على عرضها أن تخرج إلى الحج فلا يعده فريضة على عجز النساء ولا العذارى !!

ذلك هو « السمт اللائق » بالمرأة في شريعة البيئة . . فالسيدة الحصان تنجبها الأسرة الوقور لن تكون إلا على هذه الصفة ، ومتى وصلنا إلى السمт اللائق أو إلى أدب اللياقة

فأبو العلاء وسائر أبناء البيئة سواء ، والفيلسوف الذي قال :
كذب الظن لا امام سوى العرقل مقيماً في صبحه والمساء
لا يعنيه من امامة العقل هنا الا ما يعني قعائد البيوت وعجائز الأمهات والجدات ،
ذوات البنات اللائي يلتمنس الأزواج في ستر وحشمة وصيان !!

ولعلنا تسهّلنا بعض التسهل اذ قلنا : ان أبا العلاء وسائر أبناء البيئة سواء .. فانه لأشد
تحرّجاً من كثيرين ، وانه ليحظر على نفسه ما يبيحه آخرون ، وانه ليحسب الوقار جمالا
لايدانيه جمال في الرجال ، فان حذر من الشيخوخة آفة فانما يحذر أن يدركه الخرف :
وما أتوقّى والخطوب كثيرة من الدهر الا أن يحل بي اهتر
واذا رثى أباه في صباه وهو يتخيل موقف الحشر ورهبة القيامة وزحام العطاش على
الحوض فليس ينسى أن يسأل عن ذلك الأب :

ألا ليت شعري هل يخف وقاره اذا صار أحد في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروي مبادرا مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني ؟
فكأنه يقف بالدين والفلسفة عند باب العقل ، ثم يقف بالعقل عند باب الوقار أو أدب
اللياقة ، ثم لا يسأل هذا السلطان الجائر سؤلاً واحداً من تلك الأسئلة التي كان يشنها
من كل جانب على جميع السلاطين وجميع الدولات وجميع الأحكام ، ولو أنه سأل وأباح
نفسه الجواب الصريح لما اخذها بكل تلك الصرامة ولا أحال عليها كل تلك القيود .
أما مرجع ذلك السلطان الجائر من حياة أبي العلاء فهو أسباب كثيرة وليس بسبب
واحد :

مرجعه الى تربية الأسرة ..

فقد كان أبوه وأمه من ذوي الوجاهة والصلاح ، وكان آل أبيه يتوارثون القضاء في بلده
ويعيشون بين الناس كما يعيش رجال الدين ورجال الحكم على شعائر المروءة والتعفف
والأنفة من غشيان مواقع الشبهات ، وعلى الهيبة التي لا غنى عنها لمن يسوسون الرعية
باسم الله واسم السلطان ..

ومرجعه الى الخليفة العربية ..

فقد كان أبو العلاء عربي النجر عربي الطبيعة ، يفهم أن العرض قوام الشرف والعزة ، وأن الابتذال هو الهوان الذي ما بعده هوان ، وأن الرجل الذي يجترىء عليه المجترىء بمذمة أو سخرية هو حمى مستباح ، وأن من لا حياء له لا حياة له ولا خير فيه ، وأن السنّة ما سنّه الآباء وجرى عليه العرف وسارت به الأمثال وحسنت به القدوة .
ومرجعه الى فقد بصره . .

فان الضرير قد يصيبه السخر والملام لأموال يواقعها البصير ولا من يسخر به أو يلومه ، وان البصير قد يمارس من الشهوات ما يأمن الفضيحة فيه ، لأمانه من أن يطلع عليه احد غيره ، وليس ذلك في مقدور الضرير : فاما الفضيحة والعار واما الزهد والوقار .
ومرجعه الى كبريائه وعزّة نفسه . .

فان الأعمى قد تهون عليه الفضيحة في سبيل الشهوة ، الا أن تكون له كبرياء تأبى له المهانة والابتذال ، فيهون عليه فقد الشهوات واقتناء الكرامة . .

ولقد رأينا أن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا الا بالسيادة عليها أو بالاعراض عنها ، فاما الملك واما الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين ، فلا يحسن أحد أن « فكرة الملك » عارضة في ذهنه كما يعرض الخاطر في خلد الشاعر ، فان « للمجد الدينوي » لنزعة مكبوتة في قرارة ضميره يدل عليها شعره ونثره ، ولا تزال غالبية عليه في جمحات الأهواء وفتلات اللسان . فسرعان ما يشب اليها كلما عرضت لها لمحة ظهور ، وله في ذلك أبيات تعد بالعشرات منها :

لا ملك لي وأرى الدنيا تحاصرني وما حجبت وقد لاقيت احصارا
ومنها :

ما سرنى بقناعة أوّيتها في العيش ملكا غالبا وذمار
ومنها :

لو شاء ربي لصاغني ملكاً او ملكاً . . ليس يعجز القدر !
ومنها :

وزهدني في هضبة المجد خبرتي بأن قرارات الرجال وهود
ومنها :

لا كانت الدنيا فليس يسرنى أني خليفتها ولا محمودها

ومنها :

محمودنا الله والمسعود خائفه
ملكان لو أنسي خيرت ملكهما
فعد عن ذكر محمود ومسعود
وعود صلب ، أشار العقل بالعود

ومنها :

ما سرنى أني امام زمانه
تلقي الي من الأمور مقالده

ومنها :

أسر ان كنت محموداً على ضعتي
ولا أسر بأنسي الملك محمود

وقد أعجبه أن يراه راء في الكرى يلبس تاجاً فقال :

رآني في الكرى رجل كأنني
قلنسوة خصصت بهانضاراً
من الذهب اتخذت غشاء راسي
كهرمز أو كملك أولى خراس
فقلت معبراً : ذهب ذهابي
وتلك نباهة لي في اندراسي

ولعل الرائي هو أبو العلاء نفسه قد أظهر له المنام ما أخفاه العقل الباطن من نوازع الكبرياء ، أو لعله صاحب خبيث قد استطاع طلعه وعرف شموخ طبعه: فرأى المنام حقاً أو لفقه له ليغنى رضاه .

وكانه لما فاته التاج وسوس له « عقله الباطن » في المنام فرأى تلك الرؤيا ، وسوس له في اليقظة فقال في المفاضلة بين تاج الملك وتاج الزاهد :

والتاج تقوى الله لا ما رصعوا
ليكون زيناً للأمير الفاتح

وأمثال هذه الأبيات وعشرات مثلها لا تبدر من رجل يمزح حين يقول : كن في الدنيا كثيراً أو قليلاً ، فاما مليكاً أو راهباً . . ثم تدركه الأنفة أن يأكل من رزق غيره مع الرهبانية فيقول :

ويعجبني فعل السدين ترهبوا
سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

كلا . . ذلك رجل قد تغلغل الأنفة في أعماق طبعه ، فما هي عنده كلمة مجاز أو كلمة مزاح أو شطحة خيال .

تلك مراجع شتى لعادة السميت أو « أدب اللياقة » في خلائق أبي العلاء :

ومرجع آخر نضيفه إليها ولا نحسبه قليل الأثر في تكوين تلك العادة : أنه كان ضعيف البنية ضعيف الخوارج الجسدية . . فلم تغلبه شهوات اللحم والدم ولم يعسر عليه ضبطها

في عنان السميت مدى تلك السنين الطوال ..

على هذه المراجع جميعها قام « أدب اللياقة » في خلائق أبي العلاء ، او قامت تلك الشيمة التي قلنا انها لو تغيرت قليلاً لخرج أبو العلاء رجلاً آخر : مَنْ يقرأه لا يهجنس في خاطره ذكر المعري المعهود .. ترى هل كان تغييرها من المستطاع ؟ ..

وماذا كان المعري صانعاً لو قدر على تغييرها ؟؟

عالم السريرة

قلنا في ختام الفصل السابق ان الخصلة التي لو تغيرت في أبي العلاء غيرت معيشته كلها أو غيرت مذهبه في الحياة كله - هي خصلة الوقار وكراهة السخر والمهانة أو هي خصلة « اللياقة » كما نسميها في العصر الحديث . .

وقلنا ان هذه الخصلة مردودة فيه الى مراجع كثيرة ، وهي التربية في بيت العلم والوجاهة ، والسليقة العربية ، وفقد البصر ، والكبرياء ، وضعف البنية ضعفاً أتاح له أن يكبح نوازع اللحم والدم ويقمع دوافع الشهوات . .

وسألنا : هل كان من المستطاع تغيير هذه الخصلة ؟ وماذا كان المعري صانعاً لو انها تغيرت بعض التغيير أو كل التغيير ؟

وعندنا أن تغييرها كان مستطاعاً كما يستطاع كل تغيير في عوارض الصفات . .

فان تلك المراجع التي أنشأت فيه حب الوقار ليس من شأنها أن تنزع بصاحبها الى النسك والزهد في الحياة الا اذا اجتمعت في وقت واحد .

أما اذا افترقت ولو بعض الافتراق فليس النسك لصاحبها بلزام ، وليس حتماً عليه أن يأنف من نعيم الحياة .

اذ ليس كل من تربى في بيت من بيوت العلم والدين والوجاهة بصادف عن اللذات والشهوات ، أو بعاكف على الصوامع والدور التي يسميها المحابس . . والأمثلة فيما نراه وفيما نقرأه كثيرات . .

وليس كل عربي تمنعه صيانة العرض أن يعاقر الخمر ويستطيب المجون ، فان امراً القيس وطرفة والأعشى عرب في الصميم من العروبة ، ومجونهم مع ذلك كمجون الشعراء من أبناء الأمم الأخرى في عهود الجاهلية وعهود الأديان . .

وليس كل ضرير عازفاً من مواقع الشبهات ، فان بشاراً قد ولد ضريراً وانه لأسبق الى الشبهات من المبصرين . .

وليس كل ضعيف البنية معرضاً عن حظوظ الأقياء والأشداء ، اذ ربما كان ضعف البنية سبباً الى الافراط في التماس تلك الحظوظ ، لأنه يضعف الارادة فلا تقوى على كبح سورات الطبع ووساوس الاغراء . . وكذلك ليس المتكبر مترفعاً ابداً عن الطرب والسرور ، لأنه اذا كان بصيراً لم يكن في طربه وسروره ما يجلب عليه السخر والمهانة ، او يعرضه للتغامز والتفريع بل لعله يرضي كبريائه احياناً من طريق غزوات الحب ومظاهر البذخ والثراء . .



أما اذا اجتمعت هذه الأسباب كلها فمن الصعب أن يفلت الطبع الواحد من أوهاتها ، ومن الصعب أن يوفق بينها جميعاً الا كما وفق بينها ابو العلاء ، أي باجتناّب الدنيا والتزام العزلة والقناعة . .

لكن افتراقها كان ميسوراً لا استحالة فيه ، فلم يكن ضربة لازب أن يصاب أبو العلاء بالجدري في طفولته البكرة ، ولم يكن ضربة لازب اذا أصيب به أن يفقد بصره وأن يعيش بعد ذلك رهن المحبس . وماذا يبقى من معيشة أبي العلاء او من فلسفته في المعيشة اذا لم يكن رهن المحبس ؟

أكبر الظن في هذه الحالة أنه كان يجمع بين النواسية والخيامية في نمط واحد ، أو كان يخرج لنا نمطاً جديداً يضاف الى نمط النواسي ونمط الخيامي في ديوان الاداب الشرقية ، ويكون لا ريب نمطاً بديعاً خليقاً بذلك الذهن الوقاد وذلك الطبع الأصيل .

وفي المعري جميع العناصر التي تخرج منه ذلك النمط البديع ، ونعني به النمط الذي يذكر عمر الخيام أو يذكر الحسن بن هانئ قبل أن يذكر أبا العلاء الذي عهدناه ودرسناه .

عنده الشك في أخلاق الناس وعقائدهم فهو القائل :
 ما فيهم بر ولا ناسك الا الى نفع له يجذب
 وهو القائل :
 توهمت يا مغرور أنك دين على يمين الله : مالك دين !
 وهو القائل :
 يحرم فيكم الصهباء صباحاً ويشربها على عمد مساء
 وهو القائل :
 وما يحجون من دين ولا نسك وانما ذاك افراط من الأشر
 وهو القائل وفيه كل سخرة بخلائق الناس وخلائق نفسه :
 عرفتكَ فاعلم ان ذممت خلائقي ورايك بعضي : ان كلك رائبي !

وعنده الرغبة في الحياة والشغف بمتاع الدنيا ، وكلامه في ذلك كثير .
 منه قوله :
 تناهيت العيش النفوس بغرة فان كنت تستطيع النهاب فناهب
 ومنه قوله :
 والمرء ليس بزاهد في عادة لكنه يترقب الامكانا
 ومنه قوله وهو أصرح مما تقدم :
 ولم أعرض عن اللذات الا لأن خيارها عنى ختسنة
 وعنده الشك في عقبي النفس وما يستتبعه ذلك الشك من قلة المبالة والمساواة بين
 المحامد والمثالب ، ولعل أوجز كلامه في هذا المعنى قوله :
 وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى فان كان حقاً فالنجاسة كالطهر
 أما الخمر فلا أستبعد أن الشيخ قد ذاقها في بعض الأديرة التي كان يغشاها للدرس
 ومراجعة المذاهب ، فان أوصافه لها أوصاف من لا يقتصر في العلم بها على السماع .
 بل لا أستبعد أنه كان يذوقها من حين الى حين في بعض أيام العزلة كما ينم عليه قوله :
 فلا تشربنها ما حييت ، وان تمل الى الغي فاشربها بغير نديم
 وانك لتقرأ نبيه الكثير عن الخمر فتملس فيه نزاعاً شديداً اليها يغالبه ويعاوده في معظم

أيامه كما يؤخذ من قوله :	تمنيت أن الخمر حلت لنشوة
أو في قوله :	أياأتي نبيّ يجعل الخمر طلبة
أو من قوله :	وهيهات لو حلت لا كنت شارباً
أو كانت الخمر حلاً ما سمحت بها	أو من قوله :
لأشرب الراح أشري طيب نشوتها	أو من قوله :
لو كان قدساً ^(١) ثم هبت ريحها	لو يحمل الشرب الرواسي أوهموا
أو من قوله :	وما قصرت لي أم ليلي بشرها
أو من قوله :	أو من قوله :
لا ينزلن بانطاكية ورع	بها مدام كذوب التبر تمزجه
أو من قوله :	أو من قوله :
لقد خدعتني أم دفر ^(٢) وأصبحت	إذا اخذت قسطاً من العقل هذه
أو من قوله :	أو من قوله :
لا أشرب الراح ولو ضمنت	مخففاً ميزان حلمي بها

(١) اسم جبل

(٢) كناية عن الدنيا

الى أضعاف هذه الأقوال وما شاكلها في الزوميات خاصة ، وهي من بعض الوجوه أشبه الأشياء بمفكراته الشخصية ، وهذا عدا ما جاء في رسالة الغفران من وصف مجالس الشراب ولذات الشاربين في الدنيا والآخرة . .

فان لم يكن في كل ما تقدم دلالة على ان الشيخ قد ذاق الخمرة وعاد الى مذاقها بعد لزوم المحبسين ففيه دلالة على اشتهاؤها ومغالبة نفسه عليها ، مغالبة ليس بالهين نسيانها وصرفها من ذهنه وهو اجس ضميره .

ويرجح الظن بنزوع المعري هذه النزعة بين الخيامية والنواسية انه كان يعيش في عصر فتنة واضطراب ، وجزع على الأنفس والأعراض ، وتلك عصور يشيع فيها الفساد وتندر فيها العصمة ويكثر فيها اغتنام الفرص والتهافت على اللذات ، ولا سيما على ملتقى الطريق بين حضارة الروم وحضارة العرب وحضارة الفرس ، وكلها في ذلك العهد حضارات اخذت في الزوال ولم تستبق من المناعة والتاسك ما يزرع النفوس ويعصم الأخلاق ويحجي شرائع الآداب .

لكن لماذا نقول الخيامية والنواسية ونفرق بين الطريقتين وكلا الرجلين الخيام وأبو نواس - معاصر كأسٍ مقبل على متعة ، مستخف بالذم والثناء ؟ . .

نقول ذلك لأنها على اتفاقهما في العمل مختلفان في أسبابه ودواعيه وغاياته . .

فالخيام يشرب وينعم لأنه عالج مشكلات الوجود فاستعصى عليه حلها ففنع بالساعة التي هو فيها وعمد الى الكأس يغرق فيها شكوكه واسفه على بطلان الحياة وعاقبة الحياة .

أما أبو نواس فلا شكوك عنده ولا مشكلات ، وانما هو شارب خمر لأنه يشتهيها ويتصدى لعقاب الآخرة في سبيلها ، فالآخرة عنده حقيقة مفروغ منها وليست قضية في طريق الحل والجلء . . كما كانت في مذهب عمر الخيام . .

أما أبو العلاء فهو قريب من أبي نواس في الثقافة العربية وقريب من الخيام في التفكير والبحث عن اصول الأشياء ، فهو لا يكون كهذا ولا كذاك حين يستسلم لمتاع الحياة ، ولكنه يكون نمطاً وحده يأخذ من كليهما بما هو قريب اليه ، وقد يترجم هذا النمط بعض الترجمة بقوله :

السيف والرمح قد أودى زمانها فهل لكفك في عود ومضرب

الا أننا نسأل ويحق لنا السؤال : هل كان حتماً لزاماً على المعري اذا هو سلم من الجدي وعاش بصيراً بين أهل زمانه أن يدرس الدراسة التي تشككه وتدفع به الى البحث في اصول الأشياء ؟ ألم يكن من الجائز أن استغراقه في الدراسة انما كان نتيجة لفقد بصره وانصرافه عن الدراسات الأخرى التي يشتغل بها طلاب المناصب والمساعي الدنيوية ؟ ألم يكن من الجائز أن يدرس - وهو طفل بصير - تلك الدروس التي ترشحه للقضاء كما رشحت بعض أهله من قبله ؟ ألم يكن من الجائز اذا علمه أهله ليرشحوه لوظيفة القضاء أن يكتفي بدروسه الفقهية ولا يسترسل في دروس الحكمة والفلسفة وشكوك الأديان ؟ . .

كل ذلك مما يجوز ، وقد ذكر هو المراتب والتطلع اليها في مواضع من شعره ، وذكر الفتيا فقال :

قلدتني الفتيا فتوجني غداً تاجاً باعفاثي من التقليد
وقال يخاطب أبناء بلده :
يا قوم لو كنت اميراً لكم ذمتم في الغيب ذاك الأمير

فاذا قنع الطفل أبو العلاء بدروس الوظائف والمساعي الدنيوية فرمما ولي القضاء وعاش عيشة القضاة في زمانه فلا يطيل الدرس ولا يتشعب في مناحيه بعيداً من فقه الدين وفتاوى القضايا الشرعية ، واذا تمادى به البحث مرة ودعاه الى ذلك بعض ما يسمع ويرى من حوله فما هي الا خطرة عارضة ، لا تلبث أن تذهب كما جاءت أو تنطوي في خبايا النفس مزوية عن الاسماع والابصار .

لقد كان اذن يجد الوظيفة والبصر ولكنه يعيش بعد موته في ظلام التاريخ . .
لقد كان يعيش اذن جاهلاً حقيقة نفسه ويموت مجهولاً بين عارفيه منذ قضى نحبه الى أن يشاء الله .

أبو العلاء هو أبو العلاء

قال الرسول :

ألم يجمع شيخنا العظيم رأياً فيما اختار من تلك الشخوص ؟
قال أبو العلاء .

شيخنا العظيم قد اختار وفرغ من: اختياره
قال الرسول :

أفيأذن مولاي أن أسأله عما اختار منها ؟
قال أبو العلاء :

بل هو يسألك ماذا أنت مختار له من تلك الشخوص ، فلعله يهتدي منك بهدى فيما يؤثره
لنفسه ، من شكول حياته واحوال وجوده .
قال الرسول :

عفوك اللهم وغفرانك ! أفمنلي يهدي أبا العلاء ؟ وفيهم أهديه تعاليت ربي وتباركت ؟
فما يأخذ من شأنه وفيما يدع ، وفيما يؤثر لنفسه وفيما يأبى ! ماذا أسمع منك مولاي ؟ وهل
بلغ من قدرتي أن اصبح هدفاً لسخرتك ان كنت ساخراً ، وغرضاً لتهكم منك ان طاب
لك أن ترجع الى تهكمك القديم ؟ ..
قال أبو العلاء :

ولا كل هذا يابني .. ما أنا بساخر منك ولا متهكم . وانما يعجز الانسان غاية العجز

حين يختار لنفسه ، ويقدر غاية القدرة حين يختار لغيره ، وليس صاحب الحكمة بدعا في . هذه السنة التي شملت أبناء آدم وحواء ، بل لعل الحيرة أعظم والتردد الزم حين يختار الحكيم وينظر في مختلف الشئون ، قياساً على كثرة ما يرى وكثرة ما يستوعب من المزايا والنقائص ، وكثرة ما يعلم للمسألة الواحدة من وجوه وأطوار . فلا جرم تكون أهلاً للسؤال الذي سألتك وأنا أحوج الى جوابه منك الى جوابي ، فانما أنظر الى شخصي كما ينظر الأب الى أبنائه فلا أدري من منهم الأثير الراجح ومن منهم المزوي المرجوح . وأنا بعد صاحب الاختيار ومن يقع عليه الاختيار ، وأنا بعد الشاهد والمشهود عليه ، فما بالك تستغرب مني أن آنس الى خاطر يخطر لك أو ظن يحوم في خلدك ! . . قل يا بني ولا حرج عليك من حكمة حكيمك العظيم كما تدعوه . ما أنت بجاهل وما أنا بعليم : وما العلماء والجهال الا قريب حين تنظر من قريب قال الرسول وهو مأخوذ :

ذلك علم أستفيده منك اذ أنت تنكر العلم يا مولاي على نفسك ، وقصاراي أن أسألك عن شخص من شخصوك التي تعرض عليك ، وأن تقول لي ما تحمده منها وما ليس عندك بحميد ، وأنا الرابع بما اسمع ، وان لم يبلغ من رأيي أن يضاهي رأي الشيخ فيما يريده وما يأباه . . قال أبو العلاء : قل على بركة الله . . قال الرسول :

ذلك قاضي قضاة المعرة أول تلك الشخص ، أمثله سيداً جليلاً ينظر الى الدنيا وتنظر الدنيا اليه ، وينعم بنصيب من الحياة يعلن منه ما يعلن ويبطن منه ما يبطن ، ويسأله الناس في العلم والدين ، ويقصده القاصدون فيما يشكل عليهم من قضايا الفكر ، وقضايا المصالح والحاجات . .

ومضى الرسول يطنب في مآثر قاضي القضاة وهو ينظر الى وجه ابي العلاء فيراه يتسم ويصغي في غير قليل من الرحمة والحدب ، وغير قليل من الدجب والاستجها ، ويتأني الرسول في كلامه ويكفكف بعض الشيء من اطنابه ، غلوائه ، فيعتمد الشيخ الى الكلام كمن لا ينشط اليه ، ويقول للرسول سائلاً :

في أقاليم الهند والصين ألوف وألوف من أجيال البشر الأحياء في هذا الزمان ، افتراضي لو

عدمت الحياة أحسب نفسي حياً لأنهم احياء ، وأزعم انني أعيش لأنهم يعيشون ؟
قال الرسول :

كلا يا مولاي ، فان لهم حياتهم وللشيخ حياته ، ولهم اعمارهم المعدودة وللشيخ عمره
المعدود . .
قال شيخ المعرفة :

فتح الله عليك . فما أنا وذلك القاضي الذي وصفت ؟ وما نصيبي من الحياة ان عاش
هو وسمى نفسه أبا العلاء ؟ هو رجل من أهل الصين ما سمعنا به في الأولين !

انما أبو العلاء هو أبو العلاء حين يمعن في اغوار ضميره فيلمح هناك هواجس قلبه
وشكوك عقله ، ومادة علمه واختباره وآثار نعمته وحرمانه ، وما حصل او ضيع من أحلامه
واشجانه ، وغاية ما ينتهي من ظنه أو يقينه ، فما أنا وقاضي قضائك يا بني ؟ ذره وما
اختاره يعيش كما اختار له أمراؤه وطلاب عدله وانصافه ، فان الصلة بيني وبينه كما قلت
لك كالصلة بيني وبين ألوف ممن عاشوا او يعيشون في ارجاء الهند والصين ، فما اجتاز
صاحبنا من حقيقة أبي العلاء عتبة الدار ، ولا صعد منها الى ذروة ولا هبط الى قرار . .

قال الرسول :

فما قول شيخنا افاده الله في الشاعر النواصي يحيا حياته وينعم نعيمه ، ويرتع في لذات
العيش كما رتع ، وينظم الشعر كما نظم ، ولا يحرم الشهرة بعد زمانه ، ولا الخطوة بين
معاصريه واقرائه ؟

قال أبو العلاء متهانفا مستكرها :

لو سرنني ان أعيش عيشه لسرنني أن اخلد خلوده وان اشتهر اشتهاره في زمانه وبعد
زمانه : ذاك نديم يا بني وتلك غاية مرتقاه ، فكيف تراني اوثر مكان النديم ومن فوقه
مكان من ينادمه ويرجو مسرته ويتغني صلاته وعطاياه ؟؟

بحم الله ابن هانيء ، ما اقترب من الأفق الا حين قال :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشف له عن عدو في ثياب صديق

ثم أبى أن يمتحنها وامتحنتها أنا في كل يوم ، وشرب من يدها الخمر لذة للشاربين
وكرهت أنا أن اقبل الضيافة من عدو بغیض ، ولولقيته لسألته : ما بالك لم تمتحنها

يرحمك الله تركتها محنة لك لا تألوك امتحاناً في ليل ولا نهار ؟
خذه يا بني الى جانب قاضيك فما كان لي من أرب في هذا ولا ذاك .

فوجم الرسول التلميذ هنيهة ، ثم قال وهو يقدم ويحجم : هل أسأل الشيخ عن
الفارسي عمر الخيام ؟

فهش أبو العلاء وقال نعم تسأل ، فيما ذا تخالني مجيئاً ان سألت عنه ؟
قال التلميذ : أحسب أنني فطنت لاختيار استاذنا من تلك الشخوص التي عرضت
عليه . .

ان أستاذنا ليختار الفيلسوف الفارسي وانه ليرضى عن بحثه وزهده ، وانه ليقنع كما قنع
برغيفه وقدحه وحبيبه ، وانه لينظر بعد ذلك في السماوات والأرضين بعلم المنجم وخبرة
الحكيم ، وانه ليتبوأ من سيرة الخلف بعد زمانه مكان الهداية والتعليم ، لا مكان السмир
والنديم !

فبدا على وجه الحكيم الضرير قطوب يسير ، ولكنه قطوب الروية والمراجعة لا قطوب
الكدر والانقباض ، وهمس بين شفتيه كأنه في حديث نجوى :
أتراني اكون نسخة منقولة من أحد كائنا ما كان ؟

ثم جهر قائلاً :

كلا يا بني ! لقد كنت أختاره لو أنني خيرت فيه قبل ميلادي وميلاده ، اما اليوم فما لي في
هذا الشبه من أرب : رضي الله عنه فهو أقرب من أثرت واصعب من أبيت . .
ثم عاد يقول :

لئن حظي بلذة التعاطي لما حظي بقوة الامتناع . . ولئن سكر بخمر الدعة لما سكر بخمر
الانفة ، ولئن جرب اتباع الدنيا خطوة واحدة لما جرب الاعراض منها خطوات : له طريق
ولي طريق ، وربما التقينا في بعض الطريق ! . .

ثم صاح الشيخ بتلميذه ورسول القوم اليه :

ما بالك يا بني ترضى لي كل صورة الا الصورة التي رضيتني من اجلها ؟
قال التلميذ : تعني يا مولاي صورة أبي العلاء ؟

قال الشيخ : نعم . اياها اعني ولا أعني سواها .
فعجب التلميذ عجباً لم يدر له منفذاً ولا منصرفاً : ايقضي الشيخ حياته في التبرم
والانكار ثم لا يختار حين يختار الا ما تبرم به واغرق في انكاره ؟ ..
هذا والله هو العجب العاجب والحيرة جد الحيرة في قضاء الناس مع الاقدار وقضاء
الاقدار مع الناس ..

وكأنما ادرك الشيخ ما يهجس به ضمير التلميذ فقال له : تراه عجبياً ؟ أليس كذلك ؟ ..
قال التلميذ : لا أكتمك عجبني فأنت به أعلم ، وما أدري كيف شكوت الدنيا ثم كيف
تختار اليوم ما كنت تشكوه ؟

قال : أضرب لك مثلاً ، فأنما بالأمثال تنجلي المشكلات والمشابهات :

هبك خرجت الى العالم العريض الرحيب فجعلت لا ترى مزية ولا حسناً ولا فضيلة في
احد من الناس الا تمنيت ذلك لنفسك : هبك تمنيت من هذا عينيه ومن هذا انفه ومن هذا
قوامه ومن هذا فكره ومن هذا عافيته ومن هذا أرزاقه وامواله ، ومن هذا ماضيه ، ومن
هذا حاضره ومستقبله ، ومن هذا ملكة الشعر أو ملكة الغناء أو ملكة الحكم أو ملكة
التدبير ..

وهبك جمعت كل هذا في شخصك فأين تكون أنت بين جميع هذه الشخوص ؟ ..
لا تحب فاني مغنيك يا بني عن الجواب : انك يومئذ لا تكون .

انك تكون أنف زيد وعين بكر ولون خالد وسطوة فلان ومال آخرين ولكنك أنت لن
تكون وأنت أنت الذي يعينك أن تكون جميع هؤلاء ، واذا كنت جميع هؤلاء فلا أنت ولا
هؤلاء كائنون .

وقال التلميذ : ألا يتسنى لي أن أحتفظ بأساس وجوهر ثم اتمنى النوافل والعروض ؟ ..

قال الشيخ : ذلك خطأكم القديم . فما من عرض الا وهو داخل في صميم الجوهر ،
وما من شرفة في أعلى البناء الا وللأساس منها عماد ، وان بصري الذي فقدته لجزء من
تكويني لا انزعه الا انتزعت كلي معه فلم يبق لي ما اختار به ولا ما أختاره .. ولقد يكون

من عوارض الحياة مال يذهب ومال يجيء ، ودار تسكنها هنا ودار تسكنها هناك ، ولكنك اذا كسبت المال وفيك طبع الفقير فكأنما وقع الدرهم في يمين غير يمينك ، واذا سكنت الدار وخلفت فيها ذكريات شبابك فأنت ساكنها وان تحولت منها الى العدو الاخرى ، واذا وجدت مرة فلن توجد الا على صورة واحدة في هذه المرة . . وكل ما تختاره بعد ذلك فأنما هو من وحي تلك الصورة ، ليس منه محيص ولا محيد .
كلا يا بني . . لن يكون أبو العلاء الا أبا العلاء !!

بساط الريح

قال الشيخ : الحمد لله استطعنا وفعلنا . . .
قال الرسول : ان الفضول ذميم في كل شيء يا مولاي الا في طلب العلم والسؤال عنه . أفيأذن لي أستاذنا في سؤال ؟
قال الشيخ : أحسبك تسألني عما استطعت وفعلت ؟
قال الرسول : نعم . هو ذاك !
فصمت الشيخ قليلا كمن يستحضر نغماً بعيداً أو كلاماً منسياً ثم أنشد :

وماء بلادي كان أنجح مشرباً	ولو ان ماء الكرخ صهبا جزيال
فيا وطني ان فاتني بك سابق	من الدهر ، فلينع لساكلك البال
فان أستطع في الحشر آتاك زائراً	وهيهات لي يوم القيامة أشغال

هذا الذي استطعناه وفعلناه : عودة الى الوطن وزيارة للمعرة في هذا الحشر الذي حشرتمونا اليه .

فأخذت الرسول شيطنة التلاميذ في كل سن وفي كل مقام ، وراح يقول لأبي العلاء :
ومع هذا أنت القائل :

فيا ليتني همد لا أقوم . اذا نهضوا ينفضون اللمم
فأدار الشيخ رأسه ناحية وزم شفتيه قليلا ثم أجابه . نعم ! ليتني همد لا أقوم . . أما
وقد قمت فأني مكان أحق بالخين من :
بلاد بها نيطت عليّ تئامي وأول أرض مس جلدي تراها

بل أصبح جسمي من ترابها ، واختلط فوق صعيدها وبين أحشائها . . هذه هي
المعرة ! . . نعم هذه هي المعرة عرفتها وما كدت أعرف غيرها . . فالحمد لله على البعث
فيها . .

فهجم التلميذ بسؤال جديد ، وعول على الاكثار من السؤال ، اذ لا محيص من مساءلة
الشيخ وان ضجر بعض الأحيان . . فرجما كان ضجر الاجابة خيراً من ضجر السكوت
سنوات ، ريثما يعقد الاحتفال ويجتمع المقبلون الى المعرة لتحية حكيمة في ذكره .

قال التلميذ في سؤاله الجديد : أليس من عجب هذا الحب للمعرة ممن عاف الدنيا
بأسرها ؟

فأجاب الشيخ في غير ضجر ولا تأفف ، كأنه كان يتوقع سؤالاً كهذا من تلميذ : « ما
أكثر عجب الناس مما لا عجب فيه ! انما يحب الوطن الصغير من يعاف الوطن الكبير ،
ومن كره الدنيا كره القلب فيها وكره السعي وراءها في نواحيها . . فالى أي منقلب يصير
غير المكان الذي لا عناء فيه يتجشمه ، ولا جديد فيه يفجأ بما يسوءه ، ولا يزال فيه قريباً
من عهد صباه قبل أن يذوق مرارة العيش ويمتحن ببلواه ؟ وما أخرى من اتخذ في المعرة
محبساً لا يفارقه أن يتخذ في الدنيا بأسرها محبساً هو هذه القرية ولو فعل غير ذلك لعجبتم
منه ، فاعجبوا واخلقوا العجائب فلعلكم تستروحون الحياة ببعض ما تعجبون له ،
ولعلكم أطفال القدر يضحك منكم حين تسألون ثم يضحك منكم حين تقنعون
بالجواب ، أو تحسبون انكم في غنى عن السؤال ؟ يا بني سل ما بدا لك . فقد سألتُ
الغيب كثيراً وسألني الناس كثيراً ، وعالجت السؤال في الدنيا والآخرة ، فلا أدري ماذا
أصنع ان لم أكن سائلاً أو مجيباً لسائل ، وما اخالك ساكناً لو دعوتك الى السكوت ،
فتكلم مأذوناً فأنتم أزهق الخلق في مباح وأرغبهم في ممنوع ، وقد يرميني الاذن لك أضعاف
ما يرميني الاعراض عنك ، فلو صدقني من قبلك حين قلت لهم انني أجهل ما يجهلون
لطمعت في تصديقك اياي حين ألوذ بالصمت أو أقر بالغباء . .

واضطرب الرسول لا يدري أهذا ترخيص في السؤال أم نهي عنه ، وانقباض من الشيخ
أم تبسط وانطلاق . . وانه لكذلك اذ عاد الشيخ يتكلم كأنما قد سرت في نفسه حرارة الثورة
على الناس ، وانها لحرارة ترضي صاحبها عمن يثيرها ساعة تسخطه عليه ، كما يعدو الجواد
فزعاً فيشعر بنشاط العدو وجفلة الفزع في آن ، وأبو العلاء ناثر يرضيه الاعراب عن ثورة
نفسه ولا يرضيه طول الكتان لطباعه . فعاد يقول :

« ألا تنبئني يا بني : ماذا تظنون حين تسألون رجلاً متهماً بالعلم فيعجز عن الجواب أو يأباه ؟ أتحسبون الغيب سلطاناً يجتبي بأسراره الحاشية المقربين ؟ أتحسبون من يصحبه مطلعاً لا محالة على كل أمره فلا يخفي شيئاً إلا اتهمتموه بالظن أو الدهاء والروغان ؟ ان كان هذا ما تحسبون يا بني فالغيب ليس بسلطان ، والعلماء ليسوا بحاشية سلطان ، وأخرى أن يكون العالم كالمدلج في الظلام يحمل مصباحه على قدر ضيائه فهو يرى ما هناك ولكنه لن يرى ما ليس هناك . . فان سألتهم فاسألوا عما يجوز علمه أو ما يجوز وجوده حيث يراه المدلج وحيث يقع عليه شعاع المصباح . أما ما وراء ذلك فالعلماء والجهلاء فيه كما قلت لكم قريب من قريب . »

فتنفس التلميذ الصعداء ، وعلم أنها غصبة ليست من غضبات الجفاء والنقمة ، وقال وهو يتلعثم : لقد علمت ما لم أسأل عنه ، فما أسعدني بقربك أيها الحكيم سائلاً وغير سائل ، وسترى أيها الحكيم أنني لن أسألك إلا عما هو في علمك ولن أطلب منك إلا ما هو عندك . فهل أحسب الشيخ أذن في هذه الساعة بسؤال ، أو أعفيه حتى يأذن ويستريح الى الجواب . . .

فتبسم أبو العلاء وقد راجع نفسه واسترجع حلمه وأناته ، والتفت الى تلميذه ملاطفاً وهو يقول : ان كنت قد تعودت مني ما رأيت وفهمت أنني لا أغضب منك ولا عليك فنحن على وفاق . ولك اذن أن تسأل ولي أن أجيبك أو أغضب كما غضبت منذ هنيهة ، ولا حرج علينا معاً في هذا ولا في ذاك . .

قال التلميذ : جزاك الله خيراً يا مولاي في غضبك ورضاك ، فما قول الأستاذ في اقتراح لا يشق عليه أن يجيبه ؟ ما قوله في رحلة بين آفاق الأرض ثم نعود الى قريته العزيزة في موعد الوفود ؟

فاعتدل أبو العلاء في مجلسه وهو يقول : أو تدعوني الى الرحلة وما فرغنا بعد من الكلام على الوطن والقبوع فيه ؟ انك لا تضيع فرصتك يا بني ، وانك لسريع الهجوم . .

فلم يحجم التلميذ ولم يتردد . بل راح يقول : ان يومك يا مولاي غير أمسك ، وان المعرة اليوم لعل مسافة ساعات من بغداد ، وان الأرض كلها لتطوى الآن في أيام معدودات . فلو لم يكن في السفر الا تجربة هذه العجبية المستحدثة في زماننا لكان ذلك شفيعي في اقتراحه وشفيح الشيخ حفظه الله في قبوله .

فطال انصات الشيخ كالمستريب المتوجس ، وخطر له أن الفتى يغرر به ولا يصدقه المقال ، ثم سأل في صوت خفيض :

ماذا تقول ؟ المعرة على مسيرة ساعات من بغداد ! والأرض كلها تطوى في أيام معدودات !؟ هل عادت المعجزات وهل رجع بساط الريح ؟ هل أصدقك والعقل أولى بتصديق ؟

قال التلميذ : ما على الشيخ الا أن يقبل الساعة وسيصدقني ويصدق العقل معاً بعد ساعات .

قال الشيخ : قبلت ، فأين بساط الريح ؟ وأين سليمان بن داود ؟

ثم مضى التلميذ يشرح للشيخ ما يريده ، والشيخ مقبل عليه ظاهر العجب من كلامه ، حتى فرغ من شرحه وهما على اتفاق أن يجوبا بقاع الأرض في مشرقها ومغربها ، وأن يشهدا الأجيال التي لم يشهدا أبو العلاء ولم يسمع بخبرها ، وأن يتعلم كلاهما من صاحبه ما عنده من علم ، ويتخذذه دليلاً له فيما يجهل . . فلا حرج من سؤال ولا حرج من جواب . . . وسنسمع ، بعد ، ما قال أبو العلاء وما قيل له في كل مكان وصلا اليه .

حكم السيف

ألم أقل لك يا بني أنني لا أملك أن أرى رأياً جديداً ولا أن أحيا حياة جديدة ؟ . .
قصارى ما يملك المرء في هذه الدنيا عمر واحد يعلم فيه كل ما قُدر له من العلم ويعمل فيه كل ما وسعه من العمل ؟ ويختبر فيه اختباره ، ويستوفي منه أحواله وأطواره . فإذا قضاه فتلك حصته من الزمن لا حصّة له بعدها ، ولا نصيب له من أعمار الدنيا وراءها .
قال الرسول : والشهرة يا أستاذنا ، أليست هي عمراً متجدداً وحصّة مزدادة ؟ . .
قال أبو العلاء : كلا يا بني الشهرة استطالة لعمر الشهير : فيها تكرار له وليس فيها تجديد لشيء منه . . ختمت حصتي من الوقت فلا تنتظر مني قولاً غير ما قلتُ ، أو رأياً غير ما رأيت . . ولو أطلعني كل يوم من دنياك هذه على جديد . .

فأحس الرسول شيئاً من خيبة الرجاء . . أو لا يسمع من أبي العلاء كلمة فيها معنى من المعاني غير ما سطرته الأوراق وفرغ منه الحافظون والشرح ؟؟ لقد كان يحسب أنه ظافر بأبي علاء جديد ، أو بطبعة منقحة من أبي العلاء القديم ، فإذا به يسمع مرة بعد مرة أن أبا العلاء هو أبو العلاء ، وأن حجاب الزمن قد هبط بعده فلا منفذ من ورائه الى علم غير ذلك العلم ، ولا الى حكمة غير تلك الحكمة . وأوشك أن يقتضب الرحلة لولا أنه استدرك وتدبر ، فعلم أن مشاهدة الدنيا في صورة علائية أمر يستحق النظر ومعرفة تستحق العرفان فانطلق يقول :

اذن يا مولاي أنا أعلم رأيك في هذه الحكومات العسكرية التي تركنا بلادها ، أو هذه الأمم التي يجرون على وتيرة لا يشذون عنها ونظام لا يهاودون فيه . . أنت تحمدها بعض الحمد لأنك تقول :

واخش الملوك وَيَاسِرْهَا بطاعتها	فالملك للأرض مثل الماطر الساني ^(١)
ان يظلموا فلهم نفع يعاش به	وكم هموك برجل أو بفرسان
وهل خلت قبل من جور ومظلمة	أرباب فارس أو أرباب غسان

وهذه الحكومات المجندة تحمي من الفوضى ولها نفع يعاش به في أزمان القلاقل ، وهي تزعم ألا حرية للناس في قديم من الزمن أو حديث ، ففي كل حكومة جور ومظلمة . والحكم هكذا يكون ، أو لا فهو فتنة وظلم مكنون . .

فأصغى أبو العلاء طويلاً . ثم قال : ولكني كما قلت هذا كذاك :

ومن شر البرية رب مُلك يريد رعيةً أن يسجدوا له !

وهؤلاء الحاكمون يقولون انهم معصومون وانهم لا يحاسبون ، وأنهم أرباب يدان لها بطاعة الساجدين الراكعين . فما أحق هذا وما أحرأه ألا يكون بين أناس يعقلون . .

قال الرسول :

الحق ما تقول مولاي ، لولا أن الرعية تحب هؤلاء الحاكمين ولا تطيعهم الا وهي راضية بما تطيع .

فلم يزد أبو العلاء على أن أعاد بيته القديم :

تلوا باطلاً وجلوا صارماً وقالوا صدقنا . فقلنا نعم

فعاد تلميذه يحاوره وكأنه ذو هوى في تعظيم مذاهب الحكم عند هؤلاء العسكريين ، وقال فيما قال :

(١) الساني : الماطر يُسني الأرض ، اي : يسقيها

ان هؤلاء القوم لا يخضعون على كره منهم ، ولكنهم يخضعون لأنهم يؤمنون إيمان
الحاكمين ويفكرون تفكيرهم ويريدون مرادهم ويفرحون بعظمتهم كأنها عظمة لهم فيها
نصيب ، وكأنهم شركاء في السيادة حين يخضعون لأولئك السادة .
قال أبو العلاء :

وما أعجبتني لابن آدم شيمة على كل حال من مسود وسائد
ذلك أدهى وأمر ، وليتهم فكروا وخالفوا وخضعوا مرغمين ، فذلك أكرم لعقل الانسان
وأدنى الى الرجاء في الخلاص ، أما أن يسلب الانسان الفكر حتى لا يفكر الا بأمر حاكميه
وعلى وفاق الهوى من رؤسائه ، فذاك آلة من الآلات وحيوان من العجاوات ، وليس
بأدمي له عقل : والعقل امام للآدميين أولى بالاتباع من كل امام .

قال أبو العلاء ذلك وزوى وجهه كأنه قطع القول وحسم الجدل ، وقال ما لا رجعة فيه
ولا مزيد عليه .

الا أن التلميذ قد طاب له أن يسترسل في النقاش والسؤال فانشى يقول : أولا تُغفر
الطاعة من الرعية حتى لو أفلح الرعاة في سياسة الأمور وشاهد الناس فلاحهم آتة بعد
أخرى ، فعلموا أنهم راشدون وأنهم لا يخطئون ، وان خطأهم آمن في عقباه من خطأ
الكثيرين ؟

فسأل أبو العلاء : من القائل :

يسوسون الأمور بغير عقل وينفذ أمرهم فيقال ساسة !

فأجاب التلميذ : كيف ؟ انك أنت قائل هذا يا مولاي !

قال أبو العلاء : ذلك فحوى كل جواب على كل سؤال من قبيل ما سألت . . فلا تنظر
يا بني الى فلاح هؤلاء الساسة حين ينفذ أمرهم ويستقر سلطانهم وتمضى مشيئتهم . بل
انظر اليهم حين يفشلون وحين يريدون فلا يقدر . . انظر اليهم يومئذ تعلم أنهم
يخطئون كما يخطيء سائر الناس وأكثر مما يخطيء سائر الناس ، بل تعلم أن الناس يرون
لهم من الخطأ يومئذ أكثر مما صنعوه وأكثر مما يستطيعونه أو استطاعوه . ولا تنس أبدا قول
الحكيم القديم :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطيء الهبل

واذكر يا بني أن هؤلاء الجيوش المجندين يتعلمون الجبن حين يتعلمون ما تحسبه شجاعة . . وان أشجعهم لن يجروا على كلمة يغضب بها سيده وصاحب أمره . . وما بقي بعد ذلك من اقدام على القتال أو الشجار ، فهو اقدام اضطرار ، أو اقدام مخمور بحمياً الضجيج والفخار . .

وما أبرئ نفسي يا بني . لقد عرفت هذا الجبن وقلت فيه :

لجأت الى السكوت من التلاحي كما لجأ الجبان الى الفرار
ويجمع مني الشفتين صمتي وأبخل في المحافل بافتراضي

هؤلاء كلهم يا بني فارّون من المنطق والكلام ، جنباء يهربون من الميدان الى السميت الذي تدعوه طاعة أو تدعوه شجاعة ، وما هو من الطاعة والشجاعة الا كالرجل وصورته في المرأة .

قال التلميذ : واجمال ذلك كله في كلمة واحدة يا مولاي .

قال أبو العلاء : اجمال ذلك كله يا بني في بيت واحد ، وهو :

ساس الأنعام شياطين مسلطة في كل أرض من الوالين شيطان

وانفض بذلك الجسدال بين الشيخ وتلميذه ، وهما قافلان من بلاد الحاكمين العسكريين . .

المستشرقون

هؤلاء الذين استغربت أمرهم يا مولاي ، هم من سميناهم نحن بالمستشرقين ! وهم أناس لم يسمع بهم الأستاذ لأنهم نشأوا أول نشأتهم في عصره ، فكان أقدمهم يتعلم العربية والحكمة على عرب المغرب يوم كان الأستاذ يعلى دروسه القيمة في المعرة قبل عشرة قرون ، وكانوا قسيسين ورهباناً يدرسون علوم العرب ليفقهوا أسرار القرآن ويستعدوا لها بالحجة والبرهان ، ثم شاع أمر الدولة المسيحية وأمر الخلاف على الأناجيل بين حبرها الأعظم ومن خرجوا عليه واعتزلوه . . فمن ثم كثرت طوائفهم في بلاد الجرمان ولا يزالون أكثر ما يكونون بين هؤلاء القوم ، ولا سيما وهم قوم مشغوفون باللغات والبحث في الأصول واللهجات . فهذا علة ما استغربه الأستاذ من شيوع الاستعراب هنا حيث نحن الآن مقيمون ، وأنهم من أجل هذا يحومون حول هذا الورد ويغتنمون هذه السانحة ، ولا يريدون أن يعبر بهم حكيم المعرة دون أن يوسعوه حفاوة وسؤالاً ويتخذوا من كلامه بياناً يعتصمون به ودعاية يدعون إليها . فان شاء الأستاذ أن يصابرهم ويستقصي خبرهم فله الرأي الأعلى فيما يشاء . . . »

ذلك كان حديث التلميذ لأستاذه بعد رحلة ليست بالقصيرة قضياها في بلاد الجرمان ، ولقيا فيها فئات من المستشرقين سمعوا برهين المحبسين فزاروه واستزاروه ، وسألوه وأجابوه ، وعجب أبو العلاء من شأنهم في بلاد الغرب فسأل تلميذه عنهم على سبيل الاستطلاع أو على سبيل القصاص ، لكثرة ما أطال عليه من سؤال ، وكثرة ما التمس عنده من فائدة ، وكثرة ما كلفه من تجوال .

فلما أنبأه التلميذ نبأهم قال أبو العلاء :

استعجم العرب في المواسي بعدك واستعرب النبيط
ثم قال :

أين امرؤ القيس والعداري اذ مال من تحته الغبيط
وجعل يردد : أين ؟ أين ؟
ثم عاد يقول : هيهات ! هيهات !

هذه فئة عهدنا لها أشباهاً بين رهبان زماننا ، يدرسون العلم دراسة رهبان ولا يزالون رهباناً في كل ما يدرسون . فهم يحجون الى العلم من طريق الدين ، وقلما يعرفون العربية الا بلسان أعجم ونفوس أشد عجمة ، وأقربهم الى البصر بها من كان للعلم قصده وكانت له في لغة قومه قدم ، وهم جامعون ومحيطون ، دأبهم كدأب كل محيط يقف عند الأطراف ولا ينفذ منها الى القلب ، ولهم على ذلك ما استحقوا من جزاء ، وثناء

ثم قال : ومن هؤلاء الذين تسألني أو تأمرني أن ألقاهم الساعة ؟
قال التلميذ : أستغفر الله يا مولاي ، فالأمر والرأي لك ، وانما هو اقتراح أو رجاء ، وأنت ما ترضاه من قبول أو اباء . .

هؤلاء الصحفيون يسألون ، وقد عرفت طريقتهم في السؤال ، فان أذنت لقيتهم جميعاً مرة واحدة وأفضيت لهم بخبر ما هم مستخبرون ، فلا نجاة منهم قبل أن نرحل من هذه الديار .

فاستسلم أبو العلاء ، وأوماً قائلًا : علي بهم مجتمعين ! فما أتمها حتى كان واحد منهم على الباب ، وكان يتلو خطاباً قد استظهره وتصنع لالقائه ، وجاء منه بعد كلام طويل :

« اننا نستقبل منك في بلاد الجرمان رجلاً من أهل الشمال وان كان مولده في الجنوب ، وعقلاً من عقول الآريين وان كان منسوباً الى الساميين ، وشاهداً جديداً على صدق علم الأجناس الذي كشف لنا حقيقة النبوغ ودخيلة المزاي والأخلاق بين الشعوب . فلا فضل ولا عبقرية ولا ارتقاء في الآداب والفنون ، ولا في العقائد والأخلاق الا أن يكون مردها جميعاً الى أبناء الشمال ، وان خفيت مصادر النسب واختلفت مواقع الميلاد . .

ولولم تكن أيها الرجل العظيم من سلالة الآريين لما اتصل الروح بينك وبين الهند

فرايت ما رآه البوذيون وحرمت ما يحرمون ، وأبحت ما يبيحون ، فأنت الناهي عن أكل
الحيوان وجناه حيث تقول :

تق الله حتى في جنى النحل فما جمعت الا لأنفسها النحل

وأنت الناصح باحراق الموتى وان عجبت منه حيث تقول :

وذاك أروح من طول التباريح	فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم
تسرى اليه ولا خفي ^(١) وتطريح	ان حرقوه فما يخشون من ضبع
غباً وأذهب للنكراء والريح	والنار أطيب من كافور ميتنا

وأنت المنكر كل ما ذهب اليه البشر الا مذهب الهند حيث تقول :

وغسل الوجوه ببول البقر	عجبت لكسرى وأشياعه
م ويظلم حياً ولا ينتصر	وقول النصراني إله يضا
رشاش الدماء وريح القتر ^(٢)	وقول اليهود إله يجب
د لرمي الجمار ولثم الحجر	وقوم أتوا من أقاصي البلا
أيعمى عن الحق كل البشر؟!	فوا عجباً من مقالاتهم

ولاح على الرجل أنه منطلق في تحيته الى غير نهاية . . . فلم يمهله أبو العلاء حتى يأتي
على شواهد وأمثاله ويستطرد الى نتائجه وغاياته . ومال الى تلميذه ورسوله يقول وكأنه
يساره : أين يذهب عن هذا الثرثرة قولي : « وغسل الوجوه ببول البقر » ؟ أليس لأهل
الهند فيه نصيب ؟ ثم قاطع الصحفي الخطيب قائلاً :

ماذا تعني بساميين وآريين وأهل شمال وأهل جنوب ؟

فأسرع التلميذ يجيبه قبل اجابة الصحفي : « انهم يا مولاي يعتقدون اليوم في بلاد
الجرمان أن البشر جنسان : جنس مخلوق للسيادة والحكم ، وجنس مخلوق للطاعة
والتسخير ، وان أهل السيادة منبتهم في الشمال ثم انحدروا منه الى الهند ، فهم المعروفون
بالهنديين الآريين ، وأن أهل الطاعة والتسخير منبتهم في الجنوب فهم الساميون أثناء سام

(١) خفي الشيء اظهره وهو هنا يعني النباش

(٢) رائحة العظم المحروق

أو الحاميون أبناء حام ، ومن شاكلهم في السحنة والسواد ، وأنه ما من نابغ عظيم الا وهو
مردود الى أهل الشمال في معدنه وعنصره القريب ، وان ظهر بين أبناء الجنوب . . ولعل
شبهتهم في انتائك الى الشماليين يا مولاي : انك مولود على مدرجة الصقالبة والروم . . »

فانتفض أبو العلاء انتفاضة العربي المسبوب في نسبه وصاح بالتلميذ : ويح الرجل !
ماذا عساه أن يريد مني بعد هذا التخليط ؟ قل له ان كان لا يسمع مني . . قل له أنا
القائل :

لا يفخرن الهاشمي على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر

وذلك حسبه من جواب .

ثم هجم صحفي آخر يبدو عليه الاغتياب بما سمع من زجر زميله ، وأقبل يقول : تحية
الاخوان الى العربي العظيم : أنا ابن من أبناء سام .

فهم أبو العلاء بالنهوض وهو يكاتم السخط والضجر ، وقال : أما فرغنا بعد من سام
ونحام ؟ من هذا يا بني ؟ وهو يوجه السؤال الى التلميذ الحائر بين أستاذه وبين طلاب
الزيارة والسؤال ، من صحفيين ومستشرقين ومستطلعين ، فبادر الصحفي الآخر الى
جواب أبي العلاء ، وتلطف في تسكين غضبه والترفيه من ضجره ، وأنبأه أنه من أبناء
اسرائيل ، وأنهم والعرب أبناء عمومة ، وأنه يريد منه كلمة الفصل في خصومة الآريين
والساميين ، وأنها قلما تنفع في بلاد الجرمان وقلما يحسر على نشرها بينهم أو نشر كلام يخالف
ما يروجونه من أقوالهم ، ولكنه يبعث بها خفية الى أناس يذيعونها في الخافقين ، ويعتزون
بها في خصومة الجنسين ، وفي كل خصومة بين طرفين ، أحدهما آل اسرائيل !

وهنا أدركت أبا العلاء فكاهته المطبوعة وسخره من (تراحم الأضداد) على قديم
الأجداد ، أو على ميراث المال والعتاد ، وهم يلهجون بميراث الآباء والأولاد ، وقال وقد
تهياً للمسير وتلميذه يعتذر بموعد القطار وشك الرحلة وخوف التأخير :

(يا أخي : تلك خصومة لا يفصل فيها غير الله ! أنتم شعب الله المختار في القديم
والجرمان شعب الله المختار في الحديث ، فاسألوه ولا تسألوني أيكما صاحب الخطوة
الآن ؟)

مع المشيعين

هبطت السكينة على نفس أبي العلاء .

وقيل له : انك في أمان ، ليس لأحد عليك من سلطان ، وانك عن قيل فيهم « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . خرجت من العالم الفاني فلا تمتد اليك يد ولا ينالك أحد من الناس بعدوان . فقل ما بدا لك من رأي ، ولا تطل همسك ان نطقت بالحق ولا ترفع رأسك ان نطقت بالمحال . أنت اليوم غيرك بالأمس : أنت اليوم من الخالدين !

وانما قيل له ذلك لأنه صارح بعض الجرمان وهو في بلادهم بمذهبه في اختلاف الأجناس وتفاوت الأقوام ، فشتجبهو وهموا أن يبطشوا به على تخوم بلادهم ، لولا أن ردتهم عنه هذه الحصانة التي لا حصانة مثلها للمجالس النيابية ولا للهيئات الوزارية . . وهي حصانة الخلود .

لهذا كان مسلكه مع جماعة المشيعين أو الشيوعيين حين نزل بأرضهم غير مسلكه المعهود من التقية والمداراة والصمت والفرار ، فقال ما أراد أن يقول ، ولم يعبا منهم بزجرة ولا صخب ولا وعيد .

وقف رفيق من رفقائهم يخطب في حفل جمعوه للترحيب بأبي العلاء ، أو للشيوعي العربي القديم كما أسموه ، فقال بعد اسهاب وترديد :

« هذا أيها الرفاق رجل منا قد سبقنا بكل رأي من آرائنا وكل دعوة من دعواتنا : فنحن ننكر التفاوت في قسمة الأرزاق وهو ينكره في كل صورة من صورته ، وكل منحى من مناحيه ، فيقول عن التفاوت بين العاملين وأصحاب الأموال :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتة فقير معرّى أو أمير مدوج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج
ويقول عن التفاوت بين الشاب الفقير وهو أولى بالمال وبين الشيخ الموسر وهو مدبر عن
الحياة :

يعيش الفتى في عدمه عيش راغب ويثرى مسنٌ للمعيشة سائم
ونحن ندعو الى التآزر الاجتماعي والتكافل بين العاملين في الأمة ، وهو قد نادى بذلك
من قبل فقال :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم
ونادى بخدمة الحاكمين للرعية فقال :
إذا ما تبينّا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم
وقال :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها ، وهم أجراؤها
واستطرد الى أبعد من هذا في التكافل بين أعضاء المجتمع الانساني فقال :
وكل عضو لأمر ما يمارسه لا مشي للكف ، بل تمشي بك القدم
بل استطرد الى أبعد من هذا المساواة فقال :

ان شقاً يلوح في باطن البرِّ قسّم بيني وبين الضعيف
ولقد بينا نحن للناس أن الآداب والعقائد انما هي مصالح الطبقة الحاكمة تصوغها على
هواها لتدعم سلطانها والغلبة على من دونها ، وهذا الحكيم العربي قد بين ذلك حق بيانه
حين قال :

انما هذه المذاهب أسبا ب لجلب الدنيا الى الرؤساء
وحين قال في اظهار سطوة المال وقدرته على تحويل الآداب وتحويل الحقوق :
المال يسكت عن حق وينطق في بطل ، وتجمع اكراماً له الشيع

وجزية القوم صدت عنهم ، فغدت مساجد القوم مقروناً بها البيع

ونحن بشرنا بدين العقل ، وهو مبشر به في قوله :

سأتبع من يدعو الى الخير جاهداً وأخرج منها ما امامي سوى عقلي

ومثل ذلك قوله وهو يسير من كثير :

كذب الظن لا امام سوى العقل مقيماً في صبحه والمساء

بل نحن قررنا تفسير التاريخ « تفسيراً مادياً » كما سميناه وهو قد أشار الى ذلك فقال :

الناس للأرض أتباع اذا بخلت ضنوا وان هي جادت مرة جادوا

وألمع الى ذلك مرة اخرى في هذا البيت على سبيل الرواية :

قالوا البرية فوضى لا حساب لها وانما هي مثل النبت والشجر

وزاده توضيحاً وتقريراً حيث قال :

لم تجذبوا لقبيح من فعالكم ولم يحكم لحسن التوبة المطر

ولا أبالغ اذا قلت انه ذكر الاشتراكية بلفظها في اللغة العربية بيت من أبياته العامرة يقول فيه :

لو كان لي أو لغيري قدر أغله من البسيطة خلت الأمر مشتركاً

وأنه قد أنحى على طبقات الفضوليين المتطفلين على المجتمع الانساني بغير عمل ينفعونه به حيث قال :

ويعجبني دأب الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

وأطيب منهم مطعماً في حياته سعاة حلال بين غاد ورائح

فهو يأنف من التطفل الاجتماعي أيا كان المتطفلون ولا يبيع القوت الا لمن يكسبونه ويستحقونه ، وهو قد فرق في قصائده ما اجتمع من مبادئ المذهب الاشتراكي في كتب الاساطين ومباحث الدعاة العلميين ، وتلك مرتبة ترفعه على أبناء عصره درجات ، وتجعله من أئمة الفكر في تاريخ الاصلاح بين الاقدمين والمحدثين . .

ثم اقترح الخطيب على سامعيه أن يقفوا جميعاً ليشربوا نخب الشاعر الذي جمع من مبادئهم في منظوماته ومثوراته ما لم يجتمع قط في كلام أحد من الشعراء . .

فنهضوا جميعاً وشربوا أقداحهم وقوفاً ، ثم جلسوا يترقبون وقفة الشيخ بينهم ليجيب على التحية والتكريم ويجيب على بحث الخطيب بجديد من مقاله أو قديم ، والشيخ لا يعلم أنه مطالب بالوقوف أو مطالب بالتعقيب ، حتى نبهه الرسول الذي يصاحبه في كل مكان الى ما يترقبه القوم ، ثم أخذ بيده الى المنصة فنزل الصمت على الحاضرين ، وانقضت هنيئة لم يسمع بعدها الا شيخ المعرة وهو يقول بصوت رقيق ولكنه ليس بالضعيف :

. . . أنتم مشكورون على جميل ثنائكم واحتفائكم بهذا العاجز المائل بين أيديكم .
لكنه حائر في موقفه هذا لا يدري ما تبغونه بمذهب الاشتراكيين أو بمذهب التفسير المادي للتاريخ ، فأما قوله :

لو كان لي أو لغيري قدر أثملة من البسيطة الأمر مشتركاً
فإنما يعني به التوحيد الإلهي ويريد به أن الناس أغنياءهم وفقراءهم على حد سواء لا يملكون في جانب الله أرضاً ولا يستعبدون أحداً ، وهو من قوله
ويقول داري من يقول ، وأعبدني مه : فالعبيد لربها والدار
أو هو من قوله :

ما في بني آدم من غني	فكلهم	مقتر	عديم
يغنى الذي ماله فناء	وذلك	الواحد	القديم

أو هو من قوله :

فقير كل من في الأر ض ؛ ان العبد لا يملك
أو هو من قوله :

إله الأنام ورب الغما م لنا الفقر دونك والملك لك
فما أدري من أين تسربت « الاشتراكية » الى معناه كما تصفونها فيما سمعت من خطب وقرأت من بحوث وشروح .

ما أردت الا الرفق بالناس ، بل ما أردت الا الرفق بجميع الأحياء . . . فكنت أوصي السيد أن يرفق بعبده . وأقول له :

إذا كسر العبد الاناء فعده أذاة له ، ان الاناء الى كسر
وكنت أوصي العبد والفقير أن يرفقا بالبهيمة الخرساء . ويريني منها ما قلت انه
يريني :

لقد رابني مغدى الفقير بجهله على العير ضرباً . ساء ما يتقلد
وما دار في خلدي يومئذ الا الزكاة يؤديها أهل السعة للمضيقيين .

إذا وهب الله لي نعمة أفدت المساكين مما وهب
جعلت لهم عشر سقي الغما م وأعطيتهم ربع عشر الذهب
وكنت أعجب :

كيف لا يشرك المضيقيين في النعمة قوم عليهم النعماء
وأوصي بما وصى به دين الحنيفة :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم لما رأيت بني الاعداء شاكينا
أما أن يأتي زمان ينقطع فيه الفقر ويبطل فيه الغنى وتؤول فيه السيادة الى العاملين
المستضعفين على سنة التساوي وشرعة المزاملة فذلك ما أنبأ به بعض المنبئين في زماننا فقلت
راوياً ومجيباً :

يقال أن سوف يأتي بعدنا عصرٌ يرضى ، فتضبط أسد الغاسة الخطم^(١)
هيهات هيهات . هذا منطوق كذب في كل صقر زمان كائن قطع^(٢)
ما دام في الفلك المريخ أو زحل فلا يزال عباب الشر يلتطم

يلتطم وأقولها اليوم مرات : هيهات هيهات ! وما أنتم فيه مصدق لما أقول ، وإن

(١) جمع حطام وهو ما يوضع في أنف البعير ليقاده به .

(٢) الفطم : اشتواء اللحم .

أعجبكم أن تسمعوا مني خلاف المعقول والمنقول . وأين لومي الرؤساء على اتخاذهم المذاهب أسباباً لجلب الدنيا اليهم من قولكم ان المذاهب لا ينبغي أن تكون الا كذاك ؟ انما أقول على سبيل الانكار وأنتم تقولون على سبيل الاقرار ، وشتان ما أردتم وما أريد .

بل ما لكم لا تدعون أنني ناديت بمذهب الفوضى حين قلت :

ان أكلتم فضلاً وأنفقتم فضـم
لا تولوا أموركم أيدي النا س اذا رُدَّت الأمور اليكم

وما ناديت بالفوضى ولكني أردت اتقاء الوالين بالعفة والزهادة .

قال المعري ذلك وكأنما كان متجلياً عليه في تلك الساعة قوله :

ان عذَّب المين بأفواهكم فان صدقي بفمي أعذب

ولم يكن متجلياً عليه قوله انه يفر بالصمت في المحال . .

أما ما حدث من أثر هذا الجواب في نفوس السامعين من معاصر الشيوعيين فغني عن السرد والافاضة ، وحسبك منه صيحة الرسول في أذن الحكيم : كفى كفى أيها الأستاذ الرحيم . ! فانك ان كنت على نجوة في حصانة الخلود ، فما أنا بين القوم من الناجين !

في بلاد الشمال

خرج المعري وتلميذه من أرض الشيوعيين وهما يلعبان الديار والديارين وأصبح التلميذ ولا همّ له بعد افلاته من برائن القوم الا الوصاة بالتقية والمحاذرة ، قائلاً ومعيداً ما قال : مولانا الشيخ ! انك في حرز من ضيم الأقوياء ، وأمان من سطوة أبناء الفناء . أما تلميذك ومريدك فلا حرز له منهم ولا قوة له معهم ، ولا أمان أن يبطشوا به بطشة واحدة ، فاذا أنت يا مولاي قد فقدته في منتصف الطريق . وكان الشيخ يداعبه فيظهر الاصرار على المناقشة والمناوشة ويردد ما أنشد في سابق أيامه بدار الفناء :

ان عذب المين بأفواهكم فان صدقي بقمي أعذب
قائلاً : يا بني ! ما أنا بصاحب الرحلة بل أنت . . فاصبر على بلائك واحتمل عاقبة رأيك . فينتفض التلميذ خوفاً وحيرة ويعيد الوصاة والرجاء ، مناشداً مولاه الرحمة التي أرادها لبني الانسان وبني الحيوان .

فلما أطال التلميذ في وصاته قال الشيخ : ما بالك يا هذا تخاف وتوصي وتلحف في

الوصاة ؟ ألعلك ذاهب بنا الى معشر من الناس كأولئك الذين كنا بينهم ؟ ان كان ذاك فعد بنا الى المعرة واختصر بنا مسافة هذه السياحة ، فلا طاقة لي بسخافة قوم آخرين كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الشيوعيين ولا بسخافة قوم كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الطغاة العسكريين .

قال التلميذ : كلا يا مولاي الجليل . ما الى هذه البلاد وأمثالها نرحل وانما أخاف ما ليس

في الحسبان . . انما رحلتنا بعد اليوم الى اقوام يحجرون على المقال حجر أولئك الأقوام ، ولا يقسرون الناس على رأي واحد وضمير واحد ، ولكنهم يقولون ما يشاءون ويفكرون كما يشاءون : فان خامرني الخوف ونحن مقبلون عليهم فذلك يا مولاي خوف الحبل بعد خوف الثعبان . .

وطالت الرحلة في تلك البلاد بلاد الشمال ، وتقلب المعري وتلميذه بين أهل النرويج وأهل السويد وسائر تلك الأنحاء ، فحمداً كثيراً من الأحوال ، وشهداً غامطاً من الحكم والعلم لم يشهداها في البلدان الغربية كافة ، فطاب السرى وطاب المقام . .

ونزلاً آخر المطاف ببلاد الدانين أو الدنمركيين ، فهما الآن في مدرسة جامعة دعي إليها حكيم المعرة بأمر من ملك البلاد ووزرائها ، على عادة القوم في اغتنام كل فائدة وتسجيل كل شاردة وواردة ، ليسألوا الشيخ ويستطلعوا طلعه ، ويساجلوه القول ويظفروا بما شاء من جواب .

قال طالب علم : أياذن الشيخ في سؤال عن حكومة ذلك المعشر الذين كان بينهم قبل أن يرحل الى أقطار الشمال ، وأعني بهم معشر الشيوعيين ؟

قال الشيخ : تلك حكومة كلها ظواهر تخفي ما دونها من البواطن ، كاتبها يفعل فيها ما يريد ، ولو جرى أمرها على القول الصراح لما كان لهذا الكاتب من صولجان ، الا القلم والقرطاس .

فعاد الطالب يسأل : أو ليس الأمر بين ذلك الكاتب وزملائه على سنة الشورى والمساواة ؟

قامتعض الشيخ وأدرك الطالب بالجواب قبل أن يسترسل في السؤال : مه يا بني مه ! أي شورى واية مساواة ؟ لقد سمعنا بعضهم يلوم من يخاطب ذلك الكاتب بكاف الخطاب كما يخاطب سائر الناس ! أعندك يا صاحبي قصيدة شاعر القازاق الذي أنشده مديحه ونحن هناك ؟ قال الشيخ هذا والتفت الى التلميذ الرسول ، فوقف التلميذ الرسول ماثلاً على المنصة وقال : نعم يا مولاي ! . . ثم مضى ينشد قصيداً يقول فيه ناظمه :

« هل أشبهك بالأنبياء ؟ كلا فبعض الأنبياء يكذبون .

« هل أشبهك بالبحر المحيط ؟ كلا ! ففي البحر المحيط صخور يتصدع عليها السفين . .

« هل أشبهك بالجبال ؟ كلا ! فما من جبل الا وقمته في مرأى العيون .
« هل أشبهك بالقمر ؟ .. كلا ! .. فالقمر لا يضيء الا في لياليه . .
« هل أشبهك بالشمس ؟ كلا ! فالشمس انما تشرق في يوم صحولا غمام فيه » . .

وفرغ التلميذ الرسول من انشاده فعاد المعري يقول لطالب العلم الذي سألته ذلك السؤال : أو سمعتم أعجب من هذا الدهان في مديح عاهل أو سلطان ؟ ما أخالكم سمعتموه ، وما أخالكم تذكرون في الملوك ملكاً واحداً كان له من الأمر النافذ في الرقاب والأذهان ، ما يأمر به كاتب الشيوعيين فيطاع . .

وسأل سائل : أولم ينصفوا الأجراء من أصحاب الثراء ؟

قال المعري : لا يا بني . إنهم ظلموا أصحاب الثراء ولم ينصفوا الأجراء ، ولقد أخذوا المال من ذويه ثم أفرغوه في مصانع الدولة ، وما الفرق بين مال في أيدي التجار ومال في أيدي الولاة ؟

ورجع السائل الى سؤال لاحق بما تقدم فقال : لكنهم على ما يقولون قد عدلوا في الأجور بين العاملين فأجر اليوم واحد لا اختلاف فيه .

قال المعري : أجر اليوم واحد لا خلاف فيه ولكن العامل المحظوظ عندهم قد يعطى عدة أجور ، فهي مساواة من ناحية واختلاف من عدة أنحاء .

وفرغ السائلون عن معاشر الشيوعيين فنهض السائلون عن أمم الشمال .

قال طالب علم : أعل الأستاذ قد حمد من قومنا ما ليس يحمده من أولئك الأقوام ؟ . .

قال المعري : نعم ولا أداجيك يا بني . . . فقد رأيت أنكم أبعد الناس عن مداجاة ، وإن بقيت منها أثارة في جميع بني حواء .

قال الطالب : وماذا حمد الأستاذ مما شهد فينا ؟

قال المعري وهو يوجز في جوابه : حمدي منكم يا بني تجارتكم التي بنيتموها على التعاون بين البائعين والشارين ، فما منكم الا من يأخذ كفايته ويعطي كفاية الآخرين ، ولا ربح لأحد منكم خاصة ، بل أنتم جميعاً رابحون ، لأنكم بائعون شارون .

ذلك يا بني سبيل قوام بين احتكار المحتكرين وبين اشتراك الشيوعيين ، فاذا اهتدى اليه الناس جميعاً فلعلهم يستريحون من تفريط هؤلاء ومن إفراط هؤلاء . .

وحدث منكم يا بني أنكم لا تفتحون البلدان ولا تقتحمون الأسواق ، وأنتم مع هذا غائون رائجون ، لكل سلعة من أرضكم طالب غير مغبون .

وحدث منكم يا بني تعليم الفقير وتعليم الضعيف ، فما من طفل بينكم الا وله مدرسته وله معلموه ، وان أهمله أناس في بلاد أخرى لضعف فيه أو لقصور ظاهر عليه . .

وحدث منكم نظافة وصحة ورخاء تعم الأكثرين ولا يحرمها الا القليل .

وحدث منكم رعاية الشيخ الكسير ، فلا يُقلى عندكم ولا تبخلون عليه بالرزق الكفاف . .

وحدث منكم - وعرشكم أعرق العروش في أرض المغرب الحديث - تواضعاً في الملك لا يرى من أحدث العروش .

حدث منكم هذا كله فهل هو كثير أو يسير ؟

فصاحوا جميعاً : بل هو كثير كثير ، من الشيخ الكبير .

قال المعري وهو يتسم : أفتأذنون لي - بعد - أن أحمد منكم شيئاً آخر فوق ما حدث ؟
أتأذنون لي أن أحمد منكم الايجاز في السؤال والقصد في المقال ؟

فكان سكوت ، وكان ضحك ودعاء ، وكان ذلك جواب الشيخ الكبير من سائليه . .

جرّ الذبول

قال أبو العلاء : ما كنت أحسب أن سأرى هذا يوم قلت في مساوىء ذرية البنات :

وان تُعط البنات فأى بؤس	تبين في وجوه مقسمات
يُردن بعولة ويُردن حلياً	ويلقن الخطوب ملوّمات
ولسن مدافعات يوم حرب	ولا في غارة متغشّات !

فها نحن أولاء في أرض أندلس نراهنّ مدافعات يوم حرب ، ومتغشّات في غارة . . .
بل غارات . .

كنا نسمع عن هذه الأرض - أرض أندلس - فنحضر في اخلاطنا الجنة وحورها
ونعيمها ، فاليوم نشهدها شهادة القرب فاذا هي جحيم مسجور ، واذا بالخور فيها زبانية
يقذفون بالشرر ويتقلدون السيوف . . . ما أعجب ما تُريني يا بني ! وما أعجب الظباء
يقطعن بأظافر النمورة وينهشن بانياب الذئاب . .

قال التلميذ : أو حق يا مولاي انه عجيب ؟ ألم يقل به أفلاطون في الحكمة القديمة ؟
حسبت يا مولاي أنك على ذكر مما قال حكيم يونان ومعلم أرسطاليس ! . .

فتأوه الشيخ في استذكار طويل ثم قال لتلميذه : ما سمعت بهذا من كلام يونان
وحكمائها . فلعل من عجائب زمانكم أن يكون هذا الزمان أقرب الى أفلاطون من زماننا
نحن السابقين الأقدمين . . . ماذا قال معلم أرسطاليس في حرب النساء أصلحك
الله ؟ . .

فترجم له التلميذ كلمة من قوانين أفلاطون ، يقول فيها :

« على البنات أن يتعلمن صناعة الحرب بأجمعها ، وعلى النساء أن يعالجن الرياضة ونظام الجيوش واستخدام السلاح ، ليستطعن - بين أسباب شتى - أن يحرسن ديارهن وأطفالهن حين يندب الرجال للحرب في أرض بعيدة ، وقد يقتحم البلاد جيش مغير كما يتفق في كثير من الأجيال ، فيكون خزاناً للدولة أن يبلغ من جهل النساء بفنون الحرب أن يعجزن عن القتال والاستماتة في الذود عن الاطفال . وألا يكون لهن من عمل في هذه الغارة الا أن يهرعن ناحبات ناجيات الى الهياكل والمحاريب ! » .

فأوشك أبو العلاء أن يؤمن بصدق ما قال الفيلسوف ، ونزعت فيه نوازع العقل مرة فكادت أن تطغى على نوازع الطبع والعادة ، لولا أن غلبته النحيظة العربية وغلبه تراث الشرق العريق فالتفت الى تلميذه منشداً :

وحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلّمات !
نعم وأولى من الحديد والنار . .

ثم استرسل منشداً :

إن من أكبر الكبائر عندي قتل حوراء غادة عطبول
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول

ذلك يا بني حكم ابن أبي ربيعة ، وهو أولى بالحكم في هذه القضية من معلم يونان . .
أكثر يا بني أصحاب هذا الرأي في زمانكم الحديث ؟

فأجابه التلميذ وقد لبس لبوس الأستاذ هذه المرة : هم غير قليلين في المغرب والشرق . .
فمنهم في أرض الصقالبة ومنهم في أرض الصين وما وراءها وكل من يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة خليق أن يرى ما رآه هؤلاء . فما بال المرأة لا تحارب والحرب اليوم آلات تدار أسهل من ادارة المغزل ومن شكة الابرة في الثياب ؟

قال الشيخ : هي صناعة قتل سهلت أو صعبت ، فما لكم لا تتركون للمرأة صناعة الولادة وتدعون صناعة القتل لغيرها كما قال أخو مخزوم ؟ وما لكم لا تجعلون جيشها كله على مثال تلك الجيوش التي حدثتني أنهم يحشدونها في بعض البلاد ، لتقويم الأبدان

والصولة ببأس الجمال ؟
فأسرع التلميذ يقول : لعلها الضرورة يا مولاي ! لعل المقاتلين لا يستغنون عن مدد من النساء اذا قلّ الرجال ..

فأدركه الشيخ قائلاً : بل اذا قلّت الرجولة وأصبحت الحرب وليست هي من الفروسة ولا من البطولة .. ما أحسب الآفة عندكم ان النساء أصبحن كالرجال ، وانما الآفة فيما أخال أن الرجال أصبحوا كالنساء ، فلا حرج اذن من المساواة في القتال !

ثم سأل الشيخ : ما هذا الغرام بالحرب في كل شعب من شعوبكم حتى استنفدت رجالكم وجارت على نساكنكم ، واستنفدت سلاحكم وجارت على أدوات السلم في أيديكم ؟ ما هذه الحاجة الملحة الى ازهاق الأرواح وتمزيق الأبدان ؟ أهى فرط كراهة منكم للحياة أم هي فرط خوف من المنية ؟ أم أنتم مدفوعون الى حيث لا تعلمون وأنتم تحسبون أنكم تعلمون ؟

وكأنما خشي التلميذ أن يحاسبه الحكيم على سيئات عصره ، وأن يسأله في هذا سؤال المتهم عن وزره ، فأجابه وهو لا يفقه ما يعنيه :

عن هذا أسألك أيها الحكيم العليم !! فهي معضلة من معضلات الزمن الأخير نسال عنها وليس لها من مجيب ! ..

فشك الشيخ غير قليل . وغاب عن صاحبه في تأمل طويل ، وكأنما أفاق من غيبوبة علوية حين أقبل يقول :

« انما الحرب يا بنى حيلة من ليست له حيلة ، يقدم عليها من يأمن شرها أو من يخاف جميع الشرور فلا يبقى له ما يأمن .. وانما يستमित في الخصومة من يخاصم الأقدار وان حسب انه مخاصم اخوانه من بني الانسان : انما يستमित في خصومته من يطلب الدوام لشيء لا يمكن دوامه أو يطلب التبديل لشيء لا يمكن تبديله ، فهم يحاربون القدر ولا يحاربون أبناء آدم ومن حارب القدر يا بني لم يحاربه بنصف عزمه ولا بنصف سلاحه ولا بنصف رأيه : من حارب القدر فأيسر جهده أن يستجمع ، وأن يستमित ، وأن يخسر في الجانبين وينهزم في الصفيين .

وهؤلاء أبناء أندلس يريد فريق أن يعيد أمس ، ويريد فريق أن يستعجل الغيب ، وليس هذا ولا ذاك في يد انسان ، ولو كان في يد انسان لكان ، ولم يستعر بينهم كل هذا الشنآن.

قال التلميذ: ألا دواء لهذا الشنآن بين الفريقين؟ قال الحكيم: حتى يفقد كلاهما كل قوته ، أو يفقد كلاهما نصف اعتقاده . فاذا انقسم السيف الأخير في أيدي هؤلاء وهؤلاء فهناك رجاء في سلام ! . . وإذا شك كلاهما في حقه واعتقد أن نصف الحق معه ونصف الحق مع خصمه فهناك رجاء في سلام . . . أما وهناك بقية من قوة في الصفيين ، وإيمان بالحق الكامل في الجانبين فلا سلام ولا رجاء فيه ! .

قال التلميذ وكأنه يمزح :

أولا يسفر الشيخ بينهما ليظهر لكليهما نصف باطله ونصف الحق عند خصومه ؟ . .
فقطن أبو العلاء لموضع المزاح من كلامه وتمتم بين شفتيه :

بعثت شفيعاً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحما م وأسمع منه زئير الأسد
ولأفسد من ذاك أن أذهب شفيعاً في حرب الأقدار ، وسفيراً بين الأعصار والنار . . .

المرأة

نشط الشيخ في ذلك اليوم للبحث والمساجلة ، فأقبل على تلميذه يسأله : ألا تحدثني يا بني عن تلك الفلسفات التي ذكرت لي أنهم يدورون بها حول المرأة في الغرب الحديث ، وفي زمانكم هذا الأخير ؟ فقد أنبأتني بالقليل منها يوم حدثتك برأيي في جنديات الأندلس المقاتلات ، وقد لاح لي مما أنبأت أن فلسفات القوم في هذا المجال تشتمل على كثير ، وإن آراءهم اليوم توشك أن تنصرف كلها الى فلسفة الزواج وفلسفة العشق وفلسفة الاباحة وما شاكل ذلك من فلسفات . واني - كما تعلم - امرؤ قد عنيت بهذا الأمر وأفرطت في العناية به حتى لزمت الرهبانية ، فماذا يقول القوم فيه ؟ وعلام يقع الخلاف ؟ وكيف يختلفون ؟

قال التلميذ : اني لأستحي أن أقوم من الشيخ مقام الأستاذ ولو في هداية الطريق ، فكيف بالهداية في الحكمة وأقاويل الحكماء !

قال أبو العلاء : اعتبرها يا بني هداية طريق في بلد أنت به أعلم وأنا فيه غريب . فالغربة قد تكون في الزمان كما قد تكون في المكان ، وأنت صاحب الدار يا بني في زمانك ، فقل ولا غليك من مقام الأستاذ ومقام التلميذ . . ألسنت أنا القائل :

رب شيخ ظل يهديه الى سبل الحق غلام ما احتلم
فقل يا بني ولا تتحرج . وإن أبيت الا مقام التلمذة فاقنع منها اليوم بالطاعة فيما أدعوك اليه . .

فلم يسع التلميذ الا أن يجيب سؤال الشيخ ، وأنشأ يقول وهو متلعثم في المقال :

هذه الفلسفات يا مولاي كثيرة كما لاح لك من بوادر الاشارة العارضة ، فمن أصحابها من يجعل حب المرأة الحب كله ومرجع الأهواء بحذاقها . ويزعم أنه حب يضمه الطفل في طبعه وهو يرضع من ثدي أمه أو يحبو الى لعبته أو يتواثب مع ليداته ، وانه ما من خبيثة يبطنها الانسان الا ومناطها هوى من هذه الأهواء مكبوت ، ونزعة من هذه النزعات يختلف فيها التفسير والتأويل ، وقد تفصح عنها الأحلام التي ينجي بها الانسان سريره في المنام ، وان كانت المناجاة هنالك بالرموز والأشكال دون المعاني والأفكار . .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من نشأ على المذهب الأول ثم عدله ونقحه باضافة حب القوة الى حب المرأة ، أو باضافة المجد والجاه الى الشهوة والغرام . .

ومنهم من يقول ان الأخلاق ينبغي ان تختلف بين أفراد الرجال والنساء كما تختلف أنواع الغذاء ، فالتناس في حاجة الى غذاء متشابه العناصر متقارب التركيب . . وليس من طعام مع هذا هو صالح لجميع الأبدان مطلوب في جميع الأحوال ، فكذلك الأخلاق في جملتها من عمل الخير والدعوة الى الصلاح قريبة العناصر متشابهة الأوصاف ، ولكنها قد تختلف مع اختلاف المزاج كما يختلف الطعام على حسب البنية ، حتى يكون دواء لهذا ما هو سم قاتل لذاك . فليس لجميع الناس قانون واحد ولا خلق واحد ولا طعام واحد . بل ينبغي أن يحرم على أناس ما يباح لآخرين . .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو الى الاباحة لأنها حالة الطبيعة ، ومنهم من ينكر عليه هذا الزعم فيقول ان الاباحة هي أبعد الأحوال عن طبيعة الاحياء : ألا ترون الى العجباوات تمنع وتقاتل ثم تعتصم بالعفة والزهادة طوال العام ؟ ألا ترون الى قبائل الفطرة الأولى كيف تحوط العلاقة بين الرجل والمرأة بالمراسم والشعائر وكيف تحفها بالتائم والشعوزات ؟ فالطبيعة أحجى أن تكون الى جانب الامتناع والاعتصام دون الاباحة والانطلاق ، ولا سيما في غرائز الحب ودوافع الشهوات . والحضارة قد علمتنا أنه حيث تكون القيود في الحب تكون نهضة الشعوب ، وحيث تكون الاباحة في الحب يكون الركود ثم الدثور . .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو الى الاباحة لأنها الحل الصالح عنده لمشكلات الأمم في العهد الحديث . فالناس يتقاتلون لأنهم يتنافسون على المال ، والناس يتنافسون على المال لأنهم يشتركون به الشهوات والمظاهر التي هي كالأشراك لاقتناص النساء . فإذا بطلت قيود الجنسين بطل في زعمهم كل ذاك وخفت حدة الزحام والعداء وقلت بواعث الفتنة والاغراء . .

ومنهم - وقد كان رئيساً لحكومة كبيرة في دولة عظيمة - من يوصي الرجل أن يجرب كثيراً من النساء ويوصي المرأة أن تجرب كثيراً من الرجال قبل الايواء الى حرم البيت وحصن الزواج . فان الرجل والمرأة اذا قضيا الشطر الأول من الحياة في التطواف والتجوال سكنا الى الزواج وهما جانحان الى استقرار يعين على الوفاء ، وقناعة تعين على العصمة ، وأصبحا زوجين رشيدين وأبوين صالحين مدى الحياة . .

قال المعري : حسبك ! حسبك !

قال التلميذ : نعم حسبي حسبي . فقد تعبت من « دور » الأستاذ وشاقني أن أصغي اليك اصغاء التلميذ . . فخذ دورك الساعة يا مولاي وقل لنا ماذا ترى في هذه الآراء ، وماذا تقول في هذه الأقاويل .

ووجم الشيخ قليلاً ثم أنشد من كلامه القديم :

لو أن كل نفوس الناس رائية كرأي نفسي تناءت عن خزاياها
وعطّلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ثم راح يقول :

ان ما سمعته يا بني بعضه سديد ، وبعضه حق ، وبعضه هراء . .

حق ان المرأة هوى النفوس وفتنة المطامع :

والمرء ليس بزاهد في عادة لكنه يترقب الامكانا

وانها تفتن من هجر الدنيا كما تفتن من غاص في غمارها وتقلب في أوزارها . .

راحت الى القس بتقريبها وبيتها أولى بقربانها
وزارت الدير وأثوابها ضامنة فتنه رهبانها

وانها مقياس الحياة لا يعافها الا من عافته الحياة :

واذا الفتى كره الغواني واتقى مرضاً يعود وضره ما يطعم
فقد انطوت عنه الحياة ، وكاذب من قال عنه يبيت وهو منعم
يقال ان سوف يأتي بعدنا عصر يرضى ، فتضبط أسد الغابة الخطم

وانها خفية المسارب في دخائل الشهوات :

وانما الخود في مساربها كربته السم في تسربها
وانه لا يؤمن منها على صغير ولا يؤمن عليها من صغير :

اذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد
كل هذا حق وكل هذا سديد في مذهب صاحبكم الحديث وفي مذهب الحكمة القديم ،
الا أن المرأة ليست كل ما يثير النفس ويوسوس في الضمائر وينبعث مع الغواية ، وليست
كل ما رامه الرجل :

وانما رام نسوانا تزوجها بما اقتراه وأموالا تمولها
أو قل مرة أخرى :

وانما رام عزاً في معيشته أو خاف ضربة ماضي الحد قلام
أو شاء تزويج مثل الطبي معلمة للناظرين بأسوار وأعلام
ذلك قوام الرأيين ووافق الخلافين . أما الرأي في الزواج :

فلا يتزوج أخو الأربعة ين الا مجربة كهلة
على أنني أقول كما كنت أقول :

ان الأوانس أن تزور قبورها خير لها من أن يقال عرائس
واقول كما كنت أقول :

تزوج بعد واحدة ثلاثاً وقال لعرسه يكفيك ربعي

فيرضيها اذا قنعت بقوت ويرجمها اذا مالت لتبع
ومن جمع اثنتين فما توخى سبيل الحق في خمس وربع

وأقول كما كنت أقول :

خير النساء اللواتي لا يلدن لكم فان ولدن فخير النسل ما نفعنا
وأقول كما كنت أقول :

وأصبحت في الدنيا غيبنا مرزءاً فأعفيت نفسي من اذاة ومن غبن
ثم أقول كما كنت أقول :

شر النساء مشاعات غدون سدى كالأرض يحملن أولاداً مشاعينا
ولا أكتمك مع هذا أنني :

تنازعنى الى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبداً ، ولا هي
فأسرع التلميذ يمتحن الأستاذ ، ويهمس في أذنه قائلاً : « وفيم المنازعة ونحن في بلاد
الغرب والشيخ قد أفرط في الصيام » .

فقهقه الشيخ وهو يصيح به : اليك عني أيها الخبيث . . قد خرجنا من هذه المحنة
بصارعنا فيها أستاذك القديم ابليس . . والله يعلم أكتنا فيها صارعين أو مصروعين ! ذلك
سر مكتوم وحديث مختوم . . !

الحكيمان

كان آخر الخطباء في الجمع العظيم يقول :

« انها مصادفة عجيبة ولا ريب . فهل أقول انها مصادفة سعيدة ؟ اخشى أن أغضب الحكيمين المحتفى بهما اذا أنا قلت ذلك ، فليس المعري حكيم المشرق ولا شوبنهاور حكيم المغرب ممن يدينون بالسعادة ، وليس اجتماعهما اليوم في عالم الذكرى من دواعي التفاؤل والاستبشار . . فالعالم مقبل على خطوب وكروب وأهوال وحروب ، ولم يكن مذهب التشاؤم قط أدنى الى الصدق والاقناع مما كان في هذا العصر المرهوب الجوانب المحذور العواقب ، فاذا سعد الحكيمان بتحقيق ما رأياه واثبات ما قرراه وانجاز الوعيد وتقريب البعيد ، فهو اجتماع سعيد » .

غد - وهو الثاني والعشرون من شهر فبراير - هو تمام مائة وخمسين عاما مضت على مولد الامام الاكبر في مذهب التشاؤم بين الغربيين ، وهو آرثر شوبنهاور ، فما أعجب المصادفة التي جمعت بينه وبين الامام الاكبر في هذا المذهب ، عند الناطقين بالضاد ، على ملتقى ألف عام من مولده المجيد ان لم يأذن لنا ان نقول : السعيد .

« أنقول ان روح العالم في شدائده وبأسائه قد استحضر روجيهما فحضرا ، وقرب بين افقيهما فاقتربا . . انقول انها مؤاساة من عالم الخلود لعالم الشقاء والبأساء ؟ انقول انها نذيران او بشيران ؟

« على أننا نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره اذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم وان حقق لنا مخاوف المتشائمين .

فالتشاؤم - كالتفاؤل - انما يكون مع الحب والاهتمام ، او مع الظن الحسن والأمل المشوب ، تحيء خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولاً او شبيهاً بمعقول . أما اذا غلب اليأس من البداية فلا تشاؤم ولا اخلاف ظنون . .

« الذي يهجو المرأة يحبها كالذي يشني عليها ، والذي يملأه الغيظ منها كالذي يملأه الشوق اليها : كلاهما يعتد بها ويشغل بامرها ويحسب الحساب لاقبالها واعراضها . . اما الذي يلهو بها فلا شوق ولا غضب ! ولا فرح بلقائها ولا حزن لغيابها ، فليس ذلك من العشاق المدلهين ولكنه من طلاب الفراغ العابثين . .

« كذلك الحياة في زماننا قلما تتسع فيها النفس لتفاؤل او تشاؤم ، وقلما ترى فيها الا مزجياً لفراغ او لاهياً بحاضر مبتور ، لا يرجع الى ماضيه ولا يتربص عقابه . .

« كانت الحياة حليمة نحاسها على الامانة والخيانة ، وكانت في بعض اجيالها عشيقة نحاسها على العطف والمودة ، فاصبحت عندنا بنتاً من بنات الهوى لا نحاسها على شيء ولا نغار عليها من احد ، ولا ننحي عليها بلوم ولا نخصها بثناء . .

« فنحن كما قلنا : نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره اذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم . ليتنا كنا متشائمين ، وليتنا نحفل بالحياة . . ما اخالنا نخطيء اذ نقول ان تشاؤم ابي العلاء وتشاؤم زميله في الغرب سعادة بالقياس الى ما نحن فيه . »

كان هذا القائل آخر الخطباء في الجمع العظيم الذي التقى من بلاد المشرق والمغرب لتحية الحكيمين في احدى العواصم . فكان في هذه التحية تزكية للمذهب المحتفى بصاحبيه ، كما كان فيها مناقضة له وتشكيك فيه ، لأنها جاءت في ابانها دليلاً جديداً على اتساع افق الحياة واستغراقها لجميع ما يقال فيها من تشاؤم وتفاؤل ، كما تهضم البنية القوية ما ينفع وما يضر . .

وقد خرج حكيم المعرة وهو يعجب ويسأل تلميذه من فرط العجب :

« أحق ان التشابه بيني وبين الرجل على هذا المدى من القرب والتجاور ، مع ما بيننا من مسافة الزمان ومسافة العنصر ومسافة الفكر واللسان ؟ . .

قال التلميذ : بل هو اقرب من ذاك يا مولاي . . فلا عجب أن يتفق الرجلان في النظرة الى الدنيا على تباعد الجيرة وتفاوت السيرة ، ولكن العجب العاجب أن يتفقا على

التفصيلات ويتشابهها في الدقائق والعرضيات ، وفيما ليس هو من جوهر المذهب ولا من الضروريات التي يقضي بها التوافق في الأصول ، والتأمل في العقول .

قال أبو العلاء مستفهماً : ومثال ذلك ؟

قال التلميذ : مثال ذلك أن الرجل يقول : ان المرء يعيش الى السادسة والثلاثين من عمره كما يعيش التاجر الذي ينفق من ربحه ونوافله ، ثم ينحدر وينقص ولا يزال في نقصه وهبوطه حتى ينفق من رأس ماله الى يوم افلاسه ووفاته . . وانت يا مولاي تقول :

إذا ما تقضي الأربعون فلا ترد	سوى امرأة في الأربعين لها قسم
فان الذي وفي الثلاثين وارثي	عليهن عشراً للفناء به وسم
زمان الغواني عصر جسمك زائد	وهن عناء بعد ان يقف الجسم

والرجل يقول بغلبة الارادة على الفكرة ، وضياح العقول مع الشهوات وأن العقل يكف عن العمل ، وأن العمل لمن لا يعقلون ، وأنت يا مولاي تقول :

وتفكر الانسان يشني غربه ويرد جامعہ الى الاقتصار
وتقول :

إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم الى الغي طبع أخذه اخذ صاحب
وتقول :

وقد غلب الاحياء في كل وجهة هواهم ، وان كانوا غطارفة غلبا
وتقول :

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق تقدير

والرجل يرى أن النوم سلفة مستعارة من الموت ، وهذا رأيك في ابيات كثيرة منها :

ونومي موت قريب النشور ، وموتي نوم طويل الكرى
ومنها :

وموت المرء نوم طال جداً عليه ، وكل عيشته سهاد
ومنها :

وفضيلة النوم الخروج باهله عن عالم هو بالاذى مجبول

والرجل يعطف على الحيوان ، ويؤثر صحبة الكلب على صحبة الانسان ، وانت مع
تحريمك أكل الأحياء تقول في الكلب خاصة :

سببت بالكلب فانكرته والكلب خير منك اذ ينبج

والرجل يقول ان الارادة تورث من الآباء ، وان الذكاء يورث من الامهات ، وقد
اوشكت يا مولاي ان تقول ذلك حين قلت :

كأن حواء التي زوجها آدم لم تلقح بشخص اريب
قد كثررت في الأرض جهالنا والعاقل الحازم فينا غريب

والرجل يرفع من أقدار نساك الهند ، وانت كذلك ترفع من أقدارهم ، ويذكر مذاهب
المجوس في الخير والشر ، وأنت تذكرها كما جاء في قولك :

فكر « يزدان » على غرة فصينغ من تفكيره « اهرمن »

والرجل يقول في الزمان : « نحن نسلب يوما كل مغرب شمس » ويقول فيه : « ان
وجودنا مستقر على الحاضر الذي ما بني ابدأ متسرباً طائراً فلا بد له - أي لوجودنا - ان
يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا أمل في الوصول الى الراحة التي ينشدها ، مثلنا في ذلك
مثل المنحدر من جبل عال فهو يسقط اذا حاول الوقوف .

وذلك شبيه يا مولاي بقولك :

نفس بعد مثله يتقضى فتمر الدهور والاحيان
وقولك :

اما المكان فثابت لا ينطوي لكن زمانك ذاهب لا يثبت

وغير ذلك التشابه كثير ، يدل عليه تناقض التعبير بينكما كما يدل عليه التقارب في
التفكير . .

فالرجل يسأل : « ما هو التواضع الا ان يكون ذلة مزيفة يلتبس بها المرء غفرانا
لفضائله ومزاياه في عالم مكظوظ بالحسد والضغينة ؟

ومولاي قد تلعف بالتواضع كثيراً لاتقاء الشر والملاحاة ، وخلع التواضع كثيراً في قصائد

الفخر والمباهاة ، وشغلته هذه المسألة من حيث شغلت صاحبه في جانبي الاقرار والانكار ..

قال أبو العلاء : ان هذا لعجيب ، وان الرجل الى لجد قريب ، وما احسبها الا قرابة في الطباع لا قرابة في الرأي والاطلاع ، فان تشابه الطباع هو الذي يوحى القول الواحد الى افواه الكثيرين ، اما المتشابهون في العقول فقلما يتفقون ، وقد يتناذبون ، لانهم متشابهون ..

حكم وحكمة

كان أبو العلاء قد اقام في بلاد الانجليز بضعة أيام ، شهد في خلالها مجامع العلم والادب ومعاهد الفن والرواية ، وسمع الكثير من أنباء السياسة العالمية ، وأنباء الازمة التي اخرجت وزير الشؤون الخارجية ، واعجبه غمط الحكم وانتظام الامور بين الحكام والرعايا ، فجلس يحاور تلميذه وتلميذه يحاوره ، ويأبى التلميذ الا ان البرلمان هو اساس هذا النظام وسبب هذا الاعتدال في تدبير الأحكام ، ويأبى الحكيم الا ان الامة التي تنجب البرلمان تعرف الحكم الصالح بغير برلمان ، فلو لم يكن فيها نواب وناخبون ، لكان فيها الحكم كما ينبغي أن يكون ، لانها هي المرجع وهي الأساس ، وكل ما عدا ذلك فهو صور واشكال ، يأخذها اناس وينبذها أناس . .

قال التلميذ : بل الرأي هنا للكثرة من سواد الأمة ، وما على الحكام الا ان يطيعوا ما يأمر به هؤلاء .

قال أبو العلاء : وهل للكثرة من السواد رأي ؟ ان الله يقول : « ولكن اكثرهم لا يعقلون » ويقول : « وان تطع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

قال التلميذ . ويقول : « وامرهم شورى بينهم » .

قال أبو العلاء : ونسيت أنه جل جلاله يقول : « فاسألوا اهل الذكر » ويقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟

قال التلميذ : فماذا يسمي الشيخ هذه الحكومة التي يسمونها هنا بالحكومة النيابية ؟

قال الحكيم : أسميها الحكومة النيابية واختلف ما شئت في معنى النيابة وفيمن ينوب وفيمن ينيب . فالرأي لاهل الرأي والحكم لأولي الحكم ، والطاعة لمن يستطيعونها ، ولا مشقة في الطاعة على سواد الناس اذا صلحت الأحوال وتقابلت الاهواء ، فلا غلبة من هنا ولا هزيمة من هناك ، ولا باس من تبدل الأمور كلما اشتدت سطوة فريق واشتدت معها شكاية فريق . .

قال التلميذ : أكاد يا مولاي ان أتابعك في قولك وان كنت تنظر الى زمان غير زمانك ، فالحق أننا هنا بين أمة توازنت جوانبها فقل فيها الجور وكثر فيها الاعتدال : ان طغى النبلاء صمد لهم كبار التجار ، وان تجبر العلية أو تمرد السفلة صمد لهم اوساط الناس ، وان تحكم رجال الدين قابلهم رجل العلم ، وان صال الجند والقادة في البر فهناك الجند والقادة في البحار : تقابل وتوازن لا يطغى فيه جانب على جانب ، ولا فصل فيه لتدبير فئة على فئة ، وانما هو من صنع الجغرافية ومن صنع التاريخ ومن صنع الفئات كافة ، وما داموا على هذا فهم في صلاح دائم ، واخشى انهم لا يدومون . .

وان التلميذ ليوشك أن يمضي في مقاله اذا بحاجب الباب يحمل اليه رسالة من وزير الشؤون الخارجية المستقيل ، واذا بالوزير يطلب الاذن في مقابلة الحكيم ، واذا بالحكيم يسأل التلميذ ويعجب : ما خطب الرجل وهو في أزمت محرجات لا يفرغ فيها السياسة للأدب والأدباء ولا للشعر والشعراء ؟ والتلميذ يشرح له بعض ما يعلم من شأن ذلك الوزير ، ومن شؤ ون سائر الوزراء في تلك البلاد .

قال التلميذ فيما قال : انه يا مولاي يعرف اللغة الفارسية .

قال أبو العلاء : ولكني لا اعرفها .

قال التلميذ : اعلم ذلك ، ولكنه يا مولاي قد اطلع على شعر حكيم الفرس الخيام ويعنيه أن يلقي حكيم العرب أبا العلاء ، وهو فيما يحسبه بعض ادباء الغرب أستاذ الشاعر الفارسي ، وفاتح هذا الطريق في آداب المشرقين .

قال أبو العلاء : أو كثير من وزراء هذا البلد من يعنى بهذه المطالب ؟

قال التلميذ : غير قليل . . فمنهم من يكتب في الحكمة والعلوم ، ومنهم من يكتب في نظام الشعوب وتدبير الممالك ، ومنهم من يكتب في الخطابة والتاريخ ، ومنهم من يكتب

في الطير والسمك ، ومنهم من يكتب في مشاهد الطبيعة ومحاسن الفنون ، ومنهم من ينقد أهل الفن والادب فيتفق له من صائب النقد ما ليس يتفق لرجال هذا المقام وفرسان هذا الميدان كما يقولون . اذكر مولاي تلك الروايات التي شهدناها في معاهد التمثيل فاعجب الاستاذ ببعضها وسأل عن كاتبها ؟

قال المعري : تعنى الرجل المسمى « برناردشو » ؟
قال التلميذ : اياه اعني . .

فعاد المعري يسأل : وما شأنه في هذا السياق ؟ اهو وزير من أولئك الوزراء ؟ . .
فأجابه التلميذ : كلا بل هو أديب كتب عنه عشرات من الأدباء ، فلا اذكر أن واحداً منهم أصاب في نقده ما أصاب الوزير الذي قال في شخوص رواياته : « انها تظهر في الحياة لا لما تعمل او تكون ، ومع هذا هي صالحة للحياة » .

قال أبو العلاء : صدقت يا بني فما أعرف لذلك الكاتب المقوال صفة اوجز ولا اصدق من هذه الصفة . . فمن يكون الوزير القائل هذا ؟ أهو زائرنا اليوم ؟ .

قال التلميذ : ذاك يدعى شرشل وزائرنا يدعى ايدن ، وكلاهما في ميدان الأدب ومناصب الحكم سواء ، وان كان هذا ادنى الى المسألة وذاك أدنى الى الصرامة والنضال . .

فأطرق المعري هنيهة ثم أدار وجهه الى تلميذه وقد اطمأن الى حديثه ، وقال له « ما أحسب اشتغالهم بهذه المطالب الا من الخير . فان التفرغ للحكم - بل لعمل واحد كائنا ما كان - سبيل الى العنت وضيق النظر وقلة السباحة ، ومن تعددت مطالبه كان خليقاً ان يتسع افقه للخصومة والخلاف ، وان يعود وهو أدنى الى المودة والانصاف .

ثم هتف : بالتلميذ : لقد أطلنا على الرجل لحظات الانتظار ، فاسرع ! اسرع اليه بالدعوة ، وبالاعتذار .

ويطول سرد الحديث الذي جرى بين الحكيم والوزير ، فحسبنا منه ما استطردا ، السياسة وتدبير الشعوب . . فقد أفاض الرجلان في مقاصد القول حتى استنفذا منها ك

ما يحوضان فيه ويشاركان في مناحيه ، وانهما ليهما بالافتراق اذ يقحم التلميذ سؤالاً كان من حقه أن يسأل لولا ان شغل عنه المتحدثان بافانين الأدب والثقافة ، ولعل التلميذ قد عز عليه أن يرى في سياسة العصر رأياً لا يقره عليه شيخه واستاذة فاندفع يقول :
ألا يسأل مولاي زائرنا الكريم فيما طرقناه من حديث الحكومة والبرلمان ؟ فما ينبئنا مثل
خبير ؟

ووافق السؤال هوى من نفس الحكيم فأوجز الامر للوزير وانصت يترقب منه
الجواب . .

قال الوزير : سر التوفيق في حكومة هذه الأمة أن يتم فيها الأمر الجليل كما يتم الامر الصغير ، وليس فيها من يعتقد انه يريد كل الارادة أو يأباه كل الالباء ، وانهم قد احسنوا الخصومة في الجد . . فالغالب منهم والمغلوب في رياضة لا توغر الصدور ولا تحفظ القلوب

خليفة دانتى

قضى المعري أياماً في البلاد الانجليزية وهو يستمع الى الأنباء التي تفيض بها الصحف رثاء لشاعر الطليان « جبريل دننزىو » وتعقيباً على أدبه ومغامراته في الحب والحرب والسياسة . فسأل صاحبه : من يكون الرجل الذي يلغظون به هذا اللغظ في بلاد ليس بينها وبين بلاده صفاء ، ويوشك أن يستعر بينهما لهيب الجفاء والبغضاء ؟

قال صاحبه : هو خليفة دانتى !

قال المعري : الآن زدنتى به معرفة . . ومن دانتى يرحمك الله ؟ . .

فثاب التلميذ الى نفسه وهو يعتذر من فلتات وهمه ! فقد طالما اقترن اسم المعري واسم دانتى في قراءاته حتى حسب انها متعارفان ، وأن المعري لا يجهل اسم قرينه ولا يغيب عنه أثره وتاريخه ، فقال :

حسبتك يا مولاي تعرفه وتعرف الصلة بينك وبينه ، فقد زعم بعض الأدباء من أبناء الأندلس المحدثين أنه تلميذك وأنه اقتبس منك روايته المقدسة ، لما بينها وبين رسالة الغفران من المشابهة . فهي رحلة بين الأرض والفردوس والجحيم ، ومقابلة للأدباء وذوي الشهرة من الصالحين والغاوين ، وحكاية لما يصنعون في الدار الآخرة قياساً على ما كانوا يصنعون في الدار العاجلة . . وقد سبقني الوهم حتى كدت أسألك : أصحيح انه أخذ منك تلك الرواية ؟ وانما الصواب أن أسأل « دانتى » لو لقيته كما لقيتك ، فهو أقمن بجواب ذلك السؤال .

قال المعري : وماذا فعل خليفته ؟ أتراه كتب رسالة أخرى على غطر رسالة الغفران ؟
قال التلميذ : كلا يا مولاي وانما يسمونه خليفة « دانتى » لأنه أشهر شعراء الطليان في
العالم الحديث كما كان أشهرهم في زمانه . أما مادة الأدب فلا مشابهة فيها ولا مقاربة ،
بل لعلهما أقرب الى المناقضة والمباينة في كثير من الأقوال والنزعات والأخلاق .

واسترسل التلميذ في شرحه وهو لا يحسب الا أن الحكيم مسترسل في صمته ليستزيده من
الشرح والتفصيل ، فجعل يقول : لقد كان دانتى عذرياً في هواه متديناً في شعره صارماً في
حياته . أما خليفته فمذهبه في الحب اشباع الشهوات واستنفاد متعة الحياة ، ومذهبه في
الدين مذهب أهل العصر من الشك والاباحة ، وسجيته أقرب الى العريضة منها الى
الصرامة والى الضحك الثائر أقرب منها الى العبوس الرصين ، وكان دانتى أحرى بالحظوة
عند النساء ولكنه لم يحظَ منهن بطائل . . أما خليفته فهو بين الصلح والقماءة ، ولكنه
مجدود عند الشواذ من بنات الفن ورائدات الغرائب والبدوات . . على أنه كان من
الشهوانين بالأعصاب ولم يكن من الشهوانين باللحم والجسم ، وكانت لذاته رعدة تهز
الأوصال ولم تكن أكلة يملأ بها ماضغيه ويحشو بها أحشاءه ، فهي وليدة القلق والحركة
وليست وليدة الترف والاستقامة ، وكأنها قد أصبحت بذلك في زعمه أقرب الى الطموح
والمثل الأعلى ، وأبعد من الغواية والاسفاف .

فقاطعه المعري منشداً :

جهلت أقاضي المصر أكبر مائماً بما ناله ، أم شاعر يتغزل ؟ .

ألهذا يا بني قد شهره وقدره ، وبهذا يا بني قد أكبروا ذكره وسيره ؟

فأحس التلميذ لهجة التأفف والاستنكار في سؤال الحكيم المعرض عن الشهوات
واللذات ، وجاراه من حيث لا يشعر قائلاً :

بل لعلهم قد شهره لمغامراته في الحرب والسياسة كما شهره بمغامراته في الحب
والغواية . .

قال المعري : وما ذاك ؟

قال التلميذ : انه كان من أهل بلد صغير فصلوه من موطنه الكبير ، فلما كانت الحرب

التي يسمونها بالحرب العظمى طمع في رجعة ذلك البلد وسعى الى الوصل بين منشأ أهله ومستقر قومه ، فحالت الحوادث دون ما طمع فيه وسعى اليه ، فحمل السلاح وغزا ذلك البلد وأقام نفسه حاكماً عليه وأبى أن يبرحه الا وهو قتل ، بل جعل يصيح على مسمع العالم كله : انه لن يبرحه وهو قتل ، لأنه أقسم ليموتن فيه وليدفن في ترابه ، بل أقسم ليكون هناك نصيراً لكل من أضاع وطناً أو غضب على وطن ، ونادى بدعوته فاذا هي كما قال : « أعظم الدعوات وأجملها وأشدّها نعمة على خسة العالم الشائخ وهتره وتخريفه في هذه الايام ، لأنها تمتد من ايرلندة الى مصر ، ومن مصر الى الروسيا فأمریکا ، ومن رومانيا الى الهند : تجمع الشعوب البيضاء والشعوب ذات الألوان ، وتصلح بين وحي الانجيل وحي القرآن ، وتمشي بالوثام بين أتباع عيسى وأتباع محمد ، وتمزج في ارادة واحدة كل ما وسعته الأمم في نخاعها وفي عروقها من ملح وحديد لامداد النفوس بغذاء العمل والحركة . وسنتصر لا محالة ! وسينضوي الثائرون من جميع الأمم بين جميع أبناء آدم الى أعلامنا وسينتضي العزّل المظلومون سلاحنا ، وسندفع العنف بالعنف والشدة بالشدة ، ونشنها غارة جديدة كغارة الصليبيين لنصرة المساكين واغاثة الأمم الفقيرة المنزوفة ، ونرسلها شعواء على المرايين والمبتزين الذين غنموا بالأمس أسلاب الحروب ويغنمون اليوم أسلاب السلام . »

قال المعري : أضغاث أحلام ، وشطحات أوهام . . ثم ماذا كان من شأنه في ذلك البلد ، وماذا كان من شأنه مع المظلومين والمستضعفين ؟

فابتسم التلميذ وقال : هو ما تقول أيها الحكيم . . فما هي الا أضغاث أحلام وشطحات أوهام ، وما هو الا أن تبدل الوزراء في حكومة بلاده حتى خرج حياً من البلد الذي أقسم ليموتن فيه وليدفنن في ترابه ، وما كان قد دخله من قبل الا وهو على تواطؤ مع قادة الجيش ورجال الدولة ، فلم يمنعوه ، ولم يقفوا في طريقه . .

فابتسم الحكيم ابتسامته المرة وعاد يسأل وكأنه يعلم جواب ما سأل عنه قبل الافضاء به اليه :

والمساكين المستضعفين ؟ . .

فقهقه التلميذ ناسياً أدبه ووقار شيخه ، وقال : أما المساكين المستضعفون فقد جردت عليهم حكومته جيشاً يزيدهم مسكنة وضعفاً . .

فتعجل الشيخ سائلاً : فماذا صنع خليفة دانتى وخليفتي يرحمك الله ؟ هل أعطاهم من سلاحه ما ينتصونه ؟

قال التلميذ : بل أرسل عليهم شواظاً من شعره يحضر به الجيش الزاحف على حسن البلاء وتشديد النكير . .

فوجم المعري مهموماً ولم يزد على أن قال :

صدق الله العظيم « يقولون ما لا يفعلون » .

لعب العبقرية

كان أبو العلاء في أيامه الأخيرة بين أمم الغرب كثير السامة من لقاء الناس ، كثير النفور من المجامع والمحافل ، كثير الاعراض عن الجدل في المذاهب والآراء والفلسفات التي سمع من أخبارها في أيام ما لم يسمعه في أعوام كان بقيد الحياة .
« ما النحو ؟ . . ما الشعر ؟ . . ما الكلام ؟ » كما قال في بعض أبياته^(١) كلها ككل شيء في هذه الدنيا :

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدي الى غناء اجتهد
وكانت للأمر في أول عهده بالقوم جدة وغرابة ، فكان يحتمل المجامع والمحافل ما بقيت الجدة والغرابة . . ثم نصبت الطلاوة وزالت الغشاوة فاذا الجديد كالقديم واذا العجم كالعرب ، واذا الدنيا هي الدنيا والناس هم الناس والحياة هي الحياة ! وكل يوم دعوة ، وكل يوم خروج على غير طائل ، أو على ضجة ما كان أغنى عنها تينك الأذنين اللتين حجبهما الرجل عن الصوت ، بعد أن حجبت الأقدار عينيه عن الضياء .

قال يوما لصاحبه : كنت أحسب الدنيا بنية مطمورة في القدم فكلما غاص الانسان فيها كان أدنى الى حقائقها وأسرارها ، فلما بعثت في هذا العصر الحديث حسبتها منجماً مقبلاً

(١) من أبيات يقول فيها :

اف لما نحن فيه من عنت	فكلنا في تحيل	ودلس
ما النحو ما الشعر ما الكلام وما	مرقش والمسيب	بن علس ؟

كلما أمعن الانسان في غده بعد يومه كان أدنى الى تلك الحقائق والأسرار .

فأسرع صاحبه يسأله :

فالآن ماذا تحسبها ؟

قال أحسبها متاهة مغلقة ، فكلما رجعت فيها أو تقدمت فأنت في مكان واحد من المدخل أو من المخرج ، وقد أغلقت فلا مدخل ولا مخرج هناك .

وكان صاحبه أو تلميذه من أبناء العصر المنشئين على تربيته وعاداته : كل دعوة تأتيه فاما الحضور واما الاعتذار ، وكانت عنده دعوة من مؤتمر الفلسفة والأديان ، ينتظر أصحابها الاجابة من حكيم العرب وحكيم القرون الوسطى . . فيماذا يجيب ؟ والحكيم لا يريد الحضور ولا يريد الاعتذار ؟

تلك فرصة سانحة يوم عرض الحكيم للدنيا وشبهها تارة بالبنية المطمورة وتارة بالمنجم المحفور ، وتارة بالمتاهة المغلقة .

فعاد التلميذ الى المفاتحة في أمر الدعوة الى مؤتمر الفلسفة والأديان ، وعاد الحكيم الى الرفض والاعراض وزاد متهمكماً ساخراً : مؤتمر يشاور فيه بعضهم بعضاً فيما يدينون به من عقيدة !! . . ليوشك القوم غداً أن يتشاوروا فيما يحبون من وجه جميل وفيما يأكلون من فاكهة لذة !! وهل يرجع المرء فيما يحبه من جمال وفيما يشعر به من لذاعة وفيما يعتقده من طمأنينة اليقين الى مشاورة الآخرين ؟

فعلم التلميذ ان نوبة النفور أصلح هنا للخوض في مسائل المؤتمر من نوبة الاقبال والموافقة ، واقترح على الشيخ أن يسأله وأن يدون جوابه ، وأن يستخلص من الحديث ما يلقيه على المؤتمرين ، نائباً عن الشيخ ، والشيخ معافى من مشقة الذهاب ومشقة السؤال والجواب .

قال التلميذ : أنت من العقليين يا مولاي أم من الفطريين . . ؟

فسأله مولاه :

ما العقليون وما الفطريون هداك الله ؟

فلخص التلميذ مذهب العقلين ومذهب الفطريين في كلمات موجزات ، وقال ان
العقلين يحسبون ان الاقناع هو سبيل الاصلاح والهداية، والفطريين يحسبون ان البداهة
قبل التفكير وان الاقناع قلما يغالب الأهواء . . فمن أي الفريقين يا ترى يكون الشيخ
الجليل ؟

قال أبو العلاء : من كلا الفريقين !

أنا من العقلين حين أقول :

كذب الظن لا إمام سوى العقد لـ مشيراً في صبحه والمساء
وأنا من الفطريين حين أقول :

العقل يسعى لنفسي في مصالحها فما لطبع الى الآفات جذاب
وأنا لست من هؤلاء ولا هؤلاء حين أقول :

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في حنـدس نتصادم !!

قال التلميذ : خرجنا من البنية المطمورة ومن المنجم المجفور ودخلنا المتاهة المغلقة يا
مولاي : هذا تناقض والحق لا يتناقض . فماذا أقول للمؤتمرين من رأي الشيخ في حقيقة
الحق بين هذه الأمور ؟

فهتف به الشيخ ضاحكاً وقد سرى عنه بعض السامة : بل التناقض للحقائق يا بني لا
للأباطيل . .



ان الأباطيل تتغير وتتبدل فيسهل التوفيق بينها بقليل من النقص هنا وقليل من الزيادة
هناك ، أما الحقائق فهي التي تقف في سبيلنا وقفة الصخور . لا تحيد من يمين ولا من
شمال ، وعالينا نحن أن نسلك بينها ونتحول من حولها ، فان أردت أن أتحوّل بك في
دروها قليلاً فاعلم اذن أننا نتبع العقل فيما هو للعقل من رأى وتفكير وتجربة ومشاهدة ،
واننا نتبع الفطرة فيما هو للفطرة من ذوق وطمأنينة وتسليم ، واننا لا نطلب من الفطرة أن
تصبح عقلاً ولا من العقل أن يصبح فطرة ، وانما نستشير كليهما حيث يشير . . .

وبدا لأبي العلاء أن تلميذه المصغي اليه يستريح ويستقر على ما سمع فأدركته عارضة من لعب العبقرية ولعب الطفولة الخالدة . وهل العبقرية الخالدة الا حياة متجددة ؟ وهل يلعب الطفل الا لما يدركه من جدة الحياة واقبالها ؟ فكما يرى الطفل من ينامون الى جانبه وهو يقظان فتأبى عليه شيطنة الحياة العارمة الا أن يوقظهم معه ويعددهم بمساح من القلق الذي يشتمل عليه ، كذلك العبقرى لا يطيب له أن يأرق وحده والناس هادئون . . فمن ثم أن شئت يقظات الأحلام والناس نيام ، وشيطنة الخلود والفانون سادرون في موت الجمود ؛ قل ان شئت انها جدة تلتطف جدها ، وأنها حلاوة تخالط مرارتها ، ولكنها - بعد كل ما يقال - لا تخلو من جانب اللعب فيها وجانب الرياضة ، ولن يستحق الجد ما ليس فيه لعب ولا رياضة . .

بدا ذلك لأبي العلاء فأوماً الى تلميذه يسأله وقد كف هو عن سؤاله :
أراك صدقت وأمنت . فما لك لا تسأل : ومن الذي يستشير العقل ؟ ومن الذي يستشير الفطرة ؟ أفي الانسان شيء خارج العقل وخارج الفطرة فهو الذي يكون منه السؤال ثم يكون الجواب اما من العقل المسئول أو من الفطرة المسئولة ؟ وما الرأي اذا كان السائل هو الفطرة والمجيب هو العقل ؟

وما الرأي اذا وقع الخلاف على السؤال وعلى الجواب ؟
وفوجئ التلميذ . . ولكنها مفاجأة وقعت منه موقع السرور والتأهب ، لأنه انتظر بعدها مزيداً من الاستفسار ومزيداً من التفسير . فقال اذن أنت يا مولاي من الجبريين ؟
ولا أدري كيف فاتني الساعة أن أذكر ذلك وأنت القائل :

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق تقدير

قال أبو العلاء ولا تزال فيه تلك العارضة من لعب العبقرية ؛ ولا تدري ايضاً كيف فاتك الساعة أنني لست من الجبريين ولا من القدرين لأنني أنا القائل :
لا تعش مجبراً ولا قدرياً واجتهد في توسط بين بينا

قال التلميذ وكأنما شملته تلك العارضة التي استولت على أستاذة في تلك الساعة :
وهل هذه الا الجبرية بعينها ؟ لا تريد أن تقول ان الانسان مجبر ولا تريد أن تقول انه
مخير . ولا تفصل في المشكلة بل تدع الفصل فيها لعالم الغيب أو عالم الشهادة . . ماذا
يكون الجبريون ان لم يكونوا هكذا غير مختارين فيما يفكرون وفيما يعتقدون ؟
فأصغى المعري وأعجبه ما سمع من تلميذه فأوماً موافقاً : « نعم هي الجبرية في أرجوحة
ذاهبة آية . . وهي خير من الجبرية في قيد مقيم . .
قال التلميذ :

لقد عدم التيقن في زمان حصلنا من حجاج على التظني

فهتف به المعري : ويحك انك لتتعبني بكلامي القديم تعقب المذنب باقراره . . فهلا
أغنأك حفظك عن مطاردتي بالسؤال والاستقصاء ؟
فلاحقه التلميذ قائلاً : المدى يا مولاي في هذه المسائل فسيح ، والتعب لا يضير ،
وخطوة واحدة الى الأمام أو خطوة واحدة الى الوراء لن تضيق النطاق ، ولن تقرب
اللاحق .

قال الشيخ مترقباً : ثم ماذا ؟

قال التلميذ مجارياً : ثم علامَ الجزاء اذا كنا فيما نحسن أو نسيء مجبرين مسيرين ؟ . .
قال الشيخ : اذا كانت النفس تعمل الخير مكرهة فما حقها في الجزاء ؟

واذا كانت النفس تعمل الخير مختارة لانها تؤثره وترضاه وتجده فيه الغبطة وفي غيره الندم
والحسرة فما حقها ايضا في الجزاء ؟ فاحر بنا الا نشغل بالناس بمثوبة او عقوبة .
ولتفعل النفس الجميل لانه خير واحسن لا لاجل ثوابها

ان الطفل يا بني يؤجر بالدرهم ليأكل الطعام وفيه مصلحته ونمائه ، فاذا كبر الطفل
بذل هو الدرهم وصبر على بذله وتحصيله لياخذ به طعامه ويشبع به نعمته واوامه . .
وكذلك تصغر النفس فتؤجر على خيرها الذي تجهله ، وتكبر النفس فتبدل هي الاجر على

ما تعمل من خير ، وذلك هو الجميل وذلك هو الثواب :
أدين برب واحد وتجنب قبيح المساعي حين يظلم دائن
ثم انشد :
وليس اعتقادي خلود النجو م ولا مذهبي قدم العالم

ثم عاودت الشيخ تلك العارضة من لعب العبقرية الخالدة فصاح بالفتى : اسرع . .
اسرع يا بني مؤتمر الفلسفة والدين ، اسرع اليهم فقد طال بهم الانتظار ، في طلب هذا
الحوار ، والذي لا يستقر عليه قرار ، ولا يزيد به عدد الأبرار ، ولا ينقص به عدد
الفجار .

ثم تمت بين شفتيه :
ما النحو؟ ما الشعر؟ ما الكلام؟
كلام في كلام في كلام .

الاختراع

السفينة في طريقها الى المشرق والمعري وصاحبه على مقدمها يستقبلان الهواء . والمذيع يغني الأنشودة المشهورة على لسان امرأة لاهية تقول بالفرنسية :

« عندما تضميني بين ذراعيك ، أنا أعلم الكلمة التي ستقولها . . ستقول اني أحبك ! وهي كلمة كاذبة ولا شك . . ولكنني مع هذا أحب أن أسمع صوتك » . .

والفيلسوف يسأل : ماذا تقول هذه المرأة ؟ والتلميذ يترجم الأنشودة ويتخايل في سؤال الشيخ عن رأيه في هذه المناجاة العصرية ، على لسان امرأة تخاطب رجلاً ، أو على لسان النساء يخاطبن الرجال .

والشيخ يتأمل باسمياً ويحجب تلميذه راضياً رضى القانطين المستسلمين : « هو الغرب كله يا بني مائل في هذه الأنشودة اللاهية : هو الغرب الذي يأخذ من الحياة ما تعطيه ، ويطلب السرور ، ثم لا يسوم دنياه طلب الوفاء والكمال . . هو الغرب الذي يأخذ كل شيء بقيمته وكل شيء على حقيقته ، ثم يصقله ويحبه الى نفسه ليستسيغه ويستمرى مذاقه ، هو الغرب ذو النفس الناطقة التي لا تقول كلمة في جدها ولا لهوها الا جمعت فيها خلاصة ما عندها من حضارة وأخلاق وفلسفة وشعور . . »

قال التلميذ :

أولست كل النفوس ناطقة ؟ ألا تفصح كل نفس عن دخيلتها في غنائها ومناجاتها ؟ . . قال الشيخ : بلى ، ولكن شتان تعبير اللسان الذي يقول فيجمع حياته فيما يقول ، وتعبير

الثمرة التي ترى قشرتها فترى من لونها وتشم من رائحتها انها ناضرة أو ذاوية ، وصحيحة أو معطوبة : ذلك تعبيرٌ الفضل كله فيه للقاتل ، وهذا تعبير الفضل كله فيه للناظر ، وكلاهما تعبير ولكن المسافة بينهما كالمسافة بين الحياة والجمود ، والحركة والركود »

فصاح التلميذ : اليوم سيدي الشيخ عربي وهو يفارق الغرب الى الشرق ! . . فهلا كان غريباً وهو في بلاد القوم مستريح ؟ . . أم كتب على الانسان أن يحب ما يفارق ولا يزال ساخطاً على ما هو فيه ؟

فصمت الشيخ هنيهة ، ثم راح يمضغ بين شفثيه :

يا ماء دجلة ما أراك تلذ لي شوقاً كهاء معرة النعمان
أظمئن يا بني . ما أنا الى الغرب ولا أنا الى الشرق . أنا الى معرة النعمان فهلا آن
الأوان ؟

فأراد التلميذ أن يطاوله ويصرفه عما ورد على نفسه في تلك اللحظة من الحنين الى وطنه ، وعاد يحاوره وكأنما يتحداه ليستثيره ويجنبه غاشية السوداء التي هو مقبل عليها :
أفي المعرة مثل هذه السفينة ومثل هذا المذيع ومثل هذا الصوت الجميل ومثل هذه
الأعاجيب !

وكان المعري قد ركب السفائن والطائرات ، وعرف مطايا الكهرباء ومطايا البخار ، وقال في كل منها قولة عارضة وهو يركبها أو يترجل منها . الا أنها رحلة العودة ففيها خلاصة المقال ونهاية المال ، فيما رأى من هذه الصنوف والأشكال ، فقال :

وما حاجة المعرة الى سفائن البحار ؟ فيها السيارة وتحوم على فضائها الطائرة ولو كان فيها بحر لكان فيها مثل هذه السفينة ومثل هذه الضوضاء . .

قال التلميذ : وكلها من صنع الغرب الذي ما أدرى أيبرم به الأستاذ أم هو مشوق اليه ؟ . .

قال المعري : الآن فهمت ما تريد . . فهلا أنأتني يا بني ماذا صنع الغرب من هذه الآلات يوم كنا نعيش حياتنا الدنيا في المعرة ؟ لعمرك يا بني ما صنعوها اليوم الا لأنهم قد احتاجوا اليها ، والا لأنهم قد بنوا على أساس ما سبقها وهياً أسبابها من صناعات

القرون الأولى . يا بني لا تهولنك المظاهر ولا تعجبك كثرة الأعداد . فلعل مبتدع الشراع والدولاب أحذق من مبتدع البخار والكهرباء ، ولعل القوس والسهم أبرع في اختراعهما من المدفع والقذيفة ، ولعلمهم كانوا يعيشون على عهد الشراع خيراً من هذه العيشة ، ولعلمهم كانوا يموتون على عهد القسي والسهام أكرم من هذه الميتة ! ولعل متعة الحالم بالطيران أحب إليه من متعة الطائر بالجنان .

قال التلميذ : ولا أحسبني مع هذا مخطئاً اذا قلت انني لمحت دلائل الدهشة على وجه الأستاذ يوم ركبنا الهواء أول ما ركبناه . .

قال أبو العلاء : تلك دهشة تغني عن دهشات .

فسأل التلميذ : أيجب مولاي أن أفهم من هذا ان الكهرباء والبخار وما صنع الانسان منها لا تستحق دهشة الحكيم كما يستحقها الانسان الطائر في الهواء ؟

قال أبو العلاء : لا أحب أن تفهم هذا ولا أكرهه ، ولكنني دهشت لمعنى ما رأيت حين رأيته أول لمحة ، ثم أغنانني ذلك عن دهشتي للمصنوعات المكررة والظواهر المختلفة . . أتخسب أن من يدهش للطيران في الهواء خليق أن يدهش لكل متحرك بالبخار والكهرباء ؟ أفمن شهد الشراع مرة خليق أن يدهش له مرات كلما حركته ريح شمال أو ريح جنوب ؟ ذلك معنى واحد في ألفاظ شتى ، أو ذلك جسد واحد في مختلف الثياب ، وحسبك أن تعلم أن تسخير القوى التي يسمونها بالقوى الطبيعية مستطاع لتزول عنك الدهشة من كل ما يستطاع من هذا الطراز .

فاندفع التلميذ سائلاً : أفكل هذه الآلات اذن ليست بالفتح الجديد ؟ أليس فيها ما يستوقف الحكماء من تاريخ بني الانسان فيما يرى سيدي الأستاذ ؟

فلم يمهله أبو العلاء هنيهة ، وأجاب :

« لا فتح ولا اقفال ! »

« وربما فتحت هذه الآلات لانسانك يا بني فتحاً جديداً لو أنه سخر الآلات ثم أطلق نفسه من العقال ، أو لو أنه ملك نفسه يوم ملك آلات الأرض والهواء . . ولكنه سخر الآلات المصنوعة ليصبح شبيهاً بها ، ثم ازداد في التسخير ليزداد في الشبه . فهو أسير ما

صنع ورهين ما ابتدع ، فان سميت هذا فتحاً فالله يفتح عليك . .

ولم تحفّ لذعة السخر والمرارة في كلمة الشيخ الأخيرة على فطنة تلميذه الملحاح فقال وهو لا يتعمد الاطالة في الحوار :

أخال انسان اليوم على جميع حالاته أطلق من آبائنا الأولين !

فتمتم أبو العلاء هامساً : أكذاك ؟

ثم انثنى يقول : لأمر ما كان الأوئل يروضون الحيوان وكنتم في زمانكم هذا تروضون الجماد : « كلُّ قريبٍ الى ما يروض ! وما أحسبكم تفلحون في رياضة حيوان واحد بعد الذي راضه أبائكم المتقدمون ، ولكنكم كلما قاربتم الآلات خرجتم من رياضتها في كل يوم بجديد

وتعمد التلميذ المناوأة الخفية فقال :

ومع هذا يغبط مولاي الجماد ويسبح الله الذي أعفاه من الطعام والكساء ومن الرحلة والشقاء .

ولم يرفض أبو العلاء هذه المناوأة بل جرى في مجراها فقال متمنياً أو متهكماً على حدّ سواء :

لو عوفيتكم كما عوفي الجماد !

فأنس التلميذ الى هذا التهكم الرقيق وراح يسأل :

وهل عوفي الأقدمون ؟

قال أبو العلاء : كلا . على هذا مضيتم ومضى السلف ، الا أنهم صبروا حيث تضجرون ، وطلبوا من الدنيا دون ما تطلبون ، فاذا كانوا مثلكم في الشقاء فلقد كانوا أقل منكم في الشكاة ، واذا كان نصيبهم كنصيبكم من الخير فالذي يطلب الألف ويجد المائة محروم ، والذي يطلب العشرة ويجد الخمسين مجدود لا تحسبه من أهل الحرمان .

أقصى المغرب

قاتل الله المجاز ! ..

كان هذا أول ما فاه به المعري لتلميذه بعد أن علم سبب الكارثة التي أودت بمئات النفوس من ركاب السفينة . اذ كانا يركبانه ويتحدثان فيها ذلك الحديث المروي في الفصل السابق . . وكانا قد بلغا شواطئ الأندلس حين وقعت الواقعة . وما هي الواقعة ؟ قذيفة أطلقتها على السفينة غواصة من غواصات الثوار فهبطت بها الى القرار ، ثم نجا المعري بعصمة الخلود ، ونجا تلميذه ببعض المجهود ، وهما الآن على متن سفينة أمريكية تمخر بهما بحر الظلام ، الى بلاد العم « سام » .

ومال التلميذ الى الأستاذ يسأله :

أعلمت يا مولاي ما سبب الكارثة ؟

فقال الأستاذ : وما سببها ؟

قال : أنت يا مولاي !

قال : ويحك ! وكيف أكون أنا سبباً لاغراق سفينة أنا راكب فيها ! أهى دعوة صائبة ؟ ..

قال التلميذ : بل هو مجاز خائب . . كتبت بعض الصحف أن سفينة من السفن تفارق الشواطئ الأندلسية وعليها ذخيرة عربية نفيسة . . ومن تكون الذخيرة العربية النفيسة

غير أبي العلاء ؟ فلما تواترت الأنباء بهذا المجاز النفيس حسب الثائرون على حكومة لاندلس أن هذه الحكومة تبعت بالتحف العربية الغالية الى بلاد أجنبية ، لتودعها أو ترهنها هناك فطاردتنا وأغرقتنا لتحرمها هذه الذخيرة ، أو تستولي عليها اذا أدركتها قبل أن يتلعبها اللجة ، فغرقت السفينة وهلك من هلك من جراء أبي العلاء . .

قال أبو العلاء : قاتل الله المجاز ، بل هو الذي أهلك القوم كما أهلك من قبلهم أمماً خالية أغرقها المجاز في بحار من الكلام ، وأنا مع ذلك القاتل :

لا تقيّد عليّ لفظي فاني مثل غيري تكلمي بالمجاز
نعم وأنا القاتل أيضاً :

بني الدهر مهلاً ان ذممت فعالكم فاني بنفسي لا محالة أبداً

ثم قال : والى أين تمضي سفيتنا الآن بالذخيرة العربية النفيسة ؟ أتراني سأغرقها مرة أخرى ؟

قال التلميذ : بل الى بر السلامة ان شاء الله . . الى بلاد العم سام !

قال أبو العلاء : وما عسى أن نشهد هناك غير ما شهدنا ؟ أو نسمع هناك غير ما سمعنا ؟

قال التلميذ : كثيراً يا مولاي . . سنرى قبل كل شيء ملكاً عظيماً على الطريقة الأمريكية . .

فتمهل أبو العلاء قليلاً ثم قال : أراني سأقضي منك ديون السؤال كلها في هذه الرحلة . فما هي هذه الطريقة الأمريكية التي نسمع بها في كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟ وكيف يكون الملك العظيم ملكاً عظيماً على هذه الطريقة . .

قال التلميذ : بالامتحان والكشف الطبي ، كأنه موظف في الخدمة اليومية ! . . فهذا الرجل الذي يحكم الدولة العظمى في الديار الأمريكية قد كان مشلولاً في كهولته ثم تقدم الى الشفاء ، فلما أذاع خصومه أنه لا يصلح للحكم عرض نفسه على الأطباء الثقة ليشهدوا له بصحة العقل وصحة الضمير . وقد شهدوا له وجاز الامتحان عند أبناء وطنه فانتخبوه . أليست هذه طريقة أمريكية في الحكومة كالطرق الأمريكية في الصناعة

والتجارة ، وفي كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟

قال أبو العلاء : وهل أفلح الرجل وصدق الأطباء ؟

فأجاب التلميذ : نعم أفلح غاية ما يستطيع الفلاح ، وعالج الشلل في قومه كما عالج في جسمه . .

فأدركه أبو العلاء متهانفاً وصاح به : غرقة أخرى يا بني ! . . ومجاز آخر يوشك أن يرسل بالسفينة الى القرار . . أفصح يا بني ودعنا من المجاز ! . .

فاستضحك التلميذ ، ولكنه شغل بالجد فيما هو فيه عن سخرية الشيخ وارتياحه ، فطفق يقول :

لقد سعد « روزفلت » العظيم الى كرسي الرئاسة والأمة الأمريكية كالجسم الذي له نصف محتقن بالدم الغزير ونصف منزوف مشلول لقلة الدم فيه ، فكان كالقلب الذي لا تنتظم به دورة الدم في جميع العروق ، وأخذ من النصف المحقون للنصف المشلول ، فدار الدم دورته في جميع العروق ، وأوشكت الحركة أن تعود الى جميع الأعضاء .

قال أبو العلاء : أترأه أثار الفقراء على الأغنياء كما صنعوا في بعض الديار الأوربية ؟

قال التلميذ : لو صنع ذلك يا مولاي لكان من الفاشلين ، فان هذه البلاد على تقدم الصناعة فيها وكثرة الصناع بين أبنائها تعتصم من ثورة الفقراء على الأغنياء بشتى العواصم ، وتحتمي منها بكثير من الحصون : منها يا مولاي ان باب الغنى مفتوح لكل فقير مستطيع ، فكل فقير فيها يعني نفسه بالثروة بعد حين ، ولا يشعر باحتكار الثروة في أيدي طائفة من الناس تتوارث المراتب وتتوارث الأموال . . فمن هنا يحسب الفقير أنه يثور على نفسه أو يثور على أمله حين يثور على الأغنياء .

ومنها أن الأمريكيين قوم ورثوا المغامرة والمراهنة من أجدادهم الأولين الذين غامروا بالهجرة الى الغرب المجهول منذ قرون ، فمن شغفهم بالمغامرة والمراهنة أنهم يحبسون الانتخاب وينتظرون السباق فيه بين الأحزاب ، ولا يلجأون من أجل ذلك الى الاضراب والاعتصاب .

ومنها أن الزراعة عندهم توازن الصناعة ، وأن الريف بينهم يوازن المدينة وأن ازدحام

الحواضر لا يخلي القرى من الحارثين الحاصدين ، وهؤلاء أقرب الى جانب الاستقرار منهم الى جانب الثورة والثوار .

ومنها ان حب الدين فيهم قديم ، لأن آباءهم الأولين كانوا أناساً متنطسين متطهرين نغموا معيشة الفساد في أوربا فهجروها الى الغرب متعفين متورعين وانما يثور الانسان على الأرزاق حين يثور على الأقدار . . .

قال أبو العلاء : أرحتني من الأستاذية في هذه الرحلة المباركة أراحك الله ، غير أنني أراك قد ذكرت لنا ما منع رئيس القوم أن يثور بالفقراء على الأغنياء ولم تذكر لنا ما صنع لعلاج ذلك الجسم المحقون المشلول . . أتراه رجع فيه الى الأطباء ؟

قال التلميذ : عفواً يا مولاي . أحسبها غلطة من غلطات الحداثة في الأستاذية ، أو أحسبها أسلوباً مبتكراً على الطريقة الأمريكية ، ومن كان أستاذاً لأبي العلاء فمغتفر له ما شاء من امهال وابطاء .

فاعلم يا مولاي اذن أنه أجزل من الأجرة والوقت للصناعيين ، وأكثر من الأرزاق للشيوخ والعاطلين ، فأكثروا من الانفاق وراجت بهم الأسواق . . فسأل أبو العلاء : ومن أين جاء بالمال ؟

قال التلميذ : بعضه من أرباح الأغنياء والفقراء ، وبعضه من الضرائب على رؤوس الأموال .

فعاد أبو العلاء سائلاً : وكيف رضوا بما قُرض عليهم ؟ . .

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، فان كثرة البيع والشراء خير من كساد السلع والخوف الدائم من ثورة العاطلين والمطرودين ، والمال الذي يذهب ويعود خير من المال الذي يُفسده الركود .

فسأل أبو العلاء مرة أخرى : وهب التجار لم يخرجوا من بضائعهم الا بمقدار ، فأمنوا بذلك مغبة البوار ، وقنعوا باعتدال الأسعار . فهل تزن الأرض غلاتها ، وهل تحكم الحكومة على نباتها ؟ . .

قال التلميذ يقرظ استاذہ العجيب : ما أعجبك يا مولاي من أستاذ وما أعجبك من تلميذ . انك لتحسن السؤال كما تحسن الجواب . فاعلم اذن يا مولاي أن الأرض قد أخرجت ما شاءت وأن الحكومة قد أتلفت منه ما شاءت ، وهو النصف من جميع الغلات .

قال أبو العلاء : وهل رضي الزارعون ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، ثم حمدوا المغبة بعد حين . .

وانطلقت السفينة في عباها وأبو العلاء يقول وكأنه يحدث نفسه ولا يعني تلميذه بما يقول :

لئن نجح الرجل نصف نجاح لقد نجح في حقيقة الأمر كل النجاح ، فما من الصواب أن نسوم انساناً واحداً كل الصواب ، وأن غضي من حوله كلنا مخطئين . .

أقصى المشرق

قل انهم يحبون العجلة ! قل انهم يكرهون الوقت ! قل انهم حائرون فيما يحبون وما يكرهون . اما انهم يحبون المال وكفى فان من يحب المال للمال لا يتحرك ولا يعيش ، بل يجلس كما تجلس العجوز على القدر المدفونة ، أو كما يجلس الصيرفي على خزانة الذهب ، وهؤلاء لا يجلسون جلسة العجوز ولا جلسة الصيرفي ، ولكنهم يتحركون ويعيشون .

كان ذلك حكم المعري على الأمريكيين أو قل « حكم المعري للأمريكيين » وهو خارج من بلادهم ، وكان قد حضر مع تلميذه عيد الاستقلال في عاصمتهم ورأى بذخ القوم واسرافهم في بذل أموالهم لازجاء أوقاتهم والحفاوة بذكرياتهم ، فلما برحا الشواطئ الأمريكية من أقصى المغرب واستويا على مكانهما في السفينة يعرضان ما عبرا وعبر بهما ، ويمجمعان ما تفرق من الوقائع والمشاهدات قال التلميذ : هذه أمة تحب المال ولا تعمل الا للمال ، فأبى المعري أن يجاري تلميذه في حكمه ، وقال عن القوم ذلك المقال .

ولا ندري لمَ لم يطب المقام في بلاد الشمس المشرقة لرهين المحبين كأنما كان هناك في حبس أشد عليه من محبسيه .

فكان في أرض « نيبون » يتأفف ويتبرم من كل شيء ومن غير شيء ، ولم يزل مع تلميذه على حذر وامتناع حتى هجرا أرض نيبون الى أرض الصين ، وأقاما فيها برهة بين الفتن والثورات والمجاعة تارة والقحط تارات ، ولكنهما كانا أقرب شيء الى راحة البال والاقبال على شهود الأحوال ، لأنهما كانا يشهدان في الصين جهداً كبيراً الناظرين أن يبلغ تمامه . أما الجهد الذي كانا يشهدانه في أرض نيبون فقل أن يكون في تمامه سروراً للناظرين ، ولا سيما الحكماء .

قال التلميذ يستفز أستاذه للكلام :

أوليس القوم في أرض نبيون على جانب من الشجاعة عظيم ؟ . . قال المعري : بلى ! ان كنت تعني شجاعة الغريزة ولا تعني شجاعة النية والارادة . .
قال التلميذ متجاهلاً : وما شجاعة الغريزة وما شجاعة النية والارادة يا مولاي ؟ . . !

فأجابه الحكيم غير متأفف ولا متبرم : ان الشجاع الحق هو من يعرف الخطر ويخشاه ثم يغلبه بعزيمة هي أعظم من الخطر وأعظم من الخشية . أما الشجاع الذي يقتحم الخطر لأنه مدفوع اليه بعادات الأقدمين وسنن الآباء والأجداد فذلك أسير لا فرق بينه وبين من يقتحم النار مسوقاً اليها بسلسلة من الحديد ، ولا فرق بينه وبين الأسير الذي يقدمه أسروه في الطليعة وهو لا يملك الفرار ، وقد توجد هذه الشجاعة في الحيوان كما توجد في أبناء آدم ، فهي من أصول لا ارتفاع فيها ولا تعلق لها بالتكليف والضمير . .

وقال التلميذ : لو أن الأستاذ قد شهد أسراب الطير وهي تعبر البحر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم منها من يسلم ثم تعود الى المهجرة ولا تخاف الموت ولا تعرف ما هو الحسب أنه يعني هذه الشجاعة حين يذكر شجاعة الغريزة وشجاعة الحيوان . .

فقال المعري : ما رأيت هذه الأسراب ، ولا أحسبنا في حاجة الى رؤيتها لنعرف ان الشجاعة التي تتعلق بالعادات الموروثة غير الشجاعة التي تتعلق بارادة المريد ، وكل من شهدنا في أرض نبيون من باقري بطونهم وباخعي أنفسهم فانما هم قالب واحد لا يختلف باختلاف البيئات ولا باختلاف الأفراد ، وليست هكذا تكون الصفات التي مرجعها الى مزية في الانسان ومزية في الخلق والتكليف .

قال التلميذ : أوليس القوم خيراً من هؤلاء الصينيين الذين ترضى عنهم ولا تضيق ذرعاً بعشرتهم ومراقبة أحوالهم ؟

قال المعري : اما ان أردت أنهم أفلحوا حيث أخفق الصينيون فانت على صواب ، واما انهم يفلحون هكذا لو كانت أرضهم هي أرض الصين وأحوالهم هي أحوال الصينيين فذلك هو البعيد . . ان القوم قد أخذوا قديمهم من الصين وأخذوا حديثهم من الغرب ووجدوا في عزلتهم من وراء بحرهم ، وعلى خصاصة عيشهم ، متسعين من الوقت

يأخذون فيه ما يأخذون ويدعون ما يدعون . . فان أردت الانصاف فضعهم حيث وضعت الدنيا أبناء الصين وأنت ترى الفرق بين الأمتين !

قال التلميذ : يعني الأستاذ الفرق بين المنتصرين والمنهزمين ؟

قال المعري : نعم . . وما يدريك لعل أهل نبيون يخدمون أهل الصين بهذه الهزيمة وهم لا يشعرون ؟ لقد كان هؤلاء المنهزمون شتيتاً من الخلق فجمعتهم الهزيمة فأصبحوا أمة تنضوي الى لواء واحد ، فاذا بالمنتصرين يخافونهم بعد خمس سنوات تجردوا فيها لاتخاذ الأهبة وتوحدوا أو كادوا ، فكيف يكون شأنهم لو تجردوا لاتخاذ الأهبة متوحدين خمسين سنة لا خمس سنوات ، ومن ذا الذي يهزمهم في المشرق أو المغرب لو تهيأ لهم الوقت كما تهيأ لأعدائهم المنتصرين ؟ علم الله لولا أن أهل نبيون يخافونهم ويفزعون من غدهم لما عاجلوهم بالعدوان ، وما أخالهم مع ذلك آمنين عقبى الأمور . .

قال التلميذ : من يسمعك يا مولاي يحسبك من دعاة « الكومنتاج » أو من غلاة المتشيعين لانجيل « سون ياتسين » .

ولو كان أبناء نبيون قد أساءوا استقبالك لزعمت أن في نفسك اشارة من سوء ما استقبلوك ، ولكنهم جمعوا لك المسلمين في عاصمتهم واستمعوا لك في معبدهم ومسجدهم ، وصحبوك وبجلوك ، ومللتهم ولم يملوك ، فأعجب العجب أن تبغضهم هذه البغضاء وأن تألف الصينيين هذه الألفة . .

فقاطعه الحكيم قائلاً : لعلهم أساءوا من قِيل هذه الحفاوة ! . .

فابتدره التلميذ مستغرباً . كيف أيها الحكيم ؟ أيأبى مولاي الكرامة وهو كريم ؟ . .

فأجاب المعري : نعم آباها اذا كانت تجارة وكنت أنا فيها سلعة من السلع المعروضة أو ذريعة من ذرائع الترويج والخديعة . . هؤلاء الناس لم ينشئوا مسجدهم لله ولا للعبادة ولا للمسلمين ولا لأبي العلاء ، ولكنهم أنشأوه للبيع والتجارة ، وما نحن بالسلعة الرخيصة في أسواق التجار . .

فقال التلميذ متسائلاً : وحفاوة المسلمين في الصين ما شأنها وما شأن التجارة والكرامة فيها ؟

قال أبو العلاء : تلك حفاوة قريب بقريب . وأظن المجتفين بنا هنا قد كانوا مسلمين منذ قرون !

فصاح التلميذ : كأنما فوجيء بكلام لم يخطر له على بال :

تظن يا مولاي ؟ لقد حسبت أن عندك من خبر المسلمين هنا ما ليس عندنا ، واننا نسمع من تاريخهم لديك فوق ما سمعنا !
قال : وما سمعتم ؟

قال : سمعنا حديثاً يشبه الأحاجي والأساطير . . سمعنا أنهم دخلوا الصين قبل زمان مولاي بعهد طويل ، وان قتيبة بن مسلم الباهلي قد غزا أطرافها في عهد بني أمية ، فكتب إليه ملك الصين أن ابعث الى رجلاً شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح ، وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي فقال لهم : اذا دخلتم عليه فأعلموه أنني قد حلفت أنني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم . .

فقال لهم ملك الصين : قولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة أصحابه ، والا بعثت اليكم من يهلككم . قالوا كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا أجالا اذا حضرت فأكرمها القتل . . لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف أميرنا ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية . .

قال ملك الصين : فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث اليه بعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها .

ثم أجازهم وبعث بما ذكر الى قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ، وأنشد شاعر في ذلك :

للصين أن سلكوا طريق المنهج
حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج
فأتاك من حنث اليمين بمخرج

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم
كسروا الجفون على القذى خوف الردى
أدى رسالتك التي استدعيته

فأصغى أبو العلاء ثم قال :

ولا كل هذا سمعنا ! فلا تعجب أن يكون المحدثون أعلم بالزمن القديم من
الأقدمين ..

زعيم الصين

جلس الشيخ في فرضة الصين الكبرى « شنغهاي » الى جانبه تلميذه يترجم له الخطاب الذي ألقاه زعيم الصين الكبير شيانج كاي شيك عن السيد المسيح صلوات الله عليه .

وكان الشيخ - وهو من المعنيين بأمر الاديان والمشغولين بعقائد ذوي الآراء - قد سمع أن الزعيم الصيني تحول عن عقيدة آبائه واجداده مع حرص أهل الصين على تراث الآباء والأجداد ، وأثر المسيحية كما أثرها من قبله استاذ وأستاذ الصين الحديثة « سون ياتسين » فعجب لهذا التحول واشتاق أن يعرف أسبابه وبواعثه من السياسة أو من خطرات الضائير وبدوات النفوس . فلما أنبأه تلميذه أن الزعيم يتكلم عن السيد المسيح أصغى اليه وقال : اسمعني ما يقول !

وانطلق التلميذ يترجم ما عدده الزعيم من أسباب حبه المسيح وإثاره عقائد النصرانية وهي : أن المسيح كان قائد ثورة وطنية نهض بأمتة فاحياها بعد أن أماتها طمع الرومان وعسف الطغاة من الأمراء والكهنة ، وأن المسيح كان قائداً لثورة الاصلاح الاجتماعية كما كان قائداً لدعوة النهضة السياسية ، فأنحى على الفساد والمفسدين وبشر بالطهارة من الرجس والرجاء في الخير والاستقامة . . وأن المسيح كان مع دعوته القومية والاجتماعية داعياً الى الثورة الدينية متمرداً على الشعائر البالية والخرافات الموروثة والرياء الشائع بين أئمة الدين وإحباريه ، وأنه قد استطاع ما استطاعه وهو رجل فقير من بيت فقير في بلد فقير ، فلم يكن وارث ألقاب وأموال ، ولم يكن سليل أحبار وأقطاب ، ولا كان له مظهر من مظاهر الدراسة الخاوية ولا التعليم الموقر بالنفايات والقشور . بل كان صاحب قلب

كبير يستوحى العناية الربانية ويستلهم الفطرة السليمة ، ويروي عن صفحات الكون ولا يروي ما حشيت به الاوراق وامتلأت به قماطر الهياكل . .
قال المعري : أرأيت ؟
قال التلميذ : ماذا أيها الحكيم !

قال ان الرجل قد دان بالمسيحية لأنه قد آخى بين حياته وحياة المسيح . واعتد نفسه مسيحاً جديداً قام من سلالة الفقراء ومن لا يحسبون بين العلماء واختاره الله لاحياء الصين بما ابتعثه فيها من ثورة قومية على الطغاة والمغيرين ومن ثورة اجتماعية فيما سماه « الحياة الجديدة » وأوصى فيه بالتطهر والاستقامة والفداء ، ومن ثورة دينية فيما أنكره على الكهان والشيوخ ، فهو قد آمن بالمسيح لأنه يؤمن بنفسه ، وهو قد ابغض الرومان لأنه يبغض « المانشو » واليابان وزمرة المتجربين بالأديان .

قال التلميذ : أو تأذن أيها الحكيم باضافة قليلة .
قال المعري : أو كثيرة ؟
قال التلميذ : لعله آمن بالمسيح لأنه آمن بنفسه وآمن معها بزوجه .
فسأله المعري : وماذا تعني !

قال اعني ان « شيانج كاي شيك » يتيم تكفلت به أمه وانفقت عليه من سم الخياط ومن فضل الطوى والقناعة ، رجت فيه الخير يوم يشس منه الأقربون ونفضوا الأيدي من حاضره ومؤتف امره . . وما زال يستمددا العون حتى بعد أن كبر وتولى القيادة وباء بالهزيمة وفر الى اليابان وهو لا يملك قوت أيام . فللمرأة شأن أي شأن في قلبه وعقله ، وخليق بمن كان كذلك تم رزق الزوجة الصالحة الرشيدة أن يركن اليها ويطمئن الى عطفها وخلوص طويتها ، ومحسب الصلاح في صلاحها ، والدين في دينها والايمان في ايمانها ، فاذا كانت مسيحية فما أقربه مع الأيام أن يتسلل الى الايمان بالمسيحية واذا كانت من أسرة قديرة على المذهب المسيحي فما أولاه أن يعيش في كنف الأسرة وان يشعر بشعورها ! ولقد كانت لأستاذه « سون ياتسين » زوجة مسيحية فحسن على يديها ايمانه بدينها . . وما كانت زوجة الأستاذ العظيم الا شقيقة زوجة المريد العظيم . فما أعجب هذه الأسرة التي أنجبت بنتين يدين بدينهما زعيان من زعماء الصين كبران ، ورجلان من رجال العالم خطيران ، عدا من انجبت من أبناء وبنات كلهم علم من أعلام هذا الجيل في هذه البلاد ؟

قال المعري : لا عجب إذن أن يؤمن الرجل بالعقيدة التي توافق إيمانه بنفسه وإيمانه
بزوجه وإيمانه باستاذة ، وإيمانه برجاء بلاده .

فعاد التلميذ يسأل : وما رأي الحكيم في رجاء بلاده ؟

قال المعري : ان نقصت مساحات أرضها فقد تزيد قوة نفوسها ، وان تقاربت مسافاتهما
واطرافها فقد تتقارب علاقات سكانها وأواصر ابنائها ، وان غلبوها بالسلاح فقد تغلبهم
بالكثرة ، وان طال الزمن على رجائها فما هو بأطول من ازمانها في القنوط والجمود . . هي
ناجحة فيما أرجوه ويرجوه لها المنصفون . .

قال التلميذ : تلك بشرى يفرح بها القوم اذا سمعوها فهل من وصاة اوصيهم بها ، وهل
من آفة احذرهم عواقبها ؟

قال المعري : آفة القوم انهم بين الحضر والبادية ، فلا هم جادون في الحضارة ولا هم
جادون في البداوة . فليجدوها في احدهما فذلك خير من حيرة المنبت لا أرضاً قطع ولا
ظهراً ابقى .

قال التلميذ : لكأنك يا مولاي قد عشت في الصين منذ عشت في الدنيا . . لو رأيت
بناءهم لرأيت قصوراً في أشكال خيام . وذلك شأن كل « بناء » في الصين .

زهدان

شتان زهد الهند وزهد نجد .

ذاك زهد السامة من الوفر والاغراق والابتذال ، وهذا زهد الأنفة في وجه الضنك والضرورة .

زهـد الهند زهد الذي اكتظمن صنوف المائدة حتى عافها واعرض عنها . .
وزهد نجد زهد الذي لم ير المائدة وانف من مذلة الحاجة اليها . .

كان هذا حديث المعري لتلميذه وقد وصلا الى جدة وقفلا من مدن الحجاز ، بعد طواف طويل في الصين والهند وفارس والعراق .

وكان التلميذ يسأل استاذہ عن شظف النجديين من أتباع عبد الوهاب ، اذ يحرمون على انفسهم كل ما يعز عليهم وجوده في الصحراء النجدية . وهو ينتظر رأي المعري في هذا الشظف ، وقد علم أنه أخذ نفسه بمثله ايام الحياة .

فلما قال المعري ان القوم في الصحراء يزهدون زهد الأنفة في وجه الضرورة فهم أن حكيم المعرة يستكبر أن يساويه في زهده مئآت وألوف ، وأحب أن يحسب القوم مضطرين غير مخيرين ، او مسوقين غير سائقين ، فرجع اليه سائلا :

أفترى كل محتاج زاهداً فيما يحتاج اليه ، أنفاً من الاقرار بالحاجة والحرمان ؟ . .

قال الشيخ : كلا . . انما تفعل ذلك الأمم التي لها عزة وليست لها وفرة . فهي اذن تفرض على نفسها القناعة وتنفض عنها شعور المذلة ، ولو ضعفت ولانت لجمعت على نفسها حرمان الفقر وحرمان الذل والاستكانة ، فترى أنها محرومة وأنها دون من يستمتعون بالخير والبذخ والرفاهة ، ولا ترى كما يرى هؤلاء النجديون انهم محرومون وأنهم مع ذلك خير من المستمتعين . .

قال التلميذ : لا غرو . انني لأسمع المعري الهندي !

قال الشيخ : ويحك . هل عدنا الى قديم هذه الدعوى ؟ فمن ذاك المعري الذي ولد في الهند أو الهندي الذي ولد في المعرة ؟
قال التلميذ : هو الذي قال :

فالقني نسمع أنباء الأمور الصالحات
ولا تبع قوتاً من عريض الذبائح
لأطفالها دون الغواني الصرائح
بما وضعت فالظلم شر القبائح
كواسب من أزهار نبت فوائح
ولا جمعه للنسدى والمنائح
أبست لشأنني قبل شيب المسائح
علمت ولكني بها غير بائع
بما خبرتكم صافيات القرائح
أجبتهم على ما خيلت كل صائح
تكشفتهم عن مخزيات الفضائح
ولا تلزموا الأميال سبر الجرائح
سوى أكلهم كد النفوس الشحائح
سعاة حلال بين غاد ورائح
ولكن مشى في الأرض مشية شائح

غدوت مريض العقل والدين
فلاتأكلن ما اخرج الماء ظالماً
ولا بيض أمات أرادت صريحه
ولا تفجعن الطير وهي غوافل
ودع ضرب النحل الذي بكرت له
فما أحرزته كي يكون لغيرها
مسحت يدي عن كل هذا فليتنى
بني زمني هل تعلمون سرائراً
سريتكم على غي فهل اهتديتم
وصاح بكم داعي الضلال فما لكم
متى ما كشفتم عن حقائق دينكم
فان ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم
ويعجبني دأب الذين تراهبوا
وأطيب منهم مطعماً في حياته
فما حبس النفس المسيح تعبداً

أليس في بعض هذا ما ينسب الرجل الى أمة الهند ودين البرهمنين ؟ ألسنت يا سيدي قد رضيت أن تهلك ولا يهلك فروج من بنات انطير لتداوى بالسليق من لحمه ومائه ، وقلت

لهم : استضعفتموه فتداوitem به ، ولو كان شبل أسدا وصفتموه . .

فجرى السخط في مجراه من قلب الشيخ العظيم . . ومن مجراه في قلبه أن ينقلب هزواً
كلما اوشك أن ينفجر غضباً . وقال : لو صح هذا لما بقيت أمة في الأرض الا نسبت
اليها . . ما لكم لا تصدقون انها الفاقة وانها الرحمة ؟ أبلغ من سوء ظنكم بأنفسكم ألا
تفرطوا في أكلة الا خوفاً من غضب معبود ؟ وماذا يضيرني من برهما ان غضب وما هو
بصاحب نار ولا بصاحب نعيم ؟ وما لي ولدين أناس يؤمنون بقدااسة بعض الحيوان
ونجاسة بعض الانسان ؟ ذلك لا يلمسونه من هية ووقاية وهذا لا يلمسونه من كبر
وزراية ! ويحك ! أينسب الى الهند من يحقن الدماء ؟ فما قولكم في الحسام وهو من الهند في
المعادن والأسماء ؟
ثم ماذا تقولون فيما قلت :

وجدت الشر ينفع كل حين	ومن نفع به حمل الحسام
وليس الخير في وسع الليالي	فكيف نسومها ما لا يسام؟

انني اذن لمن اتباع صاحبكم نيتشه ؟ او من أتباع أصحابه الفاشيين ؟ ومالك لا تحسب
على انكاري لزعم الهند حين أنقض ما يقولون :

يقولون ان الجسم ينقل روحه	الى غيره حتى يهذبا النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة	اذا لم يؤيد ما اتوك به العقل

وأشفق التلميذ أن تكون غصبة فسكون . . وقد علم أن صاحبه أصعب ما يكون مراساً
اذا سكن بعد غصبة . فيومئذ لا كلام ولا حوار ولا جواب غير الوجوم والازدراء ، ولكنه
اذا انتقل من ثورة الى ثورة أو تدرج من سخرية الى فكاهة . . ففي استطالة الحديث معه
رجاء . .

قال التلميذ : أمن النسبة الى الهند ينفر مولاي كل هذه النفرة ؟ فمن قال انه من الفرس
كيف يجاب ؟ ومن زعم أنه من المجوس ماذا يسمع من زجر وعقاب ؟ . .
قال المعري : يقال له صدقت وبررت ، وانه مع ذلك لعلى دينهم لأنه يعجب منهم اذ

يقول :

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر
فمن الثقة أن ينكر الانسان ما به يدين . وأن يكون نكرانه علامة اليقين . . أليس
كذلك ؟

وتلطف التلميذ اللبق في نقل الحديث الى فارس والفرس وما كان فيه وما يكون ، وتذاكر
ما مر بهما ومرا به في تلك البلاد ، فسرى عن الشيخ بعض ما اعتراه من غضب وامتناع
لنسبته الى البراهمة والمجوس . وضحك الشيخ وتلميذه كثيراً حين ذكرا ذلك الكرسي
الذي كان يجلس عليه بعض الشاهات - عند قضاء الحاجة - فيعزف بالنشيد الملكي تحية
للجالس عليه !! وقال الشيخ : حسنا صنع عاهل الفرس الجديد أعانه الله على ما تصدى
له من خير وتهذيب . . انه أراح أمته من هذه المراسم وهذه التفخيمات التي أفسدت عليهم
ما أفسدت ، ونسوا كل شيء ليذكروها وحدها حتى حين ينسى الانسان كل تفخيم
وتبجيل . . ان المراسم آفة هذه الأمة الطيبة الرضية ، فلا أدب لهم ولا علم ولا دين ولا
شريعة الا وفيها آية المراسم ظاهرة ، وتحية المراسم ناطقة ، وديوان المراسم معقود
ومشهود . ولئن خلصوا منها لقد خلصوا من قيود تحبس الرؤوس قبل الأعضاء
والأقدام . .

فسأل التلميذ : وماذا بقي منها فيستحب لهم الخلاص منه ؟

قال المعري انهم يقتلون بالأمم الكبرى في أزيائها وشعائرها ، وان أخوف ما نخاف
عليهم أن يحسبوا القوة والمنعة في هذه الأزياء وفي هذه الشعائر ، فيتقيدوا بها من جديد
ويخلصوا من تقليد الى تقليد ، ولئن هداهم عاهلهم السيد في مسعاهم المجيد ، لقد بلغ
بهم ما لم يبلغه الأكاسرة ولا الهرازة الأولون . .

في مصر

على مقربة من سيناء قال حكيم العربية لتلميذه كأنما هو الذي يقوده : هذه هي البادية ! .

قال التلميذ : أو قد عرفتها ؟ قال : كيف لا أعرفها . . وان الشمس لتتغير وما غير الله البادية منذ خلقها ، ولا يغيرها حتى يطويها مع الأرض أو السماء ! . .

قال التلميذ : فعلى اليمين بيت المقدس وعلى الشمال أرض مصر ، فأيهما يؤثر الاستاذ بالزيارة ؟ . .

وكان شيخنا قد سمع شيئاً عن متاعب فلسطين والشرق العربي ، وسمع شيئاً عن عجائب مصر .

فأنشد :

لأنه بالحرار الخمس محتجز	أما الحجاز فما يُرجى المقام به
يَشُبُّ القوم شُدَّت منهم الحجز	والشام فيه وقود الحرب مشتعل
وعارض بلقاء الشر يرتجز	وبالعراق وميض يستهل دماً

ثم قال : لا أدخل أرضاً يجلى عنها العرب ، فلندخل مصر آمنين

قال التلميذ : ان أبيت أن تدخل أرضاً يجلى العرب عنها فهلا بعثت اليهم بتحية أو نصيحة !

قال الشيخ : النصيحة لهم أن يصابولوا بالقوة والمال من يغلبونهم بالقوة والمال . . فهم هم الظافرون ، قصر الزمان أو طال . .

وسأله التلميذ : ومن أين لهم بقوة ومال ؟

قال : من العزم والاباء . . من أبى ما هو فيه استمد العزم من إياته ، وجاءته القوة والثروة الى موطن قدميه .

قال التلميذ : وهبهم بلغوا منها جهد الطاقة أفيلغون منها يا مولاي مبلغ الدول الكبار ؟ . .

فأجابه الشيخ : بل يبلغون منها ما يتعب الدول الكبار ، وحسبهم أن يتعبوها فيستريحوا ، أو يرجعوا الى حال خير من قبول الضياع والفناء .

ودخلا مصر فقضيا أياماً بين ترحيب وتسليم ، وبين ربوع وآثار ، وسأل الشيخ بلسان أبي الطيب الذي كان يتعصب له ويستعيد شواهدة :

أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟
ثم أنشد :

تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع
ثم قال : أشهد وأنا بينهما أنها لم يفنيا ولم يتبعا . . فما أعظم يقين أبي الطيب بفعل الزمن ودولة الفناء . .

قال التلميذ : ما هو بأعظم يقيناً بالزمن وفعله والفناء ودولته من القائل :

زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حدثان الدهر مطفئ وان علت في اتقاد !

فرد عليه الشيخ خاشعاً وهو يجمع بين شفتيه : نعم . وتهون الأعمار عند ذاك ويهون الخلود . .

واسترسل التلميذ في نغمته الأولى فقال : هذا لحد أبي أن يصير لحداً مراراً ، وأبى أن يضحك من تراحم الأضداد .

قال الشيخ وهو في جمجمته الأولى : لقد دخله الأحياء فأبى أن يكون لحداً مرة بله
المرات ، وضحك من صاحبه الأول قبل أن يضحك من أضداده . . واني والله لأسأل
عن هذا الطود المشيد كما سألت عن الورقاء :

أبسكت تلسم الحمامة أم غثت على فرع غصنها المياد
فما أدري هنا أهو عنوان غلبة الموت أم عنوان غلبة الحياة . . انما هو على الحالين عنوان
شقاء الانسان ، وعبث الطغيان .

وعاود الشيخ وجومه على أشد ما يكون بين أطلال الفراعنة ومروج وادي النيل ، وانه
ليروض نفسه على اقامة أيام اذ حانت له الطرفة التي سماها أعجب العجائب في بلاد
العجائب ، فانتهى الهجرة من قريب .

كان ذلك في ناحية من الصحراء وقد تردد عليه رجل من كتاب الصحف فسأل الشيخ
تلميذه : ماذا عساه يريد ؟

قال التلميذ : انه يعتذر . .

قال : ومم الاعتذار ؟ . .

قال : ان الرجل لكاتب المقال الذي أطلعتك عليه تفكهة وعبرة يوم وصلنا الى هذه
الديار .

قال : تعني الرجل الذي نعى على حكومة هذا البلد انها احتفلت بمن سماه امام الملحدبن
وشيوخ الكافرين ، وانها من أجل ذلك خلقة باغضاب المسلمين والمروق من حظيرة
الدين .

قال التلميذ : هو بعينه .

فعجب الشيخ وسأل : وما اعتذاره اليوم ؟

قال : اعتذاره أنه سيلقي عليك المقال الذي أعده للانحاء على الحكومة لو انها قصرت في
لقائك ، وأحجمت عن استقبالك . فهم خصوم الحكومة ينعون عليها كل ما تفعل
ويقدحون في كل ما تنوي ، فان هي أكرمت وفادتك قالوا ما قد علمت . . وان هي

قصرت في حقاوتها فهم قائلون ما ستسمعه الان . .

قال المعري : أحسبهم كانوا قائلين يومئذ ان هذه الحكومة تنكرت للعرب وآداب العرب ، وقطعت ما بينها وبين لغة القرآن من سبب ، وباعت نفسها للفرنجة ، وحادت عن سواء المحجة ، وغير ذلك مما ينتظم في هذا النظام ! . .

قال التلميذ : أحسنت يا مولاي . . انك اليوم لفي طليعة المرشحين للكتابة في الصحف السيارة ، وعلى رأس المتقدمين للخوض في غمار السياسة المصرية . . هكذا كتبوا ، وعلى هذا دأبوا ، ولهذا اقبلوا يعتذرون وفي هذه اللجاجة تنقضي عليهم الأيام والسنون .

فردد المعري قوله القديم :

ما خص مصرأً وبأً وحدها بل كائن في كل أرض وبأً . .

لكن هذا هو الطاعون الذي يحمد عنده كل وباء .

الى المعرة يا بني فقد ختمنا المطاف ، وشبعنا من المصيفين والأضياف .

وكان « كاتب هذه الأسطر » في محضر الفيلسوف فقال : ان أسوان تدعوك أن تجعل الأوبة من طريق الجنوب ، وان طالمت المسالك واختلفت الدروب . .

فدارت على لسان الفيلسوف نوبة الاستشهاد بكلامه القديم ، وأجابه بيت من لزومياته يذكر فيه أسوان اذ يقول :

أسوان أنت لأن الركب نيتهم أسوان . . أي عذاب دون عذاب؟!

لقد زرتك فيها قبل اليوم يا بني ، فاحتسب دعوة اليوم في تلك الزيارات ، وخلصنا في عالم الفكر من هذه المجاملات والمصانعات . أما دعوتي فيها وأنت يافع تحسب أنك تكره الحياة لأنك مملوء اليدين بالحياة ؟ أما دعوتي فيها وأنت فتى ثور وتحسب انني معك حين ثور ؟ أما دعوتي فيها وأنت كهل تصالح الدنيا لأنك أنفت من مخاصمة الدنيا ؟ أما دعوتي فيها وأنت تزعم انك تناقضني بانكار الأحزان وما أنكرتها الا ترفعاً عن الشعور بالحرمان ؟ انك دعوتي كثيراً وانني أجبتك كثيراً ، وانني لألقاك حيث أنت خير لقاء ، وانك لتلقاني وتسمعني حين تشاء .

نشيد وداع ..

بُناةٌ ضريحى طال بالصخر إبطاءُ
وهل لان أو يأبى على اللين نخوة ؟
عرفت انتظار الموت . أما منية
« متى يتقضى الوقت والله قادر »
أراني لديكم كالمعريّ معرضاً
أقمتم لذكراي المآذب فاستوى
وما نضجت تلك الثمار فما لكم
ذروني فلي فيكم كتاب وسيرة
إذا حان يومي بينكم فهي عندكم ،
وهذا وداعى لازم غير لازم^(٥)
لعلي أراكم بعد ألف وبينكم

فهل وطأوه أو تعداه إبطاءُ ؟
وهل رُقّطوه أو سرت فيه رقطاع ؟
وطول انتظار ، فهو للقصد اخطاء
فتغطيني الدنيا ويحمد اعطاء^(١)
لمن شاء والركبان حولي خبطاء^(٢)
بمأدبة النسيان منع واعطاء
دعوتهم ولم تخرج من الزرع أشطاء^(٣)
جديدٌ صباها وهي في الدهر شمطاء
وعندي لكم شكر لراعيه طأطاء^(٤)
إذا غاب بعض الشعر عي وإيطاء^(٦)
ألوف لهم ذكرى من الحمد عيطاء^(٧)

عن المعري
عباس محمود العقاد

-
- (١) اعطاء : بمعنى غطاء .
(٢) الغرس الخبطاء : التي تضرب الأرض برجلها وهو من علامات المرح أو القلق .
(٣) اخرج الزرع شطاء : أي ظهر فيه الورق والفروع .
(٤) أي موطأ متضام .
(٥) من لزوم ما لا يلزم .
(٦) تكرار القافية
(٧) طويلة الحيد

فهرس الكتاب ابن الرومي

الموضوع	الصفحة
تمهيد	١١
الفصل الاول	
اخبار ابن الرومي العصر والرجل	٤٩
الفصل الثالث :	
حياة ابن الرومي كما تؤخذ من	٦٧
معارضة اخباره على شعره	
الفصل الرابع	
عبقريه ابن الرومي	٢٠٥
الفصل الخامس	
فلسفة ابن الرومي	٢٣٥
الفصل السادس	
صناعة ابن الرومي	٢٣٩
خاتمة	٢٥٥

فهرس كتاب رجعة ابي العلاء

الموضوع	الصفحة
علامات الخلود.....	٣١١
تمهيد.....	٣١٧
وفد.....	٣١٩
صاحب الجلالة المعري.....	٣٢٥
عالم السريرة.....	٣٣١
ابو العلاء هو ابو العلاء.....	٣٣٧
بساط الريح.....	٣٤٣
حكم السيف.....	٣٤٧
المستشرقون.....	٣٥١
مع المشيعين.....	٣٥٥
في بلاد الشمال.....	٣٦١
جر الذبول.....	٣٦٥
المرأة.....	٣٦٩
الحكيان.....	٣٧٤
حكم وحكمة.....	٣٧٩
خليفة دانتي.....	٣٨٣
لعب العبقرية.....	٣٨٧
الاختراع.....	٣٩٣
أقصى المغرب.....	٣٩٧
أقصى المشرق.....	٤٠٢
زعيم الصين.....	٤٠٧
زهدان.....	٤١٠
في مصر.....	٤١٤
نشيد وداع.....	٤١٨

[illegible]

The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL - ĀĀKAD

Volume XV

DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI